

جل لكل
الغزاة

أَسَّسَهَا:
مُحَمَّدٌ عِزُّي وَوَلَدَتُهُ
سنة ١٩٦٧م

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

رجل لكل الفرقة

رواية

بقلم:


د. عماد زكي

دار القلم
دمشق



هذا العمل ..

رواية تاريخية
تحكي قصة بطل عظيم
وصلتنا عنه بعض مواقف وأخبار
فاجتهد الكاتب في إعادة ترتيبها
مستعيناً بما أسعفه الخيال
من صور وأحداث
تتفق مع طبيعة الشخصية
ووقائع التاريخ
وتعيد بناء الصورة
لتكون أقرب ما يمكن
من الحياة الحقيقية
لرجلٍ فريد.



كلمات خارج النص

في بحر متلاطم من الأحداث
التي شكلت مستقبلنا على أعتاب قرن مضى
ظهر رجل يقاوم إرادة القوى الغاشمة
التي كانت تحاول أن تغير وجه الأمة
وتعبث بحاضرها ومستقبلها..

ورغم قلة المعلومات التي وصلتنا عنه
إلا أن الوقائع تثبت أنه كان حاضراً على مسرح التحولات
قد يقول البعض أن ثورته كانت يومها صرخة في واد.
ولكن.. كيف؟ وصداها ما زال يتردد حتى الآن..

فكان اسمه عنواناً لأمة لن تموت..

وكانت ثورته التي ألهبت روح المقاومة والتحدي
علامة حياة لأمة عريقة
تأبى إلا أن تنبثق من تحت الرماد
لتصنع غدها الذي تريد.



كانوا يغذون السير بحذر.. يقطعون الجبال والوديان، وأصابعهم متحفزة على الزناد.. عيونهم تحاول أن تخترق الظلام تحسباً للمفاجآت.. تطاردهم أشباح تلك الوجوه الكالحة، التي تريد رؤوسهم بأي ثمن. كانت رائحة الغابات تتسلل إلى أرواحهم فتعششها، وعبق الأشجار المفعمة بالخضرة والenfوان يشحن أرواحهم بالعزيمة، ويشحذ خطاهم المتعبة، ويحول الخطر إلى متعة..

وزادهم الحرص إحساساً بتفاصيل المكان..

- «انتبهوا يا شباب.. الانحدار هنا شديد»-

- «بسم الله..»-

انزلقوا برفق، استعانوا بأغصان الشوك وتواءات الصخور، حتى وصلوا إلى السفوح، وغاصوا في الوادي الأخضر، الذي يلفه ظلام باهت، بددت بعض حللته خيوط واهنة من النور، بدأ القمر يرسلها من خلال الأغصان الكثيفة، لتضيء لهم معالم الطريق.

كانت الذئاب تعوي، فتعكر صفو الليل، لكن الذئاب البشرية التي كانت تطاردهم كانت أشد لؤماً وخطراً.

واستبد بهم التعب إلى درجة الإنهاك، لكن التوقف بالنسبة إليهم كان يعني الانتحار. عليهم أن يغادروا دائرة الخطر قبل أن تصل إليهم عيون الجواسيس، أو تكتشفهم دوريات الفرسان التي قد تفاجئهم في أي نقطة.

لم تكن هذه الحياة غريبة عليهم، فقد خبروها وألفوها منذ أن امتشقوا السلاح في وجه فرنسا.. حكمتهم المقدسة «ليس المهم أن تعيش، المهم أن تعيش حراً».. حكمة اعتنقوها بعد أن تركوا الحياة الهادئة الرغيدة للجبناء

والأفندية، الذين آثروا السلامة، وفضلوا الحياة تحت الانتداب المذلّ على الحرية، فباعوا وطنهم للغزاة من أجل مصالحهم الصغيرة!.
- أتذكرون هذا المكان؟..

هبطت الذكرى عليهم في جلال، وراح الرجال يتأملون ما حولهم بخشوع، يسترجعون ذكرى تلك المعركة التي امتزج فيها النصر بلوعة الفراق، وانتابتهم مشاعر تراوح بين الرهبة والفخر.. هنا خاضوا إحدى معاركهم ضد الغزاة، ولقنوهم درساً.
- رحمة الله عليك يا فارس. كنت بطلاً..

- هنا تحت هذه الشجرة استشهد، وهو ثابت كالصقر، وإصبعه مشدودة على الزناد..

- كان ماهراً وسريعاً في حشو الفشك.
- ظل يحمي انسحابنا حتى اخترقته رصاصة في الرأس، فمحتته الشهادة التي كان يرجوها..
- الفاتحة يا شباب..

غاب الرجال في جو من الضراعة، وهم يتلون السبع المثاني، ليضيئوا بها صدورهم، ويستمطروا الرحمات على شهيدهم، الذي سبقهم إلى جنّات الخلد، وأضاف الهدوء الذي يلف المكان إلى صمتهم جلالاً، ميز تلك اللحظات المضممة بالوفاء.

وقفزت إلى الذاكرة صور وأحداث.. كم خاضوا من معارك؟.. وكم ركبوا من مخاطر؟.. وكم خلفوا من شهداء؟.. وهم يواجهون عدواً عاتياً، مدججاً بألة الحرب، لكنه مجرد من اليقين، مع ذلك غلبت الكثرة الشجاعة، واستطاعت فرنسا أن تكسر ثورتهم، وكادت أن تقضي عليهم، لولا حكمة قائدهم..

- الفرنسيون يحكمون الحصار حولنا يا شيخ عز الدين.
- هلك الرجال، وكادت الذخيرة أن تنفذ يا شيخ عز الدين.
- ماذا نفعل يا شيخ عز الدين؟
- مواجهة الأسئلة الصعبة، أشد عليه من مواجهة عدو يكاد يصل إلى رأسه، لكن التريث في الجواب مطلوب، حتى لا يسبق القرار الأخير حكمة التدبير.. ووقف القسام يومها فوق الصخور التي يعتصم بها كنسر حزين، وأرسل نظراته من تلك الذرى نحو الساحل الأسير.
- كانت الأسئلة التي يرميه بها رجاله مشروعة، لكن الجواب عليها كان بالنسبة إليه حراماً..
- «هل انتهت الثورة حقاً ياشيخ عز الدين؟».
- داهمه السؤال فجأة، وقرص شغافه، كان يحلم بزلزلة الأرض تحت أقدام الفرنسيين، وخطط لثورة شاملة، تقتلع هؤلاء الطامعين، وترميهم في البحر الذي تسللوا منه، لكن إرادة الله غالبية.. لم تستطع الثورة التي أعلنتها ضد الغزاة أن تنجز ما وعدت، صحيح أنه ورجاله أبلوا ما وسعهم، لكن فرنسا الغاشمة حاصرته بعدتها وعديدها، وهاهي تحاصر دمشق وحب، وتفرض الانتداب على سوريا ولبنان.. فماذا ستفعل ثلة من الرجال وحزمة من البنادق في معركة لا أمل فيها؟..
- وكلما تذكر القسام أن انتفاضته ضد هذا الاحتلال بدأت تحتضر، شعر بوخزة في الأعماق، أشبه بسكين شويت على الجمر، ونفذت إلى قلب واهن، وعاد السؤال يقض مضجعه من جديد، لكن عرضاً نقله إليه أحدهم، وضعه وجهاً لوجه أمام الجواب!..
- وظن الرجل في القسام ضعفاً، فتجراً وألقى على مسامعه الرسالة التي كان متردداً في نقلها إلى الشيخ العنيد:

- «ثمة وعد بالأمان يا شيخ عز الدين!.. فيما لو..»
- رمقه الشيخ بطرف صارم، فاستدرك الرجل، وقال في ارتباك مبعثه ألا يظن القسام فيه تشجيعاً له على الاستسلام:
- يقولون.. أقصد الفرنسيين.. أرسلوا بعض أعوانهم لينقلوا إلينا كلاماً..
- كلام؟!
- كلام فحواه أنهم.. أنهم يعدونك بالعفو..
- رمقه القسام في شك.. تلغثم وخشي أن يكمل:
- أعني العفو إن أنت..
- واحتار الرجل كيف يختار الكلمات، دون أن يخدش مشاعر الشيخ، فنهض، وقال في حرج، وهو مطأطئ الرأس:
- والله لا أدري ماذا أقول!
- تكلم.
- أطرق، وقال متحاشياً نظرات القسام:
- يعدونك بالعفو إن أنت استسلمت، وأعلنت نهاية لهذا العصيان.
- نهض القسام في عصبية ظاهرة، وصرخ به:
- أو صدقتهم؟.
- تدخل الشيخ أحمد إدريس..
- اسمعه إلى الآخر يا شيخ عز الدين، لنعرف ما الخبر.
- تشجع الرجل، وأكمل:
- وشيء آخر..
- ماهو؟
- ثمة وعد لك بالعودة إلى جيلة أمنأ.

- إن استسلمت؟!..
- وتستلم فيها القضاء الشرعي أيضاً، وكأن شيئاً لم يكن.
هتف القسام بنبرة حاسمة..
- لا والله لا أفعل. خسئوا وخابت أمانيتهم.
ألقى بها القسام في وجه الرجل، وهدر، وهو يهز بندقيته بقبضة
واثقة:
- قل لهم القسام يرفض عرضكم، فالمجاهد لا يغمد سيفه ولا
يتراجع.. يفضل أن يلقي الله شهيداً، على أن يبتسم لعدوٍ دنس أرضه
وعرضه، حتى لو كان ثمن ذلك سلامة رأسه.
وحاول الشيخ أحمد إدريس أن يخفف عن القسام..
- كان من واجبه أن يخبرك، وكان من واجبك أن ترفض.
- هذه خدعة.
- ثم وهو يلتفت للرجل، وقد ساءه أن ينقل إليه مثل هذا العرض:
- أو تُصدّق لهؤلاء الغزاة وعداً؟..
- أنت على حق، ولكن..
- لكن ماذا؟.
- الدنيا ضاقت ياشيخ عز الدين، والفرنسيون يضيّقون الخناق
عليكم، وينكلون بالأهالي، فما العمل؟
- أطرق الشيخ عز الدين.. الرجل نكأ بكلماته نقطة ضعفه، فقد استل
سيف الجهاد للدفاع عن أهله، فإذا بمن أراد الدفاع عنهم رهينة، ينكل بها
الغاصبون، ليثنوه عن ثورته..
- وهمس بنبرة تميل للهدوء:
- هناك ألف حل سوى الاستسلام!.

تبادل الرجال نظرة، وتساءل الشيخ خالد:

- لكأنك تفكر في أمر!

وطلب الشيخ من الرسول أن يغادر، وأن ينقل إلى الفرنسيين جوابه

الأخير.

ولما ابتعد، كرر الشيخ خالد السؤال..

- كنت تريد أن تقول شيئاً؟..

- ثمة أمر يراودني منذ مدة.

- ماهو؟.

صمت الشيخ برهة، ثم قال:

- ننسحب من ميدان إلى ميدان.

- لكن دمك مهدور في البلاد كلها يا شيخ عز الدين!

- سوريا ليست كلها تحت سطوة الفرنسيين.

أدرك الرجال أن ثمة فكرة تختمر في ذهن القسام، وقد نضجت الآن.

وحاصرته العيون تستعجل التفسير. قال وهو يديق الأرض بكعب بندقيته،

التي لا تكاد تفارقه:

- استعدوا للرحيل.

- إلى أين؟

- إلى فلسطين.

- إلى فلسطين؟!.

قال الشيخ إدريس في إنكار:

- لكننا لا نعرف شيئاً في فلسطين!

- المهم أننا سنكون في مأمن من هؤلاء.

- وماذا عن الإنجليز؟

- لن يعبؤوا بنا ما لم نحدث ما يريهم.
قال الشيخ خالد، وهو يفكر بصوت مرتفع:
- عاجلاً أم آجلاً سيعرف الإنجليز من نحن، وسوف يعتبرونا خطراً عليهم.

ثم مستدركاً:

- اعدرني يا شيخ عز الدين، فأنا لا أثبط من عزيمتك، لكني لست متأكداً من أننا سنجد في فلسطين ما نقوم به!

- قد تكون محقاً، لكننا مأمورون بالعمل والإعداد، والنتائج بيد الرحمن، لنجدد النية، ونعقد العزم، ثم ندرس خطواتنا بتؤدة وهدوء.

هزّ الشيخ خالد رأسه في حيرة، بينما قال الشيخ أحمد إدريس:

- يعني سنخرج من تحت الدلف إلى تحت المزاب.. ما أدرانا أن

الإنجليز لن يعقلونا هناك!؟

- نحن مجاهدون في سبيل الله يا شيخ أحمد، ومعرضون لكل شيء، لكن ثمة فرصة، لن نفرط بأنفسنا بعد أن كاد هؤلاء يطبقون علينا.. سنذهب إلى فلسطين وعيوننا على سوريا كلها، هذا رأيي، ولن أجبر عليه أحداً..

وتقدم خطوات من حافة القمة الشاهقة، التي كان يقف عليها، ثم

استدار..

- من كان لديه حلّ آخر، فأنا مصغ إليه.

ران صمت، لم يلبث الشيخ عارف حنوف أن قطعه قائلاً:

- الخيرة فيما اختاره الله.. أنت أمير الجهاد، والرأي رأيك.

وأردف أكثر من صوت..

- على بركة الله..

كان القسام واثقاً بأن رجاله لن يخذلوه. قال، وقد شعر أنهم بموافقتهم هذه، قد شدّوا من أزره:

- على بركة الله.. لنعدّ للرحلة عدتها، ولنضع نصب أعيننا أن بلاد الإسلام كلها اليوم مهددة.. يتربص بها الفرنسيون والإنجليز والطيّان، وزاد عليهم اليوم اليهود في فلسطين، فبعد أن أعطى بلفور وزير خارجية الإنجليز وعداً لليهود بتسليمهم فلسطين، ليقيموا عليها وطناً لهم، أصبح جنوب سوريا مهدداً مرتين.. فلنلتحق بأخوتنا هناك، علنا ننجز في فلسطين ما فاتنا هنا، أو نعود لنكمل هنا ما بدأناه، فكلها ثغور للإسلام، علينا أن نفيدها، ونحميها..
وأردف قائلاً:

- إن كان لا بد من الموت، فلنمت كما ينبغي.. صحيح أنا نتوق للشهادة، لكننا لن نموت بلا ثمن.. نتوق للشهادة، نعم، ونتوق أيضاً لنرى بلاد العروبة والإسلام، وقد تحررت من كلّ الغزاة..

وصمت يتأمل وقع كلماته على وجوه الرجال، وما لبث أن تابع يقول:
- هذا ما عزمتم عليه بعد تفكير طويل. لعلّ الميدان في فلسطين يسمح لنا بالحركة أكثر، فالإنجليز أقلّ حمقاً من الفرنسيين، وإن كانوا أكثر خبثاً ودهاء، كما عرفتهم في مصر..

استبشر الرجال بمستقبل جديد، وشعروا أن جهادهم سيامتد ويثمر، وسرت فيهم حماسة كاد اليأس والحصار أن يقتلها، وبدؤوا يعدّون العدة للمسير.. إلى فلسطين.



- انتبهوا.. ثمة شبح قادم!

تهياً الرجال، وتمتروا خلف الأشجار. شدّوا أصابعهم على الزناد، وهم يحدّقون في الظلام، يتبينون هذا الشبح القادم، الذي اندفع فجأة من أعماق العتمة، ليجدوه على بعد خطوات منهم، وهتف به أحدهم:

- قف، ولا تتحرك.

تسمر الشبح، ولم ينبس، كأنه تحول إلى تمثال.

وداهمه صوت آخر أكثر صرامة.

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟.

تمتم الرجل بصوت مبجوح، يريد أن يفصح عن اسمه، فخانتته الكلمات!. وهبّ القسام الذي كان يراقبه من خلف شجرة قريبة لنجدته، عندما لمح فأسه وزوادته، وتأكّد أنه مجرد شخص عابر، لا يحمل سلاحاً أو يضمّر شراً، فخرج ليهديّ من روعه.. كان مجرد فلاح طيب بكرّ في الخروج إلى حقله، ليبدأ يوماً جديداً من العمل والكفاح، وتقدم الشيخ نحوه، وهو يشير إلى أصحابه، بتنحية السلاح..

- دعوه وشأنه، فماهو إلا منّا، ونحن منه.

بدا المشهد غريباً للرجل، لكنه ظلّ معتصماً بالصمت.. فمئذ لحظة كانت البنادق تهدد رأسه، والآن يحاول هذا الشيخ طمأنته، فمن يكون هؤلاء؟!

تقدم الشيخ القسام من الفلاح أكثر، قال، وهو يربت على كتفه برفق:

- اطمئن، فتحن أهلك وإخوانك، لكننا توهمنا خطراً، فأسأنا التصرف،

نرجو أن تسامحنا.

تأمل الفلاح الرجال في ذهول، وهم يحيطون به، أنزل زوادته المعلقة

بفأسه، ودفعها للشيخ..

- هذا كل مامعي.

استاء الشيخ القسام من الموقف.

- وهل تبدو لك من قطاع الطرق؟!

- فماذا تريدون؟..

- لا تخف.. لا نريد إلا الخير.. امض في طريقك إلى أرضك، فهي

في شوق إلى يديك.

- ولكن..

- انطلق راشداً. الله معك.

اطمأنّ الفلاح للرجال بعض الشيء، لكنه ظلّ متوجساً مما حدث، فتحرك

وهو يتلفت يمناً ويسرة، يحاول فكّ لغز هؤلاء، الذين لم يألف وجودهم في

طريقه من قبل، وفي خاطره كلمات لم يفهمها.. «ماهو إلا منّا، ونحن منه»!.

راوده للحظة أنهم نفرٌ من الجن، لما كان يسمعه من قصص وأخبار،

عن مرده ينتصبون فجأة في الظلام، ثم يختفون، أو لعله هُيئ له ذلك!.

وخطر له وهو يمعن في الهروب، أنه قد رأى الشيخ من قبل!.. فوجهه

بدا مألوفاً، ونبراته ليست بالغريبة، فمن تراه يكون؟!..

والتفت للوراء، علّه يرى وجهاً يستدل به على هؤلاء الذين لا يريدون

منه شيئاً، وعلى رئيسهم الذي عامله برفق، فلم يجدهم!.

اختفوا فجأة، كما ظهوروا فجأة!.. لعلهم اختفوا خلف الشجر والظلام،

أم تراهم جنٌ فعلاً، وقد عادوا إلى طبيعتهم؟!

شعر بالوحشة، وهو يراهم يغيبون بهذه السرعة.. خشي أن يظهروا له

من جديد، فحثّ الخطا يحاول أن يبتعد، لكن الذي غاب عنه، أن هؤلاء

الأشباح الذين ظهروا له للتوّ، غيروا طريقهم، وعادوا أدراجهم في طريق

مختلف لا يتوقعه أحد.



همس الشيخ علي عبيد:

- هل تظنّون أنه عرفنا؟

- الله أعلم.

- كان علينا أن ننبهه إلى حقيقتنا، حتى يطمئن.

علق القسام وهو يغذ السير:

- التنبيه يحمل التأكيد.. اتركوه لخواتره.

وتساءل الشيخ إدريس:

- هل كان من الضروري أن نغير الطريق؟

علق القسام..

- الحذر واجب.

- لكنه طيب كما يبدو، ولا خوف منه.

- الخوف أن يثرثر بما رآه أمام من تهمة المعلومة.

- أنت حذر أكثر مما ينبغي.

- إن لم نحذر اليوم، فمتى يكون الحذر؟

لم تصمد ملاحظة الشيخ إدريس لمنطق القسام، الذي كاد يحسم الحوار. لكن الشيخ إدريس رأى في تغيير اتجاه الطريق مبالغة لا تنبغي لمجموعة تطاردها فرنسا، بما أوتيت من قوة، وبثّت خلفها العيون في كل مكان، وقال في محاولة أخيرة:

- أقترح ياشيخ عز الدين أن نسرع في طريقنا كما نعرفه، ولا نضجّع

الوقت في طرق ملتوية، تؤخر وصولنا إلى هدفنا كما أردناه.

رد الشيخ القسام بهدوء، يحاول شرح خطته:

- الطريق يا شيخ إدريس كما نعرفه، يعرفه أيضاً الأعداء، وستجدهم قد تحركوا خلفنا، وقد يلحقوا بنا، أو يزرعوا الطريق بالعيون والدوريات التي تسعى لاصطيادنا.. الأفضل أن نتوجه عكس توقعاتهم.. وعندما نصل جسر الشغور، سنأخذ الطرق الجبلية الوعرة.. سنتحرك في الليل، ونأوي في النهار إلى أماكن تسمح لنا بالتخفي، وأخذَ قسط من الراحة، حتى نتقوى على المسير..

وأردف الشيخ القسام متوجهاً للجميع:

- إن كان هناك رأي آخر، فلتتحدثوا علي، وسنرى ماهو الأولى.. لم يكن لدى الشيخ إدريس مايقوله، لا سيما عندما رأى أن الجميع مع رأي القسام، فتمتم مستسلماً: «على بركة الله».

وتحركوا بصمت.. خواطرهم مسرבלه بالحزن، وقلوبهم معلقة هناك.. بحواكير التين والزيتون.. بالبيوت الحزينة التي تفتقدهم في ليالي القلق والرعب.. بالأهل والأولاد.. بدفء الحياة في وطن يمزقه اليوم الغزاة بحرابهم.. ويضعون مستقبله في فم المجهول.



الرحلة ما زالت في أولها، والرّجال ما زالوا تحت الخطر.. صحيح أنهم قد ابتعدوا تماماً عن قرية الحفة والجبال المحيطة حيث بدؤوا رحلتهم، لكنهم مازالوا ضمن دائرة التهديد الفرنسي المباشر.. كان عليهم أن يسيروا في الغابات بعيداً عن الدروب الرئيسية، ويتقنّوا في اختيار الطرق الصعبة والبعيدة، عكس التوقعات التي قد تخطر على بال المطاردين، فلا تصادفهم عيون المخبرين والجواسيس، ودوريات الفرنسيين التي تسعى وراء رؤوسهم بأي ثمن.

تساءل الشيخ حنوف، وهو يلهث:

- كم تتوقعون أن تستغرق رحلتنا؟
- هذا يتوقف على الطريق..
- لن نأمن على أنفسنا حتى نخرج من جسر الشفور.
- يجب أن نسرع في الوصول إلى فلسطين ما وسعنا ذلك، حتى نفوت على فرنسا فرصة اصطيدانا.

- من حسن الحظ أن الإنجليز والفرنسيين على غير وفاق.

قال ظافر القسام:

- الإنجليز أرحم من هؤلاء الأوغاد على كل حال.
- لوح الحاج خالد بيده مستكراً:
- سامحك الله يا شيخ ظافر.. الإنجليز أسوأ من الفرنسيين وأشد مكرّاً وخبثاً..

هز الشيخ ظافر رأسه موافقاً، لكنه قال يوضح وجهة نظره:

- ما أردت قوله أن الإنجليز لن يطاردونا كالفرنسيين..

وأيده في رأيه الشيخ عارف حنوف:

- أو على الأقل نكاية بهم..

عقب الشيخ أحمد إدريس:

- لن يكونوا سعداء بهذه العصابة، التي كانت يوماً شوكة في حلق الفرنسيين.. قد يرحبون بنا مؤقتاً، لكنهم سرعان ما سيضيقون بنا، ويحكيون لنا المكائد.

تدخل الشيخ عز الدين:

- كلهم غزاة يريدون أحرار هذه الأمة وعقيدتها.. يختلفون على أشياء كثيرة، ويتفقون علينا.. المهم الآن أننا سنجد أرضاً جديدة، نلتم فيها شملنا، ونلتقط أنفاسنا، ونخطط للمستقبل.

وتخلف الشيخ أحمد إدريس برفقة الشيخ خالد إلى مؤخرة المجموعة،

وهمس لصاحبه:

- دعني أصارحك.. لست مرتاحاً لفكرة فلسطين هذه!

- لديك حلّ آخر؟

- تتكلم كالشيخ عز الدين.

- المهم أن نفوّت على الفرنسيين فرصة الإيقاع بنا، وبعدها لكل

حادث حديث.

- يلحّ علي شعور بأننا مقدمون على مغامرة!.

والتفت إليهما الشيخ حنوف، وقد أصغى لطرف الحديث، فانتظر

خطوتين أو ثلاثة حتى انضمّا إليه:

- الفرنسيون يريدون رؤوسنا، ليخيفوا بها كل طامح إلى الجهاد

ضدهم، أما الإنجليز فليس لهم معنا ثأر واضح.

ابتسم الشيخ خالد:

- لو كان عليّ فأنا مقتنع، لكن الشيخ إدريس غير مطمئن.
- الشيخ إدريس على حق، لكن ما في اليد حيلة..
- ووصل الحوار إلى مسامع الشيخ القسام، فتوقف وقال:
- يا إخوان، التردد ليس من الحكمة في شيء، لقد عزمنا وتوكلنا على الله، ولا داعي لهذه البلبلة.
- وهتف الشيخ حنوف:
- اللهم ارم الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين.
- أمّن الشيخ خالد، بينما ابتسم الشيخ إدريس لدعوة الشيخ عارف، ولاذ بالصمت.
- وراحوا يحثّون الخطيئ، كل غارق في خواطره، يلوك الأسئلة، ويحاول أن يجد لها جواب.



كلما ابتعد الشيخ عز الدين عن قريته، كلما ازداد شعوراً بالاغتراب..
لكأن روحه في كل مرة تنسلّ رويداً رويداً، لتعود أدراجها إلى المكان الذي
ألفته، وولدت فيه. ألح عليه هذا الشعور وهو يمعن في الابتعاد، فشعر
بغصة مؤلمة.. واجتاحته موجة من الكآبة.. لكأنه غصن مكسور، قصفته يد
قاسية، وانتزعته من جذع الشجرة الأم، وألقته إلى مكان بعيد.
«تري هل ستعود إلى بلدتك الحبيبة يا عز الدين؟ أم أنه الفراق
الأخير؟»..

دمعت عيناه في هدأة الليل. لقد أحب بلده إلى حد العشق.. الرجال
يعشقون امرأة.. وهو يعشق قرية.. يعشق وطناً.. يعشق أمة.. إنه عشق من
نوع خاص.. عشق لا ينطفئ، ولا يزوي مع الأيام..
«إلى أين أنت ذاهب يا عز الدين؟»..

شعر بالضياع للحظة.. لكنه سرعان ما لملم نفسه، واستعاد توازنه..
إنه يعرف هدفه جيداً.. سيعيش مجاهداً.. وسيقضي مجاهداً.. إن لم يكن
في سوريا، ففي فلسطين.. في أي نقطة مهددة من أرض الإسلام.. إنه رجل
الثغور المهددة.. هذا خياره في هذه الحياة، وهذه عقيدته، منذ أن تفتح
وعيه في مصر على الأخطار التي تحدق بهذه الأمة.. منذ أن رأى الأقدام
الثقيلة للإنكليز، وهي تسحق شعب مصر في دنشواي.. منذ أن تردد في
الأزهر صدى الثورة على الغزاة القادمين من وراء البحار.. يريدون بهذه
الأمة التركيع والتقسيم والنهب والإذلال.. بعدما تراخت يد الرجل المريض
على قبضة السيف العثماني، الذي كان مشرعاً لحماية أرض الإسلام..
واستسلم القسام لخواطره..

«هذا قدرك يا عز الدين.. أن تحمل همّ أمتك، وتقاتل إلى آخر رمق.. لقد تحول كل بلد من بلاد العرب والمسلمين إلى فريسة للغزاة.. بالأمس جمعت الأموال والرجال من أجل إنقاذ ليبيا من الطليان.. ولولا تباطؤ الأتراك في مساعدتك وخذلانك، بعد أن وعدوك بنقل المجاهدين إلى ليبيا بيوأخرهم، لكنت الآن هناك تكافح جيوش الطليان التي غزت ليبيا.. لكن الله أرادك هنا لتضرم جذوة الجهاد ضد فرنسا، التي جاءت لتغتصب بلدك.. وها أنت تغادر الآن إلى ثغر آخر، لتواجه مكر الإنجليز، وطلائع الصهيونية اليهودية التي تخطط لافتراس فلسطين.. لهفي على هذه الأمة.. الغزاة يتكالبون عليها، والمسلمون نائمون لاهون.. هم كثير، ولكنهم كغشاء السيل»..

وأيقظه من خواطره صوت مالك القسام..

- اصغوا معي يا شباب.

كان الرجال قد وصلوا إلى حافة الغابة، قبل أن يقطعوا الطريق العام، وراحوا يرهفون السمع تحريماً، لما نبه إليه مالك..

وسأل القسام ابن أخيه، وهو يراه يشير بيده اليسرى للجمع بالتوقف،

ويده اليمنى مكورة خلف أذنه، تحاول الإصغاء لصوت ما..

- ماذا هناك؟

- أسمع ديبياً بعيداً..

- ديبياً؟

- أشبه بصوت سيارة..

- لا بدّ أنها دورية فرنسية.. لنختبئ بسرعة..

- هل سنقاومهم؟

صمت القسام للحظة..

- لا تتصرفوا حتى تروا إشارة مني.
- لاذ الجميع بجذوع الأشجار، وراحوا يرقبون الطريق، وأيديهم على الزناد. ومرت لحظات مشحونة بالقلق والتوتر، استتفرت عند الرجال غريزة المقاتل.. وراحت السيارة تقترب، فارتفع صوت هديرها، وما لبثت الأضواء أن أفصحت عن هويتها!
- همس الحاج خالد:
- هذه سيارة الآغا.
- سأل الشيخ خالد:
- ما الذي أتى به إلى هنا؟
- أجاب الشيخ القسام، وهو يكظم غيظه:
- لعله عائد من اللاذقية بعد أن أدى فروض الطاعة للقائد الفرنسي.
- علق ظافر القسام:
- أو لعله عائد من إحدى سهراته الماجنة هناك.
- زحف مالك القسام، حتى اقترب من عمه عز الدين:
- دعنا نصطاد رأسه.
- لا. فرؤوسنا أغلى من رأسه..
- إنه عميل للفرنساوي.
- المجاهد ليس بالأرعن، الذي يبذل رصاصه كلما رأى هدفاً..
- وتنفس الرجال الصعداء، وهم يرون السيارة تلفحهم بغبارها، وهي تنهب الأرض في طريقها.. وجعلت تبتعد، والشيخ القسام يتابعها بعينيه، وهو يغوص بذكرته في الأيام البعيدة.. «هذا الآغا المتغطرس يلحق أذى النساء في قصر المندوب السامي، ويدلي بأسرار شعبه على موائد الأعداء، وعندما يعود إلى قصره، ينفش ريشه كالتطاووس،

يتغطرس على الناس، ويضطهد البسطاء، ويرسل كلابه خلف الأحرار..
نفض الشيخ ظافر القسام التراب عن ملابسه، وقال وهو يلوح بقبضته
في الهواء:

- كانت فرصة لا تعوض..

وأردف الشيخ خالد، وهو يلقي بندقيته خلف ظهره:

- لا أدري كيف وفرت رأس الآغا يا شيخ عز الدين؟..

لاذ الشيخ القسام بالصمت، وغاص في خواطره من جديد.. وقفز إلى
رأسه حوار قديم.. ما زال يذكر كيف تقم عليه الآغا، لأنه رفض أن يزوره
بعد عودته من الأزهر قادماً من مصر.. إيه.. رحمك الله أيها الوالد، كم
كنت طيباً مسالماً..

- «يا ولدي..ها قد عدت غانماً سالماً، تحمل شهادة الأزهر، التي
تتبه بها على الدنيا كلها، والواجب يقضي أن تذهب إلى الآغا، وتسلم
عليه.. إنه سيد البلدة، وعلينا أن نراعيه..

- ومتى كان الوافد يسلم على المقيم؟

- لكنه الآغا يا ولدي..

- والله يا أبت.. لا أزوره حتى يأتي هو، ويسلم.. هذه هي الأصول

التي تربينا عليها.

- طاوطني يا بني..الآغا ينتظر زيارتك.. هكذا جرت العادة.

- اسمح لي يا ولدي..عندما نتملق هؤلاء، نساعدهم على طغيانهم..

الحق أحق أن يتبع.

- الحق يحتاج إلى حكمة..

- يحتاج إلى الحكمة والقوة معاً.

- نحن ضعفاء أمام الآغا يا عز الدين، والحكمة تقتضي أن نتحاشى شره.

- الأغا صار آغا، لأننا دائماً نتحاشى شره، ونسعى إلى رضاه.. لنجرب أن نقول له «لا» ولو لمرة واحدة..
- رفع والده ذراعيه في حيرة، وألقاهما في يأس، وقد أسقط في يده.
- الله يحميك يا ولدي.. لك ما تشاء.
- كدرته الذكرى.. كان لا يجب أن يكسر لوالده كلمة، لكنها تلك الحساسية المفرطة التي تعتريه إزاء كل ظالم.
- وانتزع الشيخ حنوف القسام من خواطره..
- فيم أنت سارح يا شيخ عز الدين؟
- في الدنيا..
- لكأن بينك وبينها خصام.
- هل تراني زاهداً فيها إلى هذا الحد؟
- أغلب الظن أنك طلقته ثلاثاً..
- ضحك الرجال وهم يغذون السير.. بينما قال القسام:
- لولا هؤلاء الغزاة لكانت دنيانا مختلفة!
- قال الشيخ حنوف بنبرة الشاكي:
- سودوا عيشتنا، الله يسود عيشتهم.
- ردّ القسام في حزم:
- ومع ذلك ما زالت لدينا القدرة لأن نتذوق طعم الحياة..
- وتدخل الشيخ علي عبيد:
- لعلك تريد أن تقنعنا بأنك ستخلد إلى الراحة في فلسطين؟!؟
- إن كتب الله لنا الوصول إليها، سيكون لنا كلام..
- تدخل الشيخ خالد:
- لن تطبق رؤية الإنجليز، وهم يدنسون فلسطين.. سيستفرك وجودهم

كما استفزك الفرنسيون من قبل.. أنت تائر بالفطرة.. رحم الله أباك الشيخ
عبد القادر.. ربّي فأحسن، وأورث هذه الأمة ليتهاً..
- رويدك.. رويدك يا شيخ خالد.. لا تمن الشيطان علينا.. الله يحسن
الخاتمة.. لا أحد يدري كيف ستكون النهاية، فالقلوب بيد الرحمن.



الطريق إلى فلسطين مازال في بدايته، والليل الحالك يلقي بثقله على كل شيء، والخواطر المسربلة بالحزن تتزاحم في صدره، فتلهب مشاعره وتحرك مدامعه، والقلب الواثق الجريء يدفعه إلى الأمام، لكن جذوره معلقة هناك.. بين حواكير الليمون والعنب والتين والزيتون.. على السفوح الخضراء حيث ولد وترعرع، وتنفس الحياة كأروع ما تكون، هناك مع الأهل والأصحاب، مع الرجال الطيبين الذين التفوا حوله، يقارعون الغزاة القادمين من وراء البحار، وانتزعه الشيخ علي عبيد من خواطره:

- أين سنصلي الصبح يا شيخ عز الدين؟

- في المسجد إن شاء الله.

همس أحدهم في قلق:

- في المسجد؟! لعلك لم تحسب حساب العيون والجواسيس يا أبا

محمد؟.

- أعرف مصلى في طرف الغابة، لا يصل إليه في هذه الساعة أحد.

انصاع الرجال لرأي القسام، ومضوا خلفه في طريق وعر.. وماهي إلا

ساعة، حتى وَصَوْصَ لهم ضوءٌ من بعيد.

- ما هذا الضوء؟

- اطمئنوا هذا قنديل الشيخ باكير.

ابتسم الرجال.. أصدقاء القسام في كل مكان.. واقتربوا من الضوء،

حتى تبينوا التفاصيل.. كان قنديل الشيخ باكير يتدلى من بطن شجرة تين

وارفة، أُلقت بأغصانها العالية على مسجد صغير، فاحتوت نصفه، وكأنه

رابض في أحضانها.. وعلى بعد خطوات منه بئر ماء عذب، يتوضأ عند

حافته شيخ وقور.. التفت الشيخ باكير على وقع خطوات الرجال، وقد أنهى وضوءه للتوّ.. فتهللت أساريره لرؤية الشيخ عز الدين، وهو يلقي السلام.. هتف والماء يقطر من لحيته البيضاء، التي أحاطت بوجهه الأبيض المورد:

- ياهلا بالشيخ عز الدين.. ياهلا.. كيفك يا ولدي؟

- بخير يا شيخ باكير.. الحمد لله على كل حال.

- أخبارك تملأ الدنيا.. قلبي معك.

واستدرك الشيخ باكير، وهو يتأمل وجوه الرجال:

- حيا الله الشباب.. تفضلوا، وارتاحوا قليلاً..

دلف الرجال إلى المسجد، كان أشبه بغرفة واسعة مُدّت بالحصير،

ليس لها من ملامح المسجد سوى محراب صغير، نحت في حائط القبلة،

وعلق بجانبه مصحف كبير، وانتحى الشيخ باكير بالقسام:

- لم تقل لي ما أخبارك؟

تنهد القسام، وقال:

- ليس هناك ما يسر يا شيخ باكير.. الفرنساوي يكاد يحكم قبضته

على البلاد.. والناس مساكين.. حاصرونا في الجبال حتى أحكموا علينا

الحصار.. بواريخنا لم تعد تكفي لمدافعهم، أو تكافئها.. عرضوا عليّ أن

أستسلم فرفضت.. العالم عندما يستسلم يا شيخ باكير، يقتل عزائم الناس،

ويوهن في نفوسهم إرادة الجهاد.. وما أنا بفاعل بإذن الله.. آثرت أن أعمد

سيفي إلى حين، ولا أكسره.. لن تقول سوريا بأن الشيخ عز الدين القسام،

رجل العلم وخريج الأزهر، استسلم للغزاة، وستطمئن إلى أن السيف ما زال

في غمده، وستعيش على أمل.

حوقل الشيخ باكير، والدمعة في عينيه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. من أين أتانا هؤلاء؟

- تربصوا بالخلافة حتى ضعفت، فانقضوا علينا.. الضعف دائماً يغري بك الأعداء.
- حوقل الشيخ باكير ثانية..
- ولكن أين ستختبئ يا ولدي؟
- سأهاجر إلى حين.
- إلى أين؟
- إلى فلسطين.
- إلى فلسطين؟!؟
- ننتظر هناك لعل الله يحدث أمراً.. نلّم شعثنا ونراجع أمورنا.. ونشدّ من أزر إخواننا إن استطعنا، ففلسطين كما تعلم في خطر أيضاً.
- تمنيت لو أنّي في شبابي وقوتي، لبايعتك على الموت، ومشيت معك إلى آخر الدنيا.. لكنني كما ترى.. أعدّ أيامي، ويا الله مسك الختام..
- ضحك القسام، وهو ينهض مع الشيخ للصلاة، وقال مداعباً:
- مازلت شاباً ياشيخ باكير، منذ متى وأنا أنصحك بالزواج!.
- أفلتت من الشيخ باكير ضحكة، لم يستطع أن يكتمها، فسمعها كل من في المسجد وابتسم، وهتف الشيخ من بين الضحكات:
- الزواج؟!.. الله يسامحك يا شيخ عز الدين..
- ثم أردف، وهو يرفع يديه إلى السماء:
- نسأل الله حسن الختام..
- ثم وهو يشير إلى نفسه في إنكار:
- أي زوجة ترضى بهذا العجوز؟!.. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله..



صلى الرجال الفجر في المسجد الصغير، وتمددوا قليلاً يريحون أجسادهم المتعبة، وبدأ الشروق ينسج من خيوط النور صباحاً جديداً، وتدفتت النسومات العلية من نوافذ المسجد، تهددها أغصان شجرة التين العجوز، فبعثت في النفوس نشاطاً كان قد خبا، وتسربت رائحة الخبز الطازج مع نسومات الصباح، فتسللت إلى بطون خاوية، وأيقظت فيها جوعاً قديماً، بدأ منذ أن انحدروا من تلك الذرى، التي كانوا يعتصمون بها، وخاضوا طريقهم الوعر عبر الجبال والغابات..

وأطل الشيخ القسام من النافذة يستطلع مصدر هذه الرائحة الشهية، فألقى الشيخ باكير وهو يخبز لهم خبز الصاج على الجمر، فالتفت لرجاله يمنيهم بفطور لم يتوقعوه، وأردف:

- سنتناول فطورنا، ثم نخلد إلى النوم، ولن نتحرك من هنا قبل الغروب.

- ما أدرانا أن أحداً لن يرانا هنا؟

- قلما يأتي أحد ليصلي في هذا المسجد، إلا زائر يقصده أو عابر طريق..

تبسم الشيخ خالد، وهو يتأمل معالم المسجد المتواضعة:

- يبدو أشبه بزواية نائية لصوفي عتيق.

علق الشيخ عز الدين، وهو يتربع مستنداً بظهره إلى المحراب:

- الشيخ باكير رجل فاضل من الحقّة، كانت له زوجة سالحة من اللاذقية لم تنجب، وعندما أعلنت النفير إلى ليبيا لمقاومة الطليان، جاءني متحمساً، يتبرع بماله ومصاغ زوجته من أجل تلك الحملة، لكن الحملة

أحببت كما تعرفون، ولما رجع الشيخ ليعيد الذهب لزوجته، رفضت أن تأخذه، لأنها قد تبرعت به لله، فاتفقا على أن يبنيا به هذا المسجد، في هذه الغابة النائية، على أرض لهما، ليذكر فيه اسم الله..

- رحمها الله وجزاها عن الإسلام والمسلمين خيراً، صدقة جارية سوف تستمطر لها الرحمات، مابقي هذا المسجد..

- هو أكثر من مسجد، ثمة سبيل ماء، وغرفة لإيواء المقطوعين والغرباء.

ولم يلبث الشيخ باكير أن دخل عليهم بطبق من القش، حفل بأطباق الزيتون والفجل والبصل الأخضر، أتبعه بإبريق كبير من الشاي، واجتمعوا حول المائدة المتواضعة يتهافتون على الخبز الطازج، الذي لم يزل يحتفظ بسخونته، ويتناولون إفطارهم الشهي بنفس مفتوحة، وسعادة غامرة بهذا التوفيق الذي أصابوه، في رحلة مازالوا يتوقعون فيها المخاطر والأهوال..

وانتقلوا بعد ذلك إلى غرفة تقع خلف المسجد، فخلدوا إلى النوم، بينما تمدد الشيخ باكير في ظل شجرة التين متيقظاً يحرسهم، ويتحسب لأي طارئ.. ويده على الحبل الذي مده من تحت الباب، وربطه إلى يد القسام، لينبهه إن شاهد ما يريب.

ومضى اليوم بسلام، فصلوا العصر، وبدؤوا يستعدون للمسير، وبعد طبق من المجدرة التي اجتهد الشيخ باكير في إتقانها ماوسعه ذلك، اجتمع الرجال حول القسام، يتهيؤون للخطوة القادمة.

ووقف الشيخ باكير لدى الباب، يودع ضيوفه ويدعو لهم، واستبقى الشيخ عز الدين للحظات، ثم أخرج من عبه كيساً صغيراً..

- هذا كل ما أملك يا شيخ عز الدين.. خمسة مجيديات.. قد تنفعكم في رحلتكم.

شد الشيخ عز الدين على يده، وهو يُكبر فيه مبادرته الطيبة..

- كلفت نفسك يا شيخ باكير.. احتفظ بها لنفسك، فقد تحتاج إليها، وأنت في هذه السنّ..
- لا والله. لا تذهبون بالأجر كله.. أنا أستطيع الجهاد أيضاً.. وأردف وقد تهدج صوته:
- على الأقل بهذه المجديّات. فقد تساعدكم بعض الوقت. شدّ القسام على يده، وقال:
- المهمّ ألا تنسانا من الدعاء.
- وانطلق الرجال في رحلتهم، وعينا الشيخ باكير تودعهم بالدعاء والدموع.. وأوغلوا في أعماق الوادي، وصورة الشيخ الجليل لا تكاد تفارقهم..



وصل الرجال إلى جسر الشغور، فتنفسوا الصعداء.. لقد بددوا جهود البحث عنهم، باختيار هذا الطريق، ولن يعرف الساعون وراءهم حقيقة وجهتهم إلى وقت طويل، لأنهم اختاروا طريقاً عكس ما قد يتبادر إلى الأذهان.. كانت فكرة ذكية من الشيخ عز الدين، أن يختار طريقاً لن يفكر به المحتلون، الذين سيتجه تفكيرهم إلى الطرق المباشرة. وصار عليهم أن يجتهدوا الآن في اجتياز الطرق الوعرة، وسلكوا طريقاً جبلياً صاعداً، وأوغلوا فيه، وقبيل الغروب، كانوا قد وصلوا إلى قرية مرتفعة عند ذروة شاهقة..

ودعا القسام رفاقه ليتأملوا المنظر الخلاب عند السفوح، قبل أن تسدل العتمة أستارها.. فبدا لهم سهل الغاب في أعماق الوادي السحيق رائعاً ممتداً، يخلب اللبّ بألوانه وتشكيلاته، وراحت خيوط الشمس الغاربة، تلثم وجه السهل الأخضر، وكأنها تقبله قبلة الوداع.. وقال الشيخ عز الدين، وهو يشير إلى القرية الوداعة..

- هذه قرية «كسر العدا».. هنا هزم إبراهيم هنانو الفرنسيين منذ أشهر، وأبلى فيهم أشد البلاء..

- اسم على مسمى.

- وفيها منازل قوم كرام..

- تبدو أشبه بمصيف جميل.

واقترب الشيخ من حافة الجبل، يشير للوادي السحيق..

- وهذا هو سهل الغاب، يشقه نهر العاصي كما ترون..

وأرسلوا نظراتهم المفعمة بالدهشة، تتأمل الخضرة الممتدة، التي

تدرجت وتفاوتت في خضارها، فرسمت بهذا التفاوت والتنوع منظراً ساحراً يأخذ الألباب، ووسط بحر الخضرة بدت مساحات بنية التربة، يشقها النهر العنيد، الذي يمضي عكس الأنهار الأخرى القادمة من الشمال..

وبعد أن غسلوا أرواحهم بمناظر الغروب الساحرة، تحرك الرجال يتابعون طريقهم على ضوء القمر، الذي أطل بأشعته الوانية، يضيء لهم طريقاً وعراً، اضطروا لركوبه في صراعهم مع باطل غاشم لا يرحم، وتمنّوا لو أنهم في غير هذا الموقف، ليستمتعوا بهذه المناظر الساحرة والأجواء الحاملة، لكن الجمال الذي أحاط بهم من فوقهم ومن تحتهم، لم يستطع أن يمحو القلق الذي يطاردتهم..

- هل تعتقدون أنهم سيعرفون طريقنا؟
- أرجو أننا قد نجونا منهم..
- كلما أوغلنا بالابتعاد كلما كنا في مأمن.
- قال الشيخ علي الحاج عبيد:
- ما زالت أماننا مخاطر جديدة.. عندما نصل إلى بيروت، سيبرقون إلى كلابهم هناك، ليقبضوا علينا.
- علق الشيخ القسام، وهو يرقى في الجبل:
- استعن بالله، ولا تعجز.
- وقال الشيخ حنوف ضاحكاً، وهو ينّحي نباتاً من الشوك اعترضه:
- استعن بالله، لكنّ الكثرة غلبت الشجاعة يا شيخ عز الدين. ماذا سنفعل إذا أوقفنا دورية فرنسية في بيروت؟
- ستكون معركتنا الأخيرة، التي كنا نستعد لها في جبال صهيون، فاشحذ سلاحك لتبلي بلاءك.
- وهل سنحمل بنادقتنا هذه معنا إلى فلسطين؟

- ليس من الحكمة أن ندخل فلسطين ونحن مسلحون.
- وماذا سنفعل بالسلاح؟
- سنرسله لرجال دمشق، فهم الآن لا بدّ أنهم يستعدون للتأثر لميسلون.
- وتنهّد الشيخ إدريس..
- لهفي على دمشق.. من كان يظن أن عاصمة الشام، تقع أسيرة بيد هؤلاء.
- وتساءل بصوت مسموع:
- ما رأيك يا شيخ عز الدين، لو التحقنا بإخواننا في دمشق، أليس ذلك أجدى من الذهاب إلى فلسطين؟
- لا أكتفك أني فكرت في هذا، لكني لست متأكداً من أن هذا صائب في مثل هذا الوقت.
- ما الضرر في أن نحاول؟
- لا وقت لدينا لنجرب الحلول، لو كنا نعلم بظروف دمشق، لانحزنا إلى الثورة هناك، لكن بعد القسوة التي أنهى بها الطاغية غورو هبة ميسلون، سيحتاج رجال دمشق إلى وقت طويل، قبل أن يستعدوا لثورتهم من جديد، ولا أرى أن نكون عبئاً عليهم.
- واقترّب الشيخ عارف من الشيخ إدريس، وهمس في أذنه مازحاً:
- لكأنك لا تحب أن تكمل معنا إلى فلسطين يا شيخ أحمد؟
- لكزه في كتفه:
- كفتّ عن هذرك، ولا تفتح لنا باباً للجدل مع الشيخ عز الدين.
- سأكفّ حتى لا أوقع بينكما فقط، لكني لن أراجع عما قلت.
- واستبطأ الشيخ القسام الركب:
- شدوا الهمة يا رجال، نريد أن نصل إلى الهرمل عند الشروق.
- وحثّوا الخطى، يستعجلون بها قدراً، سيكون له ما بعده.



أقبل الفجر، والرجال يخوضون سباقاً مع الزمان والمكان، لقد عقدوا العزم على حرق المسافة إلى بيروت في أسرع ما يطيقه بشر، واستبد بهم التعب، ونال الحصى والشوك منهم، وهم يخوضون وعورة الطريق الذي اختاروه، وتساءل البعض عن موعد صلاة الفجر، فكانت فتوى الشيخ عز الدين أن في الوقت متسع حتى تتكاثف خيوط الصبح، فيصلون على بصيرة، ولم تلبث طلقة مدوية أن انطلقت تبدد صمت الليل البهيم، فتبعثروا في المكان، وقد التفت أصابعهم على الزناد، وفتحوا أحداقهم إلى منتهائها، يبحثون عن مصدر الرصاص.

قال الشيخ خالد، وهو ينفخ الدخان الذي تراكم في فوهة بندقيته:

- هذا أنا، فاطمئنا.

- ما خطبك؟

- رأيت عينين تلمعان في الظلام، فخطر لي أنهما لنمر كاسرٍ أو ذئبٍ غادر، فلم يكن من الصواب أن أتردد في القضاء عليه.

- أين؟

- في ذلك الاتجاه.

وتقدم الرجال، وأيديهم مازالت على الزناد. استمهلهم الشيخ عز الدين:

- انتبهوا يا رجال، فقد لا تكون إصابته قاتلة!

أخرج الشيخ ظافر عود ثقاب، وأشعل به غصناً جافاً التقطه من بين الصخور، وتقدموا ببطء، وأعينهم موزعة في كل اتجاه، تحسباً لهجوم مباغت من حيوان أو إنسان!

وفجأة قفز في وجوههم حيوان ضخمة، كان يكمن فوق صخرة عالية،

فاخترقته عدة رصاصات حذرة، كانت تتأهب لمثل هذه المفاجأة..

- قال الشيخ مالك القسام، وهو يقلب الحيوان القليل على ظهره بقدمه:
- خنزير بري!
 - من حسن الطالع أن الشيخ خالد أطلق الرصاصة الأولى، ليحذرنا منه. وهتف الشيخ عارف حنوف:
 - لو اصطدتم غزالاً أو حتى أرنباً، لكننا فزنا بعشوةٍ لذيذة في هذا الليل. ضحكوا، وهم إلى فرحتهم بالنجاة أقرب، ولم يلبث الشيخ عز الدين أن قال منبهاً:
 - يجب أن نتحرك من هنا سريعاً، فقد يكون الرصاص لفت إلى مكاننا الأنظار.
 - وانهمروا من أعلى الجبل باتجاه السفوح، ومضوا في طريقهم مسرعين، وتابعوا حتى طلع عليهم الصبح، فأووا إلى كهف صغير، وبعد أن نظفوه وأمنوه.
 - قال الشيخ علي الحاج عبيد، وهو يرتاح إلى صخرة:
 - لقد نال منّي التعب. اسمحوا لي أن أرتاح قليلاً.. وانضم إليه الشيخ عارف حنوف، وهو يندب حظه:
 - أينك يا شيخ باكير!
 - ثم وهو يسأل الشيخ القسام:
 - ألا تعرف لنا عارفاً بالله يا شيخ عز الدين، يؤوينا في زاويته بعد هذا المسير.
 - ضحكوا لدعابته، وقد تذكروا تلك السويغات الرائعة في ضيافة الشيخ الوقور، لكن دوام الحال من المحال..
 - وتيمّموا، ثم أدّوا صلاة الصبح في جماعة، وسألوا الله العون والتأييد، وهم يخلدون إلى النوم، يحرسهم في كلّ ساعة اثنان..
 - كانت أحلامهم مسكونة بالقلق، لكن قلوبهم كانت مطمئنة. وتفاءلوا
 - بيوم جديد..



- توقف الشيخ عز الدين برهة، وراح يتلفت حوله.
- انتظروا قليلاً..
- ثم، وهو يشير إلى سلسلة من المرتفعات القريبة:
- أعتقد أن الطريق من هنا.. إذا تجاوزنا هذه الجبال، فسنكون في لبنان. وارتقوا في الجبل بحماس، وكلهم فضول لاكتشاف ما وراءه..
- همس الشيخ خالد، وهو يفكر بصوت مسموع:
- هل تعتقد أن الإنجليز سيتركونا وشأننا يا شيخ عز الدين؟
- سيتركونا إلى حين..
- ثم وهو يضحك:
- حتى نصبح خطراً عليهم.
- وضحك الرجال، بينما قال الشيخ حنوف:
- الفرق بين الإنجليز والفرنسيين، كالفرق بين الذئب والثعلب، كلاهما متوحش من أكلة اللحوم.
- تنهد الشيخ القسام معلقاً، وهو يتوقف ليلتقط أنفاسه:
- كلهم يريدون رأسك عندما يرتفع عالياً.
- ثم أحكم وضع بندقيته خلف ظهره، ومضى، فتحرك الرجال خلفه، وحكمة القسام تدور في رؤوسهم..
- لو طأطؤوا الرؤوس لأعدائهم لكانوا الآن في أحضان زوجاتهم، ينعمون بقرب أطفالهم وذويهم، لكنهم رفضوا الهوان، وآثروا طريقاً آخر، غير عابئين بالعقبات.. طريق الحر الذي يأبى الضيم، ويرفض الهوان، مهما كانت التضحيات.

ووصلوا أخيراً إلى الذرى، فلاح لهم وادٍ فسيح، تنتشر فيه غابات كثيفة مترامية، فوطّنوا أنفسهم على سيرٍ طويل.

قال الشيخ حنوف ضاحكاً، وهو يعالج نعله المتهالك، ويلفّه بخرقه بالية: -
 عندما بدأنا المسير كانت الحصى تؤلمني، لكنها الآن تدغدغني..
 ابتسم الشيخ عز الدين القسام لدعايته، أما الشيخ مالك القسام، فقد ضحك وهو يتأمل حذاء الشيخ حنوف، وقد لفّ مقدمة الفردة اليسرى منه بالقماش، خشية أن ينفصل وجهها عن نعلها، بعد أن اتسع فتقه، حتى بانّت منه بعض أصابع قدمه:

- المهم أن تجد في بيروت من يسعف لك الحذاء، حتى يحملك إلى فلسطين.

- ادع لنا أن نصل بسلام، وأنا كفيل به.
 وانهمروا من علٍ بخفة ونشاط، وهم يضحكون ويتبادلون الدعابات، وقد أغرتهم خفتهم بالتسابق نحو السفوح مهرولين..
 - ليت الطريق كله هكذا..

- مهما يكن، لا بد من الحذر، اهبطوا بكعوب أقدامكم..
 ولم تمض مدة حتى صاروا يقفون على أدنى السفوح المتاخمة للخضرة، ووضع الشيخ عز الدين كفه فوق عينيه كمظلة، حتى يتجنب وهج الشمس، وراح يتأمل الطريق المتعرج الذي تبتلعه الغابات، ليخفي خلف الأشجار الكثيفة معالمه وأسراره..

ولأول مرة يفصح الشيخ أحمد إدريس عن شعوره بالتعب، فطلب من أصحابه أن يتوقفوا قليلاً ليرتاح.

استجاب الصحب لرغبة الشيخ، بينما فرد الشيخ حنوف زوادته وسط الدائرة التي ضمتهم، ليتناول بعض الخبز والزيتون والبصل..

- من يرغب في أن يقاسمني هذه المائدة، فليقتصد في الزيتون، فهذا ما بقي معي من زيتون جبلة اللذيذ.
ابتسم الشيخ عز الدين، وعلق قائلاً:
- لو كانت زوجتي تعرف أنك كريم إلى هذا الحد، لأهدتك كل ما لديها من زيتون.
- قال الشيخ حنوف، وهو يضرب فحل البصل على صخرة بجانبه، حتى يتصدع:
- بارك الله فيها من امرأة طيبة.. لم أر مثل صبر أم محمد وجلدها على زوج لا يهدأ أبداً..
- ثم أردف متوجهاً لشيخه القسام، وهو يتناول البصل مع الزيتون الأخضر بتلذذ:
- أغلب الظن أنك ستقضي حياتك مجاهداً، وأنها ستذهب بالأجر كله. ضحكوا لدعابة الشيخ حنوف، وقال الشيخ عز الدين متوعداً..
- لو غيرك قالها.
وعلق الشيخ إدريس:
- جعل الله كلامنا خفيفاً عليك يا أبا محمد، كما هو كلام الشيخ حنوف، الذي تطرب لكل ما يقول..
- ضحك الشيخ عز الدين، وأراد أن يقول شيئاً، لولا أن سمع تحذير الشيخ ظافر القسام، وقد انتفض واقفاً فجأة، بعد أن كان مسترخياً، يرتاح على صخرة مرتفعة:
- انتبهوا يا شباب..
- ثم وهو يشير إلى غبار يثور من بعيد:
- انظروا هناك..

هَبَّ الرجال واقفين، ونظروا إلى حيث أشار.. كانت ثلة من الخيالة قادمة من الشرق، تتحرك نحوهم بسرعة، وكأنها قد رصدت جمعهم، وهم يهبطون من الجبل، فجاءتهم تستهدف وجودهم.

توجس الشيخ عز الدين، فهياً بندقيته وهتف بالرجال:

- انتبهوا، واستعدوا..

تحركت الأصابع لتحيط بالزنناد، وصوب الرجال بنادقهم باتجاه

القادمين!.

- لا تطلقوا النار حتى أذن لكم..

تحفز الرجال، وعيونهم على الشيخ الذي تقدمهم بخطوات حذرة، ويده على الزنناد.. وسرعان ما أحاطت بهم الخيل، وراحت تدور حولهم، يلقها الغبار والغموض.. ومضت لحظة من الصمت المفعم بالتوتر، ووقفوا جميعاً على حافة المواجهة. وابتدروهم قائد الملتمين:

- من أين الرجال، وإلى أين؟..

انبرى له القسام، وهو يرمقه بنظرات ثاقبة ولهجة واثقة:

- هل نخدمكم بشيء؟..

- تعرفون أين أنتم؟.

- في أرض الله.

- لا إله إلا الله..

اطمئن الرجال بعض الشيء للحديث، لكن الحذر لم يزيالهم، وتابع

قائد الملتمين:

- أنتم غرباء فيما أظن؟.

أجابه القسام:

- لا غريب في وطنه!

- لهجتكم تنمّ عن منبتكم.. إن كنتم في حاجة بذلناها لكم؟
- لا نريد إلا الخير..
- لوى قائد الملتمين جبل فرسه، ليهديّ من عنفوانها، وقد اطمأن للرجال، قال يخفف من توجسهم:
- نحن إخوانكم من عشائر الدنادشة.. من قبيلة شمر.. وأنتم اليوم بعون الله ضيوفنا.
- ابتسم الشيخ عز الدين:
- نعم الأهل، ونعم الدار.. لكن تعذرونا، فلدينا مقصد نرجو أن نصله في أسرع وقت.
- أنتم في دياركم.. كان بودنا أن نتعرف عليكم.. لكن لن ننقل عليكم بالسؤال..
- بارك الله فيكم.. أخلاق قوم كرام.
- أردف قائد الفرسان، وهو يلکز فرسه لتعود أدراجها..
- على أية حال أنتم الآن على سفوح الهرمل.. عليكم أن تسلكوا هذا الطريق، إذا أردتم أن تعبروا إلى طرابلس أو بيروت..
- وأشار إلى طريق متعرج يتلوى، ليخترق غابة كثيفة.. ثم استدرك قائلاً، وقد طوى رجاله بنادقهم، ونبّها خيولهم لتستدير عائدة من حيث أتت:
- تجنبوا طريق الساحل، فهو غير مأمون.
- تساءل الشيخ ظافر القسام، وهو يتأمل الركب الذي بدأ يبتعد:
- من تراهم يكونون يا عماه؟
- مجاهدون مثلكم إن شاء الله.
- مجاهدون؟!!

- الأمة يا ظافر مازالت غنية بالأحرار.. في كل شبر من هذه الأرض، سيجد الأجنبي فارساً وبنديقة.. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون.
- قالوا أنهم من الدنادشة!
- الدنادشة عشائر من قبيلة شمر.. ينتشرون في هذه الديار من حمص إلى طرابلس.. وهم أهل نخوة ونصرة.
- قال الحاج علي عبيد:
- ليتنا أخبرناهم بهويتنا، إذن لساعدونا ووفروا علينا هذا العناء..
- علق القسام، وهو يهّم بالمسير:
- بهذه البساطة يا شيخ علي! استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.



- يا أهلاً. يا أهلاً بالأحباب.. يا مرحباً بالشيخ عز الدين.. أخبارك
ترفع الرأس وتتلج الروح والله..

كان استقبال الشيخ خليل سكر للقسام وصحبه مفعماً بالود، وكان
اللقاء حاراً.. واحتوتهم السدة الواسعة في الجامع العمري الكبير ببيروت،
وتحركت أشجان الشيخ عز الدين، فراح يبيث الشيخ خليل ما يعتمل في
نفسه..

- الصليبيون يعودون من جديد يا شيخ خليل.

- شدة وتزول إن شاء الله..

- هذه المرة ليست ككل مرة.

- لقد دحرناهم في كل مرة.. أحسن الظن بالله يا شيخ عز الدين.

تنهد القسام:

- لا إله إلا الله.. ما يميزني يا شيخ خليل، أنهم يأتون ونحن في
أسوأ أحوالنا.

ابتسم الشيخ خليل، وقال مسرياً عن صاحبه..

- وهل يأتون إلا عندما تسوء أحوالنا.. نحن السبب يا أبا محمد..

- حصوننا تتهاوى الواحد تلو الآخر.. في كل يوم يتقدمون، ويفترسون

قطعة من بلادنا.. رأيت إلى الذي حصل لدمشق؟.

حوقل الشيخ خليل وارتجفت لحيته، وهو يجهش بالحديث:

- حسبنا الله ونعم الوكيل.. بيروت بالأمس واليوم دمشق.. لهفي على

الشام..

وتساءل القسام:

- كيف غزوا دمشق بهذه السرعة والسهولة.. أما كان بإمكان الملك فيصل أن يدافع عنها؟..

حدثني بربك كيف مضت الأمور؟..

أجاب الشيخ خليل في مرارة..

- الملك فيصل للأسف كان يظن أن كل الأمور تحل بالسياسة.. ضيع الوقت بالمفاوضات والوفود والسفر إلى لندن وباريس، للحصول على بعض ما كان يأمل به من ساسة المكر والخديعة، بينما كان هؤلاء يعشموه بالوعود، ويدبرون في الخفاء بخبث، لأخذ بلادنا لقمة سائغة.. حتى قبله للإنذار الذي أرسله له «غورو» وألب عليه الناس، لم يشفع له عند الفرنسيين الذين غزوا دمشق، مدّعين أنهم لم يستلموا موافقة الملك فيصل على الإنذار، وقد استلموها.. كانوا حريصين على الغدر.. ولم يجدوا في طريقهم سوى جيش يوسف العظمة الصغير، فسحقوه في ميسلون، ورفعوا العلم الفرنسي على السراي الكبير في دمشق، معلنين الوصاية على الشام، وهاهم يمعنون في فصل لبنان عن سوريا لأول مرة في التاريخ!.

ودخل تلاميذ الشيخ خليل بأطباق الطعام من كل لون، فكانت مائدة طيبة اجتمعت فيها البساطة بالكرم، وكان الجوع قد أخذ من الرجال كل مأخذ، فلبّوا دعوة الشيخ خليل في صمت، وهم غارقون في خواطر شتى..
ثمة إحساس بالطمأنينة خفف عنهم بعض الخطر، لكنهم يشعرون بأنهم مازالوا في فم المجهول!.

وتحلقوا بعد الطعام يرتشفون الشاي، كان الشيخ خليل يصغي لقصص الجهاد الذي خاضه القسام ورجاله في جبال اللاذقية بإعجاب، وانتشى بأحاديث البطولة، التي ملأت نفسه إكباراً لهذه الهامات التي تأبى الانحناء.. واستدرك الشيخ خليل كمن تذكر شيئاً:

- علمت أنك بعث البيت في جبلة!
- كنا بحاجة إلى المال..
- وماذا تركت لأهلك بعد البيت؟
- عندما يحتل الغازي أرضك، تصبح البندية أهم من البيت يا شيخ خليل.. بئس البيت اشترينا أربعاً وعشرين بندية..
- وأين ذهبت بالزوجة والأولاد؟
- تدبرت أمرهم إلى أن استقر بهم المقام في الحقة.. لنا هناك أقرباء قاموا بالواجب.
- عقب الشيخ خالد، وهو يمسخ عن شفثيه أنداء من الماء، تقاطرت من ميزاب إبريق الفخار، الذي كان يشرب منه:
- الشيخ عز الدين كان يقظاً من أولها، منذ أن بدأت محاولات الفرنسيواي لاحتلال الساحل، نادى حيّ على الجهاد.. كان يعرف أن الفرنسيواي لن يتراجع، فلم يضع الوقت..
- أطرق الشيخ عز الدين، وهزّ رأسه في مرارة..
- كانوا أكثر عدة وعدداً، وكنا ضعفاء..
- رد الشيخ خالد يخفف عنه:
- لكنكم أبلتكم بلاء حسناً، وأوجعتم الفرنسيين.. تكفيكم المعركة التي قدتها أنت وإبراهيم هنانو والشيخ صلاح البيطار، وقضيتم فيها على الحامية الفرنسية في جبل صهيون..
- كانت معركة قاسية، لكنهم تكالبوا علينا بعدها، وحاصرونا..
- ثم أردف الشيخ عز الدين في حسرة، وهو يتوجه بحديثه للشيخ خليل:
- لولا صفقة السلاح التي صادرها أتاتورك، لكان لثورتنا هناك شأن آخر..

- رَبَّت الشيخ خليل على كتف الشيخ عز الدين مواسياً، فتابع، وهو حزين:
- لم تكن بلادنا مستباحة كاليوم!..
- قال الشيخ خليل، وهو يلتقط نثره خبز خلفتها حفلة الطعام،
ويأكلها:
- علينا أن نعترف يا شيخ عز الدين.. لقد نخر سوس الضعف
الخلافة، حتى أغرت بها الإنجليز والفرنسيين، فقوضوها..
- صدقت.. داخلني هذا منذ أن زرت الأستانة.. ألمني أن عاصمة
الخلافة لم يبق منها سوى المساجد والقصور واسم السلطان..
وجالت دمعة في عين الشيخ خليل:
- عندما حطَّ الفرنسيون هنا، وأعلنوا دولة لبنان الكبير، أدركت أن
الخلافة قد انتهت، وأن السكين قد بدأت تعمل فينا..
- وقال الشيخ خالد في حلق:
- يريدون تمزيق سوريا إلى دويلات.. دويلة لكل حارة ولكل ملة..
يجربون هذا في سوريا بعد لبنان.
- قال الشيخ خليل:
- جهادكم يا شيخ خالد أنت وأمثالك، هو الذي عرقل هذا، ولكن..
وتنهذ تنهيدة حرّى، وهو يمعن النظر في كوبه، يتأمل ما بقي فيه من
الشاي..
- لكم أخشى من المستقبل.
- قال الشيخ عز الدين، وهو يستعيد تضاؤله:
- هذا لن يدوم.
- وعاد يؤكد بنبرة أكثر ثقة وإصراراً.
- والله يا جماعة لن يدوم.. مازال في شباب هذه الأمة ومجاهديها

عرق ينبض.. سيزول ليل الظالمين، وتبقى هذه الأمة كما بقيت في كل مرة، تنتفض على أعدائها، وتلفظهم بعيداً إلى حيث جاؤوا. وصمت لحظة، وهو يرقب الوجوه التي انفلتت بما قال، فأردف وهو يخوض في الذكريات:

- عندما جاءت لجنة كراين الأمريكية لتستفتي أهل سورية في مصير البلاد، قابلتها مع بعض العلماء في اللاذقية وحاورناهم.. غاظني كم يستخفون بنا!.. قالوا بكل صفاقة، يتظاهرون بأنهم لنا ناصحون.. «أنتم لا تستطيعون أن تسوسوا أنفسكم.. أنتم شعوب ضعيفة، لا تملك تجربة في الحكم والإدارة».. تذكرت كيف تكونت أمريكا من المجرمين والمغامرين وقطاع الطرق، الذين ألقوا بهم بريطانيا في القارة الجديدة للتخلص من شرهم، وكيف اغتصبوها من أهلها بعد أن أبادوا الهنود الحمر المساكين.. واستفزني أن يتكلموا بهذا المنطق السقيم مع أبناء أمة عريقة!..

- وماذا قلت لهم؟

- أخرجت لهم المصحف وقلت: «بل نملك القوة التي جعلت منا خير أمة.. هذا الكتاب هو قوتنا التي لن نتخلى عنها».. ساءهم جوابي.. لا يجبون أن يسمعوا منا نبرة القوة والاستقلال.. يريدونا دائماً أذلة مسلوبي الإرادة.. كأولئك الهنود الحمر المساكين، الذين حصدهم بالغدر والبارود، واحتلوا أرضهم وسرقوها..

كان الشيخ خليل يصغي، وهو يتأمل قسمات الشيخ عز الدين، وقد علاها إرهاق الرحلة التي حملته إلى بيروت، قال مشفقاً وهو يعلن نهاية هذا الحوار: - لا يبدو عليكم يا جماعة أنكم خضتم كل هذه الرحلة وهذه المخاطر!.. ألا تحتاجون لشيء من الراحة والنوم!؟

ابتسم الرجال، واسترخت أعينهم.. كانوا فعلاً بحاجة إلى ذلك.



بعد صلاة الضحى، تحلق الرجال حول مائدة الإفطار البيروتى، الذي أحضره مريدو الشيخ خليل سكر من بيته، وبينما كان الضيوف يهيمون بالببدء بالطعام، تقدم أحد طلاب الشيخ، وهمس في أذنه بشيء..

نظر إليه الشيخ سكر بقلق، وسأل الشاب:

- هل وضعوا صوراً مع الخبر؟

تأملوا الحوار بقلق.. «عن أي صور يتحدث الشيخ؟!» أجاب الشاب

بصوت خجول، وهو يشير للشيخ عز الدين:

- فقط صورة مرسومة للشيخ عز الدين، لكنها من حسن الحظ أنها

لا تشبهه كثيراً.

- هذا أفضل.

تساءل الشيخ عز الدين في قلق:

- ما القصة؟

حوقل الشيخ خليل:

- ثمة خبر لا يسر.

- ماذا؟

- حكموا عليك بالإعدام!

ابتسم الشيخ عز الدين، كمن فوجئ بخبر طريف.

- حقاً؟!

- ابننا يقول أنه قد قرأ اسمك هذا الصباح في إحدى الصحف، التي

أوردت أسماء الأحرار الذين تطلب فرنسا رؤوسهم.

- خبرٌ قديم.

- لكن نشر الخبر اليوم قد يكون له معنى..

- لعلمهم يتوقعون أن تكون هنا في لبنان!.
- سيجربون كل الطرق في مطاردتنا وحصارنا.
- يجب أن نأخذ الخبر على محمل الجد.
- وعلق الشيخ إدريس مازحاً:
- ونحن يا شيخ خليل أليس لنا إعدام؟..
- ضحك الجميع، بينما قال الشيخ خليل، وهو يبتسم لهذه الدعابة، دون أن تزاوله ملامح القلق:
- يجب أن تسرع بالرحيل يا شيخ عز الدين، فحياتك في خطر..
- وبيروت كما تعرف تحت سيطرة الفرنسيين، وهم اليوم أكثر حماقة ولؤماً،
- انتشاء بالنصر الذي حققوه في دمشق.
- مسّ ذكر دمشق شغاف قلب الشيخ عز الدين، الذي يتفطر ألماً لما آلت إليه أحوالها.. غاب في شroud قصير، ما لبث أن قال بنبرة تفيض بالثقة والحزم:
- لدي مشوار مهم قبل ذلك.
- إلى أين؟
- إلى دمشق.
- حدجه الشيخ خليل في حيرة، وتساءل أكثر من صوت:
- إلى دمشق!؟
- لا بد من زيارة دمشق قبل الرحيل إلى فلسطين.
- ولكن!..
- أريد أن أعرف أولاً بماذا يفكر رجال دمشق!.
- وأشفق الرجال على الشيخ عز الدين.. لم يصدقوا أنه قد وصل إلى بيروت، وها هو الآن يعيد الكرة، ويخوض في الخطر من جديد!.



عندما فتح الباب، فوجئ برجل ملثم لم يعرفه..

- من الأخ «بلا صغرى»؟

- صديقٌ قديم.

دقق في عينيه، وقد أخفى اللثام الأبيض معظم وجهه!

- الصوت ليس غريباً..

- كأنني بك قد نسيت أيام الأزهر يا عز الدين يا تنوخي!..

أعوامٌ طويلة انهارت في لحظات، وأضاءت روعة اللقاء ذاكرة كانت الأحداث قد شغلتها عن الماضي الجميل.. والتحم الصديقان في عناق حميم.. ولمعت العيون الدامعة في عتمة الليل، واندلعت الذكريات، وحضرت أماكنها وأطيافها، وكأنهما في رحلة تتجاوز الزمان والمكان.. القاهرة والأزهر ورواق الشام ومسجد سيدنا الحسين وقهوة الفيشاوي ومغامرات الشباب البريئة الحالمة..

واحتواهما صحن الدار أمام البحرة المحاطة بالورود وأصص الزريعة الشامية، وعطرت رياحين الفل والياسمين مجلس الصديقين المسكونين بالشوق والحنين.. وهتف الشيخ عز الدين التنوخي من بين الضحكات:

- أتذكر صينية الهريسة يا عز الدين؟

ضحك القسام..

- الله عليك يا تنوخي..أما زلت تذكر؟

- وهل أنسى؟.. لولا الهريسة لما تخرجنا من الأزهر!

- كانت أيام..

وهز التنوخي رأسه وهو نشوان، وراح يستذكر المشهد الطريف كأنه يحدث الآن!

- إي والله.. ذكريات جميلة لا تنسى.. ما زلت أذكر الرهبة التي انتابتني، وأنا أرى والدي - رحمه الله - يفاجئنا، ونحن خلف صدر الهريسة.. أنا أقطع الهريسة إلى مربعات، وأنت تصيح وتنادي بأعلى صوتك.. «هريسة.. هريسة».. «تعال وتذوق بسبوسة الشام».. يومها استحيت من الوالد الله يرحمه، وهو يهتف بي في إنكار:

- أتبيع الهريسة في الشوارع يا ولد؟

قاطعه القسام ضاحكاً..

- فرميتني بالتهمة، لتبرئ نفسك..

قال التنوخي:

- أليست هذه الحقيقة؟.. أنت صاحب الفكرة، وأنت الذي أقتعتني

بها.. أنسيت كيف ضاقت بنا ذات اليد، فاخترت قصة الهريسة، وجعلتنا نخرج عصر كل يوم لنبيع الهريسة الشامية قرب الأزهر.

- أجل، لكن والدك - رحمه الله - كان حكيماً وعاقلاً.. لا زلت أذكر

ماذا قال لك بعد ذلك.

تنهد التنوخي:

- إيه، رحمه الله.. كلماته مازالت ترنّ في أذني حتى الآن..

- قال لك «لقد علمك صديقك الحياة».

واستدرك التنوخي فجأة:

- أخذنا حديث الذكريات، ولم تقل لي ما أخبارك الآن؟

- كما ترى.. رجل يجازف برأسه.

- رأس ثمين كما سمعت.. الفرنساوي رصد مكافأة كبيرة لمن يقطفه..

- لن يزيل الرقبة إلا من وضعها.
- وأردف القسام بنبرة تفيض حسرة ومرارة:
- قل لي أنت. ما هي أخبار الشام؟.
- تلونت ملامحه بالحزن..
- ماذا أقول لك يا صديقي؟..
- أخبار ميسلون تملأ الدنيا.. ألم يكن من الممكن أن تستمروا في المقاومة؟

- ميسلون كانت صرخة في وجه الغزاة، لكنها ضاعت وسط ضجيج المدرعات والمدافع الفرنسية.. ورغم أنها كانت ضرباً من البطولة النادرة، لكنها لم تمنع الغزاة.. فعل الرجال ماعليهم.. كانوا قوة صغيرة، أعدت على عجل، قوامها ماتوفر من الجنود وبعض المتطوعين.. خرجوا بما تيسر لهم من بنادق وخناجر وعصي.. يقودهم البطل يوسف العظمة، وزير الحربية.. الرجل فضل الموت على أن يرى أقدام الغزاة تدنس الشام.

- رحمه الله..

- العظمة كان معترضاً على قرار الملك فيصل بحل الجيش.. قال أنا مستعد لأن أسحق تحت جنازير مصفحات فرنسا، ولا يقال أن دمشق سقطت، دون أن تجد من يدافع عنها.

هتف القسام وقد غلبه التأثر:

- رحمه الله ورحم شهداء ميسلون.. الفاتحة على أرواحهم..

وغاب الرجلان في تلاوة خاشعة لفاتحة الكتاب، وما لبث القسام أن

تساءل بإلحاح:

- ماذا ستفعلون الآن؟.. هل سنسكت على فرنسا، وهي تدنس سوريا

من أقصاها إلى أقصاها؟..

صمت التتوخي للحظة، وقد حار جواباً:

- ماذا نفعل؟. الرجال يفكرون ويخططون، لكن ما في اليد حيلة!.

- لا تقل بأنك يأس؟.

أنكر التتوخي:

- معاذ الله.. لكن الأمر كما أرى أكبر من طاقة الأمة في هذا

الوقت.. هذه فرنسا يا شيخ عز الدين، وقد جربتها في الساحل.. الثورة

تحتاج لإعداد كبير.. لاسيما هنا في مدينة كدمشق.. بعض الرجال لاذوا

بالغوطة، وشكلوا بعض المجموعات، لكن الأمر أكبر من اصطياذ جندي

هنا، واعتراض دورية هناك.. الفرنسيون لم يأتوا في نزهة.. عادوا يحملون

خريطة جديدة للمستقبل.. هل تعلم ماذا فعل غورو لما وصل إلى دمشق؟

طأطأ القسام رأسه وقال في مرارة:

- سمعت.

تابع التتوخي، وقد لمعت في عينيه رقاقة من الدمع:

- اتجه إلى قبر صلاح الدين، وأشهر سيفه باتجاه القبر، وقال: يا

صلاح الدين.. قلت لنا أيام حروبك ضد الصليبيين، أنا خرجنا من الشرق

ولن نعود إليه، وها قد عدنا، فانهض لترانا هاهنا..

حوقل القسام، وهز رأسه في أسى..

- يعودون وهم يحملون ثأرهم القديم، والأمة نائمة ولا موقظا!.

- ضريبة الضعف.. ماذا تفعل؟

كان الغضب يغلي في عروق القسام، قال وهو يصير على أسنانه من

الغيظ:

- ولكن أين الأمة؟.. أين الناس؟.. أين الرجال؟.. هل نحن ضعاف

إلى هذا الحد؟!..

- الناس مساكين يا شيخ عز الدين.. رأيت البسطاء والقبضيات وطلاب العلم وهم يشكلون العصابات، ويواجهون رصاص الفرنسي اوي بصدورهم.. والمشايخ والله ما قصروا.. اجتمعوا في ساعات، والتحقوا بيوسف العظمة.. لكن المشكلة أن الأمة ضعيفة والأعداء متفوقون.. حاربوا بكل ما يملكون.. قالوا لي أن بعضهم قاوم بالأراجيل والعصي.. أوقفوا الزحف الفرنسي ست ساعات على ضعفهم وقلة حيلتهم.. ولكن.. الفرنسي اوي حسم المعركة بما لديه من قوة وبطش.

همس القسام بمرارة:

- الله يسامح العصملي.. ترك الخلافة تتحول إلى إقطاع عريض للولاة والفاستدين، فنخر السوس في أوصال الدولة.. هذا المصير في بالي منذ أن زرت اسطنبول منذ سنوات.. اكتشفت أن الدولة العثمانية صارت مارداً بليداً، عيناه في أعلى رأسه.. يمشي فيهدّ الأرض بثقله، لكنه يمشي على غير هدى، وقد يقوده الصغير والماكر.. لذلك أوقع بها الأجانب بسرعة وسهولة، وهاهم يهددون الخلافة في عمر دارها، ويغتصبون بلادنا قطعة قطعة..

قال التنوخي وهو يلوح بقبضته في الهواء:

- العرب كان يمكن أن يكونوا بديلاً للعثمانيين..

- ولكن ما الذي حدث.. هاهم يقومون ضحية خدعة ماكرة.. بريطانيا وفرنسا ضحكتا على الشريف حسين، وباعته وهماً، وها هو ابنه الأمير فيصل يهرب بعد إنذار غورو، لتُحكم فرنسا قبضتها على سورية الشمالية.. وهاهم الإنجليز يحتلون فلسطين، ويعدون اليهود بوطن ودولة هناك..

زفر التنوخي بحرقة:

- اليهود هؤلاء حسبة لوحدهم..

- منذ متى وهم يحلمون بفلسطين؟..

- اسألني أنا فقد عشت في فلسطين سنوات كما تعرف، وشاهدت
بعض مستعمراتهم، وقرأت عن خطرهم..
- ومن أجل هذا جئت إليك..
- رمقه التوخي بطرف حائر:
- لم أفهم!
- سأشرح لك.. ولكن ألا تلاحظ بأني قادم من سفر بعيد، وأنت لم
تقدم لي شيئاً بعد!..
- ضحك التوخي وقد داهمه الحياء. قال وهو ينهض:
- أخذنا الحديث.. لا بد وأنهم قد هيؤوا لنا العشاء..

النسمات الرقيقة المفعمة برائحة الياسمين، أيقظت في القسام أشواقاً قديمة، وحملته إلى بعيد.. إلى حضن الأسرة التي افتقدتها وافتقدته، فباعدت بينهما ظروف الجهاد الذي لم يهدأ، منذ أن نزلت قوات الفرنسيين على الساحل السوري، ودنسته.. وشعر بالحنين يملأ روحه لأيام خلت.. للزوجة الحبيبة الصابرة.. للبنيات اللواتي شغف بهنّ.. لدفع الأسرة ولمّة الأهل.. وتخيل بناته الأثيرات، وهنّ يلعبن حوله في فناء الدار، فنفرت من عينه دمعة شوق، مسحها على عجل..

- حسبنا الله ونعم الوكيل..

همس بها في هدأة هذا المساء الدمشقي، الذي انتزعه من فم الخطوب، ليطلع قبلة على جبين مدينة حزينة، انتهك الغزاة حرمتها، وأخضعوها بالعدوان..

وراح يتأمل شجرة الياسمين، التي تألقت عن يمينه بأزهارها البيضاء، فقطف منها زهرة، وراح يستنشق عبقها الفواح، فشعر بلحظة انتشاء ندر أن راودته منذ زمن، وهو يخوض من خطر إلى خطر، فأغمض عليها عيناه، ليحتفظ ببعض السكينة التي بثتها في أعماقه، فإذا بروحه المضمخة بالشوق، تقلع من جديد، تتسلل ثانية إلى هناك.. إلى الحفّة، لتحضن قلوباً تخفق بحبه، وتلثم وجوه بنيات كزغب القطا، علّها تتسرب إلى أحلامهن، لتقرئهن السلام، من أب لم تسعفه الأيام ليكون معهنّ، كما ينبغي للأباء أن يكونوا.. ولم يلبث الشيخ عز الدين التنوخي أن عاد بطبق كبير من النحاس، اكتظ بأصناف الطعام.. وكان خبز الصاج قد نضج، فملأ الجو برائحة تثير الشهية..

- سمّ بالله يا شيخ عز الدين.. «فضلة خيرك».
- عشاء شهى فعلاً، ولكن لم يعد للزاد طعم هذه الأيام..
ضحك التنوخي :
- ساعة فساعة يا شيخ عز الدين.. هذا بيض مقلي بالسمن العربي، عليك به قبل أن يبرد.
- بل دعني أكل من هذا «المكدوس»، فله عندي معزة خاصة، لأنه يذكرني بأيام الأزهر، عندما كانت الوالدة ترسل لك منه القطرميز تلو القطرميز.
ضحك التنوخي:
- أتذكر أول قطرميز وصلني.. كانت وليمة لم تشهدها مصر المحروسة من قبل.. لقد سطوتم على كل القطرميز يومها، ولم أذق منه سوى مكدوسة واحدة..
ضحك القسام:
- حتى المصريون الذين لا يعرفون ماهو المكدوس، أقبلوا عليه، وكأنه فتة العيد.. كان شهياً فعلاً.
واستدرك التنوخي:
- كنت تريد أن تسأل شيئاً عن فلسطين؟
- بل عن أشياء؟
- ما سر هذا الاهتمام؟
- قررت اللجوء إليها.
- فوجئ التنوخي بالخبر، واعترت ملامحه الدهشة..
- إلى فلسطين!.
- هذا خيارى الأخير.

- ولكن..
- اسمع يا تنوخي.. جئتكَ وفي بالي أمرين.. الأول أن أعرف منك ماذا يخطط رجال دمشق، فلعلي أجد بينكم دوراً نصل به ما انقطع من أمر الجهاد ضد الفرنسيين، وقد بددت لي هذا الاحتمال بما وصفته من تريث أهل الشام في التحضير والتخطيط، وأنا الآن مطارِد لا ينفع لي الركود، أما والأمور هكذا، فلم يعد أمامي سوى أن أتابع رحلتي إلى فلسطين، أبحث عن ملاذ حتى يحدث الله أمراً.
- فهتمت. تريد مني بعض المعلومات.
- قبل المعلومات أريد منك شيئاً آخر، أرجو أن يكون في مقدورك.. صمت ورنا إليه باهتمام.
- تعلم أنني وأغلب الإخوان الذين معي لانحمل وثيقة تدل علينا، وهذا قد يعرضنا للمخاطر في فلسطين.
- راح التنوخي يستعرض في ذهنه من يمكن أن يساعده في تحقيق هذا المطلوب.
- معك حق.. عندي من يساعدنا في دائرة النفوس على تدبير الأمور، ولا أظنه إلا فاعلاً.. فقط أعطني الأسماء والمعلومات، وسوف نذهب إليه بها بعد الفجر، قبل أن يذهب إلى عمله..
- نظر إليه القسام في دهشة، وكأنه لم يتوقع أن يستقبل صديقه الأمر بهذا التفاؤل!
- ضحك التنوخي:
- هذا أقلّ ما يفعله قاعد مثلي لمجاهدين سبقوني بالواجب.
- حاشا لله أن تكون من القاعدين.
- ثم استدرِك قائلاً:

- والآن قل لي.. عشت في فلسطين سنوات مع العائلة، وتعرف عنها الكثير.. حدثني عن تلك الديار؟
- قال التوخي، وهو يصب الشاي لضيفه العزيز:
- تعلم أنّ الإنجليز احتلوا فلسطين قبل سنوات، لكنّ ما يقلق أكثر من الإنجليز اليهود.. يتزايدون بسرعة تلفت الانتباه..
- عاش القلق في عيني القسام..
- هذا يعني أن وعد بلفور يجري تنفيذه على قدم وساق.
- وأكثر مما تتوقع.. لديهم خطة، وعندهم هدف.. تحركهم المنظمة الصهيونية التي تشكلت من عتاة اليهود وأكثرهم تعصباً، ويمولهم أثرياءها الذين يملكون أموالاً طائلة.. واستطاعوا بالأعياب السياسية أن ينتزعوا من بريطانيا هذا الوعد بإقامة وطن لهم في فلسطين.
- تملأ القسام في مكانه، وجمدت اللقمة في فمه وهو يصغي..
- بعد هذا الوعد نشطت الحركة الصهيونية في أوروبا، وراحت تمول رحلات الهجرة.. تزين لليهود أن يهاجروا إلى بلاد السمن والعسل التي ستؤول إليهم، وألقوا في خلدتهم أنها أرض بكر فيها بعض العرب الذين لا يؤبه لهم، وانطلت هذه الدعاية على أشتات اليهود هنا وهناك، فصاروا يهاجرون بالمتات..
- وأستأذن التوخي لحظة بعد أن سمع طرفاً على النافذة، وما لبث على أن عاد بعصير التوت الشامي..
- الأهل يظنون أنّا انتهينا من الطعام.. لا يعرفون أنّا نتكلم أكثر مما نأكل..
- اجلس أرجوك.. وأكمل..
- قال التوخي، وهو يضع كأس العصير أمامه..

- تذكرت شيئاً.. نفس الكلام الذي قاله غورو في دمشق متحدياً قبر صلاح الدين.. قاله الجنرال «النبوي» في القدس، كما روى لي أحد رجالها.. قال: «الآن انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين».

وسمع القسام لغطاً من خلف السور، فنظر إلى صديقه التوخي قلقاً في فضول..

- لقد حان وقت إغلاق باب الحارة القريب من هنا، وأحدهم يحاول أن يؤخر إقفال الباب، بانتظار عزيز يتوقع وصوله.. قصة كلّ يوم، فلا تهتم..

- المهم أن يفتحوه في وقت مبكر..

- اطمئن. ستخرج.. يفتحوه كلّ يوم بعد صلاة الفجر.

وعاد الصديقان إلى حديثهما، فتساءل القسام، وقد غلت الدماء في عروقه:

- والعرب في فلسطين ماذا يفعلون؟.. عليهم أن يتحركوا لصدّ هذا الكيد والتدبير.

- أهل فلسطين لم يسكتوا.. خرجت مظاهرات في القدس ويافا والخليل.. هناك شباب يسمونهم الفدائية يهاجمون المستعمرات أحياناً.. لكن وجود الإنجليز يجعل الأمور أسوأ.. عندما يتحرك اليهود تحت حماية بريطانيا العظمى، فماذا يمكن لأهل فلسطين المساكين أن يفعلوا؟..

لأول مرة يدرك القسام خطورة الميدان الجديد الذي يختاره!. وصمت برهة وهو غارق في أفكاره، يتأمل في هذا التحدي الجديد الذي تقوده إليه الأقدار.. ورسمت كلمات التوخي في خياله مستقبلاً غامضاً لأمة تفرقت بها

السبل، وتكالبت عليها قوى الغدر والعدوان، ودفع بطبق الطعام بعيداً عنه، وأطرق في أسى..

- أكمل يا عز الدين. لم تشبع بعدا.

تمتم القسام في ضيق:

- حتى طعام المسلم يا أخي صار اليوم خطيئة!

عندما أظلم الليل، توقف أحد قبضايات بيروت بحنطوره قرب المسجد العمري، وتلفت حوله متظاهراً بالبحث عن عنوان ضاع عنه، ليتأكد من أنّ أحداً لا يتابعه، وعندما اطمأن إلى المكان، أشار إلى حنطور ثانٍ يقف عند أول الطريق، فالتحق به على عجل.. وما لبث أن طرقت القبضاي باب المسجد ثلاث طرقات، ففتح له على الفور..

كان الشيخ خليل يقف مع الشيخ عز الدين وجماعته داخل المسجد، ينتظرون ساعة الصفر.

ونبه الشيخ عز الدين رجاله ليستعدوا..

- تأكدوا من أوراقكم يا إخوان..

قال الشيخ عارف حنوف، وهو يطمئن على وثيقته التي دسها في عبّه..

- سامح الله الأستاذ التنوخي.. كيف لم ينتبه إلى الفرق بين حنّوف

وحنفي.. أصعب شيء على المرء أن يعيش مع اسم ليس له.

ضحك الشيخ خليل:

- تفاعل بالخير يا شيخ عارف.. سيأتي يوم قريب إن شاء الله، وتعود

إلى بلدك، لتصلح ما أفسدته العجلة في مثل هذه الظروف.

وقال الشيخ عز الدين مداعباً:

- خذها على سبيل التورية يا شيخ محمد.. حنفي، حنّوف.. المهم

لديك وثيقة تدفع بها عنك الشكوك والريب في مقامك الجديد، ورب

ضارة نافعة..

علق الشيخ خليل:

- جزى الله التنوخي عنكم خير الجزاء.. لولاه لما حصلت على هذه

الأوراق المهمة.. كان ذكاء منك يا شيخ عز الدين أن تسعى إليه.

قال الشيخ عز الدين:

- بل قل كان توفيقاً من الله.

وهمس الشيخ خليل، يستحثهم:

- أسرعوا يا إخوان..

ثم وهو يتوجه للشيخ حنوف مداعباً:

- هيا يا شيخ حنفي إلى الحنطور.. فليس لديكم وقت كثير.

ردّ الشيخ عارف مستسلماً لقدرٍ تلاعب باسمه:

- أرايتم.. لقد لبسني الاسم الجديد منذ الآن.

ابتسم الرجال، بينما قال الشيخ خليل، وهو يحول الدعابة إلى جد:

- يجب أن تتعود عليه طيلة غربتك يا شيخ حنفي، حتى لا يثير

اختلاف الاسم الحقيقي عن المكتوب في الوثيقة الشكوك حولك.

حوقل مستسلماً:

- صدقت يا شيخ خليل.. لم يعد لي إلا أن أصبر على حنفي هذا الذي

ابتليت به!.

ووقف القسام يودع الشيخ خليل بامتنان.

- أشكرك على حسن الضيافة يا شيخ خليل، وجزاك الله عنا كل خير..

ضمه الشيخ خليل، وتمتم يغالب البكاء:

- هذا أقل من الواجب يا أبا محمد.

- سأعتمد عليك في ترتيب رحلة الأهل..

- لا تقلق. سأرتب الأمر على ما يرضيك بعون الله..

- والبنادق؟..

- أفكر في إرسالها إلى الشام.. فشباب دمشق ينتظرون منّا دعماً ومدداً.

- خيراً تفعل.

واستحثهم القبضاي..

- يا إخوان.. الوقت قصير، والجواسيس في كل مكان.

التحق الشيخ القسام بالحنطور، الذي انطلق يقطع أزقة بيروت بسرعة وحذر، بينما تحرك الحنطور الثاني على مسافة منه..

وراقب الشيخ خليل الركب بعينين دامعتين، يودع الرجال إلى قدرهم الجديد.. لقد أحب الشيخ القسام، ورأى فيه عزة الإسلام، ورمز الكرامة والإباء..

وغاب الرجال خلف العتمة، لكن عيني الشيخ خليل ظلنا معلقتين بهم.. هذا الظلام الذي ابتلع الرجال الآن، يبتلع أمة بكاملها، ليضعها على أعتاب مستقبل غامض، تحفّه التحديات.. وتنهّد الشيخ خليل وهو يحوقل ويحتسب.. «الأيام حبلى بكل سوء، فما يحدث أكبر من قدرة هذه الأمة على مواجهته».. نفس الخاطر كان يراود القسام، الذي كان مشغولاً بما سمعه من الشيخ التوخي عن فلسطين.. ليس صدفة أن يعطي «غورو» و«النبّي» لغزوهما نفس العنوان.. بل هو الكيد المدروس والحقد الدفين، الذي يحرك هؤلاء لقهر هذه الأمة، وتقطيع أوصالها، ثأراً لهزيمتهم في الحروب الصليبية.. وزادوا في الكيد إطلاق لحم اليهود في إقامة وطن غريب على أرض فلسطين..

وأرسل تهيدة تشي بما يعتمل في صدره، وهو يخوض في الظلمة مع من معه في طريقهم إلى صيدا، حيث ينتظرهم المركب الذي سيحملهم إلى عكا..

كانت عيون الرجال تودع حارات بيروت وأزقتها الجميلة.. وحركت الأضواء التي تطل من النوافذ والبيوت الواحدة أشجاناً وذكريات.. وقرصهم الحنين

إلى الأهل والأحبة الراقدين في تلك البيوت الدافئة، التي حرموا من أنسها، وفارقوها قسراً وظلماً، ففرقوا في الصمت الحزين، وتسربت أرواحهم بالشوق والحسرة، ولولا عقيدة راسخة لا تتزعزع، بأنهم على الحق، وأنهم قد اختاروا طريقهم ومصيرهم عن سبق إصرارٍ لا يلين، لكانوا انطلقوا من ساعتهم عائدين إلى تلك الديار..

ووصلوا إلى صيدا قبيل الفجر.. ترحلوا عند الشاطئ، وراحوا يتأملون المكان.. كان المركب الذي سيقلمهم إلى عكا يتهدى فوق الماء، وكأنه يدعوهم للمجهول..

وتوجه القبضاي إلى ريس المركب:

- الشيخ خليل يوصيك بالشباب.

- على راسي الشيخ خليل والشباب كلهم.. قل له بالحفظ والصون.

وودّع الرجال القبضايات الذين حملوهم إلى صيدا بامتنان، لكنهم لم

يبرحوا، وظلوا ينتظرون المركب ريثما يغادر. بادرهم القسام:

- «مشكورين يا رجال». انطلقوا راشدين، فما نحن قد وصلنا بسلام،

والحمد لله.

هتف أحدهم:

- لا والله لا نتحرك حتى نطمئن عليكم.. الشيخ خليل أوصانا بالألا

نترككم حتى تغيبوا في البحر.. ولو ياشيخنا.. نحن رجال مثلكم، ونعرف

الواجب.

وسأل الشيخ علي الحاج عبيد أحد القبضايات قبل أن يقفز إلى

القارب:

- متى يحين الفجر عندكم؟

أجاب القبضاي، وهو يتأمل الأفق..

- هذا وقته.. قد يؤذّن في أيّ لحظة.
- فلننتظر قليلاً حتى نصلّي، ثم نبجر على بركة الله.
- تدخل القبضاي محذراً، فيما يشبه السؤال؟..
- ألا تجوز الصلاة في المركب، وأنتم مبحرون يا شيخي؟
- ابتسم القسام، وقد أدرك مرماه. هز رأسه موافقاً، وهو يرمقه بوذّ..
- تجوز.
- إذا كان الأمر كذلك، فأرى أن تسرعوا الآن، وتصلّوا في الطريق.
- وأبحروا على عجل، وهم يقلّبون في خيالهم كافة الاحتمالات.. وودعتهم صيدا بصوت الأذان النديّ، الذي لامس أسماعهم من بعيد، وهم يوغلون في البحر، فتوضّؤوا وصلّوا كيفما استطاعوا، وراحوا يدعون الله في هدأة الفجر، وقد غمرتهم السكينة والاطمئنان إلى قدر الله..



بدأت خيوط الشمس تضيء الكون رويداً رويداً.. كان المشهد رائعاً،
ذكّرهم بالساحل الحبيب، الذي غادروه مرغمين، وبأهلهم الذين يفتقدونهم
هناك، وحمل الشيخ خالد حفنة من الماء، ولثمها بفمه!.

- أتشرب ماء البحر؟. تساءل الشيخ مالك القسام.

أجابه وهو يرمق الأفق البعيد، الممتد فوق صفحة الماء الزرقاء إلى
حيث لا يعلم:

- بل ألتهم ماءه، على أمل أن تكون قد لامسته يد حبيب هناك.
ضحك الشيخ حنفي:

- ماعرفتك شاعراً قبل الآن يا شيخ خالد!.

ضحكوا. ثم ما لبثوا أن غرقوا في الصمت والتأمل من جديد..
كان المستقبل بالنسبة لهم غامضاً، ورغم أنهم تجاوزوا الخطر إلى
حد كبير، لكنهم مازالوا يشعرون بشيء من الضياع.. فقد حانت لحظة
الحقيقة، وهاهم يتحركون إلى أرضٍ جديدة لم يخبروها من قبل، وحياةٍ
جديدة لا يستطيعون أن يتخيلوا ملامحها في ظل غازٍ آخر، لا يقل قسوة
وعدواناً عن الغازي الذي نجوا للتو من قبضته.

وارتفعت الشمس في السماء، فنشرت الدفء، واسترخت أجسادهم
المرهقة من طول الترحال، والمركب يهددها، وهو يتأرجح فوق الأمواج،
وراحت الأجنان الذابلة تغالب النوم الذي عاث في العيون، فتارة تغفو،
وتارة تصحو، وتارة تغطّ في نوم عميق..

ومضى الوقت بسرعة.. وحانت من الشيخ عز الدين التفاتة إلى الأفق،

فلمح شريط اليابسة من بعيد..

- لكأني ألمح فلسطين!.
قال صاحب المركب، وهو يتأمل المشهد:
- هذا شاطئ عكا. نحن نقرب..
وأراد الشيخ أن يبشر رجاله بقرب الوصول..
- وحدوه.. استيقظوا يا شباب، واستعدوا لرؤية فلسطين.
استيقظ الشيخ حنفي، وراح يرمق الأفق، وهو يفرك عينيه:
- أصبحنا وأصبح الملك لله، هانت بعون الله.
واستيقظ الجميع إلا الشيخ أحمد إدريس، الذي ظل مستسلماً للنوم،
وهو يتكئ برأسه على حافة المركب، فتناول الشيخ القسام حفنة من ماء
البحر، ورشقه بها مداعباً، لكن الشيخ أحمد الذي استيقظ عنوةً، استقبل
الدعابة بكثير من الانزعاج، وقال غاضباً:
- هذا مزاح ثقيلٌ لا أحبه!.
ضحك القسام:
- حقك علينا يا شيخ أحمد.. فقط كنت أريد أن أنبهك إلى أنا على
وشك الوصول.
لم يخفف اعتذار الشيخ من غضبه، قال متبرماً:
- لم أكن سعيداً بهذه الرحلة من أولها.
وخمّن القسام أن شيئاً قد عكّر مزاج الشيخ إدريس!.
- لعلك كنت تشاهد حلماً عكّر صفوك؟
تمتم بعصبية:
- كان يجب أن نجد طريقة، لنبقى حيث كنا.
- كنت أظن أنا قد حسمنا هذا الأمر!.
صمت الشيخ أحمد إدريس ولم ينبس. كان صريحاً وصادقاً، وقد قرر

أن يبوح بما يعتل في صدره، قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة.. حقاً لم يكن سعيداً بهذه الرحلة منذ البداية.. منذ أن تجاوزت قدماء تلك الربي الخضراء، التي شعر أنه ينتزع روحه منها مكرهاً ومقهوراً.. ثمة صراع صامت كان يتفاقم في صدره، لكنه كان يخفيه أملاً في أن ينحاز في النهاية إلى الحل الذي ارتآه الرجال، وتعاهدوا عليه.. كان يحاول أن يرتاح من الصراع، الذي يحدث في نفسه بين العودة والاستمرار، فلاذ بالنوم، بعد أن خاض في سَرّه معركته الأقسى، وهو يرى قدماء تنزلقان إلى نهاية المطاف التي لا يريد، وما لبث الماء الذي داعبه به صديق جهاده القسام، أن أعاده إلى دائرة الوعي، ليواجه لحظة الحقيقة، التي لم يعد ينفع معها التردد.

وتمتم الشيخ أحمد إدريس، بعد أن عبّ نفساً عميقاً من هواء البحر:
 - من البداية لم أكن مقتنعاً بهذه الرحلة. أشعر وكأنني هارب من الجهاد!

قال الشيخ القسام، يخفف عنه، وقد أدرك ما يعتل في صدره:
 - بل متحيزٌ إلى فئة ياشيخ أحمد..
 - اذا كنا سنجاهد، فلنجاهد في البلاد التي نعرفها، ومع الرجال الذين نعرفهم.

قال الشيخ حنفي:
 - جاهدنا حتى تقطعت بنا السبل.. ألم تنفق على الرحيل إلى فلسطين ياشيخ أحمد؟

- وماذا سنفعل هناك؟

أجابه القسام:

- هل لديك حل آخر؟

رد الشيخ أحمد إدريس، مدلياً بقراره الأخير:

- أكملوا رحلتكم إلى فلسطين، أما أنا فأريد أن أعود.
كانت صدمة أطاحت بهدوء الرجال، وكاد الشيخ أحمد إدريس أن
يزعزع عزيمة البعض، فقد كان الجميع يشعرون بأن قلوبهم ما زالت معلقة
بالأهل والبلد.. حتى القسام شعر بالارتباك للحظة، لولا أنه يكره التردد.
قال بنبرة حازمة:

- لقد عقدتُ النية على التوجه لفلسطين، وتوكلت على الله، ولن أراجع..
وكان يجلس على حافة المركب، فنهض، وقال وهو يرمق عكا التي
كانت تدنو من المركب، وكأنها تشدّه إليها:

- مازال لديكم فرصة للتراجع، من أراد أن يمضي معي، فهذه فلسطين
أمامكم، لا يفصلنا عنها سوى القليل، ومن أراد العودة، فالمركب عائد من
حيث أتينا، وهو يعرف طريق العودة جيداً، فكروا ريثما نصل إلى هناك،
وليتخذ كل قراره، ولا يقولنّ أحد بعد ذلك، أني أحملكم على ما لا تريدون.
كان القرار حاسماً، فبايع الجميع أميرهم على خيار فلسطين، ماعدا
الشيخ أحمد إدريس، الذي ظلّ صامتاً، وعيناه معلقتان بأفق الشمال.



عندما دنا القارب من أسوار عكا، ضحك الشيخ حنفي، وأطلق تسبيحة
باسمة.. التفت إليه الرجال في دهشة..
- أضحك الله سنك يا شيخ حنفي!
ضحك ثانية:

- ما الذي يُضحكك!؟
- تذكرت نابليون عندما هزمته هذه الأسوار.. وبعد أن عجز عن
اقتحامها، ألقى بقبعته من فوق السور حنقاً وحمقاً، وكأنه يقول بالشامي
«عنزة ولو طارت».

ابتسم الشيخ ظافر:
- عجيب أمر هؤلاء الغزاة.. لا يتعظون من الماضي، ولا ييأسون من
المحاولة.. ديدنهم دائماً أن يكسروا هذه الأمة.
همس الشيخ خالد، وهو يتأمل أسوار عكا:
- أخشى أنهم هذه المرة قد نجحوا.
امتعض القسم من نبرة اليأس، التي أحسّها في الكلام، قال وهو يهزّ
سبابته، فيما يشبه التحذير:

- ينجحون فقط عندما يصيبنا اليأس.
- لكنهم اليوم أقوى مما مضى!.

قال القسم، وهو يضرب باطن كفه بحافة القارب، ويفرّكه بقوة:
- اليوم وغداً نحن أقوى، لأننا أصحاب حق.. صحيح أنّ الأجنبي اليوم
أقوى عدةً وعدداً، لكنّ الذي جعله قوياً اليوم، يمكن أن يجعلنا أقوياء غداً..
لو ملكنا الإرادة.

- صحيح يا شيخ، ولكن..

- خبئ «ولكن» هذه في صدرك، ولا تكثر من ترديدها، نحن على حق يا شيخ خالد.. هذا الحق هو الذي جعلك تترك حياة الدعة والسكون، لتجاهد بروحك ومالك وماهو أكثر، وهو الذي يحرك آلاف المجاهدين الآن في كل مكان دنسته أقدام الغزاة، ليحموا حقهم المغتصب، وسيأتي ذلك اليوم الذي تتصاعد فيه روح الجهاد، وتتضافر فيه الجهود المخلصة، حتى تهزم الباطل، وتدحر الغزاة، وتعيد للأمة قوتها وهيبتها، هذا وعد الله وسننه الصارمة التي لا تتخلف..

كانت هذه الكلمات كافية، لتسكب الطمأنينة في قلوب الرجال، وتشدّ من أزرهم، وراحوا يتأملون الشاطئ الأزرق وهو ينسحب من تحتهم، ليُسلمهم إلى السور، وهبّت نسائم رقيقة، فاستسلم لها الجميع في انتشاء، وأحسّ الشيخ عز الدين في النسيم همساً ذكره بجبله التي غادرها مكرهاً، وأبحرت خواطره نحو الشمال، حيث كانت البداية.. هذا الشاطئ الأزرق كم خضبتة الدماء.. دائماً يداهمه الغرباء القادمون من الضفة الأخرى، ليزرعوا فيه الرعب، ويدنّسوه بأحقادهم وأطماعهم.. الفرنسيون والإنجليز والطلبان وغيرهم.. كلهم يُعدّون أساطيلهم للسيطرة على هذه البحيرة، التي كان قدر هذه الأمة أن تعيش على ضفتها الشرقية..

وقال الشيخ خالد فجأة:

- ما رأيكم يا جماعة أن نستقر في عكا؟

- ولماذا لا نتابع الرحلة إلى حيفا؟

- لماذا حيفا؟!

- أنا مع الشيخ خالد.. مع عكا.

أما الشيخ حنفي، فقد تعلق عيناه بشفتي شيخه..

- عكا أم حيفا ياشيخ عز الدين؟
قال القسام، وهو يمسد لحيته القصيرة بأصابعه، متفكراً:
- حدّثني الكثيرون عن حيفا.. فهي ميناء مهمّ، وفيها نهاية الخط
الحجازي، ويؤمّها التجار الشوام رائحين غادين، وقد نعرف منهم أخبار
البلاد.
ثم أردف بعد لحظة صمت:
- لعلي أميلُ إلى حيفا، فلي هناك قريب وأصدقاء قد نعثر عليهم،
فيساعدونا في معرفة البلاد وأهلها، ريثما نتلمس طريقنا هناك.
قال مالك القسام:
- سمعت أن القطار الحجازي يصل بين حيفا ودمشق وبيروت ومصر
أيضاً.
- هذا سبب آخر يرجع عندي حيفا.
وأردف..
- لله درُّ السلطان عبد الحميد.. لقد وصل بسكة الحجاز بين ديار
الإسلام، ومهد الطريق لوحدةٍ كان يرجوها، لولا هؤلاء الغزاة الذين
يهدّدونها اليوم بعدوانهم ومكرهم الخبيث!.



ترجّل الرجال، وراحوا يتأملون الشاطئ، مأخوذين بهذه المدينة الساحرة، وتقدّم الرّيس يودع الرجال فرداً فرداً، فاستمهله الشيخ أحمد إدريس. تبادل الرجال نظرة حرجة. التفت إليهم بعيون دامعة..

- اعذروني يا جماعة، فقد قررت أن أعود..

وكان الشيخ القسام يحب الشيخ أحمد إدريس..

- لعلّي أنا السبب يا شيخ أحمد.. إن كان ذلك ما غير رأيك، فأنا

أعتذر للمرة الثانية!.

اغرورقت عيناه، همس ولحيته تختلج:

- أنت أخي وأميري يا شيخ عز الدين، قاتلنا معاً، وحوصرنا معاً،

وخضنا كل هذه الخطوب معاً، ولن أتركك من أجل مزحة، لكن أرجوك أن

تعذرني، فأنا أشعر بأني سأخوض في بحر لا أتقن العوم فيه..

- تريث يا شيخ أحمد..

- اعذرني.. فقد عذمت على العودة، لأجاهد في الميدان الذي أعرفه.

ولم يكن أمامهم سوى أن يحترموا رغبته.

أراد الشيخ أحمد أن يقول شيئاً، لكن العبرات حبست صوته.. كان

ممزقاً بين رفاق دربٍ يودّ ألا يفارقهم، وبين وطن راعه أنه كاد أن يبتعد

عنه، وهو الذي عقد العزم على ألا يفارقه أبداً.

ومضى القارب به من حيث أتى، فاعترتهم كآبة لفراق الشيخ أحمد

إدريس، وودّعوه بعيونٍ دامعةٍ، وقلب حزين.

في الطريق من عكا إلى حيفا، كان القسام غارقاً في الصمت.. لقد صدمه موقف الشيخ إدريس، وحرك في نفسه مشاعر كان يحاول تفاديها، حتى لا توهن من عزيمته.. لكم يتمزق الآن بين أرض يلوذ بها، وأرض غادرها مكرهاً، ولا يدري سوى الله، متى يعود إليها!..

واستأجروا عربة تقلهم إلى حيفا، فمضت بهم على الدرب الرملي المتعرج بمحاذاة الشاطئ، الذي كان يدنو من البحر حيناً، حتى تطفأ عجلات العربة أمواجه المتراكضة، وتخوض فيها، وأحياناً يتمادى الموج، فيضرب العجلات بأجنحته، وكأنه يداعبها، مرحباً بهذا الراكب القادم من شمال سوريا، ينشد الأمان في جنوبها.

وتغوص العجلات في الرمال الرطبة حيناً، فتسير العربة الهوينا، وكأنها هودج عروس يعبر كثبان الصحراء، وفي بعض الطريق كانت العربة تتفادى عبث الموج الذي لا ينتهي، وتمضي فوق رصيف الرمال البيضاء بسلاسة، فتصدر حوافر الخيل فوقها صوتاً رتيباً، أقرب إلى معزوفة موسيقية، تدغدغ مع صوت الموج المتلاطم القادم من البحر أرواح الرجال، فتسليها.. وشخصت أبصارهم نحو الأرض الجديدة، يتأملون معالمها الساحرة، يحاولون قراءة ملامح المستقبل الغامض، الذي ينتظرهم بين جنباتها..

وكلما قطعت العربة مسافة نحو حيفا، كانت تطوي مسافة جديدة بين زمنين.. زمن جميل أفسدته الأحداث التي اضطرتة للرحيل، ومستقبل غامض في ديار جديدة، كل ما يعلمه عنها أنها باتت ضحية لمكر الإنجليز، وهدفاً لصهاينة اليهود، الذين جاؤوها طامعين، تحت حماية بريطانيا العظمى، ليقيموا عليها وطناً لا يجوز!.

وذهبت نفسه حشرات على الأرض التي بارك الله فيها، حول مسرى نبيه عليه السلام، وشعر بالتحدي يستقرّ عقله ووجدانه.. وكان يجلس بجانب الحوذي الذي يقود العربة، فراح يجاذبه أطراف الحديث..

- من أين الأخ ياترى؟
- من اجزم.. قرب حيفا
- وأنتم؟..
- نحن من جبلة..
- جبلة؟.
- بلدة قرب اللاذقية في شمال غرب سوريا.
- الحمد لله على السلامة.
- كيف حيفا هذه الأيام؟..
- من الله بخير يا سيدنا، لكن.. الإنجليز «مش مصلين على النبي»..
- يبدو أنهم بدؤوا يكشرون عن أنيابهم؟..
- ربنا يهدّهم.. لا تستعجل يامولانا، سوف تملّ من سحتهم.
- واليهود؟.
- تنهد السائق..
- ربنا يكفيننا شرهم..
- سمعت أنهم يثيرون المشاكل.
- أكثر مما سمعت.. انظر هناك.
- وأشار إلى بناء أشبه بالقلعة، يقوم على سفح تلة مرتفعة..
- ماذا هناك؟
- كومبانية يهودية.
- تقصد مستعمرة..

- البعض يسميها كومبانية، والبعض يسميها مستعمرة.. المهم ما يجري في داخلها.
- هل دخلت إلى هناك؟
- لا يسمحون لأحد بدخولها..
- لماذا؟..
- لو كانت نيتهم طيبة لما أغلقوها في وجه العرب.
- مال القسام إلى الأمام، وركز انتباهه باتجاه المستعمرة، يتأملها بغيظا.
- كل هذه مستعمرة؟
- هناك ما هو أكبر!
- هذه بلدة بحالها!
- بينون الآن العديد منها..
- هل يفعلون ما يريكم منهم؟
- يفعلون كل ما يخيف ويثير الريبة!
- مثل ماذا؟.
- مال الرجل على الشيخ القسام، وقال بلهجة تنم عن الغضب:
- يحاولون الاستيلاء على حائط البراق.. حائط الأقصى الشريف.. يدعون أنه تبعهم.
- اكفهر وجه القسام..
- أَوْصَلْتُ الْأُمُورَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ!.
- هزّ السائق رأسه بمرارة:
- هناك ما هو أخطر. بدؤوا يتسلّحون.
- يتسلّحون؟!
- علناً يا شيخ.

- شاهدتهم؟.
- قال السائق يؤكد ما ذهب إليه:
- لديهم عصابة يسمونها «الصهيونية» هاجمت العرب الشهر الماضي في القدس والخليل..
- وقع قتلى؟.
- استشهد أربعة من العرب، هذا غير الجرحى.. منذ ذلك اليوم والناس في كل البلاد «قلقانيين»..
- وبعد..
- من كان يظن أن يهوداً يجتمعون للصلاة، والسلاح الغادر تحت ثيابهم؟.. كانت مجزرة ياشيخنا.
- هم كثير؟
- عددهم «مش قليل».. وهم يتزايدون.. قف على ميناء حيفا أو يافا، وتفرّج ياسيدنا.. كل يوم يصل فوج جديد.. ثم لا يلبثون أن يختفوا في هذه الكومبانيات، التي تسميها حضرتك المستعمرات.. كأنهم يشمّون رائحة بعضهم البعض..
- كان الرجال في الخلف يصغون للحوار باهتمام، وتدخل الشيخ حنفي، وقد أثار الحديث انتباهه:
- لا أحد يشمّ رائحة أحد يا أخ. هذه عصابة ولها زعيم!. لا بدّ أنّ هناك من يدعمهم، ويخطط لهم.
- التفت الحوذي، يتعرف على المتحدث..
- اطمئن.. شبابنا «مش ساكتين».. شباب لا يدري عنهم أحد، يسمّونهم «الفدائية».. يخرجون لهم في الليل.. يهاجمون الكومبانيات، ويقلقون راحتهم، حتى يعرفوا أنهم غرباء، وليس لهم خبز في هذه البلاد..

وقال ظافر القسام لعمّه:

- هذه أول مرّة أسمع عن الصهيونية.. من هؤلاء؟
- يقصد الحركة الصهيونية التي تمول اليهود، وتدفعهم للهجرة إلى فلسطين..

- ولماذا سموها الصهيونية؟
- نسبة إلى جبل في القدس اسمه صهيون، وتسمّوا كذلك، أملاً في العودة إلى فلسطين.

قال الشيخ حنفي «مازحاً»:

- الحمد لله أنهم لا يعرفون أن هناك جبلاً في اللاذقية اسمه «صهيون».. لكانوا طالبوا بالعودة إلى اللاذقية أيضاً.
ضحكوا، بينما استراح الشيخ القسام برأسه إلى الخلف منسحباً من الحوار، وغاب في خواطره يتأمل في الكلام..

«ثمة بوادر ثورة تضطرم تحت الرماد.. هذه الأرض لا يمكن أن تخضع لغاصب.. ثمة حكمة أزلية لا يستوعبها الطغاة.. الظلم هو الوصفة السحرية للغضب والثورة.. لكأنّ الرجل وهو يتكلم عن فلسطين تحت ظلم الإنجليز، واستفزازات صنائعهم من اليهود، يتكلم عن سوريا تحت عدوان الفرنسيين وظلمه»..
ولاحث دورية بعيدة من الخيالة الإنجليز، فنبههم الشيخ خالد..
- انظروا هناك!.

داخل الرجال قلق، أخفوه عن السائق، فلم ينبسوا، بينما تأهب القسام لمواجهة الموقف.

وعلق سائق العربة:

- انتظروا. سترون منهم الكثير.. «اللّه ياخذهم ويخلصنا من شرهم».
وسأله الشيخ عز الدين:

- تراهم ماذا يفعلون هنا؟
- كما يفعلون كل يوم، يتجولون في الشوارع والقرى، يستعرضون قوتهم، حتى يهابهم الناس.
- واستدرك الرجل يسأل:
- يبدو أنكم أول مرة تزورون فلسطين؟
- أجب القسام بحذر:
- صدقت..
- جئتم للعمل؟..
- سمعنا كثيراً عن حيفا، وأن فيها فرصاً للكسب، فقلنا نجرب حظنا فيها.
- الله يوفقكم.. حيفا فيها شغل كثير، لولا هؤلاء اليهود الذين صاروا يزاحمون العرب على لقماتهم.
- ووصلت دورية الخيالة، حتى صارت في محاذاة العربة، فراح قائد الدورية يتأمل ركابها، وظل يراقب العربة بعد أن تخطته مدّة، مما أثار حفيظة الرجال الذين ظلّوا ينظرون للدورية بطرف قلق، مشفقين من أن توقفهم، وتتطفل بالسؤال عن هوياتهم ومرادهم.
- وتنفس الشيخ الصعداء، وهو يشعر أن الأمور تمضي بسلام.. لقد ذكّرت هذه الدورية بظل انجلترا الثقيل الذي مقته يوماً، وعانى منه في مصر أيام دراسته في الأزهر..
- «ها هي بريطانيا العظمى تستفز مشاعرك يا عز الدين، لطالما أثار وجودها في مصر حنقك وغضبك من قبل.. لماذا لا يتركنا هؤلاء الطامعون نعيش حياتنا كما نريد؟!. يتقاسمون بلادنا كما يتقاسمون صينية الهريسة، التي كنت أبيعها أنا والتوخي على باب الأزهر.. هذه لي، وهذه لك..

بريطانيا في مصر وفلسطين وشرق الأردن والعراق وِعدن، وفرنسا في الشام ولبنان وبلاد المغرب، وإيطاليا في ليبيا.. والآن اليهود!.. والله أعلم من سيستوطي حائطنا بعد..

وأشار حوذي العربية إلى بعيد..

- انظر يا سيدنا.. هذه مستعمرة أخرى..

نظر القسام باتجاه المستعمرة، والغيظ يأكل صدره!..

«مستعمرة هنا، ومستعمرة هناك، وأسوارٌ غامضةٌ تخفي وراءها أطماعاً وأسراراً.. لطالما عاش اليهود بيننا معززين مكرمين.. لكنهم هذه المرة يأتون وقوداً لخطة خبيثة، حبكتها الحركة الصهيونية مع الإنجليز، فأقنعتهم بالتوجه إلى فلسطين لإقامة وطن لهم، وهاهم يتسربون بصمت، ليتجمعوا في جزرٍ معزولةٍ يلقها الغموض..

ماذا لو استمرت هذه المستعمرات في النمو والتكاثر؟.. من يضمن نواياهم وأفعالهم، وهم يعلنون سلفاً أنهم قادمون لبناء وطن.. وكيف يمكن لقوم أن يقيموا وطناً في قلب وطن، دون أن يمزقوه ويدمروه» ؟!..

استفزه السؤال، ورّوع مخيلته بصورٍ قاتمةٍ للمستقبل!!



وصلوا حيفا بعد الظهر بقليل، وقد استبدّ بهم الجوع، وما أن توقفت بهم العربة في ساحة الحناطير قريباً من مسجد حيفا الكبير، حتى لاذوا بمطعم صغير، وتناولوا فيه طعامهم..

وقال الشيخ ظافر القسام:

- ما رأيكم أن نستأجر غرفة في فندق أو خان.. حتى نرتاح قليلاً، ونتدبر أمورنا بهدوء؟

قال الشيخ عز الدين:

- لدي فكرة أخرى قد تنفع..

- ما هي؟..

- دعونا نذهب إلى المسجد أولاً.. نصلي ونرتاح قليلاً، ثم نبحث عن مأوى..

- ولكن..

- على الأقل نتعرف على أهل المسجد، فقد نضطر لأن نبيت ليلتنا فيه إن لم نجد مأوى..

كان الاقتراح معقولاً، في بلد لا يعرفون فيه أحداً.. فتوجهوا إلى مسجد حيفا الكبير في الجرينة، وأسرعوا إلى الموضأ، فاسترجعوا بالوضوء بعض نشاطهم.. ثم صلّوا الظهر، وجلسوا قرب المحراب، يريحون أجساداً أرهقتها طول السفر والتجوال..

وأذن للعصر، فدخلوا مع الجماعة في صلاة ضارعة، مشفوعة بالدعاء لله عز وجل، أن ييسر لهم، ويسد خطاهم في مقامهم الجديد.. وما إن سلّم الإمام، حتى لاذ كل منهم بأقرب عمود أو جدار، ليريح إليه ظهره..

واستغرقوا يتابعون الأذكار مع الإمام، وقبل أن ينتهي من الدعاء، نهض الشيخ عز الدين، متحفظاً لإلقاء كلمة يقدم لهم بها نفسه، ويبيّنهم همّ إخوانهم في الشمال السوري الأسير.. وأصغى المصلون لهذا المتحدث الذي لفت انتباههم بسمّته وكلماته..

- إخواني، السلام عليكم ورحمة الله..

أنا أخوكم في الله عزالدين عبد القادر القسام.. أزهرى من مدينة جبلة على الساحل السوري، الذي دسّسه الفرنسيون.. جئتكم اليوم مع بعض إخوانكم مهاجرين في سبيل الله.. بعد أن أهدر الغزاة دماءنا، وطاردوننا.. أيها الأحبة.. يا أهل هذه المدينة الطيبة.. جئناكم اليوم مهاجرين، فكونوا لنا الأنصار.. فكلنا أخوة، وكلنا في الهم شرق.. نحن ابتلينا بالفرنسيين، وأنتم ابتليتم بالإنجليز، وزادكم الله ابتلاء بهؤلاء المهاجرين اليهود، الذين تقودهم الحركة الصهيونية من أجل مطامعها في فلسطين..

الأجانب يا إخوان لا يميزون بين سوريا وفلسطين، فكل العرب والمسلمون عندهم أحفاد لصالح الدين الذي هزمهم، وكل الحروب التي يديرونها، تريد أن تتأثر لأجدادهم الصليبيين.. قالها «غورو» صراحة عندنا في دمشق عند قبر صلاح الدين، وقالها صراحة الجنرال «النبى» وهو يطاءً بدميه تراب القدس، التي حررها صلاح الدين..

فلنعصم بالله أيها الأخوة، ولنوحد القلوب والجهود من أجل أن تعود لهذه الأمة عزتها وكرامتها، ولنحذر مما يراد ببلاد الشام وفلسطين.. أرض الرباط التي بارك الله بها حول المسجد الأقصى.. أولى القبلتين وثالث الحرمين..

بلاد الشام يا إخوان قلب هذه الأمة، وهي مستهدفة عبر العصور..

غزاها الصليبيون والمغول ودحرتهم.. وهي قادرة بعون الله على دحر الغزاة الجدد، ولكن عندما تعود إلى ربّها، وتتمسك بأخوتها، وتواجه أعداءها صفّاً واحداً كأنّها بنيان مرصوص..

وتدقق الشيخ في كلمته، فمست القلوب وحركت المشاعر.. وشعر الحضور بأنهم مشدودون نحو هذا الشيخ، الذي يحمل هموم الأمة، ويغار على مصيرها.. وتعرف الناس لأول مرة على عز الدين القسام، ولمسوا في كلامه نبرة عزّ انتشت لها أرواحهم..

وسرى في الناس همسٌ لم يتوقف.. حيفا اليوم تستقبل مجاهداً من الشمال.



تقدم الإمام فسلم على الشيخ عز الدين، والتفتّ حوله عدد من المصلين، يشكرونه على كلماته التي لمسوا فيها الصدق، ويسألونه عن أخبار الشام الجريحة، وكان الحاج عبد الله مسمار يعمل قيماً على المسجد إلى جانب أعماله الأخرى، فلما حان وقت إغلاق المسجد، اقترب من الشيخ وصحبه، وألقى عليهم التحية بوجه باشّ ولهجة مرحة، فرحبوا به، وانفجرت الحلقة التي تضمهم، لتفسح له مكاناً..

قال وهو يتربع بينهم، ويده اليمنى ترفع الطربوش الأحمر، وتعيد وضعه بإحكام:

- يا هلا بالشباب.. حيفا اليوم فيها عرس.
- ثم وهو يتجه بالحديث للشيخ القسام:
- كلمتك يا شيخ عز الدين أثرت فينا جميعاً..
- بارك الله فيك..
- أخوكم الحاج عبد الله مسمار.. القيّم على هذا المسجد.. أتمنى لو أخدمكم بشيء، فانظروا بماذا تأمرون؟.
- شكره الرجال، بينما قال القسام:
- والله لا نخفيك يا حاج.. وصلنا من عكا قبل العصر، وما زلنا لم نرتب أمورنا هنا، فهل تدلنا على نزل نبيت فيه..
- ابتسم الحاج مسمار، وقال:
- عندي حلّ أفضل.
- تبادلوا نظرة باسمّة، بينما أخرج الحاج من جيبه رزمة من المفاتيح، وقال مازحاً:

- ثمة بيوت كثيرة في خدمتكم.
وأردف بنبرة ضاحكة:
- صحيح أنا قيّم المسجد، لكنّي أعمل أيضاً سمساراً لبيع وتأجير البيوت، وعندي أيضاً دكان صغير قريباً من هنا أمارس فيه هذه المهنة..
ثم وهو يتناول مفتاحاً، ويقدمه للشيخ عز الدين..
- هذا مفتاح لبيت صغير.. بيت متواضع من غرفتين، يقع قريباً من هنا، خلف سوق الخضار، وأظن أن ساكنه قد ترك فيه بعض الأثاث..
تبادل الرجال نظرة، وقد أسعدتهم هذه المبادرة، ووجدوا فيها توفيقاً كبيراً، ففي مدينة جديدة تحتاج إلى دليل ومأوى، وهاهو الحاج مسمار يختصر عليهم المسافة، ويحلّ لهم الأشكال.
- وأراد الشيخ القسام أن يسأل عن الأجرة، التي ينبغي أن يدفعوها لمثل هذا البيت، فقاطعه الحاج مسمار، وقد أدرك مراده:
- معاذ الله.. أنتم ضيوفنا إلى أن ترتبوا أموركم..
- هذا كثيرٌ يا حاج!
- بل قليلٌ على مجاهدين أمثالكم..
- أستغفر الله..
- وانطلقوا بصحبة الشيخ مسمار، نحو مأواهم الجديد.. وفي الطريق ابتدره الشيخ عز الدين بالسؤال:
- خبرني يا حاج.. كيف أحوال البلاد؟
- أجاب وقد اعترته كآبة واضحة:
- الدنيا لم تعد الدنيا في حيفا، والناس لم تعد الناس.. منذ أن دخل الإنجليز فلسطين، وأمورنا من سيءٍ إلى أسوأ.. والذي زاد الطين قطران.. هؤلاء اليهود، الذين يقذف بهم البحر إلينا كل يوم..

- إلى هذا الحد؟
- وأكثر. لي قريب في القدس، كان في زيارتنا من أسابيع، وحدثني عن مضايقاتهم للعرب في المسجد الأقصى.. يريدون أن يأخذوا الحائط الغربي للمسجد.. حائط البراق.. يدعون أن تحته هيكل سيدنا سليمان، ويحاولون أن يحتلوه ليصلوا عنده..
- قال القسام في قلق، وهو يواكب خطوات الحاج مسمار:
- هذا كلام خطير.
- توقف الحاج عبد الله مسمار، أمام باب خشبي قديم، وأخرج رزمة مفاتيحه، قال وهو يتأملها:
- أنتَ لم ترَ شيئاً بعد يا شيخنا.. ستسمع عنهم غداً القصص..
- ثم وهو يدير المفتاح في الباب:
- لو ذهبت إلى ميناء حيفا، لرأيتَ السفن وهي ترميهم علينا كل يوم.. ودائماً يجدون من يستقبلهم، ويحملهم إلى المستعمرات التي أعدت لهم.. يرطنون بلغات شتى.. والأخطر من هذا كله، أنهم مليئون بالمال..
- وانشغلوا باستكشاف المكان..
- قال الشيخ عز الدين، وهو يفتح باب إحدى الغرف، ويتأمل وضعها:
- اطمئنوا يا شباب.. لدينا هنا ما ننام عليه.
- أطلَّ الشيخ حنفي ليشاهد الأثاث الذي يتكلم عنه شيخه، فابتسم، وهمس للحاج علي عبيد متندراً:
- الشيخ يتكلم عن حصيرتين!
- نعمة من الله وفضل. المهم أن ننام.
- وقال الحاج مسمار:
- اعذروني يا جماعة، فهو كما أخبرتكم.. بيت متواضع، لكنّه المتوفر

الآن، وسأحاول أن أؤمن لكم بعض الفرش والأثاث.

شكره الشيخ عز الدين.

- إلى هنا وجزاك الله خيراً، نحن نتكفل بالباقي.

- ولو يا أستاذنا. أنت في حيفا.

وغاب الحاج مسمار مايقرب من ساعة، عاد بعدها مع حنطور حملّه

بما استطاع جلبه من داره من أثاث يفي بالغرض، ومعه بعض الخبز

والزيتون وسلّة من البرتقال، ودخل وهو يهتف في مرح:

- حيا الله ضيوفنا.

شعر الرجال بالامتنان لهذه اللفتة التي يعاملهم بها الحاج عبد الله

مسمار، وهتف الشيخ حنفي:

- بارك الله فيك يا حاج.. خشيت أن تتركنا على الحصير.

ضحكوا لدعايته، وعلق الشيخ عز الدين:

- من يسمعك تقول هذا لن يصدق أنك كنت تفتش الحصى، وتأوي

إلى الكهوف، لتنام متوارياً من الفرنسيين..

قال الحاج مسمار، وهو يعزم على برتقاله الذي فاحت رائحته في

المكان:

- هذا البرتقال من بيارة الوالد.. فوجئت به وهو على باب الدار

يعطيها للأولاد، فاشتيتها لكم.. تفضلوا بسم الله..

وأقبلوا على البرتقال شاكرين، بينما تابع الحاج يقول..

- اليهود دفعوا للوالد ثقل هذا البرتقال ذهباً من أجل أن يبيعهم

بيارته التي في قرية الطنطورة، لكنّه رفض، وما زالوا يلحّون عليه..

الملاعين يبحثون عن الأراضي الخصبة، ويشترونها..

وتساءل الشيخ علي الحاج عبيد:

- ومن أين لهم كل هذا الغنى؟
أجاب الحاج مسمار:
- من الصندوق اليهودي.. صندوق الصهيونية التي تمولهم وتدعمهم.
ثم وهو يطلق تنهيدة عميقة، وشت بما يعتمل في صدره من حرقة
وقهر..
- آه يا شيخ عز الدين.. لو تراهم.. يشترون الأراضي.. بينون القلاع..
ويزاحموننا في السوق.. لكأن البلاد بلادهم.. والإنجليز.. آه من الإنجليز..
ثم وهو يرفع يديه بالدعاء..
- اللهم أرنا فيهم يوماً..
وأردف متابعاً:
- الإنجليز يا شيخنا أسّ البلاء.. يسهّلون لهم القدوم والبيع والشراء،
ويحمونهم.. ويجرّئونهم علينا..
ثم وهو يبسط يده في يأس:
- فلسطين اليوم على كف عفريت يا شيخ عز الدين..
- يا لطيف.
- ماذا نفعل في وجه بريطانيا العظمى؟!.
- الله أكبر منها وأعظم يا حاجّ.
- ولم يلبث أن غادرهم مودعاً..
وخلدوا إلى النوم..
كانت أجسادهم مرهقة، لكن أرواحهم ظلت واجمة..
لم يكن همّ فلسطين قد تمكّن من قلوبهم كالיום!.



الأيام تمضي في حيفا، والرجال ما زالوا يستكشفون المجتمع الجديد، الذي بدأوا يألّفون الحياة فيه، لكنّ ما معهم بدأ ينفذ، ولا بدّ من فرصة عمل تدرّ عليهم دخلاً، وجربّ بعضهم أن يذهب إلى الميناء ليعمل عتّالاً باليومية، لكنّهم وجدوا المنافسة شديدة، والمكان مليء بالفلاحين الذين طردوا من أرضهم بسبب اليهود، وتحولوا مثلهم إلى عتّالين في الميناء، يتنافسون على يوم عمل، يدرّ عليهم قروشاً، هم في أمسّ الحاجة إليها..

وفكر الشيخ عز الدين بالاستعانة بمن يعرف، فصلّى الفجر ذات يوم، وخرج بصحبة ابن أخيه ظافر إلى سوق الشوام، يبحث عن قريب له هاجر إلى حيفا منذ أمد، وانقطعت أخباره.. سأل عنه الحاج مسمار وآخرون، فلم يعرفه أحد، ولم يكن الوصول إليه سهلاً، فالوافدون إلى حيفا كثير، فيهم الشامي واللبناني والمغربي والمصري.. فضلاً عن أبناء القرى والضواحي الذين يهبطون حيفا كل يوم..

قال الشيخ ظافر، وقد ذكّرتّه شوارع حيفا، ببلدته التي يحنّ إليها:

- ما أجمل حيفا.. لا ينقصنا فيها سوى الأهل.

- يبدو أن الشوق قد استبد بك.

- يعني أنت ياعمّي الذي لم يشتاقي!

تنهد الشيخ عز الدين وهو يرمي بنظراته نحو البحر، والريح تداعب صفحته الهادئة.. لم يكن طيف زوجته الطيبة وبناته الثلاث غائباً عنه طيلة هذا الترحال.. صورة أسرته وهي تودعه آخر مرة محفورة في وجدانه.. وتذكر كم عانت شريكة عمره معه، منذ أن اختار طريق الثورة والجهاد.

«المسكينة.. لا بد أن القلق يأكل صدرها الآن، بعد أن أخبروها بأني

قد صرت في فلسطين.. ليت طيور النورس هذه، التي تحلق في سماء حيفا، تطير إليها بالبشرى، أنا قد اجتزنا الخطر، ووصلنا إلى ملاذٍ آمنٍ.. وهبّت رائحة لطيفة، يعرفها القسام ويحبّها.. رائحة الفلافل الشامي، الذي يفنقه ويشتهيّه.. ونظر باتجاه مصدر الرائحة، فألفى المحل.. همس الشيخ عز الدين، وهو يقرأ اللافتة:

- فلافل وحمّص الشام - لصاحبه ممدوح الكفرسوساني

قال الشيخ ظافر:

- بداية جيدة.. لنسأل صاحب هذا الدكان.

- بل قل «نكسر السفارة» بطعام يذكّرنا بالبلد.. ألسنت بجائع؟

- أنت قلتها.. الفلافل الساخنة تغري الشبعان، فما بالك ونحن لم

نذق الزاد بعدا.

وتناولوا فطورهما بشهية واضحة، ثم طلبا كأسا من الشاي.

كان صاحب المحل منهمكاً في هندسة أقراص الفلافل، وإلقائها في الزيت الحار، لتفوح رائحتها الشهية المفعمة بعطر بذور الكزبرة في أرجاء الدكان، وتتسرب إلى السوق، وكأنها تدعو المارة، ليتذوقوا طعمها الشهي.. وتأمل القسام قطرميزات المخمل الشهية المرصوفة على الرفوف، بألوانها الحمراء والخضراء، فذكّره المنظر بمحل الحمصاني الذي كان يتردد عليه في الشام مع صديق قديم..

- هذا المكان يذكرني بصديق من فلسطين، كان يخدم معي في

الجهادية على أطراف دمشق.. إنه شديد الشبه بدكان كنا نأكل فيه، كلما

ذهبنا إلى قلب الشام، وتجولنا في ساحة المرجة.

- من فلسطين!..

- اسمه فرحان السعدي.

- من حيفا؟
- على ما أذكر هو من جنين.. عرفت أنها لاتبعد كثيراً..
- وكيف ستجده؟..
- ضحك الشيخ..
- وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
- يظنّان كل الظنّ أن لا تلاقيا
- واستدرك الشيخ القسام وهو يبجر بخياله في الأيام الخوالي، يتدبر
- ذكرى قديمة، أثارت في نفسه الشجن:
- سقا الله تلك الأيام.. كنا مندفعين للقتال في جيش الخلافة، وهي
- تواجه أعداءها.. كنا واثقين من أن الخلافة ما زالت رمزاً لوحدة المسلمين
- وعزتهم، رغم كل ما اعتورها من ضعف وفساد.
- لكنك استفدت من تلك الفرصة على أية حال.
- صدقت.. كان التدريب قاسياً ومفيداً.. تعلمنا فيه كل صنوف القتال،
- لكن فرحان السعدي كان أمهر مني.. لم أر جندياً أكثر منه براعةً في
- التسيّد.. لكم أشتاق إليه.
- لنجد قريينا الآن.. فهو على الأقل هنا في حيفا.
- والتفت الشيخ عز الدين إلى الحمصاني..
- قل لي يا أخ:
- تفضل يا شيخي.
- أتعرف شخصاً هنا، يدعى الشيخ أمين نور الله؟
- صمت الحمصاني قليلاً، وهو يحك صدغه بسبابته متفكراً:
- الشيخ أمين.. الشيخ أمين.. والله تعذرني يا شيخي.. لم أسمع بهذا
- الاسم من قبل.. لكنني سأدلك على شخص قديم في السوق.. بعد سبيل

الماء بمحلين.. لا يوجد أحد لا يعرفه هنا من الشوام.. اسألوا عن الحاج زهدي الطرايبشي.. يعمل بائعاً للطرايبش.. كلّ الشوام يشترون طرايبشهم من عنده.

- - يبدو من لهجتك أنك من الشام..

- من كفرسوسة.. أجمل بساتين دمشق ورياضها.. بينها وبين المرجة فركة كعب.

- أعرف الكسوة.. خدمت فيها الجهادية منذ ثماني سنوات.

- الله يحييك.. في المرة القادمة، لا تنس أن تزور كفرسوسة، فهي جنة من جنات الشام.

تبادل القسام مع ابن أخيه ابتسامة مرّة.. وطاف بخاطره سؤال قرص شغافه.. «ترى هل ستكتب لك زيارتها ثانية يا عز الدين!».. وتساءل مستطعاً:

- ما أخبار الناس بعد أن دخل «غورو» الشام؟

كان الحمصاني يرفع الأطباق من أمام الشيخ، فداهمه السؤال. قال، وهو يعرض على شفثيه من الغيظ، وقد أثار السؤال أشجانه:

- آخ يا شيخي.. كنت أتمنى لو كنت هناك.. لكنك أول من يذهب مع

يوسف العظمة، الله يرحمه.. ولكن الله ما أراد.

- رحمه الله.. لقتهم درساً.

علّق ظافر، وهو يهز رأسه في أسى:

- للأسف، ذهب رخيصاً.

انبرى القسام محتجاً:

- لا تقل هذا يا ظافر.. المهم أنه قاوم بشجاعة.. الواجب أن نقوم بما

يتوجب علينا، مهما كان الثمن.. تخيل أن تسقط الشام، دون أن يقف في

وجه الغزاة أحد.. إذن على الدنيا السلام.

هتف الحمصاني بنبرة غاضبة، وقد أثار كلام الشيخ حماسته:

- باطل!.. إن شاء الله سنأكلهم بدون ملح.. الفرنساوي بإذن الله لن يبقى في الشام.. رجال الشام وقباضيات الشام- بعونه تعالى - لن يدعوه يفرح بها.. الأخبار تأتيني من هناك.. شباب كثيرون التحقوا بالغوطة، وبدؤوا يهاجمون الفرنسيين..

سرّ القسام بكلام الكفرسوساني..

- منذ متى وأنت هنا في حيفا؟.

- من سنتين.

- وما الذي جاء بك إليها؟.

- «الرزقة» يا شيخي.. «الرزقة»..

وأردف قائلاً، وهو يصبّ لهم الشاي:

- كلها بلاد الإسلام.. مافي فرق إن شاء الله.. والله أمر بالسعي..

وكما يقول المثل: اسع يا عبدي، أسعى معك.

واستأنس بهما بائع الفلافل، فراح يحدثهما عن حيفا وسوق الشوام، وطيبة أهل فلسطين.. ولم ينس أن يحكي لهما عن جاره اليهودي الشامي، الذي يعمل بائعاً للقماش، والذي كلما اشترى من عنده فلافل، سأله أن يعطيه قرصين على البيعة «كرمال» الجيرة، وعندما طلب منه يوماً، أن يخصم له قليلاً من سعر قطعة قماش «كرمال» الجيرة، شكاه القلّة وتعثّر الأحوال، وعندما ذكّره بأن الرسول أوصى بسابع جار، قال له: «خببي.. نسيت إني يهودي!».

ضحكا، وشكراه على حفاوته، وأراد ظافر أن يخرج كيس النقود من

زناره، فردّه برفق:

- عيب يا قبضاي.. رجّع كيسك..
- ولكن..
- هذه المرة على حسابي.. المحل محلکم..
- وأردف مستدرکاً:
- كما قلت لکم.. الحاج حمدي الطرايشي، أحسن من یدلکم على
- زلمتکم.. هو أقدم شامي في هذا السوق.
- ثمّ وهو یميل إلى الدعابة:
- لا بد أن الشيخ أمين احتاج يوماً إلى طربوش.



لم يكن استقبال الحاج زهدي الطراييشي للشيخ القسام وابن أخيه، أقل ترحيباً من استقبال ممدوح الكفرسوساني، ومع أنه اعتذر، لأنه لم يكن على معرفة مباشرة بالشيخ أمين نور الله، إلا أنه نصحهم أن يسألوا عنه في الجمعية الإسلامية، ففيها بعض الشوام ممن لجؤوا مع الملك فيصل إلى حيفا بعد سقوط دمشق، وقد يتعرفون عليه، أو على من يعرف أخباره..

وهكذا كان.

واستقبلهم الشيخ أمين في بيته بالأحضان..

- كيف حالك يا عز الدين.. الله يرحم والدك الشيخ عبد القادر..
كان عالماً فاضلاً وأخاً عزيزاً.

ثم وهو يلتفت إلى ظافر:

- لك أن تفخر بجذك يا ظافر، فقد كان من وجهاء جبلة ومشايخها المشهود لهم بالعلم والفضل.. وأيضاً والد جدك الشيخ مصطفى رحمهما الله.. كانا من أهل التقى والورع..

علق الشيخ عز الدين:

- لذلك سمى والدي أخي مصطفى - رحمه الله - والد ظافر ومالك،
على اسم جدي.

وسأل الشيخ أمين القسام:

- مصطفى على ما أظن، أخوك من أبيك؟

- أجل.. رحمه الله.. كنت أحبه كثيراً..

قال الشيخ أمين، وهو يتأمل ظافراً:

- من خلف ما مات.

- بارك الله فيك يا عم.

ورمق الشيخ أمين الدين بنظرة ودّ، قال يتابع كلامه نظافر القسام:

- كان همّ جدك أن يعلم عمك عز الدين في الأزهر الشريف.. ثم أرسل خلفه أخاه فخري. وتنهّد مستطرداً..

- نكأت هذه الزيارة ذكرياتي يا جماعة.. يعزّيني أحياناً أن الحياة في حيفا، تشبه إلى حد كبير حياتنا هناك.. ولكن ماذا نقول! من يأكل برتقال حيفا، لا يستطيع أن يتركها. واستدرك الشيخ أمين:

- حدّثني الشيخ كامل القصاب عندما مرّ بحيفا مع الملك فيصل ورجاله بعد خروجهم من دمشق، أنك قدّت ثورة في اللاذقية والساحل، وأن الفرنسيين قد طاردوك، وحكموا عليك بالإعدام، وقد كان بالي عندك.. تساءل الشيخ عز الدين باهتمام:

- الشيخ كامل هنا؟..

- كان هنا، ثم ذهب إلى الحجاز..

واستدرك قائلاً:

- حدّثني بما مرّ معك حتى وصلت هنا..

وروى له الشيخ القسام قصة ثورته ضد فرنسا، من أولها إلى أن وصل مع أصحابه إلى حيفا. سأل الشيخ أمين باهتمام:

- وماذا ستفعل الآن يا أبا...؟

- أبو محمد.

- ما شاء الله.. وكم عمر محمد الآن؟

- ما زال في علم الغيب ياشيخ أمين.. لم أرزق حتى الآن سوى
بالبنات..

وعلق الشيخ ظافر:

- عمّي سمّي نفسه أبا محمد، نسبة إلى قاضي جبلة وفقهها الشهير
أبو محمد عبيد الله بن منصور، الذي استبسل في الدفاع عن مدينة جبلة
ضد الصليبيين. تعرف قصته بلا شك!.

- اسم على مسمى إن شاء الله..

رد الشيخ عز الدين في تواضع:

- أين نحن من أولئك الرجال.. أولئك الذين جاهدوا وحققوا نصراً..
أما نحن.. فيا حسرة..

- فيك الخير يا أبا محمد. لن أناديك بعد اليوم إلا بهذا الاسم،
تيمناً بقاضي جبلة، وتفاؤلاً بردّ الأعداء والطامعين..
واستدرك يسأل..

- لم تقل لي.. ماذا ستفعلون الآن؟..

- نبحت عن رزق يكفيننا مؤونة العيش، وقد كاد ما ادخرناه لرحلتنا
أن ينتهي، فيماذا تنصح؟

- وماذا يمكن أن يعمل أزهرى مثلك؟!

- أيّ عمل نعتاش منه.

- لا أرى لك إلا أن تعمل بالتعليم.

- إذا كان هذا متاحاً فيا مرحباً..

- جمعية حيفا الإسلامية كما حدثتك، تنهض وتنمو بسرعة.. وقد
أنشأت مؤخراً مدارس للبنين والبنات.. ولعلي سمعت أنهم ما زالوا بحاجة
إلى مدرسين في مدارس الإناث، فما رأيك؟!

تهلّل وجه الشيخ عزالدين..

- على بركة الله..

وغاب الشيخ أمين وعاد بطبق من البرتقال الشهي، وهو يقول:

- تفضلوا فتناولوا برتقال حيفا، فمن ذاق برتقالها لم يتركها أبداً..
وراود الشيخ خاطر غريب، فقال مازحاً، وهو يتناول برتقالة شهية،
ويتأملها:

- إذا صدق أنّ «من يأكل برتقال حيفا لا يتركها» نكون بذلك قد
علقنا هنا للأبد، فأينما دعينا قدموا لنا هذا البرتقال، وذكّرنا بتلك
الحكمة..

ضحكوا، وتمنوا أن يكون هذا القول نوعاً من المبالغة، عسى ولعل الله
يردّهم إلى جيلة، بعد غربة يرجونها ألا تطول.. وأرادا أن يمضيا، لكن
الشيخ أمين رفض، وقال بلهجة بان فيها التصميم:

- بل تأتون بأغراضكم، وتقيمون عندي جميعاً إلى أن يأذن الله
بالفرج.

- ولكن..

- هذا قرارٌ لا عودة عنه.. أم ستعاملوني وكأنني غريب!.

- معاذ الله.

- تعودون بعد المغرب مع أمتعتكم، وستجدون سكناً مناسباً
بانتظاركم..

طرق ظافر الباب، وقال:

- ستكون مفاجأة لهم، عندما يعلمون بمقامنا الجديد.
- الحمد لله على كل حال.. احتفاء الناس بنا، يخفف وطأة هذه
الغربة.

- لقد أطلنا المقام عند الحاج مسمار، وأوقفنا حال هذا البيت.
- صدقت، فالرجل يتكسب من تأجير البيوت، وهو مازال يرفض أن
يتقاضى منا أجراً مهما كان.

وفتح علي الحاج عبيد الباب وهو متجهم الوجه. ألقى عليه ظافر
التحية، فردّ بيروود.

واستغرب الشيخ عز الدين هذا الأسلوب، الذي لم يعهده في الشيخ
عبيد من قبل!.

- ما بك؟

أجاب وهو مطرق.

- خبر لا يسر!

- أي خبر؟

- أسأل الشيخ خالد؟

واتجه القسم إلى الشيخ خالد، وهو مربدّ الوجه، تساوره الهواجس..

- خير إن شاء الله.

أطرق ولم ينبس. فراح يتأمل الوجوه التي غلب عليها الحزن والغموض..

- ما هذا الخبر الذي أورثكم الكآبة إلى هذا الحد؟.. تكلموا!

قال الشيخ حنفي بنبرة تنطق بعدم الرضى.

- الشيخ خالد.
- ما به؟
- قرر العودة إلى جبلة..
- صدم الخبر الشيخ عز الدين..
- أضحك ما سمعت ياشيخ خالد!؟
- رفع إليه وجهاً كئيباً علتة مسحة من الأسى، وعيناه لا تجرؤان على مواجهة الشيخ، الذي لم تخل نبراته الصارمة من العتاب..
- تعذبت كثيراً حتى وصلت إلى هذا القرار.
- أأساء لك أحد بشيء؟
- رد الشيخ خالد في إنكار..
- معاذ الله.. ليس الأمر البتة كما فهمت!.
- ماذا إذن؟
- لم أعد أحتمل هذا الهدوء والخمول.
- ما زلنا في أول الطريق.
- كل القصة أني قلبت الأمر، فوجدت أننا نعيش هنا غرباء، بينما أهلنا وأعمالنا وقضيتنا هناك.. في جبلة.. فقدرت أن المرء لو عاد إلى أهله وبلده لكان أكرم.
- أثار كلامه شجناً في نفس القسام..
- هل نسيت لماذا خرجنا من هناك؟
- الفرنسيون لن يبقوا إلى الأبد، أستطيع أن أتجنبهم، وأعيش حياتي كما أريد..
- كان أولى بك أن تقول هذا قبل اليوم!.
- لم أحسب حساب الغربية.

- احتسبها عند الله، والأجر على قدر المشقة..
 - لم أكن أدرك أن الانفصال عن البلد مؤلِّمٌ إلى هذا الحد.. أعمالي
 في جيلة تكفيني، وتزيد، وقد يكرمني الله، فأرسل لكم بعض المال، لتكملوا
 ماقد تعاهدنا عليه..

قال الشيخ حنفي مؤنباً:

- يا أخي كل الذي صار لنا في حيفا شهران، فعن أي غربة تتحدث
 يا شيخ خالد؟. اصبر قليلاً، فقد يجعل الله لنا مخرجاً.
 وأردف الشيخ علي:
 - إن بدر منا ما أساءك يا أخي، قبلنا رأسك، فقد تندّ عن المرء
 أشياء لا يقصدها.

لوح الشيخ خالد بيده منكرًا، ومؤكداً من جديد:
 - يا جماعة أرجوكم.. لا دخل لأحد فيما توصلت إليه من قرار.. الأمر
 بعيد كل البعد عن هذا.

ثم، وهو يلوذ بالشيخ عز الدين متوسلاً:
 - أرجو أن تسمح لي يا شيخ عز الدين، فلم أعد أطيع الانتظار.
 أطرق الشيخ عز الدين إطراقة حزينة، مستسلماً لرغبة الشيخ خالد،
 الذي كان من أفضل تلاميذه وأحبهم إلى قلبه، فمن يجروء أن يعترض رغبة
 إنسان لم يعد يطيق البعاد عن وطنه؟..
 - هل رتبت للرحلة؟.

وقع سؤال الشيخ على الرجال كالصاعقة. وتبادل الشيخ حنفي والشيخ
 عبد المالك القسم نظرة ملؤها التعجب، وصددهم جواب الشيخ خالد أكثرًا.
 - لو أذنت لي، أمضي من ساعتني هذه.
 قال الشيخ حنفي بنبرة تقطر عتياً وحنناً:

- ألهذا الحد أنت مستعجل ياشيخ خالد؟.
- كان بودي أن أبقى معكم، لكن صدقوني يا جماعة، ثمة شيء يلجّ علي، وينادينني إلى هناك.
- شد القسم على كتف الشيخ خالد:
- الرأي لك في النهاية، فهذه حياتك وهذا قرارك.. لكنك تعلم أن رأسك مطلوب مثلنا، وعليك أن تحترس.
- أعلم. وسأحتال للأمر حتى أصبح في مأمن.. والله الأمر من قبل ومن بعد.
- شد القسم على كتفه ثانية في ود.. تمنى لو أنه هو الذي سيعود. قال بنبرة مستسلمة:
- إذا عزمت، فتوكل على الله.
- وهبّ الشيخ خالد إلى شيخه فعانقه بحرارة، بينما نشج الشيخ حنفي تأثراً، وهمس ظافر القسم منفِعلاً:
- ادع لنا في ظاهر الغيب يا شيخ خالد.
- سأظل أدعو لكم ماحييت، وأطلب منكم السماح إذ خذلتكم، بعد أن قطعنا كل هذه المسافات..
- وودعوه بحزن، وضمه الشيخ حنفي بقوة:
- كن حريصاً.
- ثم استدرك، وهو يحتفظ بيده بين راحتيه:
- لا تنس أن تسلم لي على الأهل في جبلة.
- وتابع وقد تهدج صوته:
- فوالله ما اشتقت في حياتي كما أشتاق لهم الآن.
- وأجهش بالبكاء.

عندما دخل الشيخ عز الدين بصحبة قريبه الشيخ أمين نور الله القاعة، أدهشته تلك الحفاوة التي استقبله بها أعضاء الجمعية الإسلامية، وعلى رأسهم الشيخ محمد أفندي مراد، مفتي حيفا، وتركت في نفسه شعوراً عميقاً بالارتياح لهؤلاء الرجال، الذين بادلوه كل مشاعر الأخوة، وشعر بالامتنان والعرفان للشيخ أمين، للصورة المضيئة التي نقلها عنه لأعضاء الجمعية، فاستقبلوه بأكثر مما كان يتوقعه..

وقال الشيخ مراد مُرحباً:

- نورتَ حيفا يا شيخ عز الدين، أرجو أن تعتبر نفسك منذ اليوم عضواً أصيلاً في هذه الجمعية، التي أسست لتكون حصناً من حصون الإسلام في وجه ما يراد لهذا البلد وأهله..

- بارك الله فيك يا شيخ محمد.. ونفع الله بكم وبها.

- الشيخ أمين قال لي أن الفرنسيين خزاهم الله حكموكم بالإعدام، فالحمد لله على السلامة..

- سلمك الله.

- على كل حال يبدو أن فرنسا سوف تحكم على كل أهل سوريا الشمالية بالإعدام، فكل الذين جاؤونا قبل مدة مع الملك فيصل، كانوا محكومين بالإعدام.

ضحك الجميع لدعابته، بينما تابع الشيخ مراد، وهو يتوجه بالحديث إلى الأستاذ رشيد بقدونس..

- عندك هنا أيضاً أخونا الأستاذ رشيد ممن شملهم هذا الشرف.

علق الأستاذ رشيد بقدونس:

- حكم القوي على الضعيف.

علق الشيخ عز الدين:

- يبدو لي يا أستاذ رشيد أنا صنعنا ضعفنا بأيدينا.. لو توحدت هذه الأمة، وتعاونت على الجهاد، لما كان لهؤلاء الغزاة أن يجتاحونا اليوم. تحمّس لهذا المنطق شابّ مهيب، يبدو أصغر الحاضرين سنّاً، وسميماً النباهة والحكمة تلمع في عينيه:

- أصبت كبد الحقيقة يا شيخ عز الدين.. ضعفنا هو الذي أغرى بنا.. اختلافنا وتفرقتنا هو السلاح الذي تذبجنا به فرنسا وبريطانيا كل يوم.. ولا حلّ لنا إلا بالوحدة والجهاد ضد هؤلاء الذين جاؤوا يستبيحون ديارنا، ويصادرون استقلالنا..

استدرك الشيخ محمد مراد معرفاً:

- سامحنا يا شيخ عز الدين.. كان ينبغي أن نعرفك على أعضاء الجمعية أولاً، فالمتحدث هو الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم، عضو المؤتمر السوري عن حيفا، ومن ألمع شباب هذا البلد..

شكره الأستاذ رشيد في تواضع، بينما استمر الشيخ مراد يعرف الشيخ القسام على بقية الأعضاء..

كان الشيخ عز الدين يصغي، وهو سعيد بهذه النخبة، واستأنفوا الحديث، فتدخل الشيخ أمين قائلاً:

- المصيبة يا جماعة بدأت عندما وثقنا بهؤلاء الأجانب وسلمناهم قيادتنا.. فكناً كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

ردّ الأستاذ رشيد بقدونس:

- لكأنك تقصد الملك فيصل ياشيخ أمين.. قد أوافقك على ما قلت، ولكن فرنسا وبريطانيا كانتا تخططان لغزونا على كل الأحوال.. لعل الملك

فيصل بسياسته وحنكته حاول تخفيف الكارثة، أو تأخيرها على الأقل..
 انبرى الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم معارضاً:
 - لكنّي أعتب عليه لأنه كان يتراجع طيلة الوقت، ويرضخ في النهاية
 لضغوط الفرنسيين والإنجليز.

دافع الأستاذ بقدونس عن رؤيته..
 - لنقل ماله وماعليه يا إخوان.. يكفي أنه رعى المؤتمر السوري
 الأول، الذي سمح لأحرار سوريا الكبرى بأن يجتمعوا على وحدة سوريا
 الطبيعية من دمشق إلى بيروت إلى القدس إلى عمّان، ويطالبوا باستقلالها
 موحدة غير مجزأة.. وقد حضرت المؤتمر بنفسك يا رشيد أفندي عن حيفا،
 وشعرت بروح الاستقلال التي رعاها الملك، لتكون ديدن كل السوريين في
 كل بلاد الشام.

قال الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم:
 - لا أنكر هذا، لكن المبالغة في حسابات السياسة جعلته يخسر كثيراً..
 وأراد الأستاذ سليمان الصلاح عضو الجمعية، أن يفك الاشتباك بين
 الرشيديين حول موقف الملك فيصل:
 - أيّ ما كان يا إخوان.. فنحن اليوم أمام مصيبة جديدة تحتاج منّا
 أن نتحد ونتعاون لمواجهتها.. مصيبة هذه الهجرة اليهودية التي زادت عن
 المعقول..

قال الشيخ عز الدين:
 - صدقت. فما صدمني شيء في فلسطين كهذه المستعمرات التي
 تؤسس لوجود غريب أعانكم الله عليه..
 علق الأستاذ الصلاح:

- و«الحبل على الجرار» يا شيخ عز الدين.. في كل يوم نسمع عن

أرض اشتروها، لببنوا عليها مستعمرة جديدة.. ولا يشترون إلا الأراضي
الخصبة والمميزة بموقعها وطبيعتها.

ودخل نادل يحمل أكواباً من الشاي، فتابع الشيخ مراد، وهو يدعوه أن
يبدأ من عند ضيف الجمعية:

- يا إخوان دعونا الآن من حديث السياسة، لنرى كيف يمكن أن
نستفيد من وجود الشيخ عز الدين وعلمه في جمعيتنا..

قال الأستاذ رشيد بقدونس بصفته مدير مدارس البرج التابعة للجمعية:
- لدينا نقص في مدرسة الإناث الثانوية لا يرممه إلا عالم أزهرى
كالشيخ القسام.

والتفت إليه الشيخ مراد:

- هل تكرمنا بالموافقة على التدريس في مدرسة البنات يا شيخ عز
الدين؟.

أجاب، وهو يضم كفه اليمنى إلى صدره تعبيراً عما يشعر به من امتنان
وعرفان:

- بل أنتم الذين تكرموني بهذا الاختيار، وإن شاء الله أكون في خدمة
هذه المدينة الطيب أهلها، والتي طوقتني بكرم رجالها وأعيانها الكرام..
ورحب أعضاء الجمعية بموافقته، فيما يشبه التصويت على هذا القرار،
وعقب الأستاذ بقدونس يطمئن الشيخ عز الدين:

- لدينا أربع وعشرون ساعة شاغرة، سنحاول أن نجتمع لك في أربعة
أيام حتى لا نتقل عليك.

كانت خطوة مهمة، لم ينس الشيخ عز الدين، أن يشكر عليها الشيخ
نور الله الذي مهد له الطريق للانضمام إلى مجتمع النخبة في حيفا.. هذه
المدينة التي بدأت تملك عليه قلبه.



التحق الشيخ عز الدين بعمله الجديد في مدرسة البرج الثانوية للإناث، وهو سعيد بهذا الدور، الذي يلاقي في نفسه توقفاً للعلم والتعليم، ويفتح أمامه باباً للكسب الحلال، حتى يقوم بمصاريفه ومصاريف إخوانه، الذين ما زالوا قعوداً عن العمل..

ودعته مديرة المدرسة إلى فصل بنات الشهادة الثانوية، لتعرف طالباتها عليه.. وعندما دخل الفصل بصحبتها، تراءى له طيف ابنته ميمنة، وكأنه يراها هناك.. على ذلك المقعد.. تجلس بجانب تلك الفتاة التي تشبهها، وقد جاءت للترحيب به في موقعه الجديد..

وتعلقت عيون البنات بهذا الشيخ، الذي يطلّ عليهنّ اليوم بسمته الوقور، بينما راحت المديرة تقدمه لبناتها، واصفة إياه بالمجاهد والأزهري اللامع ورجل المواقف، فأطرق وهو يداري شعوراً بالتواضع لهذا الإطراء، وراح يستعد لمواجهة طالباته، اللواتي رحنَ يتأملنه بطرف يختلط فيه الإعجاب بالفضول.. يحاولنَ اكتشاف هذا المعلم الفريد، الذي عبر من أقصى سوريا إلى قلب فلسطين، ليحتل في حياتهن هذه السويغات من كل أسبوع، مدرساً لمادة التربية الإسلامية..

واستلم الشيخ عز الدين زمام الحديث..

- بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وإمام المجاهدين.. أما بعد:

بناتي الفاضلات.. يسرني أن أكون بينكنّ اليوم معلماً، لكني أتمنى عليكنّ ألا تنظرنّ إليّ كمدرس، ولكن كأب ووالد يسره أن يبذل لكنّ كلّ توجيه ومساعدة في هذه الحياة، التي أتمنى أن تتوج بالسعادة والصلاح..

وتكلم القسام عن دور المرأة في الإسلام كمعلمة وطبيبة ومجاهدة، وروى قصص نسيبة وخولة والخنساء، فحرك في وجدان طالباته شعوراً غامراً بالثقة والفخر، والتطلع لدور أكبر في هذه الحياة.. وانسحبت المديرية في هدوء، لتترك الشيخ يكمل درسه الأول، لكنّه فضل اختصار كلمته، ليتعرف أكثر على طالباته، وترك لهنّ فرصة الحديث والسؤال، فنهضت فتاة من أقصى يسار الفصل، تريد الكلام:

- ما اسمك؟

- خديجة.

- تفضلي..

- أمانة تريد أن تسأل..

- من أمانة؟

وأشارت إلى صديقتها التي بجانبها، فتجاوزها الشيخ إلى صاحبة السؤال..

- تفضلي، واسألني ما بدا لك يا أمانة.

عادت خديجة تتكلم نيابة عنها:

- هي تستحي أستاذًا.

كان الموقف طريفاً..

- انهضي يا أمانة، ماذا تريدين أن تسألني؟

نهضت أمانة، وقد تورّد وجهها، وتقصّد العرق من جبينها من شدة

الحياء. قالت بنبرة غلب عليها الارتباك:

- سؤالي عن..

وتلعثمت، فابتعلت ريقها، محاولة أن تكمل، فشجعها القسام بإيماءة.

قالت:

- أفصد أستاذ.. دور الأم.. ألا يعدّ من الجهاد؟

لفتت البنت نظر القسام بنبرتها الحوية، وسؤالها الذي ينم عن
النضج، فأجاب في حماس:

- بل هو الجهاد الأكبر..

وانتبه القسام إلى أنّ سؤال أمنة قد أثار ابتسامات ووشوشات، فتساءل
عن السر؟!

نهضت أجراءهن، وقد عقدت يديها خلف ظهرها، قالت وهي تنظر إلى
أمنة نظرة ذات معنى:

- أمنة أستاذة مخطوبة لابن خالتها، وهي تريد أن تترك المدرسة لأن
عرسها قريب.

اندلعت بعض الضحكات، فنهراها القسام:

- ما المضحك في الأمر؟.

عادت الضحكات المكتومة ثانية، فاحمر وجه أمنة خجلاً، وأخفضت
وجهها بكفيها، تداري حرجاً.

دقّ القسام بكفه على الطاولة منبهاً، ليوقف سيل الضحكات والتعليقات،
وقال بلهجة صارمة:

- أولاً نبارك لأختنا أمنة خطبتها، ونتمنى لها زواجاً سعيداً،
وثانياً نتكلم في هذا الفصل بما أردنا، على ألا نتجاوز حدوداً أو نجرح
أحدًا.

سرت في النفوس رهبة أحدثتها اللهجة الحازمة، التي تكلم بها الأستاذ
الجديد، فعزّ عليه أن يذهب في درسه الأول إلى آخر حدود الجدّ، وابتسم
نصف ابتسامة، ملطفاً من الجوّ:

- على كل حال، ليست أمنة الوحيدة التي ستصبح أماً، وإن سبق عريس
أمنة إليها، فالعرسان في حيفا كثير، وسينالكنّ منهم نصيب.

ضحكنَ في حذر لدعابة الشيخ عز الدين، وقد تحررنَ قليلاً من الخوف، الذي أحدثته تلك الصرامة التي بدت في ملامحه، وأعجبنَ بهذا المعلم الجديد، الذي يعرف كيف يوازن بين الهزل والجد. وتابع الشيخ عز الدين، وقد عاد إلى ملامحه الجادة الصارمة:

- نحن يا بنات نحب الكثير من العظماء، ونكثر من الحديث عن مآثرهم، ولكن، من ربّي هؤلاء العظماء؟..

هتفت أكثر من بنت..

- الأم..

- نعم.. الأم التي كانت تزرع فيهم وهم أطفال الأخلاق الحميدة وقيم البطولة والفداء، والعمل لنصرة الحق والخير..

وتابع مشيراً لأمته..

- وأختكم أمنة تسأل، لتتأكد من أن دور الأم لا يقل عن دور أولئك المجاهدين، الذين يدافعون عن أرضهم وأمتهم.

ثم وهو يشمل أمنة بنظرة تفيض بالأبوة والإكبار:

- بورك فيك يا ابنتي، فقد أثريت هذا الدرس بأمر لا ينبغي أن يفوت أيّ فتاة تتطلع للمستقبل..

وتابع قائلاً في حماس:

- الفتاة المؤمنة.. فتاة حيفا ويافا وعكا والقدس والخليل.. فتاة فلسطين.. لا يمكن لها أن تربي أطفالها إلا على سيرة أولئك العظماء، الذين دحروا العدوان، وحققوا النصر، وحافظوا على حقوق الأمة وكرامتها..

ثم وهو يشير بيده تلقاء الشرق..

- على بعد سويغات من هنا مثلاً.. تقع حطين، حيث هزم الناصر

صلاح الدين الصليبيين، فكتب بنصره ذاك بداية نهايتهم في هذه البلاد..
 وقرب حيفا يقع مرج بني عامر.. السهل الذي شهد معركة عين جالوت،
 حيث حطم الظاهر بيبرس على ثراه جيوش المغول، وقد تكون إحداكن من
 قرى هذا المرج، الذي يعج اليوم بالغرباء الذين تعرفتمهم جيداً.

وتبادلت البنات نظرات واجمة، وقد أدركن ما يرمي إليه الشيخ، فالكل
 يعرف عن مكائد وحكايات اليهود الذين سيطروا على أراضي أهاليهنّ أو
 أقربائهنّ في مرج بني عامر، ليقيموا عليها مستعمراتهم..

وأثار الأستاذ الجديد إعجاب الطالبات بكلماته، التي حركت كوامن القلق
 والمخاوف، التي تملأ بيوت حيفا، إزاء هذا الخطر الداهم، ولم يتوقعن أن
 يحوّل دعاية خطبة أمانة، إلى درس في حب الوطن وتربية الأبطال الذين
 سيدودون عنه، كما لم يتوقع القسام أن تستقبل البنات كلماته بهذه الجدية
 وهذا الانتباه، وقد ظنّ أنهنّ وهنّ في سن الصبا، يتفتحن على الحياة بمرح
 وإقبال، بعيدات عن جو الغليان الذي يسري في البلاد، إزاء مايفعله الإنجليز
 والمهاجرون اليهود..

وأراد الشيخ عز الدين أن يعمق الحدود التي رسمها لطالباته، مستثمراً
 تفاعلهن مع الحديث، فطلب من أمانة الوقوف ثانية، وطلب من البنات
 تحيتها، ليطيّب خاطرهما..

- طلبت أن نحیی أمانة، لأنها تشعر بمسؤولية ماهي مقدمة عليه،
 فالفتاة كما يجب أن تتعلم القراءة والكتابة والحساب، عليها أن تتعلم كيف
 تكون أمّاً فاضلةً قادرةً على تربية الأجيال.

وشعرت أمانة بامتنان عميق لهذا الأستاذ الرائع، الذي شملها بكل هذه
 الرعاية، وكل هذا الاحترام.



استبدت بالشيخ عز الدين رغبة في المشي، فحملته قدماه إلى الشاطئ.. كان الجو رائعاً، والنسائم الباردة المشبعة بأنداء المطر، تمسّ الوجوه مسّاً رقيقاً، فتتعش الأرواح، وتبعث فيها أشواقاً وخواطر شتّى..

ورغم أشعة الشمس، التي كانت تتسلل من بين الغيوم بين الحين والآخر، إلا أنّ الجو كان يندر بيوم ماطر، توشك غيومه السوداء أن تطرح أحمالها من الخير مرة واحدة.

وأصغى الشيخ إلى صوت الموج الصاخب، فألفاه يتراكم نحو سور الشط الحجري الصغير، في محاولات لا تيأس، للقفز فوقه، كي تعانق مياهه الرمال القديمة، التي حال هذا السور بينه وبينها، منذ أن مدّ المهندسون قضبان القطار الحجازي، حتى لا تصاب بالصدأ، فحرموه من صحبة امتدت منذ الأزل..

وتوقف القسام يراقب هذا المنظر، مستسلماً لرذاذ الأمواج المتكسرة على حافة السور، وهي ترشقه من أن لأن، وكأنها تتوسل إليه أن يفتح لها ثغرة أو باباً، يسمح لها بالانسياب الحرّ فوق شاطئها القديم، الذي افتقدته، كرماً لقطارٍ صاخبٍ أصبح سيد المكان.

وأرسل الشيخ نظراته نحو الأفق البعيد، يتأمل لوحة الصباح الرائعة، التي أثارته في خاطره شجوناً.. وراح ينجي أطيافاً بعيدة، يسترجع معها أياماً وأحلاماً وذكريات..

وانتزعته صفارة القطار الحجازي، الذي تحرك للتو نحو الشام، من لحظات التأمل التي اغتسلت بها روحه، فودّعه بطرف حزين، وقلبٍ أرهقه

الحنين لأحبة خلفهم هناك، وتحرك في الشيخ شوق لم يبرأ منه، منذ أن طوى أيامه الأولى في فلسطين.

وراح يرقب طيور النورس، التي كانت تسابق القطار في رحلته، ثم تهوي نحو البحر، تعباً من هوائه الصافي العليل، ثم تنقض على صفحة الموج المتلاطم، تلتقط بعض الأسماك الصغيرة، تملأ بها معدة كانت خاوية طيلة الليل، وما أن تسد جوعها، حتى تنتشي بالامتلاء، فتترف سعيدة حول سفن الميناء، وكأنها تحتفل بصيدها الوفير..

وحملته روحه إلى الشمال.. إلى الأسرة الصابرة، التي حملت معه همومه منذ أن التحق بحركة الجهاد.. إلى الأهل والأحباب.. إلى حواكير التين والزيتون وبساتين الليمون.. وندت عن روحه المعذبة تنهيدة عميقة، بعثرتها الريح في كون ملبد، فما لبث البرق أن أضاء الدنيا بخيط يشعشع بالنور إيذاناً بالمطر، وأطلق الرعد صوته الكوني العظيم، وكأنه طلقة البداية لسباق طويل، فانهمر المطر مدارراً، لعلّ الكون قد أصغى لوجيب قلب القسام، فأراد أن يمنحه بعض الأمل بخير يقترب..

وراح المطر ينهمر بسخاء، فأسرع الشيخ يبحث عن ملاذ يحميه من حبات الماء، التي تقاطرت كسيل لا يريد أن ينقطع.. كان مطراً لم ير القسام مثله من سنين.. وكادت الشوارع تقفر من المارة، إلا من مضطر أو باحث عن مأوى يعصمه من الماء..

وحثّ الشيخ الخطأ، وهو يشدّ طرفي جبته إلى بعضهما، يقاوم بها سطوة الريح، ويحاول أن يتقي مزيداً من البرد والبلل، حتى إذا اقترب من بوابة الدار، لمح بائعاً متجولاً، قد لاذ مع عربته بالحائط، يحاول حماية رزقه من المطر، ودنا منه، فوجده منهمكاً في حماية حملته من الثوم، الذي كان يبدو مازال على حاله، لم يبع منه شيئاً بعد.

- هل أساعدك بشيء؟.
- رفع البائع رأسه في تأثر، والهَمَّ يعيث في عينيه. قال بلهفة، وهو يشدّ أطراف غترته، فوق أكوام الثوم المههدد:
- دبرني ياشيخنا، الله يخليك.. هذا المطر سوف يقضي على رزقي.
- تفضل لترتاح عندي، وتحمي بضاعتك من البلل.
- ثم وهو يشير إلى البيت:
- المنزل هنا، تفضل..
- جزاك الله خيراً.. الحقيقة أنّي لست في حاجة إلى الراحة، بل في حاجة إلى النجدة!
- بماذا أساعدك؟..
- هل تشتري مني هذا الثوم؟.
- أشتريه؟!
- سأبيعه لك بنصف رأسماله.
- لماذا تستعجل عليه؟
- مضطر يا شيخي. مضطر.
- تأمل القسام السماء التي مازالت ترسل الماء مدراراً، ثم توجه إلى الرجل..
- قد لا أستطيع شراءه كله، ولكن خبرني عن قصتك، لعلّي أستطيع المساعدة..
- لا وقت لدي.. سأعرض عليك عرضاً آخر.. أرهن حمل الثوم هذا عندك بجنيه واحد، استأجر به عربة أو حنطوراً يحملني إلى أهلي في الياحور، علّني ألحق بهم قبل أن تحدث كارثة..
- كارثة؟!

- الأمر يصعب شرحه الآن.. كل ما أريده الوصول إلى أهلي في أسرع وقت.
- تحرك الشيخ بسرعة، وطرق الباب بإلحاح، فلم يلبث الشيخ علي الحاج عبيد أن أطل، فابتدره قائلاً:
- أرسل الشباب ليساعدونا بسرعة..
- ثم التفت للبائع.
- هات العربة إلى هنا، سأعطيها لمن يعتني لك بها في الداخل.
- كان البائع مستسماً لأوامر الشيخ، وقد آنس منه القبول.
- وعاد الشيخ علي مع الشيخ حنفي، يتبعهما ظافر وعبد المالك القسام، تلبية لنداء الشيخ..
- احملوا هذا الثوم إلى الداخل، وجفّفوه جيداً.
- قال الشيخ حنفي باسمًا:
- من سيأكل كل هذا الثوم يا شيخ عز الدين؟
- رد عليه الشيخ عز الدين بنبرة صارمة:
- ارتد ملابسك يا شيخ عارف، وأسرع معي. ثمة أمر هام.



كان المطر لايزال شديداً، وكانت ساحة الحناطير غارقة بالسيول، وقد لفها الضباب والمطر، وأقفرت إلا من بعض الحناطير المشغولة بركابها، الذين لاذوا بها هرباً من هذه المطرة القوية، وأوقف القسام حنطوراً أوصل راكباً للتو، بينما اندفع إليه بائع الثوم، فسبقه السائق بالسؤال.

- إلى أين؟

- إلى الياجور.

- الياجور؟

قال الرجل موضحاً:

- ليس قرية الياجور بالذات.. إلى مشارف الياجور.. عند منطقة البراكيات..

هتف صاحب الحنطور منكرأً، وهو يشير إلى السماء:

- في هذا المطر؟!

قال له القسام:

- ها أنت تعمل في المطر، فما الذي اختلف؟

- يبدو أنك لا تعرف هذه المنطقة يا شيخنا..

صمت الشيخ، وقد تاهت نظراته بين البائع والسائق، فهو حقاً لا يعرف!

أردف السائق:

- الطريق الذي يتحدث عنه الأخ ياسيدنا طريق ترابي وعمر، ولا بدّ

أنه الآن مليء بالوحل والطين، وقد تغرز عجلات الحنطور فيه، فتعلق

جميعاً.. اعذروني يا جماعة.. لا يمكنني خدمتكم في هذا المشوار..

- وشدّ رسن بغليه، ومضى حتى غاب خلف الضباب..
 وضرب الرجل كفاً بكفّ..
- جماعتي ضاعوا يا شيخي.. ضاعوا..
 - جماعتك!؟
- زوجتي وطفلي. تركتهم في كوخ لم ننته من تدعيمه وبنائه بعد،
 وقد آثرت أن أكسب هذا اليوم ببيع حمل الثوم في حيفا، وأعود باكراً لأكمل
 بناء الكوخ الذي انتقلنا إليه بالأمس، لكن المطر داهمني كما ترى..
- قال الشيخ حنفي مواسياً:
 - تفاعل بالخير.. إن شاء الله تجدهم بسلام..
 التفت إليه الرجل:
- أنت لا تعرف المنطقة يا أخ، الكوخ الذي أحدثك عنه من ألواح
 الصفيح، وقد تخلعه الريح أو تجرفه السيول..
- رقّ الشيخ لحال الرجل، فربت على كتفه يصبره:
 - سلمهم لله، المهم أن نصل إليهم بسرعة.
- وراحوا يرقبون الطريق بقلق، حتى إذا رأوا عربة مسرعة قادمة من
 جهة سوق الحسبة، هرولوا باتجاهها..
- هششش..
- والتفت الحوذي، يسأل:
 - أمر؟
- نريدك أن تحملنا إلى الياجور..
- لا تؤاخذني يا طيب. وصلت حالاً من يافا، وما صدقت أنني رميت
 حمل البرتقال لصاحبه في الحسبة، حتى أسرعرت إلى بيتي لأرتاح.. وقد
 ظننت أن مقصدكم على طريقي، فقلت أحملكم معي لله، ولكن..

- وصمت لحظة ريثما التفت إلى ساحة الحناطير:
- انتظروا.. فقد تجدون حنطوراً يحملكم إلى هناك.
 - انبرى الشيخ عز الدين مفاوضاً:
 - مضطرون يا أخ، ونبحث عن وسيلة نصل بها إلى الياجور.. سيكون لك ثواب كبير لو خدمتنا بهذا المشوار.
 - وقال بائع الثوم يغري السائق، وقد خشى من ترده:
 - سأدفع لك كل ما تريد، المهم أن تحملني إلى هناك.
 - وأردف الشيخ القسام بنبرة اختلطت فيها الصرامة بالرجاء:
 - الرجل يا أخ لديه مشكلة هناك، ولا بد أن يصل إلى داره في أسرع وقت.

- هز السائق رأسه وهو يتأمل وجه القسام..
- إذا لم أخطئ فأنت الشيخ الذي كنت تحدث الناس بالأمس في الجامع الكبير بعد العصر.
 - صدقت.
 - «كرمال» هذه اللحية أنا حاضر لخدمتك.
 - ودبت الحماسة في الأوصال..
 - تفضلوا بالركوب.
 - استدرك القسام، وقد فاجأهم موافقته..
 - ولكن، كم تريد؟
 - أنت تأمر يا شيخ.. المهم أن تدعو لنا بالتوفيق.
 - لم يرض الشيخ بعرض الرجل، فحاول أن يخرج النقود من جيبه.
 - قال الحوذي بنبرة حاسمة:
 - الحساب واصل يا شيخنا.

- لكن من حقا أن تنال الأجر الذي تستحقه رحلة في مثل هذه الظروف.
 - الناس لبعضها يا شيخي، تفضل.. ولا تحرمني ثواب هذه النقلة.
- كان القسام ممتناً لهذا النبل الذي كان يختفي تحت الأسماك، وتفاءل بهذه الروح..
- وانطلقت العربة تنهب الأرض، وتخرق الضباب.

كان الشيخ عز الدين يجلس بجانب السائق، وهو يرتجف من شدة البرد، بينما جلس بائع الثوم مع الشيخ حنفي في الخلف، وهو يفرك يديه مستدعياً بعض الدفء، وسأل الشيخ حنفي بائع الثوم عن قصته، فراح يرويها، وهو يرفع كتفيه، ويضم يديه إلى صدره من شدة البرد..

- قصتنا طويلة ومريرة، بدأت من زمن طويل.. حيث كنا نعيش في أرض واسعة ورثناها أباً عن جدّ، لكنّ عندما رفع العصملي الضرائب عليها، عجز أجدادنا عن دفعها، فباعها المتصرف بالمزاد العلني، فرست على واحد لبناني من بيت التويني..

- الشاري أخرجكم منها؟

- لا. تركنا التويني في الأرض لنفلحها له، مقابل أن ندفع له نسبة من الرزق ونعتاش بالباقي، إلى أن جاء اليهود وأغروه بالمال، فباعها لهم، وهنا حدثت المصيبة الكبرى!.

- كيف؟

- لم نلبث أن أفقنا على جنود الإنجليز ومعهم الوكيل اليهودي، وهم يهددونا بإخلاء الأرض خلال يومين وإلا سيخرجونا بالقوة.. وهكذا كان.. خرجنا مرغمين، وتفرقنا في البلاد..

هتف الحوذي، وهو يقود عربته بمهارة، وعيناه تحاولان اختراق كثافة

الضباب:

- اليهود يشترون الأراضي، حتى يؤمنوا أماكن لمئات اليهود الذين

يهاجرون إلينا كل يوم.

ولم يلبث أن التفت إلى الشيخ عز الدين:

- عندي سؤال يا شيخنا.
- تفضل.
- ما حكم الذي يبيع أرضه لليهود؟
- حرام بكل تأكيد.
- لكنهم أهل كتاب!.
- لو كانوا من يهود هذه البلاد فلا مانع.. فأهل الكتاب لهم مالنا وعليهم ما علينا، كما أوصى الرسول ﷺ.. أما إن كانوا من هؤلاء اليهود المهاجرين، الذين تأتي بهم بريطانيا والمنظمة الصهيونية كل يوم ليشتروا الأراضي، ويبنوا المستعمرات، ويستوطنوا في البلاد، فلا يجوز أن نبيعهم أرضاً، أو نهيب لهم ما يتمكنون به من البقاء والاستمرار.
- لكنهم يهود. أليس اليهود من أهل الكتاب؟.

ابتسم الشيخ:

- هؤلاء اليهود غرباء، جمعتهم الصهيونية من دول شتى، وأقنعتهم بأن فلسطين وطن اليهود، وأخذت من بريطانيا وعداً بأن تمنحهم أرض فلسطين ليقموا عليها وطنهم المزعوم.. وبريطانيا لما بينها وبين المنظمة الصهيونية من مصالح واتفاقات، تريد أن تقهر أهل هذه البلاد ليقبلوا بإعطاء أرضهم لهؤلاء الغرباء، الذين يستخدمون الآن المال للحصول على الأراضي، وهامهم يتمددون يوماً بعد يوم، ويتسلحون.. بل وحاولوا السيطرة على حائط المبكى بالقوة، بحجة أن تحتة معبد نبيهم سليمان، ولا تدري ماذا سيفعلون غداً عندما يزدادون عدداً وقوة.. فكيف نأمن لهم، وقد أصبحوا مع أعدائنا علينا؟.

- هتف السائق في حماس، والبخار يتصاعد من شفثيه من شدة

البرد:

- الله أكبر.. أنا قلت هذا للشيخ عبد الغني، لكنه ظلّ يقول لي أنهم أهل كتاب!.

- من الشيخ عبد الغني؟.

- الشيخ عبد الغني عون، شيخ طيب من حارة العراينة في يافا، شيخ طيب لا يحب المشاكل.. يقول أن الله لم يخلق الإنسان ليقتل أخاه الإنسان.
- هذا حق، لكن إذا اعتدى هذا الإنسان عليه، وهدد ماله وأرضه، ألا ينبغي أن يدافع عن نفسه.. بل يأثم إن لم يدافع عن نفسه وماله وأرضه.. فكما أخبر النبي عليه السلام.. من مات دون ماله أو بيته أو عرضه فهو شهيد..

وأضاف:

- قل له الشيخ عز الدين القسام يقول بهذا، وإن أراد زرتة وحاورته فيما يقول.

تنهد الحوذي..

- قلت له ياشيخ، لو كانوا مؤمنين من أهل الكتاب، لما زاحمونا في أرضنا ورزقتنا.. هذا لا يرضى به لاموسى ولا عيسى ولا محمد، لكنه مازال مخدوعاً بهؤلاء..

وسأل الشيخ بائع الثوم:

- حتى الآن لم تقل لي ما اسمك يا أخي.. بماذا تناديك؟

- أنا سالم الموسى.. أبو علي.. من مرج بني عامر..

والتفت الشيخ عز الدين للحوذي الذي يقود العربة.

- والأخ؟.

- محسوبك صالح أبو شقرة.. الأصل من أم الفحم، لكننا منذ سنتين

اشتبكتنا مع الإنجليز، فطاردوني مع عدد من الفدائية، فهربنا، كل واحد

راح في ديرة.. لجأت أنا إلى بيت خالتي في سكنة العراينة.. حارة صغيرة بجانب مستعمرة تل أبيب في يافا.. ولما هدأت الأحوال تزوجت من ابنة خالتي، فاستقر بي المقام هناك، ومرة اختلفت مع واحد يهودي من تل أبيب يدعى إلباهو، كان كل يومين يدخل حارة العراينة، ويعرض على الناس أن يبيعوا أرضهم لليهود..

قال أبو علي:

- القصة واضحة وضوح الشمس.. يريدون أن يكبروا مستعمرتهم، فيشتروا ماحولها.

- جاييك بالحكي.. قلت لهذا السمج إلباهو: مالك ومال هذه الحارة؟.. في كل يوم تطلب منا أن نبيعك أرضاً جديدة؟! وتطورت الأمور بيننا، وكادت تحدث مشادة كبيرة، لولا أن تدخل أهل العراينة بيننا..

الشيخ عبد الغني عون - الله يهديه - قال لي: اتركه وشأنه.. بين البائع والشاري يفتح الله.. الرجل لم يعتد علينا ولم يؤذنا.. إنما يسألنا فقط إن كنا نريد أن نبيع؟.

علق الشيخ عز الدين مستغرباً:

- يبدو أن الشيخ عون ليس على دراية بما يخطط له هؤلاء اليهود.. مسكين «على نياته» ياشيخ.. المهم إلباهو الخبيث جاء ذات يوم إلى زوج خالتي، وقال له: «خببي نحن نعرف أن صهرك صالح هربان من الإنجليز، انصحك على لساني أن يكف عن تعطيل تجارتنا.. كلما عرضنا على عربي من العراينة أن يبيع أرضه، يحرضه على الرفض».

وخشي سالم أن ينشغل صالح بقصته، فيتباطأ في المسير، قال وهو يفرك يديه من البرد:

- أسرع الله يخليك..

قال صالح وهو يحث بغليه على السرعة:

- بلا طول سيرة، زوج خالتي تدخل، وقال: يا ابني اطمئن.. بيع لن نبيع، لكن اليهود صارت عينهم حمرا منك، اترك العراينة واذهب لحيفا، ففيها رزق كثير، وهكذا تركت يافا «كرمال» خالتي وزوجها، الذي أواني في أيام المحنة.. حملت حالي وجئت مع عيالي إلى حيفا، أترزق على هذا الطنبر.

وسأل الشيخ حنفي:

- هل اليهود في يافا كثر، كما هو الحال في حيفا..

قال صالح:

- مثل الهمّ على القلب.. لكن لم أتعرف بالأخ الكريم..

- أنا عارف حنفي.. تلميذ الشيخ عز الدين.

- أنعم وأكرم.. مشكلة يافا أن اليهود وضعوا في بالهم أن يقيموا فيها مدينة لهم، فراحوا يشترون البساتين الغناء، التي تقوم حول الحارة التي يتجمعون فيها.. ونجحوا بالمال والترهيب والترغيب أن يشتروا الكثير من الأراضي، حتى كان لهم ما أرادوا..

- ما اسم هذه المدينة؟

- يسمونها بالعبراني.. مدينة «تل أبيب» لكننا نسميها «تل الربيع»

لأنه اسم الأرض التي أقاموا عليها مستعمرتهم أو مدينتهم.. ومع ذلك لم يشبعوا.. يراودون اليوم الناس في العراينة وأبو كبير ودرويش وكل الحارات المجاورة على بيع أرضهم لهم..

وجمع بينهم الهمّ والطريق، فبدّدوا وحشته بالكلام، وشعروا بدفء في

القلوب، عزامهم كثيراً عن قسوة هذا البرد.



وصلوا أخيراً إلى مشارف الياجور، فبدت منطقة البراكيات بأئسة كئيبة، تحكي بيوتها المبنية من الخشب والطين وألواح الصفيح، قصة فقرٍ زادته العاصفة بؤساً على بؤس، فقد هدمت الأمطار والسيول بعضها، وهددت بعضها الآخر، فهبَّ السكان يستنقذون بيوتهم البسيطة.. واحد يدعم الجدران، وآخر يضع الأحجار الثقيلة فوق ألواح التوتياء التي سقفت بها البيوت، حتى لا تقتلعها الرياح وترمي بها بعيداً، والثالث يدعمها بالطين، حتى لا يتسرب إليها الماء.. وآخرون ينزحون المياه التي أغرقت بيوتهم، ويلقون بها إلى الطريق.. والنساء يعصرن الأسمال المبتلة، التي أغرقتها هذا الشتاء الغاضب، علَّ الجفاف يجد إليها طريقاً.. وراحت العربية تشق طريقها فوق وحل الطريق بصعوبة..

سأل الشيخ حنفي سالم الموسى مستغرباً:

- ما الذي رماك على هذه الحارة.

حدجه القسام بطرف عاتب، فيما قال الرجل وهو يترجل من العربية:

- لم يكن أمامي سواها.. حيِّ بأئس لكنه يفي بالعرض.

وتساءل الشيخ:

- أهذه هي الياجور؟.

أجاب سالم، وهو يشير إلى التلال القريبة:

- الياجور يا شيخنا تقع فيما بعد، لكن هذه الحارات من الصفيح

أقامها الفلاحون الذين طردوا من أراضيهم بسبب كومبانيات اليهود..

كان المنظر مؤلماً ومعبراً، وكان القسام غاضباً وحزيناً.. وبدا الحيُّ

للشيخ عز الدين كمنفَى للقهر، يحشر فيه ضحايا المحنة التي تعصف

اليوم بفلسطين.. هذا هو الوجه الآخر لمأساة هذه البلاد، التي تتآكل وتتسرب رويداً رويداً من بين أيدي أصحابها، تقذف بهم أطماع الغرباء إلى قاع الفقر والبؤس والفاقة، وتسلبهم كل أرض خصبة تمدهم بالخير، ليعيش مكانهم الصهاينة القادمون من بعيد..

وانعطف الحنطور إلى حارة ضيقة تقع بين صفين متراصين من بيوت الصفيح، وما إن وصل إلى نهاية الزقاق، حتى اكتست ملامح سالم بالذعر، وهو يرى الناس يتجمعون حول بيته، الذي يقع في نهاية الصف الأيسر من الحارة.

قفز من العربة يستطلع الخبر، وهروول الرجال خلفه..

- ماذا حدث؟.. أين زوجتي وطفلي؟

أجابه رجل كان يجرف الطين من بيته، الذي لم يقيم فيه سوى ليلة

واحدة:

- أنت أبو علي؟

- أجل، ولكن..

- أهلاً بجارنا الجديد:

ومدّ يده يصافحه..

- اطمئن.. أمّ علي وصغيرها عندنا في البيت.. خلعت الرياح لوح التتلك

فوق الحائط الغربي من الدار، وتراكت في المياه، فأسرعنا لنجدتها أنا

وأهلي..

قال أبو علي وقد هدأ روعه:

- جزاك الله خيراً..

- أنا جارك عبد الله يوسف الزيباوي.. ذاك بيتي.. الباب مقابل

الباب.

تبادل الشيخ حنفي نظرة مع الشيخ القسام، وعادا يتأملان الكوخ الذي يدعوه الرجل بيتاً..

وهمّ أبو علي بالمساهمة في إنقاذ كوخه المتهالك:

- أعطني هذا الجاروف من فضلك، فقد كفّيت ووقّيت.

قال الزيباوي، وهو يشير إلى السقف المتداعي فوقهم..

- من الأفضل أن تحضر بعض الخشب والمسامير، وأظنك بحاجة إلى

لوح جديد من التوتياء، فاللوح الذي وقع متآكل وضعيف، وقد لا يحمي السقف طويلاً.

أخرج الشيخ القسام ما بقي معه من نقود. قال وهو يلتفت إلى الشيخ

حنفي:

- اذهب معه، وأحضرا ما طلب الأخ.

وانطلقا مسرعين إلى الطنبر، بينما تساءل الشيخ عز الدين، وهو

يتأمل وجه الزيباوي بإعجاب!.

- ألا توجد مجرفة أخرى أساعدك بها؟

- لا تقلق يا شيخنا. كدت أنتهي.

- من أين الأخ؟

توقف الزيباوي قليلاً، والتفت يجيب، وهو يستند بكتفا ذراعيه على

عصا المجرفة:

- من قرية الزيب قرب عكا.. لذلك يسموني بالزيباوي.

- وما الذي أتى بك إلى الياجور؟

- الذي أتى بك وبأبي علي..

- لعلك فقدت أرضك كالآخرين؟

لمعت في عينيه دمعة، حاول أن يداريها برمشة وإغماضة، قال بنبرة

كسيرة، وهو يعض على شفتيه، ويهز رأسه في مرارة:

- بل فقدت رجولتي.

- حاشاك.

ورفع عبد الله الزيباوي الجاروف عالياً، وهوى به على الأرض بضربة قوية وشّت بعصبيته، وراح يجرف الطين بنزق، ويجرّه إلى الجدار، ولم يلبث أن ألقى بجاروفه جانباً، وقال بنبرة مشحونة بالغضب:

- لو كنا رجالاً، لما تركنا أرضنا لليهود بهذه البساطة.. حتى ولو

جاءت معهم بريطانيا العظمى كلها، لتنفذ عقودهم مع الملاك الظلمة.

وأردف بنبرة أعلى، وهو يرصّ التراب بجزمته الطويلة:

- لو كنا رجالاً لمتنا دون هذه الأرض.. أسنا نقول ليل نهار أن

الأرض هي العرض؟.. فماذا فعلنا؟.

ثم وهو يصرّ على أسنانه في غيظ:

- لو فعل كل فلاح ممّا هكذا، لما استطاعوا أن يزرعوا البلاد بهذه

الكومبانيات، التي تكاثرت وزادت عن حدها.

وارتاح الزيباوي لليقين الذي لمسّه في وجه الشيخ، فهدأ قليلاً. أردف

وهو يتناول المجرفة من جديد:

- والشيخ من أين؟.. لهجتك أقرب إلى أهل نابلس.

- أنا من جبلة.

- جبلة؟.

- يبدو أنك لم تسمع بها من قبل؟..

- أرجو أن تعذرني.

- بلدة جميلة على الساحل السوري قرب اللاذقية.

توقف الزيباوي قليلاً، سأل، وهو يتأمل القسام:

- وما أخبار الفرنسيين؟
- مثل أخبار الإنجليز.
- الله يأخذهم.. كل الحق على السلطان عبد المجيد.. كان عليه أن يرسل إليهم جيشاً يؤدبهم، ويكسر رجلهم.
- ابتسم القسام.. يوسف الزيباوي تائر بالفطرة.. يبسط الحقائق، ويطلق الأحلام، ويأبى أن يرى الواقع إلا كما يجب أن يراه.



بعد أن تمّ إصلاح بيت سالم، أحضر الزيباوي «تنكة» من الحطب، وأضرم فيها النار خارج البيت، حتى إذا صارت جمرًا، حملها إلى داخل البيت، ليزرع في أركانه الدفاء، ويطرد الرطوبة التي بثّها المطر. ثم غاب قليلاً، وعاد يحمل بيده اليمنى سلّة من الحطب، ليغذي به النار، وفي يده اليسرى إبريق الشاي ليغليه فوق جمر المدفأة الطريفة التي صنعها، وبعد أن اطمأن إلى النار تحت الإبريق، ذهب وعاد بصينية تحمل ما يكفي من الأكواب..

وتحلّقوا حول النار، يتبادلون أطراف الحديث، ينتظرون الشاي حتى ينضج، علّه يسكت جوعاً، وينشر الدفاء في أجساد أرهقها البرد والبلل. وراح أبو علي يثني على جاره الزيباوي، وعلى جهده ونجدته..

ابتسم الزيباوي في تواضع:

- وكّل الله يا زلمة.. الله - سبحانه - وصّى على سابع جار.. من حكمة الله أني جالس بدون شغل اليوم.. وإلّا لكان السيل جرف حائطك الغربي كله.. لكن الله لطيف بعباده.

ثم وهو يتأمل وجهه بنظرة ودودة:

- الله أعلم أنك مرضي الوالدين.. لذلك يسّر الله لك من يساعدك في الوقت المناسب.

شكر سالم الجميع على وقوفهم معه، وهتف الشيخ حنفي، وهو يفرك

يديه فوق وهج الجمر، يستزيد من الدفاء الذي شمل المكان:

- سبحان من جمعنا بغير ميعاد..

سبحّ الزيباوي، معه..

- لم أتعرف بالأخ؟
- محمد حنفي من جيلة في سوريا.. أنا تلميذ الشيخ عز الدين.
ثم وهو يضع كفه على كتف الشيخ، متودداً:
- الشيخ عز الدين القسام أستاذي وحببي، وهو أيضاً قائدي وأميري في الثورة التي جمعتنا ضد الفرنسيين.
- صمت الرجال، وكأن على رؤوسهم الطير، لم يخطر ببالهم، أنهم يجلسون في حضرة عالم وقائد جاهد ضد الفرنسيين في سوريا.
- تأمله الجميع بإعجاب وإكبار. بينما ارتبك عبد الله الزبيباوي، وهمس وقد أدهشته المفاجأة:
- أهلاً بالشيخ.. شرف كبير أن يكون ضيفنا اليوم مجاهداً مثلك!
- العفو. أستغفر الله..
- وهبّ واقفاً، حائراً فيما يجب أن يفعله، ليعبر عن حفاوته بالشيخ، واهتدى أخيراً لما ينبغي..
- لا بد أنكم جائعون.. سأطلب منهم أن يعملوا لنا لقمة نأكلها.
- قال القسام مهدئاً ومعتزراً:
- على رسلك يا أخي.. لا لزوم لكل هذا التعب.
- لكأنه لم يسمع.
- أظن أن المجردة قد نضجت. سأستعجلهم ثم أعود.
- دعنا نمضي الله يرضى عليك.
- لا والله يا شيخنا.. ليس قبل أن نأكل معنا الزاد.
- ولكن، لحظة من فضلك.
- تريث مستجيباً لرجاء الشيخ، الذي نظر إلى صالح صاحب العربة فيما يشبه الاعتذار، وقد شعر أن المشوار، قد تجاوز الوقت المتفق عليه.

قال الحوذني، وقد تاه فخرأً بصحبة الشيخ:

- لا تحمل همّي يا شيخنا.. أنا معك، حتى تأمرني بالمسير..
وصاح الشيخ حنفي مداعباً:

- دعوا الرجل يستعجل المجردة يا جماعة، ولا تقطعوا رزق الجائعين.
ضحكوا لدعايته، واستسلموا للفكرة، وقد حرك الشيخ حنفي بكلماته
جوعاً كتموه في أحشائهم.
- أبشر.

قالها الزيباوي ضاحكاً، وهو ينطلق مسرعاً..
وكانت وليمة.. أكد بعدها الشيخ حنفي، أنه لا يذكر أنه قد ذاق مجردة
مثلها من قبل!.



كان الدرس اليوم شائقاً، لم يحدث أن تفاعلت البنات مع درسٍ مثله من قبل، وبقيت مجموعة منهنّ بعد الدرس يستزدن من الشيخ، ويمطرنه بالأسئلة، ويصفين للأجوبة باهتمام وشغف، واقتربت الحصة التالية، فانفض أكثرهنّ، ولم تبق إلاّ أمانة وصديقتها خديجة، وبدا أنهما تريدان أن تقولاً للشيخ شيئاً، فرحب بهما بابتسامة مشجعة. قالت خديجة وهي تداري ارتباكها:

- أستاذ.. أمانة عندها مشكلة، وتريد أن تشرحها لك.
- نظر القسام إلى أمانة، وقال:
- تفضلي يا بنتي.
- تلعثت أمانة، وهي تحاول أن تتكلم، لكن صديقتها سارعت بالجواب..
- أمانة تستحي كثيراً أستاذ.. وهي تريدك أن..
- تساءل، وهو يرمق أمانة مستطلعاً:
- أن ماذا؟.
- أجابت صديقتها:
- أنا أقول لك أستاذ. تريدك أن تتوسط لها لدى أهلها لتأجيل العرس، حتى تحصل على الشهادة الثانوية.
- وهل العريس موافق؟
- أرادت أمانة أن تجيب، لكن خديجة سبقتها:
- أمانة مجتهدة كثيراً أستاذ، مثلما تعرف، وهي الأولى على الفصل.
- ابتسم الشيخ عز الدين، وهو يصغي لصديقة أمانة، وقد نصّبت نفسها ناطقة باسمها.. وسألها باسمًا:

- أهي وكَلَّتِك بالحديث نيابة عنها؟
- كلا أستاذ.. لكن أمانة تخجل كثيراً عند الكلام.
وقلق القسام من شيء، فسأل أمانة:
- ألم يستشرك الأهل في خطبتك يا بنتي؟
- هزت أمانة رأسها بالإيجاب، بينما قالت خديجة متدفقة كعادتها:
- استشاروها، وهي موافقة، لكنها فقط تريدهم أن يؤجلوا العرس..
ضحك الشيخ عز الدين، وطلب من صديقتها أن تكفّ عن الجواب
نيابة عن أمانة..
- أريد أن أسمع منك يا أمانة..
- ازدادت أمانة خجلاً، وأطرقت تداري ارتباكها بالعبث بطرف الوساح
الأبيض، الذي عقدته حول وجهها، بينما تابعت خديجة..
- خطيبها هو ابن خالتها، وهو يحفظ القرآن.
التفت الشيخ عز الدين إلى أمانة:
- أحقاً؟
- أجابت خديجة:
- أمانة أيضاً تحفظ القرآن.. هما مخطوبان منذ أن كانا في «اللفة».
لكزتها أمانة في كتفها، وهي محرجة، بينما عاث خاطر مزعج في بال
الشيخ عز الدين. قال متسائلاً:
- ما معنى «مخطوبان منذ الطفولة»؟
- ثم وهو يعيد السؤال حتى ينفي هواجسه:
- قولي يا أمانة.. أنت موافقة على هذا الزواج فعلاً يا ابنتي؟
- بان الارتباك في عينيها، وازدادت ابتسامتها إشراقاً، فلاذت بكتف
خديجة.

اطمأن الشيخ عز الدين.. فالسكوت علامة الرضى. بينما تابعت صديقتها..

- هل ستدخل أستاذ لتأجيل العرس؟ تخشى أمانة ألا يوافق أبوها على إكمال السنة.

قال موجهاً كلامه لأمنة، وقد أكبر فيها هذا الحرص على العلم:

- إصرارك يا ابنتي على إكمال العام الدراسي شيء مهم، يقع في صالحك كزوجة وأمّ في المستقبل إن شاء الله، ويجب ألا يزعج أحداً، وهذا ما يجب أن نقنع به أهلك.

تشجعت أمنة لأول مرة، وقالت، وكأنها ترجوه أن يحتاط، ويستعدّ لمنطقهم:

- هم يقولون أن حياة المرأة وجهادها في بيتها.

سعد القسام لمشاركتها المتأخرة، وقد فهم ما عجزت عن محاورتهم به.

- سنقول لهم كما قلت لكم من قبل، أن العلم أيضاً جهاد، مثلما أن حياة الأمّ وعملها في بيتها جهاد.

تدخلت صديقتها ثانية:

- أمانة أستاذ، تقول أنك تستطيع أن تقنعهم أكثر منها..

ثم وهي تلحّ بالسؤال:

- هل ستقنعهم أستاذ؟.

ضحك القسام مستمتعاً بهذا الحوار المضمع بالعفوية والبراءة. تناول ورقة وقلماً، ودفعهما لأمنة..

- اكتب لي هنا عنوان المنزل، وأخبري الوالد بأني سأزوره يوم

الخميس بعد صلاة العشاء إن شاء الله.



رحب الحاج أحمد السهلي، بالشيخ عز الدين القسام في بيته في حارة الحليصة، وقاده إلى الداخل عبر فناء فسيح، تظله دالية تشابكت أغصانها العارية، وقد توشحت ببياض الثلج، الذي كانت بقاياها ما زالت تذوب ببطء، بعد ليلة حافلة بالثلوج، قد تكون الأخيرة في شتاء طويل.

ودعا الحاج أحمد ضيفه إلى قاعة واسعة، بدا من ترتيبها، الحال الميسور الذي تعيشه الأسرة، فوجد في استقباله الحاج سالم الخطيب وابنه مصطفى عريس آمنة، وراحوا يتبادلون أطراف الحديث، بينما رقص قلب آمنة فرحاً بزيارة أستاذها إلى منزل الأسرة، وتفاءلت أن هذا الأستاذ الذي وجدت فيه قدوتها ومثالها في الحياة، لن يخرج إلا بإقتناع والدها وعمها، بما عجزت عنه.

قال الحاج أحمد موجهاً كلامه لنسيبه الحاج سالم:

- الشيخ عز الدين القسام من خيرة الأساتذة، الذين يعلمون بناتنا في مدرسة البرج.. أنا لم أر بنتنا آمنة تمدح معلماً - ولا حتى معلمة - من قبل، بهذا القدر من الإعجاب، فأدرت بأن الشيخ عز الدين معلم قدير، نشكر الله أن منحنا في حيفا مثله.

شكره الشيخ القسام على هذه الشهادة، بينما تحدث الحاج سالم لأول

مرة، فقال:

- عندما أخبرني أخي الحاج أحمد بقدمكم، حرصت أنا وابني مصطفى على الحضور للتعرف على شخصكم الكريم، لأنني سمعت عنكم وعن جهادكم العظيم ضد الاحتلال الفرنسي في ساحل الشام من صديقي الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم، زميلكم في الجمعية الإسلامية..

قال الشيخ عز الدين وقد فاض به الحرج والتواضع:
 - والله أنا لا أستحق كل هذا، فما قمت به وأقوم به واجب لا يستحق
 المديح.

ثم أضاف وهو ممتن لهذه الحفاوة:
 - لكم يسعدني اليوم أن أدخل بيتاً كريماً من بيوتات حيفا، وأتعرف
 على هذه الوجوه الطيبة.
 وسأل الحاج سالم:
 - ما رأيك يا أستاذنا في هذا البلاء.. الخلافة في أفول، والأجانب
 يحاصرون البلاد والعباد..

قال القسام وقد بانت المرارة على محياه:
 - الخلافة لم تعد الخلافة التي نعرفها.. الطورانين والماسون
 يسيطرون على مقاليد الأمور.. والخليفة محمد رشاد مجرد اسم وصورة..
 أما الذين يحكمون الخلافة اليوم، فهم يهود الدونمة، ولكن من وراء
 ستار..

وطُرق الباب، فنهض مصطفى وعاد بصينية الكنافة النابلسية، وراح
 يوزعها على الصحن، ويفرقها بالقطر، ثم يقدمها للحاضرين، مبتدئاً
 بالشيخ.

قال الشيخ عز الدين وهو يتذوق الحلوى، التي لا تقل رائحتها شهية
 عن طعمها:

- ماشاء الله.. حلوى لذيذة.. هذه أول مرة أتذوق الكنافة بهذا الطعم
 المميز.

سرّ الحاج أحمد بشهادة الشيخ عز الدين، فابتسم..
 - «صحة وهنا».. هذه الكنافة من صنع بئكم أمانة.. أنضجتها على

الجمر، وعملت قطرها من السكر الممزوج بزهر الليمون، تعلمتها من أمها وخالتها وبرعت فيها.

وكان الحاج أحمد السهلي والحاج سالم الخطيب قد داخلهما الفضول منذ أن عرفا بهذه الزيارة، فخطر لهما أن الأستاذ عز الدين ربما قد يكون فكر بأمنة لابن من أولاده، فتحفزا لاستيعاب هذا الاحتمال، وأراد الحاج أحمد أن يمرر في الحديث ما يبده أي نية لدى الشيخ بطرق هذا الباب، تجنباً للإحراج، فقال وهو يتبادل نظرة مع الحاج سالم..

- أنت تعلم عادة النساء في تدريب البنات على ما يهيئها لبيت الزوجية، فهي خطيبة مصطفى، وسوف نفرح بهما إن شاء الله عما قريب.

بان الحياء على مصطفى، فأطرق مبتسماً. بينما علق الشيخ عز الدين:

- ولعل هذا هو سبب زيارتي لكم اليوم.

ازداد القصد من الزيارة غموضاً، فأصغيا للحديث بفضول أكبر..

- في الحقيقة يا إخوان جئكم اليوم في مهمة أراها ثقيلة.. وعندي

شعور بأني لن أعود خائباً..

- نرجو أن نكون عند حسن ظنك يا شيخ عز الدين..

هكذا علق الحاج أحمد، بينما نهض مصطفى يصبّ القهوة العربية في

الفناجين، بعد أن غلت طويلاً على جمر المدفأة..

- الموضوع يتلخص في اقتراح سيجمع خيرين في خيرٍ واحد.

زاد الأمر غموضاً، وتفاقم الفضول..

- أعرف حرصكما على إتمام عرس أمنة ومصطفى جمع الله بينهما بخير،

ولكن العام الدراسي لم يبق له سوى أشهر قليلة، فهل أتعثم أن يتم تأخير

القران إلى الصيف، ريثما تتمكن أمنة من اجتياز الامتحان، وتحصيل الشهادة

الثانوية، فتفوز بالمرتبة العالية، وتفوز بالفرحة التي نتطلع إليها جميعاً؟.

- ابتسم الحاج أحمد السهلي، وقد أدرك الآن، أن أمانة قد أرسلت له من لا يستطيع أن يرد طلبه:
- والله يا شيخ عز الدين زيارتك غالية، ولكنك فاجأتني للتو، وعلى كل حال، فالرأي ليس لي وحدي، فأرجو..
- قاطع الحاج سالم بأريحية، لم يتوقع الشيخ عز الدين أن تأتي بهذه السرعة:
- إذا كنت تقصدنا يا حاج أحمد، فلا تكن محرراً، وأظن أن ابني مصطفى أيضاً لن يمانع..
- ثم وهو يضحك مشيراً إليه:
- وإن كان مستعجلاً للقاء عروسه كما أعرف.
- ضحكوا للدعابة، بينما أطرق مصطفى، وهو يداري ابتسامة ترم عن أدب، ولا تنفي موافقته على ما نوه والده به مداعباً، وأردف الحاج سالم مستدركاً:
- لكن المشكلة في بعض الأقرباء والمدعوين الذين أخذوا علماً بالموعد.
- قال الشيخ عز الدين:
- أرجو ألا يكون ذلك عائقاً.. الناس ستعذرکم، عندما يتضح السبب..
- ضحك الحاج أحمد وقال:
- بقي إنسان واحد يا شيخ عز الدين.. إن استطعت أن تقنعه، فلن يكون هناك عائق.. دعني أدعوه لك.

غاب الحاج أحمد، وعاد برفقة عجوز مسنّ، بدت على وجهه المهابة والسماحة، وقد حفّت بوجهه المشرب بالحمرة لحية بيضاء زادته وقاراً.. ورغم أساريه المليئة بالأخاديد، إلا أن نظرتة الهادئة، كانت تنبئ عن روح مطمئنة، لكن الحزن الذي يطلّ من عينيه، كان يشي بكثير مما راكمتة السنون فوق محياه من هموم وأحداث..

هبّ القسام مرحباً بالعجوز، الذي ألقى تحية السلام بنبرة مرتعشة، وراح يتأمل وجه القسام، ويحكّ ذاكرته محاولاً التعرف عليه!. بينما أسرع مصطفى إلى العجوز وقبّل يده، ثم قاده متأبطاً ذراعه، ليختار مجلسه.. ودعاه القسام ليجلس بجانبه في صدر المجلس. لكن العجوز تقدم ببطء، وهو يتكى على عصاه بيد، ويده الأخرى مستسلمة لحفيده مصطفى، وخاطب الضيف معتذراً:

- اسمح لي أن أجلس قرب الموقد، فأنا بردان.
وبادر الحاج أحمد معرفاً..

- عمي الحاج عبد الرحمن الخطيب، جدّ أمانة.. أكثرنا حماساً لهذا الزواج، وإصراراً عليه وعلى التعجيل به.. ولهذا قصة مهمة سأرويها لك، حتى تقف على ما يعنيه هذا الزواج بالنسبة لأسرتنا، وما تعنيه أمانة ومصطفى بالنسبة للختيار - الله يطول عمره - وبعد ذلك، أترك لك أن تجرب حظك معه، فلعله يرضى بما وسطتك أمانة من أجله.

هتف الحاج عبد الرحمن، وهو يتأمل وجه القسام فجأة، وقد استقر به المجلس قريباً من الموقد:

- قالوا لي أنك مدرّس أمانة!.

- الله يسلمها..
- تشبه أولاد رنو.. الحاج أنور رنو يقرب لك؟
- ضحك الحاج سالم، وقال:
- الشيخ عز الدين أزهري من اللاذقية شمال سوريا، كان يجاهد ضد الفرنسيين هناك، حتى حكموا عليه بالإعدام، فجاءنا إلى حيفا.. وهو يعمل الآن أستاذاً في مدارس البرج للبنات.
- تأمل الجد الشيخ القسام بنظرة متفحصة، لا تخلو من الإعجاب. أحاط قمة عصاه بقبضته، ونقر بها الأرض، وقال:
- حياك الله يا شيخ عز الدين.. هؤلاء الأجانب طمعوا بنا كثيراً. أليس كذلك؟
- صدقت يا عم.. لقد طمعوا وتمادوا.. هنا الإنجليز وهناك الفرنسيين.. والحبل على الجرار.
- وأين السلطان عبد الحميد؟.. ألم يسمع بكل هذه البلاوي؟
- ابتسموا لذاكرة لم تنس سلطاناً صار في خبر كان..
- السلطان عبد الحميد خلعوه يا حاج.. تأمر عليه يهود الدونمة وأعداء الخلافة، وخلعوه من زمان، ولم يعد له من الأمر شيء!.
- يهود الدونمة؟.. ماذا يقربون لليهود الذين عندنا؟!
- ابتسم الشيخ عز الدين، وأجاب:
- يهود مثلهم، ولعلمهم خلعوه من أجلهم..
- قال مصطفى، وهو يعرف الشيخ عز الدين بجده:
- جدي مجاهد مثلك يا شيخ عز الدين.. قاتل في أول ثورة قامت ضد أول مستعمرة أقامها اليهود في حيفا.. منذ أكثر من ثلاثين سنة.
- أيّد الجدّ كلام مصطفى، وهو يفرك يديه فوق الموقد:

- مستعمرة بتاح تكفا.. في الخضيرة.. سمعتَ بها؟..
- هز القسام رأسه، وابتسم ابتسامة مرّة، وقال:
- منذ أن قدمت إلى حيفا، وأنا أسمع كل يوم عن مستعمرات جديدة..
- علق الحاج سالم:
- هذه أول مستعمرات اليهود في فلسطين.
- أردف العجوز:
- خذ من هذه اللحية يا أستاذ.. إذا لم يوقف العرب هؤلاء اليهود عند حدّهم، فسياًخذون البلاد كلها.. اليهود يا أستاذ أخطر على فلسطين من بريطانيا وفرنسا.. اسألني أنا.
- واستدرك الختیار متوجهاً لابنه:
- هل دعوتم الشيخ عز الدين إلى العرس؟.
- تبادل الحاضرون نظرة باسمّة، وأكد له الحاج سالم أن الدعوة قد تمت، بينما ابتدر الحاج أحمد الشيخ عز الدين، برواية قصة هذا الزواج، الذي يشغل على ما يبدو بال العجوز، ويجعله شديد الحرص عليه..
- عمي عبد الرحمن كان تاجر حبوب.. كان يدير أراضٍ واسعة بين قريتي الخضيرة وملبس، يزرعها مع شريكه بالقمح و..
- قاطعه الجد، وعيناه تلمعان بالدمع:
- شريكي طاهر عنبر رحمه الله.. كان رجلاً.
- وتابع الحاج أحمد يروي:
- كانت معظم أراضى القرية قد آلت لآل سرسق من بيروت..
- تدخل الحاج سالم موضعاً:
- هؤلاء ملاكون اشتروا الأرض من الدولة العثمانية بثمنٍ بخس،
- وعندما أغراهم اليهود بالمال، باعوها لهم بثمنٍ باهظ..

- بأضعافٍ سعرها.

علّق العجوز. وتابع الحاج أحمد:

- هذه الأراضي كانت قديماً لفلاحين عاشوا فيها منذ أجداد الأجداد، وكانوا يدفعون ما يتوجب عليهم من ضرائب، وكانت مصدر عيشهم الوحيد، فلما زادت الضرائب إلى حد لا يطاق، عجز الفلاحون عن أدائها، عرضت الدولة العثمانية هذه الأراضي بالمزاد العلني، فجاء بعض التجار من أمثال آل سرسق والتونني وخوري ومدور وغيرهم، واشتروا هذه الأراضي مقابل أن يدفعوا ضرائبها، وأعطوا فلاحها حصة من عائدها، مقابل أن يظلوا فيها، ويفلحوها.

- إلى أن جاء اليهود..

- لما جاء اليهود يريدون أن يستملكوا الأراضي لبناء المستعمرات، راحوا يعرضون على هؤلاء الملاك أسعاراً باهظة، فدفعهم جشعهم للموافقة على هذا الإغراء، وأعطوا اليهود الغرباء موطئ قدم، في بلاد كانوا فيها قلة قليلة.. وكانت أرض ملبس والخضيرة من أول الأراضي التي اشتروها.

تدخل الجد، وقال بعصبية ظاهرة:

- اليهود اشتروا الأرض بعد أن رشوا المتصرف.. كان السلطان قد حرّم بيع الأراضي لليهود، لكن المتصرف سمح لهم بعد أن أخذ الكثير من الذهب.

ثم وهو يرفع كفيه للسماء:

- منه لله.. الخائن.

وغصّ بالكلام، فأجهش، وقال:

- اليهود قتلوا صديقي وحببي طاهر عنبر، رحمة الله عليه..

ولم يلبث أن رفع يديه إلى السماء، يتمتم بالفاتحة على روح الشهيد.

شعر الشيخ القسام بالتأثر، وقرأوا جميعاً الفاتحة معه في صمت، بينما استبد الفضول بالشيخ عز الدين ليعرف قصة هذا الشهيد، الذي مازالت ذكراه حية في وجدان عجوز، يظن أنه في زمن السلطان عبد الحميد.. وسرعان ما استجاب الحاج أحمد لهذا الفضول، فاستمر في روايته:

- اليهود.. ما إن أبرموا صفقتهم، حتى أنذروا الفلاحين، وطردوهم من الأرض بالقوة، وراحوا يبنون فيها، وشعر الفلاحون بالظلم، وأدركوا أن القصة إن استمرت على هذا المنوال، فسيشتري اليهود كل يوم أرضاً، ويتمددوا ويتمادوا.. وكان فيهم العم عبد الرحمن وشريكه طاهر من الخضيرة، ونشبت معركة مشهودة سقط فيها شهداء وجرحى..

قال الجد وهو ينقر بعصاه، وقد انفعل بالذكرى..

- الله يرحمه.. كان بطلاً.. قال لي أريد أن أواجههم فوق أرضي.. دخل إلى المستعمرة، وقاتلهم حتى سقط شهيداً.

وأجهش العجوز ثانية وهو يروي القصة، ورائت لحظة مفعمة بالتأثر، وهم يراقبونه بيكي، تاركين له الفرصة، ليبدد شحنات الانفعال التي أثقلت روحه، وقال الحاج سالم للشيخ القسام:

- كما ترى.. بعد كل هذه السنين، كلما ذكر الشهيد طاهر عنبر بكى عليه.

ووصل الحاج أحمد إلى الجزء الأهم من القصة:

- كان الشهيد طاهر عنبر قد ترك خلفه زوجة وطفلتين، فتزوج العم أرملته، وكفل ابنتيه ورعاهما حتى كبرت، فزوجني واحدة، وأعطى أختها لعديلي الحاج سالم.. أنا أنجبت أمنة ابنتي الوحيدة، بينما أنجب الحاج سالم مصطفى وأخوته، ولما كبرت أمنة، ونضجت، أصرّ الختیار أن نزوج

أمنة لمصطفى، وافقت القلوب على هذا الزواج، وكلنا اليوم بانتظار هذه الفرحة، وهو أكثر المتحمسين لها..

وعقب الحاج سالم:

- العم عبد الرحمن يخشى أن يأتيه الأجل - بعد عمر طويل- قبل أن يطمئن على زواج أمنة ومصطفى..

أدرك الشيخ عز الدين أن مهمته دقيقة وصعبة، وشعر أن وراء هذا الزواج معنى عظيماً، لكنه لم يجد في مسعاه ما يناقض هذا المعنى النبيل، فلم يبأس، وقال محاولاً اختيار الكلمات..

- أمنة ياعم طالبة مجتهدة، وغاية في الأدب والتهذيب، وهي تستحق شاباً تبدو عليه سيماء الرجولة والصلاح كمصطفى - الله يسلمه - ومصطفى يستحق فتاة صالحة وذكية كأمنة، وأدعو الله العلي القدير أن يتم هذا الأمر على خير، وأن يرزقهما طفلاً يجدد سيرة الشهيد طاهر عنبر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ويحيي ذكراه..

أعجب الحاضرون بكلام الشيخ عز الدين، وشعر مصطفى نحوه بالامتنان، مما خفف عنه صعوبة التسليم باقتراح تأخير الزواج إلى الصيف، وهو الذي يعدّ الأيام والساعات، ليحظى بتوأم روحه في ظلال الحلال، أما العجوز فقد حرك كلام الشيخ عز الدين أشجانه من جديد، فراح يجهش في صمت، وهو يتأمل مصطفى بعيون تشعشع بالود، وحانت لحظة مواتية، فقال الشيخ عز الدين للشيخ العجوز:

- لكن أمنة ياعم تتمنى أن تكمل السنة الدراسية قبل الزواج، حتى تفوز بالشهادة الثانوية، وتُحصّل المزيد من العلم، وهي لا تريد أن تعصي لكم أمراً، لذلك وسطتني أن أنقل لكم هذه الرغبة، فهل تكرمني بالموافقة هذا الطلب، حتى نجتمع بين الخيرين؟

رفع العجوز إلى القسام عينين مخضلتين، وقد فاجأه الطلب، فاستدرك الشيخ القسام قائلاً برفق:

- أرجو أن تعذرني على تطفلي، ولولا أنني تأكدت من أنني في بيت كريم وفي حضرة كرام، لما قبلت بهذه المهمة.

تأمل الحاج عبد الرحمن الحاضرين، وكأنه يستطلع موقفهم، وبعد لحظات مفعمة بالترقب، قال بصوت متهدج، وهو يشير إلى مصطفى بعكازه، وكأنه لم يسمع ما قاله الشيخ عز الدين..

- هذا الولد يشبه جده طاهر..

ثم بصوت متهدج:

- كأنني أرى جده أمامي. الله يرحمك يا طاهر يا عنبر.

وصمت برهة ريثما استوعب دفقات الحزن التي خنقت نبراته، ثم أخذ نفساً عميقاً، ومدّ يده لمصطفى حتى يساعده على النهوض. قال، وهو يتكئ بعكازه على الأرض، لينهض:

- كان جدك يا مصطفى رجلاً رحمه الله.. قال لي إذا سكتنا هذه المرة، فسوف تراهم في هذه البلاد أكثر من أهل البلاد.. رحمه الله.. كان بطلاً.

اعترى القلق الشيخ عز الدين، وهو يرى الجد يمضي، وقد تجاهل وساطته، لكن الجد ما لبث أن توقف فجأة، بعد أن خطا خطوتين، والتفت إلى مصطفى..

- إيش رأيك يا مصطفى؟.

خجل الشاب، وهو يرى جده يحيل الأمر إليه، فهو يتمنى أن يطوي الله الزمان والمكان، ليجد نفسه من لحظته مع حبيبة القلب ومهجة الروح، فلماذا هذا الإحراج؟.

قال وقد أربك الحياء لهجته..

- ليس هناك رأي بعد رأيك يا جدي.

هز الجد رأسه، ومضى قائلاً..

- الخيرة فيما اختاره الله..

ثم ما لبث أن توقف ثانية، والتفت يستدرك قائلاً بنبرة حاسمة:

- تكتبون كتاب مصطفى وأمنة في الحال. وإن بقي في العمر بقية،

نفرح بالدخلة في الصيف القادم. أما إذا كتب الله لي الموت، فوصيتي

لكم، ألا تؤجلوا هذا الزواج أكثر.

منذ أن وطئت قدماء فلسطين، والشيخ عز الدين يتحين الفرص للقيام برحلة لا بد منها، وقد كان عمله الجديد في مدارس البرج مناسبة لتحقيق هذه الرحلة المنشودة.

وفاجأ أصحابه ذات مساء بأن يستعدوا للمسير عند الفجر..

- إلى أين؟

- إلى القدس.

هتف الشيخ حنفي في حبور..

- القدس!

- وتصلي في المسجد الأقصى.

وشملت الفرحة الجميع، فصلّوا الفجر في جامع النصر في الجرينة، ثم توجهوا إلى ساحة الحناطير، فاستأجروا عربة مناسبة، وانطلقوا على بركة الله، وأشواقهم تسابق أرواحهم إلى أولى القبليتين وثالث الحرمين.. وراح الرجال يستمتعون برؤية الحقول والسهول المترامية، والقرى الوادعة المتناثرة على التلال، يتأملون أشجار اللوز المزهرة، وبيارات البرتقال والليمون، وكروم العنب والتين والزيتون، وشقائق النعمان التي نثرتها الطبيعة بين الحقول، تزين بها ثوب الربيع الأخضر، بلونها القرمزي الخلاب..

كانت العربة ترقى في التلال، فتمنحهم في بطئها فرصة للتأمل في تضاريس شهدت أخطر تحولات التاريخ، وتتسارع عجالاتها عند المنحدرات والوديان والسهول، فيتفاءلون بقرب الوصول إلى أعتاب ازدادوا شوقاً إليها، وهم يصغون لأحاديث الشيخ عز الدين، وهو يروي لهم تاريخ القدس وما مرت به من خطوب وعواصف، ويحدثهم عن مكانة الأقصى في ضمير كل

مسلم.. ويروي لهم قصة الإسراء والمعراج، تلك الرحلة التي وصلت بين الأرض والسماء، وحملت الحبيب المصطفى في رحلة عبر السماوات السبع، ليصل إلى درجات لم يبلغها بشر.

ووصلوا إلى مشارف القدس، فلاحت لهم قبة الصخرة من بعيد، وهي تلمع تحت شمس بدأت تتعافى من شتاء طويل، تراخت يده الباردة عنها، لتزداد إشراقاً بألق الربيع، وثارَت في النفس ذكريات مجد مضى، لكنه ما زال ماثلاً في روح تتطلع للانبثاق.. مجد الفتح العظيم.. مجد المقاومة الباسلة ضد هجمات الطامعين القادمين من وراء البحار.. مجد الانتصارات العظيمة، التي حققها المدافعون عن وجود الأمة في حطين وعين جالوت..

ودخلوا القدس من باب يافا، وراحت العربية تمضي الهوينا في الشوارع العتيقة، فتأملوا آثارها التي حاكها تاريخ عريق، ترك بصماته في كل حارة وزقاق منها، وغاص القسام في خياله، يقتفي خطى الفاروق، وقد حضر بنفسه ليدشن فتوح الشام، ويستلم مفاتيح المدينة المقدسة، عندما قرر أهلها من النصارى، أن يضعوها عهدة في يد خليفة المسلمين، فكان أهلاً للأمانة، وأبى أن يصلي داخل كنيسة القيامة، حتى لا يستغل ذلك مُتزيّداً في مستقبل الأيام، فيسطو على الكنيسة بحجة أن عمراً صلى فيها ذات يوم..

وألقى نظرة احترام إلى كنيسة القيامة، فأدرك سحر هذه المدينة التي صاغت من أرواح الأنبياء، عبقاً خاصاً يميزها، وصارت رمزاً للإنسان عندما تسمو روحه، وتقترب من الله تعالى، وترتفع عن غرائز الطين، التي تشده إلى قاع، لا ينبغي لمخلوق منحه الله تعالى العقل والروح. وألقي في روعه أن كنيسة القيامة وأخواتها، وهنّ يرحبن به، يشكين له زمناً تسرب إليه الأغراب، ليهتدوا تلك السماحة التي جمعت أهل الأديان في ظلال الأمن والسلام.

وارتفع الأذان، فنزل برداً وسلاماً على قلوب تافت للصلاة في المسجد الأقصى، الذي كان شاهداً على رحلة الإسراء والمعراج، وهبت ذكريات النبوة، فخفت قلوبهم بحب رسولٍ، يفتقدون روحه في هذا الزمن الحزين، الذي تاهت فيه أقدام المسلمين، وتضرت بهم السبل، وهانوا بعد أن استهانوا بما لديهم، فأصبحوا غثاء..

واقربوا من المسجد، فاستوقفتهم بئر كبيرة تزدهم بالناس.. فعرفوا أنها نبع الماء العذب، التي يستقي منه سكان القدس، وشاهدوا السقاءين يتساعدون في جرّ الدلاء، فبهرهم المنظر بجماله، وشربوا من مائها المثجج، فسرت برودتها في عروقهم، وأيقظت فيهم نشاطاً وحماساً..

ووصلوا إلى أعتاب الأقصى، فدخلوه قانتين.. وخشعت أرواحهم في رحاب القبلة الأولى، عندما كان المسلمون الأوائل يتوجهون إليه في صلاتهم.. ووقعت عينا القسام على منبر صلاح الدين، فخيّل له الناصر المظفر، وهو يخطب خطبة النصر، وقد طأطأ الرأس تواضعاً لله، الذي كان له عوناً في تحرير القدس من الغاصبين.

وانتقلوا إلى مسجد قبة الصخرة، فصلوا ركعتين، تحية لهذا المصلى الذي وصفه النبي ﷺ، بأنه قطعة من الجنة.. وبهرهم البناء الأموي العريق، الذي زينته أنامل الفنانين المسلمين عبر العصور، وراحوا يتأملون النوافذ الزجاجية الملونة، وما رسمه عليها المبدعون من زخارف.. حتى إذا وصلوا إلى الصخرة، التي عرج منها النبي ﷺ إلى السماء السابعة، خشعت أرواحهم لجلال الذكرى، وحملتهم نفحاتها إلى سدرة المنتهى، فسبحوا الله، واستغفروه طويلاً.

وقضوا في القدس أوقاتاً لا تنسى، وبدأت رحلة العودة.. فمروا بحائط البراق، فلاحظوا جلبة واضطراباً، ما لبث أن تطور إلى ملاكمة بالأيدي

بين حراس الأقصى ومجموعة من الغرباء، تأكّد لهم أنهم من اليهود..
وسأل ظافر أحد المقدسين عمّا يجري.. فأخبره أن الصهاينة يحاولون أن
يرفعوا علمهم فوق الحائط، الذي ما زالوا يصرون على احتلاله منذ سنوات.
وسأل الشيخ حنفي شيخه: هل ننزل ونساعد؟
تمنى الشيخ لو أجابه إلى ما طلب، لكنّ الأمر لم يكن يخلو من
العواقب، على ثلّة ما زالت تتلمس خطاها في هذه الغربية. وحوقل القسام:
- اتركهم.. فليليت ربّ يحميه.

وحضرت دورية بريطانية لتفصل بين الطرفين، لكنّ أحد اليهود
استطاع أن يفلت ويغرس علم الصهيونية في شق من شقوق الحائط
الصخري، وأخرج الضابط البريطاني لَمّا رآه مسدسه، وأطلق طلقة في
الهواء، فتراجع الصهيوني، لكن العلم ظلّ في مكانه!
وظنوا أن الضابط سيمضي إلى العلم، فيخلعه، إحقاقاً للحق، وتنفيذاً
للقانون الذي يؤكد بأن هذا الحائط للمسلمين، لكنه استدار، وركب مع
رجاله، ليغادروا الساحة، وكأن شيئاً لم يحدث!.

وقال الشيخ حنفي:

- ماذا فعل؟.. لكأنهم جاؤوا ليساعدوا اليهود في وضع العلم.

ضحك المقدسي، وقال..

- هذه قصة كلّ يوم.. مرّة يعلقون العلم، ومرّة يضعون الكراسي
والطاولات، ليثبتوا حضورهم في المكان.. والحراس يا مساكين.. تارة
يصدّونهم، وتارة يأكلون علقة من المعتدين.

وقفل الرجال عائدين..

كان القسام شارداً يفكر فيما جرى وكان..

«يأبى الظلم إلا أن يعكر أرواحنا، ويزرعها بالغضب».



ما زالت الثورة في الساحل تشغل بال الشيخ عز الدين وأصحابه، ومنذ أن حطّوا الرحال في حيفا، انقطعت عنهم المعلومات، إلا من زائرٍ قادمٍ من الشام، أو لاجئٍ لاذَ بحيفا هرباً من سطوة الفرنسيين، وكلما وجد الرجال وقتاً، قاموا بزيارة محطة القطار أو سوق الشوام أو ساحة الحناطير، علّهم يعثرون على قادمٍ جديد، يتسقطون منه الأخبار..

وذات مساء اجتمع الرجال على العشاء إلا ظافراً..

- أين أخوك؟..

أجاب عبد المالك.

- قال أنه ذاهب إلى محطة القطار، وسيلحق بنا فيما بعد.

وعلق الشيخ علي الحاج عبيد:

- كعادته.. كلما حان موعد القطار القادم من الشام، ذهب يستطلع

الأخبار.

وأردف الشيخ حنفي، وهو يوزع الخبز على الحاضرين:

- ظافر مشتاق، وأخشى أنه يتوق للعودة.

- كلنا نتوق للعودة، ولكن كل شيء بوقته.

- المهم ألا يفاجئنا بقرار العودة، كما فعل الشيخ خالد.

رمقه الشيخ عز الدين. لم يعجبه الكلام.

- تفضلوا.. بسم الله.

وشرعوا في عشاءهم المتواضع، وراحوا يتداولون في شؤون حياتهم

الجديدة، ويصفون إلى الشيخ حنفي وهو يحدثهم عن إخفاقه، في إيجاد

عمل يعتاش منه.. وتابع الشيخ حنفي قائلاً:

- منذ أن بدأت أنا والشيخ علي نبحث عن عمل، ونحن نواجه نفس المشكلة.. كلما طرقتنا باباً، قالوا لنا الله يعطيكم العافية.. شرفتمونا.. عندنا الآن كفايتنا.. حتى مهنة الزبالة وجمع القمامة، لم نوفق في إيجاد موطئ قدم فيها!..

ثم وهو يضحك، محاولاً التخفيف من حدة شعوره بالعجز:

- لولا راتب التدريس الذي يتقاضاه الشيخ عز الدين لمتنا جوعاً.

ضحكوا لسخرية الشيخ عارف، بينما أحس الشيخ القسام بمرارة المعنى، الذي يكمن خلف كلمات الشيخ حنفي، فقال بنبرة عاتبة:

- شيخ حنفي. لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام ثانية.. نحن إخوان، وجيبنا واحد.

- إنما كنت أمزح..

- مزحّت، وأنت تعني ماتقول، وقد فهمت عليك.. أعرف أنكم عندما تجدون عملاً لن تقصّروا، وحتى ذلك الحين، أنا متكفل بمصروفنا جميعاً، ولا أريد أن أسمع أيّ تلميح أو تصريح بهذا الشأن.

صمتوا احتراماً لأمرهم، فكلامه لا يردّ.. وشعروا في أعماقهم بالامتنان لموقفه، الذي رفع عنهم حرج العجز عن المساهمة في المصروف..

وعلق علي الحاج عبيد، يصل ما انقطع من الحديث:

- حيفا تعج بالفلاحين الذين نزحوا من أراضيهم، ويبحثون في حيفا عن عمل، لذلك فإنّ الحصول على فرصة وسط هذا الزحام أمرٌ عسير..

وتدخل عبد المالك القسام:

- كلام الشيخ علي صحيح.. حيفا مليئة بالكثير من هؤلاء الفلاحين،

الذين يتجمعون في الميناء وعلى مفارق الطرق وأمام ورشات البناء بحثاً عن أي عمل..

وقطع حديثهم طرق على الباب:

- هذا ظافر.

قال الشيخ علي الحاج عبيد مداعباً، وهو يستقبله لدى الباب:

- تأخرت عن العشاء.. أخشى أنه لم يبق لك شيء.

لم يرد، ولم يكثر لدعابة الشيخ علي. قال وهو يذلف بسرعة، وقد

بدا في غاية التأثر:

- ثمة أخبار لا تسر.

جمدت اللقمة في أفواههم، بينما تساءل القسام في قلق:

- أية أخبار؟

- لم أكن أريد أن أزعجك.

- قل بسرعة!..

- الشيخ خالد.

- قبض عليه الفرنسيون؟

- ياليت..

- ماذا؟

طأطأ رأسه في حزن. قال بنبرة تقطر أسى:

- اعتقلوه على أطراف جبلة بعد عودته من هنا، ثم..

- ثم ماذا؟

- جمعوا سكان القرى والبلدات و..

- أكمل..

- سكبوا عليه الكاز، وأحرقوه حيّاً.

- ماذا؟

صعق الخبر الشيخ عز الدين، فانتفض واقفاً، وضرب بقبضته الحائط،

وهو يهدر في غضب:

- المجرمون.. الوحوش.. الله أكبر عليهم.. الله أكبر.

وأجهش الشيخ حنفي:

- رحمه الله.. كنت خائفاً عليه من هذه الرحلة.

قال الشيخ عز الدين، وقد شعر بالنار تكوي فؤاده:

- الله أكبر عليهم.. أية وحشية هذه؟.. أهذه فرنسا التي أتتنا تدعي

التمدن والحضارة.. والله حتى الوحوش في الغابة، تحترم فريستها أكثر.

وغرقوا في الصمت والحزن، وقد عقد الخبر ألسنتهم.. وطافت بهم

صورة الشيخ خالد، رفيق الدرب والسلاح.. بطيبته.. بشجاعته.. بصراحته..

بروحه المرححة.. بعشقه للوطن الذي دفع حياته من أجل أن يموت في حضنه

وعلى ثراه.. لكن الغاصب الغاشم الذي يجثم فوق أرضه، لم يرحم روحه

الولهي، التي تآقت للأرض التي نبتت فيها، فصبّ عليه جام حقهه الأسود.

وأجهش الرجال، وقال عبد المالك القسام، وهو يبكي بالتياع:

- رحمك الله ياشيخ خالد. كان علينا أن نمنعك بأي وسيلة.

وأغمض الشيخ القسام عينيه على دمه، الذي انثال في صمت، وكأنه

يستحضر طيف الشيخ خالد، ليعتذر منه..

- هذه غلطتي أنا. ما كان ينبغي أن أتركه لخياره..

قال ظافر..

- هذا قضاء الله وقدره، ولا رادّ لقدر الله.. يكفيه أنه مات شهيداً.

ورفع الشيخ علي عبید كفيه إلى السماء، وقال بنبرة ضارعة:

- اللهم أرنا فيهم يوماً.



لم تمح الأيام جرح الشيخ خالد من نفس الشيخ عز الدين، وكلما هبّت ذكراه، أرهقت روحه الذكريات، ولسعتها سياط اللوم، لترك الشيخ خالد لقراره، الذي أودى به بهذه الطريقة المحزنة..

وكلما شعر القسام أن يديه مكبلتان، بعيداً عن الميدان الذي غادره مرغماً، استشاط غضباً وشارت ثأثرته، وراح يدفن حزنه في ساعات التحضير والتدريس، ليزرع الثورة في وجدان براعم واعدة، يرجو أن تتفتح على وعي يحميها من مكر الطغاة، الذين يستنّون السكاكين لاجتثاث هذه الأمة عن آخرها.

ولم يلبث أن دعي الشيخ عز الدين ليكون شاهداً على كتاب أمانة على مصطفى، فحاول أن يعتذر، احتراماً لذكرى الشيخ خالد، لكن الحاج أحمد ألح عليه، وأبلغه أن هذه رغبة العائلة، التي يشرفها أن يكون شاهداً على هذا الزواج، وأيضا رغبة تلميذته التي تبناها، وتوسط لها لتؤجل عرسها، حتى تنجح في الثانوية العامة، وتفوز بأكبر قدر من التعليم.

وانطلقت الزغاريد في بيت الحاج أحمد السهلي الواقع على تلال الحليصة المطلّة على البحر، وقد أذفت لحظة كتاب ابنته أمانة على ابن خالتها مصطفى ابن الحاج سالم الخطيب، بحضور كلّ من الشاهدين: الشيخ عز الدين القسام الذي اشترطته أمانة شاهداً على زواجها، والأستاذ رشيد الحاج إبراهيم صديق العائلتين، وأحد وجوه حيفا المرموقين.

وتهللت أسارير الجدّ، فبدا فرحاً بهذه المناسبة، كطفل موعود بهدية العيد. وقال للأستاذ رشيد وهو يضع يده على يد الشيخ القسام في ودّ ظاهر:

- بنتنا أمنة تعزّ أستاذها، وتمدح به كثيراً. أحسنتم باختياره أستاذاً
في مدرسة البنات..

ابتسم الأستاذ رشيد:

- الشيخ عز الدين مكسب لحيفا كلها.
أردف الجد:

- بنتنا أصرّت أن يكون شاهداً على الزواج. قالت لأمها، إن جاءني
طفل سأرييه، ليكون عالماً مجاهداً مثل أستاذي الشيخ عز الدين القسام..
كثّر الله من أمثاله.

شعر القسام بالخرج، وهو يصفي لهذا الإطراء، وطأطأ رأسه في
تواضع، يحمد الله في سره على هذا الأثر، الذي أحدثه في وجدان تلميذة
يافعة، وخفف من حرجه دخول أحد الضيوف، الذي جلس قريباً من الجدّ،
فاشتبك معه في حديث آخر..

وحانت ساعة عقد القران، فدعي أهل العروس وأهل العريس إلى غرفة
مغلقة.. وجاء الجدّ برفقة الشاهدين، وهو يتمتم بالرحمة على الشهيد
طاهر عنبر، وكأنه يستدعي روحه الطاهرة، لتبارك هذه المناسبة التي
ستخلد ذكراه..

وجلس مصطفى وأبوه عن يمين المأذون، بينما دخل الحاج أحمد يمسك
بيد العروس التي بدت خجلى، وقد أربكتها هذه المناسبة، فطأطأت الرأس
في حياء، وعندما سألتها المأذون عن رأيها، رفعت وجهاً علتة حمرة الحياء،
وقد تندّى بجبات من العرق، فبدت لمصطفى من خلال وشاحها الأبيض
الذي يحفّ بوجهها المدور، كوردة تفتحت للتو، لتنتثر السعادة في حياة
واعدة، انتظرها بفارغ الصبر، وأفلتت منها نظرة لوجه الحبيب، الذي كبر
مع أحلامها، حتى صار توأم روحها، فأربكتها تلك الدهشة الولهى التي

أطلت من عينيه، فخفق قلبها بعنف، وابتسمت نصف ابتسامة، سرعان ما أخفتها، حتى لا تفضح تلك الفرحة، التي سربلت روحها، وفاضت من عينيها، وأطرقت في صمت، ونظراتها لا تفارق الأرض.

وقال والد العروس..

- دير بالك يا مصطفى.. أنت تعرف أنّ أمانة وحيديتي في هذه الدنيا.. ولولا أنك عندي بمنزلتها في الدين والخلق والمعزة، لما إئتمنتك عليها..

همس الشاب، وقلبه يتدفق سعادةً وفرحاً..

- أمانة في عيوني إن شاء الله.

وشرع المأذون في إجراءات عقد القران..

- هل اتفقتما على المقدم والمؤخر؟

قال الحاج أحمد السهلي، والد العروس:

- مهر ابنتي جنيه واحد.. هذا المعجل، أما المؤجل فوالله لا أدري..

اكتبوا ماشئتم.. البنت بنتكم، وأنا شاري مصطفى.

أعجب القسام بهذا اليسر، الذي تسير به أمور النكاح، وقال والد

العريس الحاج أبو مصطفى بأريحية وثقة:

- اكتب يا شيخ.. المعجل بيارة البرتقال التي في قرية حوض

الساحرة.. أجمل قرية في الكرمل.. أمانة بنتنا، وعزيزة على قلوبنا جميعاً،

وتستاهل جبل الكرمل كله.. أما المؤجل فعشر دونمات قمح أملكها في مرج

بني عامر، قرب كومبانية نهلال، أجارنا الله منها ومن أهلها.

هتف الحاج أحمد، والدهشة تعلو محياه:

- لكن هذا كثير.. أكثر مما اتفقنا عليه يا أبا مصطفى!.

قال الحاج سالم:

- أمانة غالية علينا، وتستاهل كل خير.. يكفي أنها تحفظ القرآن، وستكون إن شاء الله أمّ أول حفيد لي من ابني البكر مصطفى.
- علّق الأستاذ رشيد أفندي الحاج إبراهيم مباركاً..
- بل أحفاد إن شاء الله..
- وتّمّ العقد، فانطلقت الزغاريد، تعلن اكتمال الفرحة في الدارين، فضحكت القلوب، وامتلأت نفوس الجالسين بالبهجة والحبور، ودعوا للعروسين بالرفاه والبنين..
- وطلب الحاج أحمد من الشيخ عز الدين القسام أن يكرمهم بكلمة، فوقف خطيباً، وهو سعيد بهذه المناسبة التي حملته إلى بيوت حيفا، ليعيش أفراحها، ويصبح جزءاً من أقدارها..
- الزواج يا إخوان سنة الكون، وهو حق لكل شاب وفتاة، كما هو واجب على كل أسرة، أن تيسره وتنجزه لأولادها وبناتها دون إبطاء أو تعقيد.. إنه سنة المصطفى ﷺ التي سنّها لهذه الأمة..
- واستبد به الحماس..
- سهّلوا على الشباب يا إخوان.. خفّفوا المهور والطلبات.. ولا تدعوا فكر الشباب يحترق في دوامة الشهوة والرغبة.. زوّجهم بأيسر الظروف، حتى يتفرغوا لحل مشاكل وطنهم.. الوطن بحاجة إلى الشباب.. وحلّ مشكلة الزواج خطوة على طريق المنعة لهذه الأمة ولهذه الأوطان..
- وهتف شابّ من الحاضرين:
- يسلم فمك يا شيخ.. والله مشكلة المهور هدّتنا..
- استقبل الشيخ ملاحظة الشاب، وأدرجها مباشرة في صلب الخطاب:
- إن الله لا يغير ما بهذه الأمة حتى تغير من هذه العادات.. أصبح الشاب يقاس بما يملك من ذهب وأملاك، والرسول المصطفى ﷺ يلح

علينا بتيسير الحلال.. من جاءكم ترضون دينه، فزوجوه.. ومن جاءكم يطلب العفاف، فزوجوه.. ومن يشعر أن ابنته قد تآقت إلى الزواج، فليشجع من يريد الزواج للاقتران بها.. وليسرع في تحقيق فرحتها وحصانتها.. بناتنا يا إخوان أمانة في أعناقنا.. فإذا كانت ابنتك صامتة عِفَّةً وحياء، فلا تغفل عمّا يدور في قلبها من أشواق ورغبات، حلّها الشرع الحنيف في ظلال الحلال..

كانت النسوة يصغين في الداخل بإعجاب.. بينما كانت قلوب الصبايا ترقص بين جوانحن، فرحاً بمن ساقه الله مدداً، يدافع عن حقهن المهدور..

وانهالت الدعوات الضارعات على هذا الشيخ الطيب، من قلوب كبّلتها التقاليد والمهور، واكتوت بنار القهر والحرمان.

انفضّ الحفل، وخرج الشيخ القسام بصحبة الأستاذ رشيد، والناس من حوله يحيّونه بإكبار، وكأنهم يشكرونه على مافتح الله عليه من كلام، بلسم الأرواح، وفتح للشباب أبواب اليسر والسعادة..

- كان لكلمتك في الحفل أثرها في نفوس الشباب.
- لا قيمة لكلماتنا، إن لم تجد طريقها إلى قلوب الناس.
- عندما يكون العالم مؤثراً، يمكن أن يحيي أمة.
- نسأل الله القبول.

و دعا الأستاذ رشيد الشيخ القسام ليشرّب عنده فنجان قهوة، فرحب بالدعوة ولبّأها على الفور، سعيداً بصحبة هذا الرجل، الذي أعجب بشخصه وفكره منذ أن التقاه أوّل مرة.

قال الأستاذ رشيد وهو يقدم القهوة لضييفه:

- عندما أرى إخواننا السوريين في حيفا، أشعر بنشوة خاصة، تدغدغ في نفسي حملاً داعبنا بقوة، عندما اجتمعنا في دمشق، ننادي بفیصل ملكاً على بلاد الشام، أملاً في دولة قوية ومستقرة، لولا أن سارعت فرنسا وبريطانيا بالإجهاز على هذا الحلم، وقسمتا سوريا الكبرى بسكاكين الغدر والعدوان.

- للباطل جولة، وإن شاء الله سيكون للحق جولات.

قال الأستاذ رشيد، وهو يدني طبق الحلوى من الشيخ ليختار منه:

- لعلك لا تعلم ياشيخ عز الدين أن الملك فيصل نزل في هذا البيت

بعد خروجه من دمشق.

- حقاً!

- كنت قد عقدت مؤتمراً صحفياً هنا بعد سقوط دمشق بيد الفرنسيين، لإدانة هذا الاحتلال، ودعوت فيه لعقد المؤتمر السوري في حيفا لرفض الانتداب، وحاولنا عقده مع مجيء الملك فيصل إلى هنا، لكن الإنجليز رفضوا أن يسمحوا بعقد هذا المؤتمر، لأنه يكرّس وحدة بلاد الشام التي تأمروا عليها مع حليفهم اللدودة، فاكتفيت باستضافته شخصياً في بيتي.

ثم وهو يهز رأسه في مرارة..

- لهفي على بلاد الشام، تتمزق اليوم أمام أعيننا، ونحن عاجزون.
- الشام مستهدفة منذ الحملات الصليبية يا أستاذ رشيد، وغورو والنبي وغيرهما، إنما هم نسخة من أرناط وكونراد وريتشارد قلب الأسد ولكن بلباس جنرالات.. هذه هي الحقيقة.

تنهد الأستاذ رشيد، قال وهو يغير مكانه، ليكون أكثر قرباً من الشيخ

عز الدين:

- ما يؤرقني فعلاً، هذا الذي يعدّ لفلسطين.. أفهم أن بريطانيا تحتلنا مثلما تحتل فرنسا سوريا ولبنان، لكن ما يجري هنا أكثر من احتلال.. اليهود يتزايدون يوماً بعد يوم، والإنجليز بدؤوا يمكنون لهم بطريقة ماهرة، لا ينبغي أن تمر!

- الهجرة اليهودية هذه بلاء، لم نختبره في سوريا من قبل!

- الأمور تسير إلى الأسوأ يا شيخ عز الدين.. منذ أن عينوا هربرت

صموئيل مندوباً سامياً.

- لا بد أنهم اختاروه بعناية!

- هو ضابط وسياسي بريطاني ويهودي شهير، كان قد طالب بإعطاء

فلسطين لليهود قبل وعد بلفور بسنتين!.. ولك أن تتوقع ماذا سيفعل يهودي

يقود جيش بريطانيا العظمى التي أطلقت يده في فلسطين، وكلفته بتنفيذ وعد بلفور!.

- اختيار صموئيل إذن وفي هذه المرحلة بالذات ليس صدفة!.. بل يأتي عن سبق إصرار وتخطيط..

ابتسم الأستاذ رشيد ابتسامة ساخرة موشحة بالغضب، وقال:

- وعد بلفور هذا جاء نتيجة لجهود كبيرة ودؤوبة، قام بها زعماء الصهيونية، لجمع يهود العالم في دولة، ووقع اختيارهم على فلسطين، فحرضوا من أجل ذلك دولاً وحكومات.. اشترتوا الضمائر.. فافوضوا وساوموا وابتزوا.. شاكسوا وهددوا وخربوا.. ثم قايضوا مشاكلهم وإشكالاتهم بفلسطين.. لسان حالهم كان دائماً يقول: أعطونا فلسطين، واشتروا راحة بالكم.. ودعموا جهودهم بالكثير الكثير من المكر والمال.. وأثمرت جهودهم في النهاية..

وقال الشيخ عز الدين..

- لطالما حيرني فعلاً هذا التبني البريطاني للمشروع الصهيوني!.

- اشترتوا وعد بلفور باختراع البارود الذي كانت بريطانيا في أمس الحاجة إليه أثناء الحرب الكبرى، وجيروه لتحقيق حلمهم الجشع.. شجعوا أتباعهم من يهود بريطانيا للانخراط في جيش الإمبراطورية، حتى صار لهم فيه جنود وضباط وقادة مثل هربرت صموئيل وغيره.. وهاهي اليوم تفرضهم علينا كالسهم الزعاف.. إما أن نتجرعه طواعية، أو يطلقون على رؤوسنا الرصاص.

- كم تقدر عدد اليهود في فلسطين؟

- كان اليهود في فلسطين قلة نادرة إلى عهد قريب، ولم يزد عددهم قبل أن تبدأ أفواج المهاجرين بالقدوم عن خمس وعشرين ألفاً، وعندما

احتلت بريطانيا فلسطين اعترفت رسمياً أن نسبتهم مع من هاجر منهم إلى عدد السكان لا تزيد عن العشر..

سأل الشيخ عزّ الدين:

- وكم تقدر سكان فلسطين اليوم؟

- مليون على أكثر تقدير..

- تقصد أن اليهود الذين كانوا من أصل سكان البلاد لم يكونوا شيئاً

مذكوراً.

- مع ذلك تستغرب أن البيان الأول الذي وزعه الجنرال اللنبي عندما

احتل القدس، كتب بثلاث لغات العربية والإنجليزية والعبرية.

- العبرية؟..

- أجل. منذ اللحظة الأولى وهم يحاولون فرض اليهود كجزء أصيل

من أهل فلسطين.. يساوون بين اليهودي المهاجر من أوروبا، وبين الفلسطيني

الذي نبت في هذه الأرض، وعاش فيها منذ آلاف السنين..

وأردف الأستاذ رشيد وهو حزين:

- لذلك سارعنا للمشاركة في المؤتمر السوري الأول، لنبايع الملك

فيصل ملكاً على سوريا الكبرى، ونؤكد أننا في فلسطين جزءاً من سوريا

الطبيعية..

- وبهذا لن يزيد اليهود مهما تكاثروا في فلسطين عن عشر معشار

سكان البلاد.

- لم ينس المؤتمر أن يؤكد على وقف الهجرة، وميّز بين اليهود

المهاجرين إلى فلسطين ليستوطنوا فيها، وبين أتباع موسى عليه السلام من

سكان البلاد..

- كان من الممكن أن يكون هذا هو المخرج الذي يوقف مؤامرة

بلفور، لولا أن تحركت فرنسا بسرعة، لتقضي على الحكم الفيصلي..
 - فلسطين يا شيخ عز الدين اليوم تتعرض للاغتيال.. فلسطين
 تتسرب من أيدينا ونحن عاجزون.

أدرك الشيخ القسام مدى الهمّ الذي تمكّن من روح الأستاذ رشيد، ووجد
 نفسه أمام رجل استوعب قضيته، حتى صارت مفرداتها جزءاً من منطقته وفكره..
 وكأنه ضمير فلسطين الذي يحاصره القلق على مصير وطن يستباح، فيستصرخ
 الكون لدحر هذا الكابوس.. وراح يبثه مافي نفسه:

- لا أخفيك يا أستاذ رشيد.. عندما جئت إلى حيفا، كان في بالي
 أنها استراحة محارب، ثم أعود بعدها إلى الميدان الذي غادرته من قبل،
 لكن هذا الذي أراه في فلسطين، وما تحدثني به الآن، يجعلني أعيد
 النظر.. لكن يداً واحدة لا تصفقا!.

تهلل وجه الأستاذ رشيد، وقال في حماس:

- تجربتك وعلمك وتأثيرك يا شيخ عز الدين ذخراً لنا في فلسطين،
 ويد الله مع الجماعة..
 - معاً إن شاء الله.. وإن قدر لي البقاء في فلسطين، فسيكون لنا
 كلام كثير..

وودع الأستاذ رشيد الشيخ القسام.. كان سعيداً بهذه الصداقة التي
 انعقدت مع رجل كبير بقامة الشيخ عز الدين ووعيه، وتذكر كلماته الأخيرة،
 فشعر بالفضول لمعرفة ما يفكر فيه هذا المجاهد الكبير!..

بعض الكلمات تولد غامضة، لكنها تكبر فجأة، وتشي بما أخفته من
 أسرار!.

لم يستطع الشيخ عز الدين أن ينسى أحداث الرحلة إلى حارة الصفيح والبؤس تلك.. لقد فتحت عينيه على المأساة التي تعيشها فلسطين.. وكلما نشبت الأحاديث عن هجرة اليهود، ومعاناة الفلاحين الذين يطردون من أرضهم، ليحل فيها السكان الجدد غصباً وقهراً، تذكر وجوه الضحايا الذين صادفهم هناك.. ففي الياجور رأى المأساة عن قرب، وهي تنمو وتتعاظم، لتعمّ شعباً تسحب القوى الظالمة أرضه من تحت قدميه، لتحشره في أكواخ الصفيح، ضحية للجوع والفقر والضياع..

وزاد شعور الشيخ عز الدين بالواجب، الذي بدأ يثقل ضميره.. هاهنا ميدان جديد، يستفزّ روحه التواقة للعمل، ومن هنا يبدأ الجهاد الحق بالوقوف إلى جانب هؤلاء الفقراء والمنكوبين، الذين يدفعون ثمن الظلم.. إلى جانب سالم موسى، وعبد الله يوسف الزيباوي، وصالح أبو شقرة، وكل الطيبين الذين وجدوا أنفسهم فجأة ضحية لجريمة حيكت بليل في غفلة من هذه الأمة، التي لم تستطع حمايتهم، فتقاذفتهم رياح الغدر والظلم والقهر.

واستبدت هذه الأفكار بالشيخ، حتى باتت هاجسه الأول، وهو يتلمس طريقه في فلسطين..

- أتدري ياشيخ حنفي؟

- ماذا؟

- يبدو أن الله قد نادانا إلى هذه البلاد لحكمة يريد بها.

أجاب الشيخ حنفي، وقد لمس في الكلام جديداً:

- ظننت أنا هنا إلى حين، ثم نعود إلى جبلة!..

تنهد الشيخ عز الدين..

- إيه.. بنفسى تلك الأرض..

اغرورقت عينا الشيخ حنفي. قال بنبرة حزينة:

- أخشى أن المقام سيطول بنا في حيفا..

- طال أم قصر، فلا ينبغي لنا القعود..

- لعلك تفكر في شيء!.

- رأيت إلى هؤلاء الفلاحين والعمال الذين نقابلهم كل يوم؟.

- والله شيء يقطع القلب..

- أكان حالهم هذا، لولا بريطانيا وصنائعها من اليهود؟

- لولا هذه المستعمرات التي يحميها الإنجليز، لكانوا في أرضهم

مستورين..

- رأيت لو استمر الوضع على هذا المنوال؟

صمت الشيخ حنفي، وقد أدرك أن شيئاً ما يختمر في رأس شيخه،

الذي قال:

- إذا استمرت هجرة اليهود، وأنجز الإنجليز وعدهم على هذا النحو

الخبث، فسوف يصبح وطن اليهود حقيقة مفروضة.

عكرت الفكرة ملامح الشيخ حنفي، وبدأ يدرك ما يرمي إليه:

- تقصد؟!..

- قد تكون فلسطين هي الميدان الذي اختارنا الله له.

- ولكن أهل فلسطين أدرى بشعابها.. ماذا سنفعل نحن الوافدون

الباحثون عن اللقمة والمأوى إلى حين؟

رمقه الشيخ القسام بطرف عاتب:

- لو غيرك قالها!.. متى كان شأن فلسطين وقفاً على أهل فلسطين؟.

- أردت أن أقول..
- هذه أيضاً بلادنا.. الأرض التي بارك الله فيها حول أقصاه.. ولعلها من أخطر الثغور، وعلى المجاهد عندما يكتشف ثغراً أن يحميه ويفديه..
- تذكر الشيخ حنفي دروس الجهاد التي تعلمها على يد أستاذه وقائده في الساحل الأسير، فهزّ رأسه موافقاً.. قال وهو يغير من جلسته، وقد رسم قش الحصيرة على قدميه خطوطاً:
- لكننا هنا غرباء، ويد واحدة لا تصفق.
- في هذه صدقت..
- فما العمل؟
- نضم اليد إلى اليد.. ونتوحد في وجه هذا العدوان.
- ابتسم الشيخ حنفي، وأيقن أن شيخه على أعتاب جهاد جديد..
- أنا رهن إشارتك يا شيخ عز الدين، فانظر ماذا ترى؟
- إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فلنتحرك بصمت، وبما نستطيع، والله وليّ الأمر والتدبير.
- ثم استدرك، وكأنه يرتب في ذهنه الأولويات.
- ولكن قبل ذلك علينا أن نبحث عن بيت.
- بيت؟
- طاب لك العيش ضيفاً على ما يبودو، وقد طالت ضيافتنا هنا وهناك، وصارت ثقيلة.
- جزاهم الله خيراً على كل حال.
- لكن الضيف يجب أن يرحل إلى بيته في النهاية.
- معك حق..
- اذهبوا غداً، وابحثوا لنا عن بيت صغير.

- أين؟.
- ابحثوا في الأحياء القديمة.. الحاج مسمار حدثني عن بيوت معروضة للإيجار.. ثمة بيت في حي الكنائس.. وهناك بيت معقول في وادي النسناس.. لكن أفضلها لنا كما يقول، ذاك الذي يعرضه علينا في حارة اليهود.. حجمه مناسب وسعره معقول..
- بيوت الحاج مسمار، كلها متواضعة وقديمة..
- وهل تجدنا أغنياء، حتى نطلب أفضل؟.
- قال الشيخ عارف:
- صحيح لسنا أغنياء، لكن الأمور تتحسن.. الشيخ علي وجد عملاً في ورشة بناء، وأنا موعود بعمل عند تاجر خيش.
- وظائف ومالك؟
- ما زالا يجدان في البحث عن عمل.
- إن شاء الله ستجدون جميعاً العمل المناسب، وترتبون أموركم مثل باقي خلق الله.. أنسيتم أنكم جميعاً على مشارف الزواج؟
- انفجرت أسارير الشيخ حنفي، وكأنه يسمع عن حلم كان يظنه مستحيلاً.
- الزواج؟
- سنة الكون يا شيخ عارف، أم تظن أنني لا أفكر بكم!.
- وأنت يا أبا محمد، ألم يئن لك أن تأتي بالأهل، وتقرّ بهم عيناً؟
- صمت الشيخ ولم ينبس، وأبحرت نظراته إلى هناك..
- لعله أن الأوان.



لم يكن الشيخ عز الدين سعيداً في حيفا كالיום، فهاهو البشير يزف إليه أن الشيخ خليل سكر، قد نجح في استقدام أسرته إلى بيروت، وأنها في الحفظ والصون، وقد تنضم إليه في حيفا بعد أيام، لكن الشيخ خليل يتأنى في التدبير، يحاول إيجاد سائق ثقة، يطمئن إليه، ليؤمن وصول الأسرة إلى حيفا، بحيث لا تكتشف دوريات الفرنسيين هويتها، فيعتقلونها رهينة يسامون بها الشيخ القسام على حرته..

وراح الشيخ يعدّ الأيام والساعات، وقد أرق القلق والإشفاق فؤاده، فالفرنسيون الذين حرقوا الشيخ خالد - رحمه الله - حياً، لن يتورعوا عن إيذاء زوجته وبناته، فيما لو اكتشفوا أنّهم أهله، وأوعز إلى ابن أخيه عبد المالك، أن يسافر إلى بيروت من ساعته، ليكون برفقة السائق، وقد كان. وشكر الشيخ عز الدين السائق الذي أوصل أهله إلى حيفا جزيلاً الشكر، وأخرج مبلغاً من المال، ليكافئه على ما أنجز، لكن السائق أبى واعتذر..

- لا والله يا شيخنا.. الشيخ خليل أوصاني ألا آخذ منك شيئاً.. لقد دفع لي أجري وزيادة، وأوصاني بالسلام عليك، وهو يطلب منك الدعاء..
- جزاه الله عني وعن أهلي كل خير.

وأوى الشيخ القسام إلى بيته، ليروي شوقاً فاض به إلى الأسرة الحبيبة.. وكان اللقاء حميماً، فبعد هذه الأشهر الطويلة من الفراق والقلق والعذاب، يلتقي الشيخ بزوجه الطيبة وبناته الأثيرات.. وتأمل الشيخ عز الدين زوجته الطيبة التي صبرت على ظروفه الصعبة، وتحملت معه تكاليف الجهاد ضد الفرنسيين الغاشم، ففاضت نفسه بالحنان، وشعر بوهج الشوق

إلى رفيقة دربه التي أحبها إلى درجة العشق، وأحب فيها روحها ووعيها وأنسها وعشرتها الطيبة، فمئذ أن تزوجها وهي صابرة محتسبة، راضية بقدرها معه، لم تعترض يوماً على قرار اتخذه أو خطوة خطاها، ولم تعبأ بالتكاليف..

ولمح في عيني بنته ميمنة شروداً، وهي تتأمل الدار، فقال مداعباً..

- دار متواضعة يا ابنتي، أليس كذلك؟

ابتسمت ميمنة، ولاذت بصدرة..

قالت الأم ضاحكة:

- معها حق. أقل بكثير من تلك التي كانت لنا في جبلة!

- لكنها تتسع لنا جميعاً على أية حال.

- المهم أن نبقى بقربك، ولو في مغارة في بطن جبل.

وقالت ميمنة:

- اشتقنا إليك كثيراً يا أبي.

- وأنا أيضاً. كانت أياماً عصيبة.

- وماذا تعمل هنا في فلسطين؟

- أعمل مدرساً.. أعمل في مدرسة رائعة، وسوف أسجلك فيها عما

قريب.

فرحت ميمنة بهذا الخبر، وطبعت على وجه أبيها قبلة مترعة بالحب

والحنين.

لمعت عينا الشيخ بأنداء الفرح، وهو يرى ميمنة وقد كبرت واشتد

عودها، وصارت على أعتاب النضج، واستدرك يسأل:

- وأنت يا أم محمد.. كيف تركت جبلة والأهل هناك؟

- الكل يسأل عنك، ويدعو لك.

- هل ضايقتك أحد؟
- لم يضايقني سوى بعدي عنك وقلقي عليك، حتى وصلنا ما يطمئننا عنك من الشيخ أحمد إدريس.
- ما أخباره؟
- انضم إلى ثورة الشيخ عمر البيطار.. أخبرتني زوجته بأنهم يعتصمون الآن في جبال كردستان.
- «إيه.. رحم الله أيامك يا شيخ عمر»
- والفرنسيين؟..
- لعن الله سيرتهم.. لم نصدق أننا صرنا خارج قبضتهم.
- وطرق باب الدار، فقام القسام وفتح، ليجد حنطوراً قد ترجل منه للتو الشيخ أمين نور الله والشيخ حنفي، الذي يحمل صدرًا كبيراً مجللاً بقماش أبيض، تفوح منه رائحة تثير الشهية..
- ياهلا بالشيخ أمين.. لم أكن أتوقع هذه الزيارة..
- جئنا نبارك بسلامة الأهل.
- وما هذا الذي تحمله يا شيخ حنفي؟
- «مسخّن الدجاج».. أصرّ الشيخ أمين أن يكرمك به يوم وصول الأهل، واتخذ مني دليلاً أرشده إلى البيت.
- لكنّ هذا كثير!
- ضحك الشيخ أمين، وقال:
- أنت اليوم في عرس، ولا يجوز لنا أن نلهيك..
- وما قصة «المسخّن»؟
- أردنا أن نذيق الأهل من طعام أهل فلسطين.. فهذه أكلة مفتخرة تليق بكل عزيز.

- إذاً، تفضلوا لنتغدى معاً.

قال الشيخ حنفي:

- لقد دعانا الشيخ أمين إلى بيته على «مسخن» آخر..

ثم وهو يمضي خلف الشيخ أمين..

- لا تنس أن تسلّم على أم محمد، وتهنئها بالسلامة.



كان الشيخ عز الدين منهمكاً في شرح درسه للبنات، عندما دخلت عليه المديرية متجهمه، واستأذنته لتكلمه في شأن هام خارج الفصل. استغرب القسم هذا الاقتحام الطارئ، فطلب من البنات أن يلتزم الهدوء، وخرج على عجل..

- خير إن شاء الله.

ردت المديرية بنبرة يفيض منها القلق:

- وردنا الآن من الإدارة، أنه ثمة مظاهرات غاضبة في حيفا، ونخشى على البنات.

- مظاهرات؟

- مظاهرات عنيفة نشبت بسبب تصريحات تشرشل في يافا، بأن بريطانيا لن تتراجع عن وعد بلفور بإعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وعلى العرب أن ينصاعوا لرغبة سلطة الانتداب.

- قرأت ذلك في جريدة الكرمل.. كان تصريحاً فظاً ينضح بالغطرسة.

قالت المديرية في حزن:

- الوضع متوتر جداً يا أستاذ. يقولون أنه سقط حتى الآن قتيلان في

حيفا، وعدد كبير من الجرحى..

- بل شهيدان بإذن الله.

- المهم أن الإدارة طلبت أن تؤخر البنات في الفصل، ريثما يحضر

الأهالي لأخذهن.

ومضت مديرة المدرسة تعمم الخبر على بقية الفصول، بينما عاد

الشيخ عز الدين إلى فصله ساهماً متجهماً، وما إن دلف من الباب حتى

غارت الجلبة، التي سببها غيابه مرة واحدة، واران صمت عميق..
وقف الشيخ تلقاء مكتبه، مستنداً عليه بكلتا يديه، ورفع للبنات وجهاً
حزيناً يقطر كآبة، قال بنبرة يوشحها الأسى:

- من قتل دون بيته فهو شهيد.. ومن قتل دون ماله فهو شهيد.. فما
بالكنّ فيمن يقتل في سبيل وطنه وأرضه وعرضه؟!.. فيمن يقف أمام جنود
بريطانيا العظمى.. يواجه رصاصها الجبان بصدر مفعم بالإيمان، وقلب
ثابت على الحق، ليقول لها أن هذه الأرض أرضي وأرض آبائي.. أرض
العرب والمسلمين.. ولاحقاً لدولة في الدنيا أيّا كانت، حتى لو كانت
بريطانيا التي لا تغيب عن مستعمراتها الشمس، أن تعطي وعداً لليهود أو
لغيرهم في إقامة وطن لهم فيها.

وأردف الشيخ:

- أتردينَ ماذا يعني إقامة وطن لليهود في فلسطين؟
كانت البنات في قمة الدهشة، وهنّ يسمعن الشيخ عز الدين القسام،
يتحدث عن وعد بلفور، وهو الذي كان يحدثهن قبل قليل عن شروط التيمم،
وحدسْنَ بأن شيئاً خطيراً قد وقع، بينما تجرأت أمانة، ووقفت لأول مرة
لتجيب:

- الوطن القومي لليهود - أستاذ - يعني نهاية فلسطين.
لفت موقف أمانة الشيخ عز الدين، فأعجب بجرأتها الطارئة، وجوابها
البليغ، وأعجب أكثر بالتصفيق الحار الذي اندلع في الصف تأييداً لجوابها،
فقال وهو بادي التأثر:

- جواب أمانة رددته اليوم حيفا، ومهرته بدماء رجالها، وهي تردّ على
وزير المستعمرات البريطاني الذي أعلن بالأمس أن بريطانيا لن تتراجع
عن وعد بلفور، فانتفض رجالها في مظاهرات عارمة ضد الانتداب الظالم

ووعوده الزائفة، والحصيلة حتى الآن شهيدان وعدد من الجرحى، والإدارة ترجوكنّ أن تبقيّن بعد نهاية الدوام، ريثما يحضر الأهل ليأخذوكنّ، حرصاً على سلامتكنّ..

ساد صمت وقلق، ودهمت البنات الهواجس، فراحت كل فتاة تفكر في أبيها وأخيها وعمها وخالتها، فقد يكون أحدهم الشهيد أو الجريح، ووجد الشيخ من واجبه أن يرفع من معنوياتهن، فراح يحدثهن عن جهاد نسبية، وصبر الخنساء، عندما ردّد قولتها الشهيرة في أولادها الشهداء «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم» وأجهشت معظم الفتيات تأثراً بهذا الذي يجري، وقد تحركت في أعماقهنّ أمومة تتفتح، وحبّ عارمٌ لفلسطين، تمتحنه اليوم هذه التحديات، التي بدأت تستفز كل وجدان حرّ.

وراح الشيخ يتأمل هذه الروح التي اجتاحت بنيات في سن الفتوة والفرح، وهن يقبلن على الحياة..

وتأثر الشيخ لبكائهنّ، فدمعت عيناه.. وانتهبه إلى شيء!..

كانت أمنة أشدهم تأثراً وبكاء!.



ذات صباح استلم الشيخ عزّ الدين القسام رسالة من الشيخ محمد مراد رئيس الجمعية الإسلامية يدعوه فيها لاجتماع طارئ، وحضر الشيخ في الوقت المحدد، فوجد أن الاجتماع يضمّ عدداً من وجوه حيفا ورجالاتها.

قال الشيخ محمد مراد مفتي حيفا، وهو يفتتح الاجتماع:

- لقد دعوتكم اليوم يا إخوان لأمر خطير، يتعلق بمستقبل البلاد..

همهم أكثر من صوت متسائلاً عمّا جدّ، بينما كان الشيخ عز الدين القسام يصغي بانتباه، وهو ممتنّ لدعوة مفتي حيفا له لحضور هذا الاجتماع الطارئ، وهو الواقد الجديد.

وأشار رئيس بلدية حيفا عبد الرحمن الحاج للشيخ مراد يرجوه أن

يكمل، فتابع قائلاً:

- تعرفون يا إخوان، أن منصب الإفتاء في عموم فلسطين من أهم المناصب التي يعول عليها أهل البلاد، للحفاظ على دينهم وعقيدتهم ومساجدهم وأوقافهم.. وخاصة المسجد الأقصى، لاسيما ونحن نعيش منذ ثلاث سنوات تحت سيطرة الإنجليز، وقد شغل هذا المنصب بوفاة المفتي الشيخ كامل الحسيني رحمه الله الشهر الماضي.

ترددت الهمسات، تضرعاً بالدعاء للمفتي الراحل بالرحمة والغفران،

بينما تابع الشيخ محمد مراد:

- لقد تنادى الكثيرون من أهل الفضل من علماء فلسطين وأعيانها والغيورين فيها، لاختيار أخيه الشيخ أمين الحسيني مفتياً للقدس الشريف، وقد جمعتكم اليوم لأعرف رأيكم في هذا الأمر؟

تدخل الأستاذ عبد الرحمن الحاج رئيس البلدية موضحاً.

- بصراحة يا إخوان.. الإنجليز لا يريدون الحاج أمين، لأنهم يعرفون موقفه المعارض للانتداب والهجرة اليهودية، وقد رشحوا أخاه الشيخ فخري الحسيني بدلاً منه، لما يعرفون من رفته وضعفه، لكن آل الحسيني جميعاً، ووجهاء فلسطين وأعيانها وعلماءها، يصرون على الشيخ أمين الحسيني لعلمه وفقهه، ومواقفه القوية ضد الهجرة اليهودية ودعم الانتداب لها. وحكى الأستاذ سليمان الصلاح عضو الجمعية للحاضرين قصة اشتهر بها الشيخ أمين. قال:

- يروون عن الشيخ أمين، أنه عندما كان في الابتدائية، اشترى اليهود أراضي القرية التي فيها مدرسته، وأنشؤوا عليها مستعمرة سموها «موتسا» وقد قام بافتتاحها هرتزل رئيس الحركة الصهيونية، فزرع شجرة في هذه المناسبة، مما أثار حفيظة الحاج أمين وأصدقائه في تلك السن المبكرة، فلجؤوا إلى قطع هذه الشجرة، تعبيراً عن رفضهم لتزايد الوجود اليهودي في فلسطين. وتدخل الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم:

- أريد أن أضيف أن المندوب السامي هربرت صموئيل - وهو يهودي كما تعلمون - يعارض اختيار الشيخ أمين بشدة، لأنه يخشى من مواقفه ضد الإنجليز واليهود، ولمن لا يعلم، فإن الشيخ كان محكوماً بالسجن خمسة عشر عاماً، لاشتراكه في قيادة مظاهرات ثورة القدس العام الماضي، لكنه استطاع أن يهرب إلى شرقي الأردن بعد صدور الحكم عليه، ولولا تدخل بعض شيوخ عشائر شرق الأردن، وتوسطهم له لدى سلطات الانتداب، لما قاموا بالعفو عنه، وهكذا عاد إلى القدس بغير رغبة هذا المندوب السامي، الذي يخشى أن يستمر الشيخ أمين في تحريضه ضد الإنجليز والهجرة اليهودية، وعليه يتوسم الكثيرون في الشيخ أمين الحسيني، أن يكون أميناً على مصالح أهل البلاد وحقوقهم ومطالبهم.

قال رئيس البلدية عبد الرحمن الحاج:

- المطلوب يا جماعة أن نصيغ هذه الرغبة في محضر، ويوقع عليه كل من يوافق على هذا الاقتراح باختيار الشيخ أمين مفتياً لنا، ثم نرسل الأسماء مع التوقيع في برقية عاجلة إلى القدس، حتى نُشعر سلطة الانتداب بأن الشيخ أمين مرشح البلاد، قبل أن يفرضوا علينا غيره، وهو ما توافق عليه العلماء ورؤساء البلديات والمخاتير وأصحاب الحل والعقد في فلسطين.

ثنى الشيخ مراد على الفكرة وقال:

- اسمحو لي إذن أن أصيغ برقية الموافقة على ترشيح الشيخ أمين، وكل من يوافق عليها يوقع باسمه وصفته عليها، لنرسلها إلى المندوب السامي، متضامنين مع مطالب أهل البلاد، علّه ينزل عند رغبة أصحاب الحق الشرعيين في اختيار مفتي القدس، الذي سنأتمنه على الفتيا في ديننا ومستقبلنا، لاسيما وأنّ فلسطين لم يعد فيها حاكم يمثلها في ظل الإنجليز، الذين يحكمونا غصباً وجوراً.

ابتسم الشيخ القسام، وقال في سخرية مرة:

- والله قد هزلت، مادخل المندوب السامي البريطاني اليهودي في

اختيار مفتي للمسلمين؟!

رد الشيخ يونس الخطيب ممثل علماء حيفا:

- جرت العادة أن يقوم متصرف القدس باختيار المفتي بالانتخاب، وبعد أن احتل الإنجليز القدس، أصبح المندوب السامي للأسف في موقع المتصرف، وهو يريد أن يفرض رغبته وإرادته على أهل فلسطين.

علق الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم غاضباً:

- هذا منتهى الفجور.. تعين لنا بريطانيا العظمى حاكماً يهودياً

يحابي اليهود، ليزاحموننا في أرضنا ورزقتنا، وهاهو يختار لنا المفتي، ولم يبق إلا أن يفتي لنا في الحلال والحرام!..

ضحك الحاضرون، بينما علق الشيخ محمد مراد، وهو يكتب صيغة الخطاب:

- شر البلية ما يضحك!.

وأردف:

- اسمعوا يا إخوان هذه الصيغة:

«نحن الموقعون بذيله، نطالب بانتخاب وتعيين حضرة العالم الفاضل السيد محمد أمين الحسيني مفتياً للقدس الشريف، لما نعهده في فضيلته من الأهلية والكفاءة. تحريراً في ٥ نيسان ١٩٢١».

- هل توافقون على الصيغة؟

تعالَت الأصوات مستحسنة ومؤيدة، ودارت العريضة المقترحة على الحاضرين ليمهروها بتواقيعهم، وعندما وصلت إلى الشيخ عز الدين القسام، مررها لمن بعده، فاستغرب رئيس البلدية عبد الرحمن الحاج هذا التصرف:

- ما وجه الاعتراض على الشيخ أمين يا شيخ عز الدين؟

أجاب القسام، وقد بوغت بهذا الظن:

- معاذ الله يا عبد الرحمن أفندي، لكنني قدّرت أنه ليس لمثلي أن

يتدخل في مثل هذا الإجراء، كوني لست..

قاطعهُ الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم فوراً، وهو يرفع سبابته ويهزّها

مؤكدًا:

- أنت منا وفينا يا شيخ عز الدين، وأول من يحق له أن يوقع على

هذا الخطاب.

- ولكن بأي صفة؟

- بصفتك ابن سوريا الكبرى، التي تعد فلسطين جزءاً لا يتجزأ منها، كما أكدنا في المؤتمر السوري الذي انعقد في دمشق، بعد سقوط فلسطين تحت الانتداب، وهذا يعطيك الحق القانوني لتصوت معنا، على من تختاره فلسطين اليوم مفتياً لها وممثلاً عنها..

رمق الشيخ عز الدين الأستاذ رشيد بكبار، وشعر بأنه في المكان الصحيح وفي التوقيت المناسب، ليساهم في معركة القرار الحر، في وجه مؤامرة التزييف التي يقودها الإنجليز، لإقصاء رجال فلسطين عن مواقع القيادة والتأثير. وقال وهو يستعيد الورقة، ويخرج القلم ليوقع عليها:

- إذا كان الأمر كذلك، فأنا أول الموقعين.

وعلق الأستاذ عبد الرحمن الحاج رئيس البلدية:

- يمكنك أن توقع بصفتك كمدرس في مدارس حيفا.

- وهذا توقيعي.. «عز الدين القسام، مدرس».

- على بركة الله.

كان الشيخ عز الدين فخوراً وممتباً لهذه اللفتة، فمُنحُه صوتاً بين هؤلاء الوجهاء والعلماء، تكريم يشعره بأن فلسطين مازالت تقاوم بإصرار فصلها عن سوريا الأم، وترحيب بدور يتمنى أن يقوم به على هذه الأرض، بعدما تحرر من ظلال الغربة التي كانت تُثقل خطواته..

لكنه ظلّ يتساءل في داخله عن هذا الشاب اللامع من آل الحسيني،

الذي ترشحه اليوم فلسطين ليقود خطاها في أحلك الظروف؟.



اقرأ في «الكرمل» اليوم.. «اليهود يهاجمون حي المنشية في يافا». لفت الخير الشيخ عز الدين، بينما كان في طريقه إلى المدرسة، فاتجه نحو بائع الصحف ليشتري جريدة الكرمل، التي كان يعلن «الجورنالجي» خبرها الأهم، وراح يقرأ باهتمام..

«يهود مسلحون يهاجمون المصلين المسلمين في عيد العمال»
«العربُ يردّون على العدوان، ويقتلون ١٣ يهودياً ويجرحون ٢٤»
«الجيش البريطاني يقف مع اليهود ضد العرب الغاضبين»
يافا- من خليل شرابي.

«أفاد مراسل جريدة الكرمل في يافا، بأن مجموعة من الشيوعيين اليهود المحتفلين بعيد العمال، اعتدت على العرب المسلمين القاطنين في حي المنشية في يافا، أثناء الصلاة في الجامع المحمودي قرب السرايا. كما شهد شارع العجمي، حادث إطلاق نار خطير على المارة العرب، أوقع عدداً من الشهداء والجرحى، وتبين أن مصدر الرصاص منزل للصهاينة اليهود، ورداً على هذا العدوان، هاجم العرب المنزل الصهيوني، وقتلوا ١٣ وجرحوا ٢٤ آخرين من أصل مئة يقيمون فيه، ومعظمهم من الشباب.

وتسود حالة من التوتر والترقب، لما ستتطور إليه الأحداث، التي تكاد تعصف بالبلاد، في ظل التواطؤ الذي يمارسه الإنجليز مع الجماعات اليهودية المسلحة التي تعيث الآن في يافا مهددة بالمزيد من الاعتداءات.

طوى الشيخ الجريدة في عصبية ظاهرة، ومضى غاضباً حزيناً..

«لقد بلغ السيل الزبي، وكشّر اليهود عن أنيابهم، وهاهم يتجرؤون على أهل البلاد، وبريطانيا تحميهم وتدعمهم، وتغطي جرائمهم..»
وتهدد تهيدة طويلة وشت بما يعتل في صدره من حق و غضب..
«كيف يحتمل ظلماً يجري أمامه، ثم لا يتصدى له؟»
وتذكر القسام أنه جديد في بلد لم يختبره بعد، وأنه مطارّد من فرنسا التي تسعى وراءه، وقد يجد الإنجليز في أي تصرف ضدهم هنا، مبرراً لتسليمه ومن معه إلى فرنسا.. وتذكر حواراً قديماً، جرى بينه وبين أصحابه، وهو في طريقه إلى فلسطين.. حوار بدأه الشيخ خالد رحمه الله، وما زال يرنّ في أذنيه:

- هل تعتقد أن الإنجليز سيتركونا وشأننا يا شيخ عز الدين؟

- سيتركونا إلى حين.. حتى نصبح خطراً عليهم..

وكظم غيظه، وراح يحوقل.. لكم تجذبه فلسطين إلى ميدانها اللاهب، ليواجه خطر صهاينة اليهود من المهاجرين الذين تمادوا، وخطر الإنجليز الذين يمدّون ويمكّنون لهم.

وتذكر كلمات أمانة التي نطقتها ببراءة من يشعر بأن مستقبله مهدد، دون أن يدرك الخفايا والتفاصيل: «الوطن القومي لليهود يعني نهاية فلسطين» فشعر بخطر داهم يقترب، خطر أشد من انتداب أو احتلال.. خطر وطن يقام على أنقاض وطن، وشعب مهدد بأموج من اليهود القادمين المشحونين بحلم مجنون، قد أعدوا له عدته، يساعدهم في تحقيقه غرب حاقد له فيهم مآرب أخرى..

وشعر الشيخ عز الدين بأنه أمام تحدّ جديد، يستفزّه ويثير فيه روح

الكفاح..

«إيه يا عز الدين.. على كم جبهة عليك أن تحارب.. تحارب فرنسا التي

دنست وطنك.. أم تحارب بريطانيا التي عشت بعض طغيانها وظلمها الغاشم في مصر من قبل، والآن في فلسطين.. أم تتصدى لهذا المدّ الصهيوني الذي يهدد مستقبل الشام.. جبهة لم تكن على البال.. وبلاء يزداد خطره يوماً بعد يوم.. هذا هو قدرك يا عز الدين.. أن تخوض صحراء من الشوك.. أن تواجه كلّ هؤلاء في لحظة واحدة.. فماذا أنت فاعل؟».

لأول مرة منذ أن عُين الشيخ القسام مدرساً في حيفا، يتغيب دون سبب ظاهر، ووجد نفسه مندفعاً إلى غير اتجاه.



كان الأستاذ رشيد يجلس في بيته شاردًا حزيناً، يقلّب الجرائد، ويتمعن في هذه الأحداث التي تتسارع، وتلقي بظلالها على واقع فلسطين الملبد، ومستقبلها الغامض، الذي أضحى في مهبّ الريح.. وأغمض الأستاذ رشيد عينيه، وهو يرمي بظهره على مسند كرسي مكتبه، والغضب يغلي في عروقه:

«طفح الكيل، ولم يعد يمكن السكوت.. هؤلاء اليهود الذين تقذف بهم الآفاق إلى شواطئ فلسطين، يحملون معهم مكرًا وحقدًا فاق كل توقع.. وهاهي بريطانيا تمدّ لهم وتحميمهم، وتمعن في إنجاز الوطن الذي وعدتهم به.. وطن يقيمونه على أشلائنا»..

وضرب حافة الكرسي، بقبضة تائرة فاض بها الغضب..

«لا بد أن تردّ فلسطين على هذا التحدي..»

وطرق الباب فجأة!

- الشيخ عز الدين! أهلاً. أهلاً. تفضل.

- قلت لعلّي أجد عندك المزيد من الأخبار..

قال الأستاذ رشيد وهو يغلق الباب، ويدعو ضيفه إلى صدر المجلس:

- الأخبار كثيرة. لكنّها لا تسر.

- هذا عدوان سافر، لا يمكن السكوت عنه.

- ندفع ضريبة ضعفنا ياشيخ عز الدين.

- أتصلّ الوقاحة باليهود، ليهاجموا العرب في عقر دارهم، وهم قلة

في البلاد!

- لم يعودوا قلة. بمفهوم العدد هم يتزايدون بسرعة.. وبمفهوم القوة

هم الأقوياء لأن بريطانيا تحميهم مهما فعلوا، ولا تنس أن لديهم قوتهم العسكرية الخاصة بهم.

لفتت الكلمات انتباه الشيخ عز الدين.

- قوة عسكرية ١٩.

مدّ الأستاذ رشيد يده إلى كدسة من الجرائد، التي تراكمت فوق مكتبه، وأخرج منها عدداً قديماً من جريدة «فلسطين»، ودفع به للشيخ عز الدين، مشيراً لخبر قصير، أحاطه بإطار أحمر..

- اقرأ هنا.

راح الشيخ يقرأ حيث أشار:

«القدس - أفاد مراسلنا لشؤون الهجرة اليهودية، أن الصندوق اليهودي قرر تأسيس منظمة عسكرية تدعى «الهاجاناه» الهدف منها الدفاع عن أرواح وممتلكات المستعمرات اليهودية في فلسطين، خارج نطاق الانتداب البريطاني، والجدير بالذكر أن كلمة «هاجاناه» تعني بالعبرية «الدفاع».

وفسر المراقبون هذا القرار، الذي سكتت عنه سلطات الانتداب، بأنه إعلان شبه رسمي عن تأسيس جيش للدفاع عن الوطن القومي اليهودي، الذي وعدت به بريطانيا على لسان سيء الذكر «بلفور» ومؤشر قوي إلى أن أعداد المهاجرين ستتضاعف في الأشهر والسنوات القليلة القادمة...»

رفع الشيخ القسام حاجبيه دهشة..

- يا لهذا المكر.. يغزون البلاد، ويتحدثون عن منظمة للدفاع،

وكأنهم هم الضحية، ونحن المعتدون الذين نهدهم.

- المهم في الخبر أن هذه المنظمة ستعمل بشكل مستقل عن الإنجليز،

وبأهداف فضفاضة، فلو مرّ فلاح فلسطيني بالخطأ قرب مستعمرة، يمكنهم أن يقتلوه بحجة حماية الأرواح والممتلكات، ولن يسألهم أحد.

طوى الشيخ عز الدين الجريدة بعصبية، وقال:

- وها هم يقتلون الأبرياء في يافا، دون أن يمروا بمستعمراتهم.
- نحن الآن أمام مشروع صهيوني متكامل ياشيخ عز الدين، إن لم يتم إيقافه، فسيحقق ما يريد، وما يريده واضح وصريح.. يريدون فلسطين.. كل فلسطين.
- يوماً بعد يوم، أشعر بأن ما يجري في فلسطين أخطر مما يجري في أي مصر آخر من أمصار العروبة والإسلام.
- صدقت.. ولكن كيف يكون الرد؟.
- العين بالعين، والسنّ بالسنّ، والبادئ أظلم.
- ورانت لحظة من الصمت، فكانت أبلغ من الكلام.. الطريق واضح، وكل منهما يعرف دوره، ويتوق إليه.

صلى الشيخ عز الدين الظهر في جامع الجرينة الكبير بصحبة الشيخ حنفي والشيخ علي الحاج عبيد، وخرجوا باتجاه سوق الحسبة.. وفي الطريق زفّ إليه الشيخ حنفي أنهما وجدا عملاً جديداً في مزرعة في مرج بني عامر..

قال الشيخ عز الدين مداعباً:

- وجدنا العمل. ولم يبق سوى بنت الحلال..

ضحكا. وعلق الشيخ علي:

- سامحك الله يا شيخ عز الدين، أي بنت حلال ترضى بمشرد عن بلده، لا يكاد يجد ما يكفي قوت يومه.

- لا تقل هكذا يا شيخ علي، الطيبون للطيبات، وستجد إن شاء الله من ترضى بهذا المجاهد الذي تغرب عن أهله وبلدته، لأنه كان يدافع عن أمته..

وأردف يقول:

- اجتهدا في رزقكما، واتركا الباقي على الله..

وسمعوا خلفهم صوت عربة مسرعة، والحوذي يهتف ويلحّ في التنبيه: «ظهورك يا حرمة.. وجهك يا أفندي.. جنبك يا عتال.. طريق.. طريق يا إخوان».

والتفت الشيخ حنفي يتأمل في هذا الذي يملأ الشارع ضجيجاً..

- هذا صالح أبو شقرة!

التفت الشيخ عز الدين:

- ما باله مسرع هكذا؟

وناداه الشيخ حنفي، فالتفت إليه بوجه صارم، وسرعان ما انفرجت أساريره، عندما رأى الشيخ عز الدين. شدّ صالح رسن بغليه، وأوقف الطنبر على جانب الطريق، ثم ترجل قافزاً باتجاه الشيخ:

- شيخ عز الدين؟.. سبحان من جمعني بك من غير ميعاد!
- مالك مسرع هكذا؟.
- ألم تسمع بما حدث؟..
- بلى.
- اليهود يا شيخي.. افتروا وتجبروا.. والإنجليز من وراءهم.. ولم يعد للصبير مكان.

- لهم يوم يا صالح..
- الناس في يافا أجمعوا على الثأر.
- ثم، وقد تهدج صوته..
- قتلوا ابن خالتي الله يرحمه، وهو يصلي في الجامع الكبير، رأيت يا شيخنا غدرًا أحسن من هذا!.

- حوقل الشيخ القسام..
- هو شهيد بإذن الله، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.
- قال صالح، وهو يشدّ على يد القسام مودعاً:
- ادع لي يا شيخي بالشهادة، فقد طاب الموت.
- ماذا تنوي؟.
- يافا تنادي للثأر، والناس تستعد، سننقض على مستعمراتهم، ونلقنهم درساً..

وأردف يلح في الوداع:

- ادع لي يا شيخنا، فقد لا يكتب لنا اللقاء بعد اليوم.

وحار الشيخ فيما يقول، فدمعت عيناه.. وراح يودعه بنظرات ملؤها
 الإكبار.. وهتف به الشيخ حنفي، وهو يقفز إلى العربية:
 - كن حذراً..
 ردّ وهو يشدّ رسن بغليه، يحثهما على الانطلاق:
 - لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا شيخ حنفي.
 وظل الشيخ عز الدين يلاحقه بنظراته حتى غاب. كم كان يتمنى لو
 كان معه. لكنّ خطاه ما زالت موزعة بين ساحتين، و مدينتين، وثلاثة
 أعداء.



هبت نساءم رمضان، والحزن يلف فلسطين، والأخبار تتوارد كل يوم من يافا، حول الصدمات العنيفة التي تقع بين العرب واليهود، وذات يوم، وقبيل أذان المغرب بقليل، سمع الشيخ طرقاتاً على الباب، فأسرع يتبين من الطارق.. فإذا بصالح أبو شقرة يلقي السلام..

- صالح!.

- اعدرني ياشيخ، فالوقت غير مناسب، ولكن..

تأمل الشيخ يده المكسورة، والجروح التي أثخت وجهه..

- الحمد لله على السلامة.. تفضل، تفضل..

وأطلق الشيخ في البيت نداء، يعلن فيه عن دخول الطارق إلى الدار..

- يا الله.. تفضل يا أخ صالح..

فهمت أمينة أن زوجها يستقبل ضيفاً، فأغلقت عليها باب المطبخ الصغير، وشرعت بإعداد الفطور للشيخ وضيفه. واحتوت الغرفة المعدة للجلوس الرجلين.

- طمئني عنك، ماذا حدث لك، وكيف مضت الأمور؟

- الأمور كانت سيئة، فبعد أن كدنا نهزمهم، تدخل جنود الإنجليز وردونا..

هزّ الشيخ رأسه في غيظ..

- مفهوم..

- استفاد اليهود من وجود أفراد الكتيبة اليهودية، التي سلحتها

الإنجليز بحجة الدفاع عن تل أبيب، فاستغلوا الوضع، وانتشروا في شوارع وأسواق يافا، وأخذوا يطلقون النار على العرب، وهم يلبسون ملابس عسكري

الإنجليز، فغضب أهل يافا، وتظاهروا مطالبين الإنجليز بوضع جنود هنود، حتى يميزوا بين عصابات اليهود وجنود الإنجليز، لكنهم تأخروا حتى وافقوا، وسقط منّا خلق كثير.

- وبعد؟..

- غلت الدماء في عروق الناس.. تجمع عدد كبير منا.. أكثر من أربعمئة.. وتوجهنا نحو مستعمرة الخضيرة.. فتدخل الطيران الإنجليزي، وقصفنا، فوقع منا شهداء كثيرون..

- رحمهم الله..

- وهكذا، كلما هاجمنا اليهود وقف الإنجليز يتخرجون على رجالنا ونسائنا وأطفالنا وهم يقتلون، فإذا حاولنا أن نرد، أو ننتقم لقتلنا وكراماتنا المهذورة، وقف في وجهنا الإنجليز بحجة الأمن والنظام..

وعضّ صالح على شفته من الغيظ..

- أترى ظلما يا شيخنا أكبر من هذا..

- وبعد.. أكمل.

- تجمع العرب، وهاجموا مستعمرة بتاح تكفا، التي لجأ إليها الكثيرون من القتلة اليهود، هاجمناهم بالعصي والسكاكين، ووقعت معركة كبيرة، وتكررت نفس القصة.. الإنجليز دافعوا عن اليهود، وكأنهم جاءوا لفلسطين فقط من أجل نصره هؤلاء وحمائيتهم.. عند ذلك تجرأ اليهود وقتلوا منّا خمسين.. ومثّلوا بالقتلى الذين لم نستطع إخلاءهم..

- ماذا تقول!.

- ولم يكتفوا بذلك، بل هاجموا القرى المجاورة، فقتلوا أطفالاً ونساء، وهتكوا أعراض المسلمات، وبقروا بطون الحوامل..

- إلى هذا الحد وصل بهم الحقد؟.

- وأكثر يا شيخنا.
- وكيف أصبت بهذه الكسور والجروح؟
- قبض علي الإنجليز أثناء الاشتباكات، وعذبوني..
- وكيف خرجت؟
- تدخل الوجهاء والأعيان، توسطوا لإنهاء المعارك، وأقنعوا الإنجليز بأن يخرجوا المساجين، ويحجزوا اليهود حتى لا يتمادوا أكثر، لأن ذلك سيؤلب فلسطين كلها ضدهم..
- وبهذا خرجت.
- لولا تدخل الشيخ عبد الغني عون لدى الشاويش خانكين، لما خرجت.
- خانكين؟
- شاويش يهودي، كان جار الشيخ عون، وله كلمة عند الإنجليز، لكنه ما كان ليفعل لولا أن صدر قرار من المندوب السامي بوقف الهجرة اليهودية، ليبرد خواطر العرب، مما اضطر اليهود لبعض اللين.
- لأول مرة يشعر القسام، أن فلسطين كلها تستصرخه، فما يجري هنا أكثر من انتداب أو احتلال.. شيء أشبه بحرب إبادة شعب آمن، ليخلو المكان والزمان لآخرين!.

بعد صلاة التراويح كان الشيخ عز الدين يلقي كلمة كل يوم في مسجد حيفا الصغير، قبل أن يصلي الناس الوتر وينتشروا..

وكان الشيخ ينوي الليلة أن يتحدث عن معركة بدر، التي تطل ذكراها غداً في السابع عشر من رمضان، لكن لقاءه بصالح أبو شقرة، غير ما كان قد أزمع عليه، فقد كان مشحوناً بمشاعر غاضبة وأفكار ملحة، يشعر بأنه لا بد من أن يبثها للناس، وهذا أضعف الإيمان، تجاه أولئك الذين بذلوا أرواحهم للدفاع عن يافا الجريحة..

وبدأ الشيخ كلمته، فأنصت الناس، فقد خبروا هذه الأحاديث طيلة الأيام التي انقضت من رمضان، وتفاعلوا معها، ولمسوا فيها روحاً جديدة، لم يألفوها من قبل.. فهذا الشيخ يروي الحقائق كما هي، ويسمي الأشياء بأسمائها، ويلمس في نفوسهم وترّاً لم يقترب منه أحد من قبل.

واستهلّ القسام الكلام بأية هزت القلوب، وحركت المواجع..

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير، الذين

أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله»..

- «تطل علينا غدا يا إخوان - ذكرى معركة فاصلة من معارك الإسلام..

معركة كان لها ما بعدها من نصر وتمكين لرسول الله وصحابته الكرام، لكنني فضلت أن أؤجل الحديث عن هذه المناسبة للغد، لأنحدث عما يجري على بُعد ساعة من هنا، ونحن عنه غافلون، وكما تعلمون، فإنه «من لم يهتم

بشؤون المسلمين، فليس منهم»، ولا يجوز أن نسكت عن هذا الظلم الذي يحيق بإخواننا في يافا، ونلوذ بالتاريخ.. لا يجوز أن نتحدث عن جهاد

صحابة رسول الله.. ونترك الحديث عن جهاد أحباب رسول الله ﷺ».

ضح المسجد بالصلاة على النبي، بينما تابع الشيخ:

- «فقد قال عليه الصلاة والسلام يوماً لأصحابه: واشوقاه لأحبابي. قالوا: أولسنا أحبابك يا رسول الله؟. أجاب: بل أنتم أصحابي، لكن أحبابي، أناس آمنوا بي، ولم يروني».

وكبّر الحاضرون احتفاءً بهذه البشرية، ودمعت العيون، فكررها القسم وهو يضغط على الكلمات..

- «أحبابي أناس آمنوا بي ولم يروني».

وتابع بعد لحظة صمت، حشدت الانتباه:

- «لكن أحبابك يا رسول الله اليوم مظلومون.. محاصرون.. تقتلهم في يافا قطعان المهاجرين الصهاينة، الذين لم يرعوا في هذه البلاد إلاّ ولا ذمة.. يقتلون الرجال والنساء والأطفال أمام سمع الإنجليز وبصرهم..

وقد سمعت اليوم من شاهدٍ صادقٍ وصوله من هناك، عن يهود في يافا يعتدون على المصلين في المسجد الكبير، وعن يهود يهاجمون العرب في الشوراع، وعن مسلمين حُرِّقوا بماء الفضة..

ثم بنبرة أعلى، وأشدّ وقعاً..

- «لا بل وصلت بهم الخسة والنذالة لأن يتعرضوا للحرائر، ويعتدوا على الفتيات الطاهرات، ويبقروا بطون الحوامل..

كبّر الناس، وفارت دماؤهم، وصاح أكثر من صوت «حي على الجهاد» لكن الشيخ استمر في حديثه، وكأنه بركان متدفق لن يتوقف، حتى يلقي بكل حممه في الفضاء:

- «أحبابك يا رسول الله اليوم مظلومون، صابرون، يذودون عن أرض الرباط، بما يملكونه من عصيّ وسكاكين، بينما اليهود الذين جلبتهم بريطانيا، وتدافع عنهم بريطانيا.. يهاجمون أحبابك برصاص صنع في

بريطانيا.. وبسلاح لا تملكه سوى جيوش بريطانيا.. جنودك يا الله، يدافعون اليوم عن الأرض التي باركْتَ فيها وحولها، ويرخصون من أجلها الروح ببسالة.. وليس لهم من معين إلّاك.. فكن معهم في محنتهم، وأيدهم بنصرك الذي وعدت..

وتبادل الشيخ حنفي مع الشيخ علي عبيد نظرة تفيض بالدهشة، فأميرهم يتحدث اليوم بنبرة لم يكن يستخدمها في فلسطين، وأصغيا إلى صوت بكاء كان يتعالى مع نبرة الخطاب، فانتبها إلى وجود صالح أبو شقرة، الذي سمع نشيجه كل من في المسجد، فأدركا أنه مصدر الأخبار..

وجاءت كلمات القسام صرخة حق في بيداء من الصمت، وصيحة هادرة نبهت النائمين والمترددين، وتحديث حيفا لأول مرة، عن ذلك الشيخ السوري الذي يصدع بالحقائق كما هي، ويشحن العقول والقلوب، ولا يخشى في الله لومة لائم.

لكنّ برقية خبيثة أرسلت لقلم المخابرات الإنجليزية، وصلت على عجل، تحذر من شيخ سوري حكمت فرنسا عليه بالإعدام، فهرب إلى حيفا، وراح يحرض أهلها ضد الإنجليز واليهود، وتنبه من نار تتحرك تحت الرماد.

وجاء العيد..

كانت الأحداث قد هدأت، بعد الوعود التي أطلقها الإنجليز لامتناس الثورة، وراح العرب يلممون جراحهم، ويحصون خسائرهم، ويعيدون حساباتهم، تحسباً لأي حركة غدر جديدة قد تند عن عدوهم.. وبعد صلاة العيد، دعا الشيخ رفاق دربه ليتناولوا الإفطار على مائدته، ويأخذوا حصتهم من معمول العيد، الذي اجتهدت أم محمد في صناعته طيلة الليلة الماضية، ليتذوقوا من الحلوى التي تعودوا عليها في جبة كل عيد..

وبعد أن غادروه، طلب من أهله أن يستعدوا، ليأخذ البنات في رحلة إلى وسط البلد، لكنّ الباب طرق فجأة، وأطلّ منه ضيف عزيز..

- يا أهلاً بالأستاذ رشيد
- أردت أن أكون أول من يبارك لك بالعيد.
- بارك الله فيك.. تفضل، تفضل..
- معي الزوجة.. أرجو أن تضسح لها طريقاً لتزور أم محمد..
- يا أهلاً، يا أهلاً..

واستقر بهم المجلس في غرفة متواضعة، زادت الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم إعجاباً بهذا الأزهرى الثائر، الذي لو أراد لأتته الدنيا طائعة، لكنه آثر حياة الجهاد والكفاح على حياة الدعة والراحة. وقال للشيخ، وهو يتناول فنجان القهوة السادة من يده..

- الناس يتحدثون عن درس التراويح الذي ناديت فيه بالجهاد، ويثنون على كلماتك التي أحييت القلوب.

- كانت توفيقاً من الله..
- لكنني علمت من بعض من أعرف في السراي، أن الإنجليز غاضبون!.
- كان لا بد من كلمة حق.
- من حسن الحظ أن الإنجليز يحاولون تهدئة المسائل، بعدما جرى في يافا، ولن يقفوا عند خطبة غاضبة هنا، أو نقد لاذع هناك.
- ما حدث كان خطيراً جداً..
- صدقت. ولا يجوز أن يمرّ دون أن ينبه في الناس الإحساس بالكارثة التي تقترب.
- ولكن ياليت قومي يعلمون..
- لكأنك غير راض عمّا آلت إليه الأمور!.
- صمت الشيخ، وهز رأسه في مرارة، جدّد القهوة لضيفه، ثم قال:
- نقل لي أحدهم من يافا أن شيخاً معممّاً ينظر لهؤلاء الغرباء القادمين تحت حراب الإنجليز، ويحشدون لقهرنا المال والسلاح، على أنهم أهل كتاب لهم ما لنا وعليهم ما علينا!
- هذا رأي نشاز..
- وأردف الأستاذ رشيد..
- ليسوا سواء.. منذ أيام فقط نقل لي صديق خبيراً عن عالم كريم اعتلى منبر صلاح الدين في المسجد الأقصى، وخطب خطبة قوية حذر فيها من الهجرة اليهودية، وهاجم الإنجليز الذين يقفون وراء هذا الغزو اليهودي ويدعمونه ويحمونه في فلسطين، وقد تأثر الناس كثيراً بالشيخ فرحان السعدي، خرجوا بعدها في مظاهرات عارمة ضد الإنجليز..
- لفتَ الاسم انتباه الشيخ عز الدين..
- هل قلت الشيخ فرحان السعدي؟

استغرب الأستاذ رشيد السؤال.

- نعم. هل تعرفه؟
- التقينا أثناء الخدمة الجهادية منذ سنوات طويلة.. كنا معاً نخدم في دمشق.. ومنذ قدومي إلى هنا وأنا أسمى لرؤيته.
- الحقيقة أنني لا أعرفه شخصياً، لكنني حفظت الاسم.
- لعله يقيم في القدس..
- كثير من العلماء يزورون الأقصى، ويلقون فيه بعض المواعظ والكلمات..
- على أية حال.. يبدو أن اليهود قد كسروا عن أنيابهم، ومصدر قوتهم الأول والأخير هو بريطانيا، التي مهدت الأرض، وغضت عنهم الطرف، وعند اللزوم لن تتردد في التدخل علناً إلى جانبهم، وهاهم يقمعون المظاهرات الغاضبة التي تعبر عن رفضها للهجرة..
- هزّ الأستاذ رشيد رأسه موافقاً..
- مايؤرقني حجم السلاح الذي ظهر لدى اليهود أثناء الأحداث.
- اليهود لا يلعبون.
- دعوتك للجهاد حفّزت الكثير من شباب حيفا ورجالها.
- الجهاد يحتاج إلى إعداد طويل، والمجاهد قبل الرصاص.. وعيه وفكره وعقيدته التي لا تلين.. هذا ما يجب أن نعمل عليه الآن..
- أرى أن فلسطين قد استغرقت فكرك واهتمامك، فماذا عن سوريا؟
- الأمور هادئة هناك، ولكل حادث حديث..
- واستأذن الأستاذ رشيد، فودعه القسام، وهو ممتنّ لهذه الزيارة التي لم يتوقعها.
- وأغلق الشيخ عز الدين الباب، وهو يفكر بصديقه القديم فرحان السعدي.. ففاجأته أم محمد وهي تقبل عليه بأشّة..

- ماذا عندك؟
- زوجة صاحبك..
- ما بالها..
- سيدة رائعة من خير النساء.. علم وأدب وأخلاق.. ما شاء الله.
- نعم الرجل، ونعم المرأة..
- على فكرة زوجته ليست حيفاوية!
- يبدو أن صحبة النسوان قد نشبت بينكما سريعاً..
- إنها من دمشق.
- دمشقية؟
- هذا الرجل.. لكم يعشق الشام!

فوجئت أم محمد بالشيخ عز الدين، يطلب منها أن تعد الغرفة الثانية من الدار، لحضور عدد من الضيوف الذين سيزورنه كل يوم بعد المغرب..

- كل يوم! لماذا كل يوم؟

- لأعلمهم القراءة والكتابة.

ضحكت:

- تحول البيت إلى مدرسة؟!.. هذا آخر ما كان يخطر لي على بال!.

ابتسم الشيخ:

- جاءني بعض الشباب في المسجد، وقالوا أنهم وجدوا فرصة للعمل في محطة القطار، لكنهم يشترطون عليهم أن يتقنوا القراءة والكتابة ليوظفهم، ورجوني أن أعلمهم، حتى يتمكنوا من العمل والكسب الحلال.

- أليس التعلم في هذا السن الكبير صعب عليهم؟

- الرزق سيدفعهم للتعلم.. إنهم مساكين.. من هؤلاء الفلاحين الذين

حدثتك عنهم.. الذين طردوا من أرضهم بسبب اليهود ومستعمراتهم.. ولديهم عوائل وأطفال..

نظرت أم محمد إلى زوجها في إكبار..

- ستجد الغرفة جاهزة كل يوم منذ العصر.

وتمدد الشيخ يريح جسده على السرير، يفكر في المستقبل، ووجوه

الفلاحين الذين يتكدسون حوله في بيوت الصفيح لا تفارق مخيلته.. ثمة

شيء يستطيع أن يقدمه لهم الآن.. صحيح أنه لا يملك مايساعدهم به على

تجاوز صعوبات الحياة، لكنه يملك أن يساعدهم بشيء يملكه ويتقنه، وقد

يفتح لهم أبواباً وفرصاً تحفل بها حيفا اليوم، بعد أن ازدهرت وتوسعت، وافتتحت فيها المصانع والمصالح والأعمال..

ولم يلبث أن سمع طرقاتاً على الباب، فنهض يلبى.. وكانت المفاجأة.. الحاج أحمد السهلي والحاج سالم الخطيب بصحبة الأستاذ أمين نور الله وابن أخيه ظافر، ينتظرهم حطور يقف على الطرف الآخر من الطريق. وضمّمهم مجلس متواضع..

- طمّنوني أولاً عن صحة الوالد الكريم..

ضحك الحاج أحمد..

- كما تعرفه.. سمعه يزداد ضعفاً، لكن ذاكرته ماتزال حيّة.. ولديه

سؤال واحد ينام ويفيق عليه.. متى ستقيمون عرس أمانة ومصطفى؟..

ابتسم الشيخ عز الدين:

- الحق على أمانة. لكنها حققت هدفها أخيراً، ونجحت نجاحاً باهراً

يرفع الرأس كما عرفت.

التقط الحديث الحاج سالم الخطيب:

- لقد تمت بفضل الله كل الاستعدادات للزفاف، وها نحن ننفذ طلبه،

وقد جئناك اليوم ندعوك إلى زفاف ابننا مصطفى على أمانة، وسيكون

حضورك أنت والأهل، تشريف لنا وبركة لهذا العرس، الذي صرت تعرف

قصته ومكانته في حياة العائلتين.

وطرق الباب فقام الشيخ ليجد ميمنة، وهي تحمل صينية الشاي، شملها

بنظرة ودّ، وقد تخيلها عروساً كأمانة، وتمنّى لها أياماً سعيدة، وهو يعود

إلى ضيوفه بالشاي..

- هذا زواج مبارك بإذن الله، لأنه بُني على دعائم قوية، فالعروسان

حفيدان لشهيد من أوائل الشهداء الذين روّوا فلسطين بدمائهم، وابنان

باران لعائلتين كريمتين من عائلات حيفا العريقة، وأنا أشهد بالعروسة شهادة حق وعن قرب، بعد أن خبرت أخلاقها وأدبها ووعيها، عندما كانت طالبة عندي، ولا أظن إلا أنها ستكون خير زوجة لخير زوج، وخير أم لأجيال نرجوها، ونرجو فيها خيراً لهذه الأمة.

نزلت كلمات الشيخ عز الدين القسام برداً وسلاماً على والدي العروسين، فاستبشرا بمستقبل واعد، وأدركا أن الأقدار قد ساقط الشيخ، ليعطي لهذه الفرحة الوشيقة، معنى أكبر وأعمق من زواج يجمع بين قلبين.



هبت النسيمات الباردة العلييلة، فأنعشت قلبين ألهبهما العشق، وحركت
الأشواق حيناً حبيساً، أن له أن ينعثق من إساره، ليأنس كلُّ إلى توأمه الذي
كان قريباً وبعيداً، ومدّ مصطفى يديه إلى الوشاح الأبيض، الذي يغطي وجه
أمنة، فأزاحه برفق، وراح يتأمل وجهاً تفجرت حمرة، فبدا كوردة تفتحت
للتو، وخفق قلبه، وهو يستمتع بنظرة حلال، لم تكن متاحة له قبل اليوم..
وبلغ الحياء بأمنة منتهاه، فلاذت عيناها بزاوية محجرين واسعين، أثقل
حركتهما حرج اللقاء مع حبيب كان قريباً وأمسى زوجاً، بعد أن عاش في
القلب حلماً أثيراً، لم تصح عنه يوماً، لولا أنه تحقق.
وهمس مصطفى باسمها بنيرة تقطر وداً وحناناً، فانساب إلى سمعها
لحناً عذباً، وكأنها تسمعه لأول مرة..
- أمنة..

نظرت إليه بطرف باسم، وعين زاداها الحياء والهيام فتنة وحلاوة،
تستحته البوح بما تحب أن تسمع، فاستجمع بعضاً من جرأته، ليبثها بعضاً
مما يعتمل في صدره:
- أحبك.

كادت تغيب من الفرحة، كمن فوجئ بخير سار يفوق طاقته.. أردف
هامساً، وهو يحتضن يدها بين راحتيه:
- انتظرت هذا الموعد كثيراً.

-

- لم تقولي شيئاً.

ازدادت وجنتاها احمراراً.

- لعلك لا تحبيني؟
- وضعت يدها على فمه، ورمقته بطرف عاتب. طبع قبلة على راحتها الدافئة، وأمسك بها بين راحتيه..
- قولي أحبك..
- لم يسعفها لسانها، ولم تجد الجرأة لتقولها، فتشاغلت بغير كلام..
- لا أصدق أننا معاً تحت سقف واحد.
- وأنا..
- انتظرت هذا اليوم كثيراً..
- وأنا..
- لا يبدو عليك!
- لماذا؟
- لأنك وسّطت أستاذك القسام ليؤخر الزواج!
- لم أقصد.
- لماذا أخرت العرس إذن؟
- لأنني أحب المدرسة.. أحب العلم والدين.. وأحببت دروس الشيخ عز الدين.
- تحبين كل ذلك، ولا تقولين لي كلمة حب واحدة؟
- مصطفى!
- قولي لي كم طفلاً تريدان؟
- زادت وجنتها احمراراً، وتسارع وجيب قلبها..
- دعنا نتكلم أولاً..
- واضطجع مستنداً على كوعه، وهو يتأملها بعيون ولهى..
- غرّدي، فأنا أسمعك..

واضطجعت قبالتها مستندة على كوعها، فكانا كصديقين في ليلة سمر، تأملها، وهو يفوص في بحر عينيها اللتين أفصحتا عن وجد جارف، فتاه في صفائهما، الذي تراءى له أشبه بصفاء بحر حيفا، عندما يفصح عن رفته، وقال كمن تذكر..

- جدّي يريد طفلاً يسميه على اسم صديقه الشهيد طاهر.
- ابتسمت، فأشرق وجهها كبدر مضيء، لكنها لم تنبس.
- لم تقولي رأيك؟
- ليس المهم ماذا نسميه.
- لا بد له من اسم.
- المهم كيف سيكون؟
- مثل أبيه. هل في هذا شك؟
- ضحكت ضحكة رقيقة..
- أنت الخير والبركة، وزينة شباب حيفا.. ما هذا الذي قصدت!
- أنت اليوم فيلسوفة! لا تنفع الفلسفة في ليلة كهذه.
- قالت وهي ترنو بنظراتها نحو طيف ما، حضر للتوّ في خيالها..
- أتمنى من الله أن يرزقني بطفل وسيم في جمالك.
- أنا وسيم إلى هذا الحد؟
- وحنون كحنان أبي وأمي وجدّي، وحبهم عليّ..
- سأكون أكثر حناناً منهم.
- وعالمٌ في الشريعة..
- عالم؟
- رمقته بطرف صارم، وهي تلوح بسبابتها:
- أجل. أريده عالماً مجاهداً مثل الشيخ عز الدين القسام.

- ياليت.
- سيكون بإذن الله.. عالمٌ وقور، له فهم العلماء، وتقوى العلماء، وجهاد العلماء، وهيبة العلماء.
- تاه إعجاباً بمنطقها الذي راق له، وشعر بالفخر بزوجة هذا حلمها..
- أحبك يا أمنة.. أحبك.
- زادت ابتسامتها اتساعاً، وفاض الفرح من عينيها، مسربلاً بدمع كاللؤلؤ، فبدت كوردة غسلها الندى، ومدّ يده ليمسح دموعها، فتناولت كفه وقبّلتها، وهمست في هيام:
- وأنا أحبك.
- هزته كلماتها من الأعماق، وروت ظمأه لحب أرهق مشاعره بالشوق، وترامت إلى أسماعهما أصوات الزغاريد التي مازالت تلعلع في فضاء الدار، فخففت عنهما حرج اللقاء.



هذه الليلة الثانية له في فندق فكتوريا، دون أن يعثر التوخي على خيط يوصله إلى صديقه عز الدين، ودار بخلده أن القسام لا يمكن أن يعيش في حيفا دون أن يتصل بمساجدها وعلمائها.. فقرر اليوم أن يصلي المغرب في مسجد النصر الكبير في الجرينة، علّه يصل إلى صديقه أو يعثر على من يدلّه عليه.. وانفضّ المصلون دون جدوى، فسأل عن قيّم المسجد، فدّلّوه على الحاجّ عبد الله مسمار..

ضحك الحاجّ مسمار، وقال:

- لو صليت العصر عندنا، لأصغيت إلى الشيخ عز الدين، وهو يلقي درسه هنا، وأخشى أنه قد فاتك خيرٌ كثير..

ابتسم التوخي. كان حدسه في محله. ولكن كيف السبيل إليه؟..

- غادرنا قبيل المغرب.. قال لي بأن لديه درس بين المغرب والعشاء في مسجد حيفا الصغير.. لعلك تجتمع به إذا صليت العشاء هناك..

- وأين يقع هذا المسجد؟

- في الحسبة. ليس بعيداً من هنا على أية حال.

لم تغادر البسمة وجه التوخي.. «لله درك يا عز الدين، هذا أنت.. صاحب دأب وهمة.. درس بعد العصر في المسجد الكبير.. ودرس بعد المغرب في المسجد الصغير.. ولا أدري ماذا تفعل في باقي يومك بعد!»..

ووصل التوخي إلى المسجد، فتأهّى إلى سماعه ذلك الصوت الذي يعرفه جيداً، وهو يتحدث في تدفق وحماس، فجلس بعيداً يصغي، إذ لم يشأ أن يريه نفسه، حتى لا يقطع درسه احتفاءً بصديق قديم..

كان القسام يشرح للناس حديث الرسول ﷺ، وهو يناجي مكة عندما

كان يغادرها مهاجراً.. «والله إنك لأحب بلاد الدنيا إليّ، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك ما خرجت».. واسترسل في حديثه عن حب الأوطان والتمسك بالحقوق.. وتطرق إلى بيع الأراضي لليهود فحرمه شرعاً، وذكّر الناس بما حدث في يافا، وحذر من شرّ يقترب.

وبعد صلاة العشاء انفضّ المصلون، إلا ثلّة من الشباب تحلقت حول الشيخ، تسألّه وتحاوره، وتستزيد من علمه وفكره.. وانهمك معهم بعض الوقت، لكن نظرة شاردة سرعان ما التقطت ابتسامة دافئة لصديق قديم، لا يمكن أن يخطئها أبداً، فاستأذن ومضى نحوه..

- مَنْ؟ التنوخي ١٩.

وراحا في عناق طويل..

- أهلا بك في حيفا.. هذه مفاجأة لن أنساها.

ضحك الشيخ التنوخي، وهو يتأمل صاحبه..

- هذا أنت لم تتغير.. كياسمين الشام، فواح في كل حين.

- لن أستطيع التغلب على حلاوة بيانك.

واستدرك القسام ملتفتاً إلى من كان معهم:

- المعذرة يا شباب.. فضيفي هو الأديب دمشقي عز الدين

التنوخي.. صديق قديم من أيام الأزهر الشريف.

وأقبلوا يصافحونه بحرارة، بينما تابع الشيخ القسام، معرفاً:

- الأستاذ التنوخي رجل من رجالات الشام، وفارس من فرسان اللغة،

لا يشق له غبار..

حياهم الشيخ التنوخي، بينما اعتذر القسام لهم، وانتحى بصاحبه في

ركن من أركان المسجد..

- ما أخبار الشام؟

- لا تسرّ.. الفرنساوي سمّم حياتنا، وصادر استقلالنا.. الأمور صارت صعبة جداً.
- فرّج الله عن سوريا!.
- وكيف ترى الأمور في فلسطين؟.
- الإنجليز واليهود ماضون في خطّهم على قدم وساق..
- سمعت أن الهجرة قد نشطت مع تعيين «صموئيل» مندوباً سامياً..
- صهيوني مرّ، يملك سطوة الإنجليز وحلم اليهود، ولك أن تتوقع الطامة التي نزلت بهذه البلاد..
- واستدرك فجأة..
- ما الذي أتى بك إلى فلسطين؟
- اشتقت إليها..
- أخشى أن أمورك في سوريا ليست على ما يرام..
- تنهد التوخي، وهز رأسه في مرارة:
- الفرنساوي خنق البلد.. لذلك فكرت أن آتي إلى فلسطين، لأعمل هنا في مهنة الزراعة التي تعلمتها في باريس.
- سأكون مسروراً بوجودك هنا، لنتشاور في أمور كثيرة..
- وأنت؟.. من أين تعيش؟.. ماذا تعمل؟.
- أدّرس في مدارس البرج الإسلامية..
- سمعتك تنوه للحاضرين عن درس في بيتك!.
- بعض الفلاحين الذين طردوا من أرضهم، يحاولون أن يجدوا فرصة عمل في سكة الحديد أو الميناء، فيشترطون عليهم أن يتقنوا القراءة والكتابة، فأحاول أن أساعدهم..
- نظر إليه التوخي بإكبار..

- هذا أنت يا عز الدين.. الدنيا تتغير وأنت لا تتغير.
واستدرك التتوخي فجأة:
- أتدري من شاهدت في حيفا بالأمس؟
من؟..
- لن تحزر.
- أأحدُ أعرفه؟
- عزّ المعرفة.
- قل، وكفناك أُلغازاً!..
- الشيخ كامل القصاب!.
- تهلل وجه القسام..
- مبلغ علمي أنه في الحجاز، يعمل في وزارة المعارف.
- أنت على حق، وقد ترك عمله هناك، ويريد أن يستقر هنا في حيفا..
- أينه الآن؟...
- يقيم في فندق نصّار لبعض الوقت، ريثما يرتب أموره هنا.
ابتسم. «ياالحيفا.. هاهي تجمع الأصحاب من جديد».

كان الشيخ كامل القصاب الذي وصل للتو إلى حيفا، متشوقاً لسمع من الشيخ عز الدين عن تجربته، وما آلت إليه أموره حتى وصل إلى هنا، فقد سمع نتفاً عن هذه التجربة، تارة من التنوخي، وأخرى من الأستاذ رشيد..

قال القسام بعد أن روى للشيخ كامل كل ماجرى وكان:

- سوريا جريحة يا شيخ كامل، وفلسطين مهددة بالضياع..

همس الشيخ كامل، وهو يبسط كلتا يديه على حافتي الكنبه الوثيرة التي احتوته في بهو الفندق:

- ماذا نفع؟.. هذا قدر الشام..

لم يعجبه البرود الذي واجه به القصاب كلماته، فقال:

- يبدو لي أننا نحن الذين ساهمنا في صناعة هذا القدر، وإنّ الله

لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..

قال التنوخي ضاحكاً، وقد أحب أن يوجج النقاش بين الصديقين:

- الشيخ عز الدين يغمز من حلفك مع الشريف حسين وابنه الملك

فيصل.

قال الشيخ كامل:

- اسمع يا عز الدين يا تنوخي.. مهما فعلت، فلن توقع بيني وبين

القسام.. كنت مثل الكثيرين أعول على منقذ ينقذنا من ظلم الترك، بعد

أن تحولوا في آخر أيامهم من خلافة إلى احتلال.. ألا تذكر ما حدث يا عز

الدين؟.

رد القسام:

- في هذه معك حق.. لا أنكر أنّ الأمور قد ساءت كثيراً في آخر الأيام.. هالني يوماً أنّ فرماناً صدر عندما كنت في جبلة، يقضي أن نخطب الجمعة باللغة التركية.. كل هذا أنا معك فيه.. لكن كان الأولى أن نغير الخلافة من داخلها، لا أن نحطمها.

- كنت أظن أن الهاشميين بديلاً معقولاً، ولكن.. قدر الله، وماشاء فعل.

قال التنوخي..

- هذا اعترافٌ لا يغير من الأمر شيئاً..

قال الشيخ كامل في ضيق..

- هذا ليس اعترافاً.. هذا موقفني من البداية، أم نسيتم؟.. كنت أول من دعا إلى زيادة تمثيل العرب في الإدارة العثمانية، حتى لا يطغى عليها الأتراك، ويحوّلوها من دولة للمسلمين على اختلاف أعراقهم، إلى دولة يحتكرها الترك، وتقصي غيرهم من المسلمين.

- لو بقي السلطان عبد الحميد في سدة الخلافة، لكانت الأمور أسهل.. لكنه كان ضعيفاً، فانقلبوا عليه.

- أنت قتلتها.. السلطان عبد الحميد الذي انقلبوا عليه، فانتهدت الخلافة بنهايته.. نحن ثرنا يا عز الدين على الطورانيين ودعاة التتريك، ولم نثر على الخلافة.

قال التنوخي، وهو يغير الكنبه التي يجلس عليها، ليصبح أكثر قرباً:

- حدثني الشيخ محمود أبو الشامات في دمشق، وكان على صلة طيبة بالسلطان عبد الحميد، إذ كان يستشير، ويستفتيه.. حدثني عن رسالة سرية، استطاع السلطان أن يسربها له من سجنه في جزيرة سالونيك، عبر شخص يأتمنه..

علق الشيخ كامل:

- يهود الدونمة هم الذين احتجزوه، وقد أخبرني من أثق به، أنهم حدّدوا إقامته في قصر منعزل، وكلفوا بحراسته رجال من عتاة الماسون.

تابع التنوخي:

- المهم يروي لي الشيخ أبو الشامات أن السلطان قال له في الرسالة، أن الاتحاديين أصروا عليه بأن يصادق خطياً على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وأغروه بتقديم مئة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً مكافأة له، فرفض، وأجابهم بالحرف «لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي» وبعد جوابه هذا، خيروه بين الموافقة أو الخلع، ففضل أن يخلموه، ولا يبيع فلسطين.

قال الشيخ كامل:

- اليهود استغلوا الوضع واشتروا حلمهم بالمال، وعندما رفض السلطان عبد الحميد عرضهم، اشتروا وعد بلفور من الإنكليز، لكن الأجنب كانوا يخططون لهدم الخلافة من زمن بعيد، وعندما هزمت تركيا في الحرب الكبرى على أيديهم، وجدونا لقمة سائغة..

- كان أولى برجال الثورة العربية أن يعرفوا هذا قبل أن يتحالفوا معهم!.

- نلهم تذاكوا، فخانهم ذكاؤهم!

ضحك التنوخي:

- من الحكمة أن يراجع المرء نفسه، ولو بعد حين.

تنهد الشيخ كامل..

- لا تزدها علينا يا تنوخي، كان اجتهاداً، وكانت خدعة كبرى دفعنا

ثمنها جميعاً، المهم أن ننتبه لما يحاك الآن..



لم يمض على الشيخ كامل القصاب في حيفا سوى أشهر، حتى قرر أن يمضي في رحلة إلى مصر، يستطلع فيها آراء من يعرف من رجال الفكر والسياسة، ممن تؤرقهم الأحوال التي آلت إليها بلاد العرب..

وانطلقت صافرة القطار الحجازي، فلوح القسام والتوخي للقصاب بتحية الوداع، وعادا أدراجهما مشياً على الأقدام، يتبادلان الأحاديث، ويستمتعان بمنظر البحر البديع، الذي كان موجه قد هدأ قليلاً، بعد ليلة ماطرة، مازالت مياهها تغسل الدروب، وترسل في الأجواء برودة ناعمة، تنعش الوجوه، وتثير في المفاصل النشاط..

ولفت نظرهما رجل يجلس خلف منقل جمر، قرب السور الواطئ الذي يفصل بين الشاطئ وسكة القطار، يبيع الشاي مع الكعك والزعتر، ويعرض بضاعته على المارة، فلا يعبأ بها إلا القليل، وقال التوخي، وهو يفرك كفيه من البرد.

- ما رأيك بكوب من الشاي؟

- إذا كنت أنت الذي سيدفع، فلا بأس..

- طول عمرك مغلبي يا عز الدين يا قسام. أمري لله..

واقتربا من الرجل..

- تفضل يا شيخنا..

قال التوخي:

- نريد شاياً جديداً..

- سامحك الله يا أفندي.. لا أبيع إلا شاياً طازجاً وجديداً.. عندما

تذوقه ستأكد..

- قصدت أن تطيل في غلي الشاي، حتى نستدفئ بهذا الجمر..

ضحك القسام..

- في هذه الحالة يجب أن تدفع ثمن الدفء أيضاً.. كما طلب البخيل يوماً من جحا أن يدفع ثمن رائحة الشواء!

ضحك الرجل..

- الدفء مجاناً.. يكفيني أن تشربا الشاي عندي.

- لا أرى عندك ما يكفي من الزبائن!

هز بائع الشاي رأسه في مرارة..

- لقد مضى القطار في رحلته، ولن أجد ما يكفي من الزبائن حتى

الرحلة القادمة بعد الظهر..

تساءل التنوخي:

- وهل هذه تجارة رابحة؟

أجاب وهو يحشو الكعك بالزعتر..

- مستورة، والحمد لله..

ثم أطلق تنهيدة طويلة، وألقى بنظراته الكئيبة تلقاء الشمال..

- الله ينتقم ممن كان السبب.

- السبب في ماذا؟

رفع البائع إليه وجهاً أرهقه الهمّ والتعب..

- لعلك لست من هذه البلاد!

صدم جواب البائع التنوخي. فنظر إلى الشيخ عز الدين مستجداً..

- الأستاذ التنوخي قادم من الشام.. لعله لم يدرك ما ذهبت إليه..

- العفو منك يا أستاذ..

- أنا الذي أعذر.. ظننتك تتحدث عن ظروف شخصية.

- بل أقصد اليهود والإنجليز الذين طينوا عيشتنا.

- أعانكم الله..

قال بائع الشاي، وهو يدعوهم لتذوق كعكه الشهى، الذي قام بإعادة تسخينه على وهج الجمر..

- أذلونا والله يا شيخنا، كنت مستوراً أنا وأهلي، نعمل في الأرض.. فاشتراها اليهود من صاحبها سرسق اللبناني، وطردها منها الإنجليز بالقوة.. وتساءل بحرقه متوجهاً إلى القسام:

- هل رأيت ظلماً أفضح من هذا يا شيخى؟

- الله على القوي..

- لولا هؤلاء الإنجليز والله ما استطاعوا أن يخرجونا.. الإنجليز هم الذين يلوون ذراعنا، ويقوون اليهود علينا، ومثلي كثير.. سأل التوخي:

- لو كانت لديك أي وثيقة تؤكد ملكك للأرض، لكان بإمكانك أن تحتاجهم بها.

ابتسم البائع..

- وثيقة! عمّ تتكلم يا أستاذ! أجدادنا الله يسامحهم أعطوا الوثائق لسرسق بيك، لكي يدفع عنهم الضرائب للوالي العثماني، ويترك لهم ما يكفي ليعيشوا، ثم مالبت سرسق وأمثاله أن أكلوا البيضة وقشرتها، وباعونا مع الأرض لهؤلاء اليهود، وها هي النتيجة..

واستدرك بائع الشاي قائلاً بإباء..

- كنت أكل وأطعم أولادي من أرضي معزراً مكرماً.. إلى أن أتى أولاد

الحرام، وباعوا واشتروا فينا.. وكما تراني الآن.. يباع كعك وشاي في محطة القطار..

ثم رفع يديه إلى السماء وأقسم:

- والله الذي لا إله إلا هو يا شيخنا.. تركت البنت محمولة، ونزلت إلى السوق حتى أجمع قرشين لأداويها.. ماذا أعمل؟. لقمة مغمسة بالدم يا مولانا!.
- تأثر الشيخ عز الدين، ومدّ يده يريد أن يخرج شيئاً يساعد به الرجل، فما كان من البائع إلا أن أمسك بمعصمه قائلاً:
- لم يكن هذا القصد، إنما أردت أن أفضض عمّا في نفسي، ادعُ الله لي أن يعافيه يا شيخنا، وهذا يكفي.
- أثارت عفة الرجل مشاعر الشيخ عز الدين، ولمح في عينيه دمعة تريد أن تفرّ، فشعر بغصة في حلقه من شدة التأثر..
- الله يعينك يا أخي ويعافي بنتك، لكن الناس لبعضها..
- لو كانت المسألة سهلة علي، لما وقفت كل يوم من الصبح حتى المغرب، أبيع الشاي والكعك للرائح والغادي..
- وأصرّ الشيخ عليه.
- لا أحمل سوى نصف جنيه، خذه، واذهب لتعالج بنتك.
- بان التأثر على الرجل، وهز رأسه في مرارة. ومالبت أن قال:
- أقبل لكن على شرط..
- ماذا؟
- تأخذ الكعكات بدل نصف جنيه، والشاي هدية لأحلى شيخ في حيفا كلها.
- قال التوخي:
- أنا أشتري الشاي بنصف جنيه أيضاً.
- قال بائع الشاي:
- العفو يا أستاذ. الشاي صار ملك الشيخ، تستطيع أن تشتريه منه إن شئت.
- ابتسم التوخي..
- ربح البيع إن شاء الله.



أقبل موسم الزيتون، وحن وقت القطاف..
وسأل التنوخي صديقه القسام، إن كان يعرف عمالاً يمكن أن يساعده
في قطاف زيتون المزرعة، التي استأجرها في عين غزال على تلال الكرمل،
ليمارس هوايته القديمة في الزراعة..

- لديّ كثيرون يمكن أن يساعدوك، فتفيد وتستفيد..
- من تقصد؟..
- طلابي في المدرسة الليلية، ومهاجرونا العاطلون عن العمل..
- هل سبق أن عملوا في ذلك.
- الشيخ حنفي والشيخ علي عملا في عدة مزارع العام الماضي،
واشغلا في موسم قطاف الزيتون، وسوف يعلمان البقية..
- ولكن..
- أنا أضمن لك إتقانهم، فاضمن لهم أجراً مجزياً يخفف عنهم
أعباء الحياة..

- تعرف أنني لا أستطيع أن أردّ لك طلباً.
وبعد أيام تحولت المزرعة إلى خلية نحل.. وانهمك الرجال في عملهم،
والتنوخي يراقب بإعجاب..

كانت المزرعة تجثم على تلة خضراء، تزدان بأشجار الزيتون والتين
والرمان، وتشرف على البحر الأزرق، تمرّ من خلالها مياه عين رائقة، تنبع
قريباً منها، وترك الصديقان الرجال وهم منهمكون في القطاف، وراحا
يتنزهان في ظلال الأشجار..

كان القسام يصغي إلى أصوات العصافير التي تترد في الأفاق، يسترجع

صور الطبيعة الخلافة في غابات سلمى وصلنفة والفرنلق، حيث عاش أوقاتاً لا تنسى، وهو متوار مع رفاقه، يقودون الثورة ضد الاحتلال الفرنسي في الساحل الأسير..

ووصلا إلى ظلّ شجرة صنوبر معمرة، فرأى الشيخ عز الدين مزرعة للنحل أنشأها صديقه، لتحول عبق زهر الكرم إلى عسل مصفى يسرّ الشاربيين، ووعد التنوخي القسام بقطرميز من هذا العسل المعتبر كما وصفه، هدية للعائلة عندما يحين جمعه.

ولفت نظر الشيخ مشتلّ أقامه التنوخي في ظل شجرة جوز وارفة، فسأله عنه..

- هذا مشتل أجري فيه تجارب زراعية على بعض الفسائل والغرسات، لتصبح ذات صفات أكثر جودة وإنتاجاً..

- ما شاء الله.. كيف؟

- نجمع صفات هذا على ذلك!.. فنحصل على نبات يحمل مزايا النوعين.. هذا فتح جديد..

واقترح التنوخي أن يعودوا لتفقد ورشة القطاف، ثم تابع حديثه مع صديقه القسام..

- بالمناسبة اليهود بارعون في هذا العلم، وهم يطبقونه اليوم داخل مستعمراتهم الزراعية التي يسمونها «الكيبوتس»..

- ما وجه اهتمامهم بالزراعة؟..

- الزراعة في أي بلد ركن من أركان الاستقلال.. الأمة التي لا تأكل مما تزرع أمة مهددة..

- من المؤلم أن يكونوا متقدمين في الزراعة، ونظل نحن متخلفين فيها.. وهذا وجه من وجوه المواجهة معهم، لأنهم إذا نجحوا في الزراعة

- وبقينا متخلفين، سدّدوا ضربة جديدة للمزارعين في هذه البلاد..
- أيا ما كان يجب أن نواجه التحدي بذكاء.. ننافسهم.. نتفوق عليهم.. وإن اقتضى الحال نتعلم منهم.. فلديهم خبرات كثيرة جمعوها من انتشارهم في دول أوروبا.. ونحن نحتاجها.
- إلا خبرة المكر التي برعت فيها الصهيونية، فأقنعت اليهود بأن يهاجروا إلى فلسطين.. وهاهي تجيشهم ضد العرب للسيطرة على البلاد!
- ووصلا إلى شجرة زيتون ضخمة، يتولى قطاف الزيتون منها الشيخ حنفي. قال عندما رأى الأستاذ التنوخي، وهو يتسلق أحد فروع الشجرة للوصول إلى الأغصان البعيدة..
- بارك الله لك في هذا المحصول.. تكاد الأغصان تتن من أحمالها.. قال الشيخ عز الدين..
- الأستاذ التنوخي ليس عالم لغة فحسب.. بل مهندس زراعة وخبير في هذا الفن..
- وجدنا أخيراً من ينافس اليهود في الزراعة. هتف التنوخي من تحت الشجرة..
- التفت لعملك يا شيخ حنفي، وإلا فاتك طعام الغداء.. قال الشيخ عز الدين..
- قلنا تعطّيهم أجراً مجزياً، لا أن تحول موسم الزيتون إلى موسم للولائم..
- ابتسم التنوخي وهو يتأمل محصول الزيتون الذي تجمّع حتى الآن:
- كنت قد نذرت ذبح كبشٍ إن نجح الموسم، ولم أجد خيراً من أصحابك لتوزيع هذا النذر..
- قال الشيخ عز الدين، وهو يشير إلى جمع قادم من بعيد:

- يبدو أنك ستندّر الآن ذبح عجل سمين، إن نجوت من سماجة هؤلاء!..
- التفت التوخي إلى حيث ينظر القسام، فألقى مجموعة من اليهود،
- يتقدمهم حاخام شابّ، وبرفقتة ضابط إنكليزي..
- ماذا يريد هؤلاء؟..
- لعلّي حررت!.
- وألقى الضابط التحية برطانة مضحكة..
- أنت المسؤول هنا؟
- نعم..
- علمنا أنك مستأجر..
- صحيح.
- ومتى ينتهي عقد الإيجار؟
- لماذا؟
- لقد اشترى هؤلاء المزرعة من صاحبها، وعقد الشراء يبدأ من أول الشهر القادم..
- لكن عقدي معه مدته عامين، وينتهي بعد تسعة أشهر..
- أنت متعاقد مع وكيل الأرض.. مستر «أبو دقة».. لكن هؤلاء
- وقعوا عقد الشراء مع المالك «بشارة التيان» وهو مستعجل على البيع.
- همس الشيخ القسام للتوخي:
- يبدو أن إغراء الثمن يدعو البائع للاستعجال..
- قال التوخي متوجها للضابط:
- من حقي أن أستوفي مدة العقد كاملة، وسوف أشكو الوكيل في المحكمة.
- تدخل الحاخام لأول مرّة، وهو يبتسم ابتسامة صفراء، تكلف أن يرسمها

على وجه ماكر، كان يراقب حتى الآن الحوار مراقبة الواثق.

- شالوم خبيبي، شالوم..

التفت التنوخي للضابط.

- من يكون؟

- وكيل الملاك الجدد، والمتحدث باسمهم..

بينما تابع الحاخام:

- خبيبي.. الأمر لا يحتاج محاكم.. نحن سندفع فرق الأشهر الباقية،

وزيادة.

- أنا هنا لست سمساراً.. لدي مشروع زراعي بدأتها، وأريد أن

أجني نتائجها، وهي تستغرق وقتاً، وكنت أخطط لتجديد عقد الإيجار.

- سندفع أيضاً ما يعوضك عن العطل والضرر..

ضاق التنوخي ذرعاً بهذه اللغة..

- سندفع.. سندفع.. هل تظن أن كل شيء يحلّ بالمال؟!.

قال الحاخام بلهجة تميل للصرامة، وهو يمسك بيد الضابط وكأنه

يتوعد به..

- العفو خبيبي.. نحن اشترينا الأرض، وأصبحت ملكنا بالقانون،

والكولونيل يعرف.. اشترينا الأرض لنعمل بها لا لنؤجرها.. ونريد أن نبدأ

بتحويلها سريعاً إلى «كيبوتس»..

وأردف وهو يشير إلى عدد من اليهود معه:

- لدينا ضيوف كثيرون من بولندا، وأكثرهم مزارعون، ونريد أن نؤمن

لهم فرص للعمل..

قال التنوخي في حزم..

- المعذرة.. سأكمل عقدي إلى النهاية.

- رمقه الحاخام بنظرة غاضبة.. بينما استلم الضابط الحوار:
- أنا أنصح أن تسوي الأمر مع الوكيل، وتسترجع حقلك منه، لأننا مضطرون لتسليمهم المزرعة أول الشهر.
 - سأرفض الخروج حتى تحكم لي المحكمة.
 - إلى أن تحكم المحكمة بينك وبين الوكيل ستخرج ولو بالقوة. لأن عقد الشراء بالنسبة لنا صحيح، وواجب سلطة الانتداب مساعدة المهاجرين اليهود.
- وغادروا المزرعة بغير الوجه الذي جاؤوا به!



عاد الشيخ كامل القصاب من مصر وقد حسم أمره، فقد توصل إلى قناعة بأن مؤامرة سايكس وبيكو قد نجحت، وأن أخطر ما فيها كان الوعد البريطاني لإقامة وطن قومي في فلسطين، وأدرك أن جبهة فلسطين هي ميدان الأحرار القادم، لأنها أخطر الثغور وأكثرها تعقيداً..

وقرر الإقامة في حيفا، فاستأجر شقة فيها، وشرع يبحث عن عمل يستثمر فيه ما بقي معه في غربته من مال، وبدأ يتصل بزعماء حيفا لينسق معهم ما يمكن عمله.. وزاره القسام والتوخي ذات مساء، فألفياه في كدر وكآبة..

- لا تبدو بحالة جيدة يا شيخ كامل.
- لم يعلق. كانت ورشة الشاي التي وضعها أمامه، تطلق أبخرتها في فضاء الغرفة، فتناول كأساً، وصب فيه بعض الشاي الخمير المكثف، ثم غمره بالماء الساخن، وقدمه لصديقه القسام..
- ضع ما شئت من السكر..
- ثم صنع كأساً آخر للتوخي
- تحبه ثقيلاً، أم معتدلاً كعزّ الدين؟.
- على ذوقك.. المهم أن «تلاغينا» قليلاً.
- قال القصاب، وهو يصبّ له الشاي:
- ألا تعلم بأنّ اللغو حرام.
- ضحك الشيخ عز الدين لهذه الدعابة، بينما علق التوخي:
- لم أقصد، لكنك لا تبدو رائق المزاج.
- لم يردّ، قدم الشاي لصاحبه، وراح يرشف الشاي البخاري بصمت..

تبادل القسام مع التنوخي نظرة، قال بعدها:

- أعرف أنك شرّيب شاي من الطراز الأول، لكني لم أتوقع أنك
تدفن همومك في رحاب الشاي!.

ارتسمت على شفتي القصاب ابتسامة ساخرة.. قال وهو يتأمل البخار
يتصاعد من إبريق الماء..

- كنت في خلوة مع الذات، أغوص بأفكاري في الماضي، وأتأمل فيما
جرى ويجري.. أحياناً، استعراض الماضي يعيد للمرء حكمته، فيزن الأمور
بتؤدة أكبر.

وانزوى التنوخي في ركن المجلس، وانشغل بتقليب عدد جديد من أعداد
مجلة «المنار» التي جلبها معه القصاب من مصر، بينما أردف الشيخ كامل
في مرارة:

- لقد أضعنا وقتاً طويلاً يا عز الدين..

- لم أعرفك يائساً!

- معاذ الله..

- إلى أين وصلت؟

- أحياناً أغبطك على طريقة تفكيرك.

- أنا!

- تقوم بما ينبغي، دون أن تنتظر النتائج..

ابتسم القسام..

- لعل هذا ما ينبغي..

- أرايت؟

وقال، وهو يزيد بعض الماء الساخن على شايه، الذي بدا ثقيلاً:

- التقيت في جريدة المنار بالشيخ محب الدين الخطيب، وتحدثنا

في ما جدّ من أحداث.. واتفقنا على أن أخطر ما يواجه الأمة اليوم هو المشروع الصهيوني في فلسطين.

نحّي التنوخي المجلة من يده، وسأل، وهو يرجو الشيخ كامل كأساً ثانياً من الشاي:

- وما هي أخبار صاحب المنار رشيد أفندي رضا؟
- يرى أن تقسيم الشام مقصود بذاته، ويحذّر من أن الهجرة اليهودية ستزداد، حتى يصبح لليهود قوام شعب، يستطيعون أن يعلنوا به الوطن الذي يخططون لإقامته في فلسطين.
- والعمل؟
- لا أجد دواء لهذا الداء كالجهاد.
- أوماً الشيخ عز الدين القسام موافقاً، بينما علق التنوخي.
- الجهاد يحتاج إلى رجال ومال وسلاح..
- لا بدّ مما ليس منه بدّ.

«اللَّهُ ما أجمل هذه البلاد»

هكذا همس الشيخ عز الدين القسام، والحنطور يرقى في سفوح الكرم، في رحلة ضمته إلى التنوخي والقصاب، وهبت النسومات الرقيقة مندّاة برائحة البحر، فاستداروا يتأملون منظر حيفا، وقد استلقت على شاطئ المتوسط، والموج يتسابق نحوها، حتى إذا لامس رمالها، تراجع في حياء، وعاد إلى صفحة البحر التي كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس، وكأنها درّ منثور في صحراء من الزرقة الصافية..

وأنعشت النسائم الرقيقة روح الشيخ عز الدين، فأيقظت ذاكرته، لتبحر نحو جيلة التي عاش فيها أحلى أيام الصبا والشباب.. وطلب الشيخ التنوخي من الحوزي أن يسرع، حتى يصلوا في الموعد، إذ دعاهم صديق لتناول الغداء في كرم العنب، الذي يملكه بين «تل السمك» و«رأس الكروم»..

وانطلقت العربية بأقصى ما تستطيع من قوة، تقاوم انحدار الطريق الصاعد نحو التلال، وراحوا يمتعون عيونهم بالمناظر الخلابة، ويعطرون أرواحهم بروائح الربيع، التي انتشرت في كل مكان، تملأ الجو بعبق الأزهار والحشائش البرّية، وطلب التنوخي من الحوزي أن يتوقف قليلاً في تل السمك، عند بناء إسلامي قديم:

- هذا يسمى ضريح السيد الخضر.

تأمل القسام المكان، فرأى مجموعة من النسوة يدرنّ حول الضريح، ويتمننّ بدعوات غير مفهومة..

- من هؤلاء النسوة، وماذا يفعلن؟.

- صاحبات حاجة تعودن أن يأتينَ إلى هنا، ويتوجهن بالدعاء إلى الخضر عليه السلام.

بان الانزعاج على الشيخ القسام، وقال:

- هذه بدعة منكرة، وسلوك يقترب من الشرك، والعياذ بالله..

- عادة قديمة درج عليها بعض أهل حيفا.

- لكنها منكرة، ولا ينبغي السكوت عنها..

تساءل الشيخ القصاب:

- وأين المشايخ و طلاب العلم.. عليهم أن ينبهوا الناس إلى هذه المخالفات.

تحمس القسام:

- لنمض إليهن، وننبههن لهذا السلوك المنكر.

وأشار للحوذي أن يعطف نحو الضريح..

وما إن وصلوا حتى ترجل القسام، وصاح بالنسوة، وهو يحث الخطا

نحو جمعهن، الذي تحلق حول مقام السيد الخضر..

- هيه.. أيتها النساء.. هذا الذي تفعلنه حرام!..

التفتت النسوة، وقد فاجأهن الإنذار..

- الله لا يحتاج إلى وسطاء لينقلوا إليه طلباتكن.. إنه يسمع ويرى

سبحانه، فادعينه مباشرة..

وتقدمت منه امرأة..

- يا شيخي أنا عاقر.. وأريد من الله طفلاً.. طفلاً واحداً يملأ عليّ

حياتي.. الداية حارت في أمري، ساعدني الله يخليك.

كانت لهجة المرأة مؤثرة، فمست عاطفة الشيخ، وتحرك لها وجدانه،

قال، وهو يحاول أن يقنعهها:

- الله يعطيك يا أختي، ويرزقك ما تتمنين من أطفال، لكن الولد لا يأتي عن طريق الأضرحة والأولياء، هذا الضريح لا يضر ولا ينفع، وصاحبه أعجز من أن يدعو لنفسه. ادع الله مباشرة فهو يسمع ويرى.. وعندما يأذن سبحانه، سيرزقك بالمولود..

استجابت بعض النسوة لكلمات القسام، لكنّ معظمهنّ جمدن في مكانهن، وقد أغلقن قلوبهن عنها، لأن الخرافة كانت قد تمكنت منها، فالأموات عندهنّ أقدس من الأحياء، وكلمات الشيخ رغم أنها ذات نبرات قاسية، تثير الاهتمام، إلا أنهنّ ظللنّ مدفوعات برغبتهن في حلول سحرية، قد يمنحها لهنّ صاحب الضريح أياً كان..

على أن امرأة صغيرة كانت تصغي لكلمات الشيخ باهتمام، وتقلّبها في أعماقها، التفتت إلى الضريح لتمتحن إيمانها به، فأيقنت أن هذا الولي المقبور داخل الضريح، لا يمكن أن ينفع أو يضر، ووجدت أنها كانت أسيرة وهم زرعه في روحها الجائعة إلى الأطفال بعض العوام من الأصدقاء والأقرباء..

ولمّت الوشاح الذي يؤطر رأسها، لتخفي وجهها عن الشيخ، وأرادت أن تستدير لتمضي في طريقها، لكن صوت القسام داهمها فجأة، وزرع في أعماقها الرهبة والحرَج..

- أمانة ١٩٩.

توقفت مكانها دون أن تنبس. وتقدم نحوها:

- ألسنتِ أمانة.. ابنتنا التي كانت في مدرسة البرج؟

أجهشت أمانة بالبكاء، وأخفضت وجهها بكفيها.. لم تجرؤ أن تستدير لتواجه أستاذها القديم، الذي أعجبت بعلمه وفكره، واشترطت أن يكون شاهداً على عقد زواجها، وهاهو اليوم يضبطها في مكان لا يأتيه في نظر شيخها إلا الجهلة والعوام.

ورق لها الشيخ عز الدين، وسألها في فضول، وقد تأثر بدموعها، التي أوحث له بوجود مشكلة..

- ماذا تفعلين هنا يا أمنة؟..

التفتت إليه بطرف داعم، وقلب كسير..

- ادع لي يا شيخ عز الدين.

- ما الأمر؟

- مشكلتي مثل تلك المرأة، التي كلمتك قبل قليل.

- ولكنك يابنتي مازلت صغيرة.. لا تستعجلي الأمور.. اصبري

واحتمسي، وإن شاء الله ربنا يكرمك بالولد والإثنين..

أجهشت أمنة وقالت في مرارة:

- لا أريد من هذه الدنيا إلاّ طفلاً واحداً، أربيه على تقوى الله

وطاعته، ويكون عالماً ومجاهداً يدافع عن دينه وبلاده..

- إن شاء ربنا يرزقك بمن تقرّ به عينك.. لكنّي أريدك أن تكوني

أكثر قوة وصبراً، ورضى بقضاء الله.. هل ذهبت للطبيب يا بنتي؟

- ذهبت، ولكنه قال..

- ماذا قال؟

- قال بأني لن أنجب.

- أليس لديه علاج؟

-

أطرقت خجلي، ولم تنبس، فأدرك الشيخ عز الدين أن الجواب عند

شخص آخر..

- حسناً سأزور مصطفى غداً بعد صلاة العشاء.

- تُشرفنا يا أستاذ، ولكن..

- فهمت. كَأَنِّي لم أَرَكَ هنا اليوم.
- جزاك الله خيراً.
- على شرط
-
- أَلَّا تعودني أبداً إلى هذا المكان.
- إن شاء الله.
- ابسم الشيخ القسام..
- «هذه أمانة التي أعرفها».



- عندما فتح الباب فوجئ بالشيخ القسام..
- الشيخ عز الدين!.. أهلاً.. أهلاً ومرحباً..
- المعذرة.. إن كان الوقت غير مناسب..
- أهلاً بك في كل وقت.. تحضر، ويحضر واجبك.
- فقط أردت الاطمئنان عليكم..

وأسرع مصطفى يعلن عن الزائر الكريم، فاستنفر كل من في البيت لإكرامه، ورقص قلب أمنة فرحاً، يا لهذا الشيخ الذي لم يتخلّ عنها يوماً، وانهمكت في إعداد طعام العشاء، بمعية حماتها التي كانت لا تقلّ عنها احتفاء بهذه الزيارة..

قال الشيخ عز الدين بنبرة ودودة، وهو يأخذ مكانه في صدر المجلس.

- أسرتك الصغيرة يا مصطفى كانت أول مناسبة للفرح لي في حيفا، ولطالما تمنيت أن أسمع أخباركما السعيدة، لكن لا أدري ما الذي أخرني!..

لعله الكسل والتقصير.

- لم تقصر يوماً يا أستاذ.. وأسرتنا تشعر نحوك بكل الاحترام والتقدير..

وتساءل الشيخ عن الحاج سالم، فأخبره مصطفى أنه في مرج بني عامر، يتابع العمال، إذ حان موسم قطاف البرتقال.

ونبه الشيخ القسام مصطفى إلى أنه لا يريد أن يكلف الأسرة شيئاً، وتكفي حبة برتقال لإكرامه، لكن الشاب الذي كان رجل البيت في هذه اللحظة، أبى إلا أن يستبقي الشيخ لتناول طعام العشاء، فزيارته غالية جداً، وأهل الدار لم ينتظروه أصلاً حتى يكلفهم بالقيام بواجب الإكرام، فبادروا إلى ذلك منذ أن وطئت قدما الشيخ عتبة الدار..

وقدم مصطفى للشيخ ماء الورد، وجلس يتبادل معه أطراف الحديث..

- لم تخبرني يا مصطفى.. ما أخبار أسرتك الجديدة؟.. لعلها زادت فرداً الآن أو تكادا!

أطرق مصطفى كاسفاً، وراح يخضّ العصير بصمت، تهرباً من نظرات الشيخ، التي يظنّ أنها كانت تتوقع جواباً بالإيجاب، وقال متلعثماً:

- لم.. لم يكتب الله لنا الأولاد بعد.

استوعب القسام ارتباكاه..

- يحدث هذا كثيراً.. لا سيما وأنكما ما زلتما في مقتبل الشباب.

- هذا قضاء الله وقدره، ونحن راضيان.

وأشفق الشيخ على مصطفى، الذي لم يستطع أن يخفي نبرة الحزن،

التي لونت كلماته.

- لكن هذا لا يمنع من استشارة عارف أو طبيب.

قال مصطفى:

- جربنا الطبيب، لكنه قال كلاماً عجيباً.

- مثل ماذا؟.

- قال..

وصمت مصطفى.

- لا حياء في الدين، قل ولا تخف عني السبب، فقد أستطيع شيئاً..

- هو قال الإنجاب ميؤوس منه.

- والسبب؟

تهرب مصطفى من الجواب..

- أمر الله، ولا رادّ لقضائه.

تأكد لدى القسام أنه هو السبب، لكنه كان حريصاً على عدم جرح الشباب:

- أحياناً يتوقع الطبيب ما يعتقد أنه الصواب، لكن التجارب التي عشناها، تنبئ عن نسبة من الخطأ في هذه التوقعات.

انفجرت أسارير مصطفى..

- تقصد أن الطبيب يمكن أن يكون على خطأ.

- لا، ولكن في هذه اللحظة، قد يرى نقصاً أو ضعفاً ما في الزوج أو الزوجة، لكن إرادة الله غالبية.

عاث القلق في عيني مصطفى ثانية. ماذا قصد الشيخ بتلميحه إلى

ضعف عند الزوج؟!..

وطرق الباب، فخرج مصطفى يلبي، وكأنه يهرب من مواجهة حوار كاد

يقترب من هدفه. ولكن أين المفر؟..

سألوه إن كان الوقت مناسباً لوضع طعام العشاء، فأجاب، وعاد بخطئ

متناقلة، ليجلس إلى ضيفه الذي باغته بهذا الحوار.. واستقبل القسام

مصطفى بكلام حاسم..

- اسمع يا مصطفى، لقد شرع الله الزواج من أجل إحصان الشباب،

وقد تحقق هذا بفضل الله.. لكن الهدف الأهم هو الإنجاب والتكاثر،

والرسول ﷺ يقول «تكاثروا أباهي بكم الأمم».. لكنه في ذات الوقت دعا

إلى تغريب النكاح، لحكم كثيرة، لكنه لم يمنعه، وقد يكون تأخر الحمل

ناتج عن القرابة التي تجمعك بأمنة، لكن لا ينبغي لليأس أن يتطرق إليك.

قال مصطفى بنبرة فيها كثير من الرجاء:

- ادع لنا يا أستاذ، فتحن في شوق إلى الولد..

وأردف، وهو مطرق:

- لو تعلم كم تعاني أمانة من تأخر الإنجاب.
حوقل الشيخ، وقال:
- معذورة بلا ريب، كان الله في العون.
- وجدّي في كل يوم يسأل..
- جدك وحده يكفي..
- حاول أن يضحك، لكن ضحكته أتت واهنة حزينة..
- يبدو لي أنك تعاني أكثر من الجميع.
- صمت مصطفى، وبانت الحسرة في عينيه، فاقترب منه الشيخ عز الدين، ووضع يده على كتفه، يشجعه، وقال بصوت أقرب للهمس:
- ليس من الحكمة أن نعاند القدر، لنعطِ الطيب فرصته حتى يساعد، ولا يعيب الرجل أن يمتحنه المولى في شيء كان يظنه كاملاً..
- ثم وهو يربت على كفه في حنو وهدب:
- المرض أو الضعف لا علاقة له بالرجولة..
- وأضاف:
- أمانة تستحق منك هذه التضحية، والجدّ الذي ينتظر حفيده بفارغ الصبر أيضاً يستحق، والوالدة والوالد.. وبقاء هذه الأسرة النبيلة التي تعيش على ذكرى الشهيد طاهر رحمه الله أيضاً تستحق، فتوكل على الله، وستجد إن شاء الله لهذا الضيق مخرجاً.
- نزلت كلمات الشيخ عز الدين على مصطفى برداً وسلاماً.. وهمس بنبرة راضية.
- حسناً.. سأراجع الطيب غداً.
- اذهب من تلقاء نفسك، ولا تخبر أحداً..
- أرجو أن تكون العواقب سليمة..

- وعليك بالدعاء. فهو سلوى المأزوم.
 - ودخل الحاج سالم هاشماً هاشماً باشاً:
 - الأستاذ القسام هنا.. يامرحباً يا مرحباً..
 - كنت سأزعل لو لم أقابلك اليوم.
- ونودي بالعشاء، فكانت سهرة مفعمة بالأنس، وراح مصطفى يتأمل الشيخ عز الدين، وهو يحدث والده عن جهاده القديم ضد الفرنسيين، فرئت في أذنيه كلمات حبيبته آمنة، وهي تتخيل طفلها المأمول.. «أريده عالماً مجاهداً.. مثل الشيخ عز الدين القسام».

كان القسام منهمكاً في الإعداد لمسرحية حطين التي سيمثلها طلبته في مدارس البرج، وراح يوزع الأدوار على فريق التمثيل، الذي اختاره لتقديم هذه المسرحية، بمناسبة هذه المعركة التي جرت على أرض فلسطين، والتي تحل ذكراها قريباً..

- لنوزع الآن الأدوار..

هتف الطالب عبد الكريم الأسعد:

- أنا أقوم بدور صلاح الدين..

وأردف الطالب إحسان عباس.

- بل أنا أستاذ.. أنا صلاح الدين.

ابتسم الشيخ عز الدين، وهو يرى الطلبة يتهافتون على أداء دور صلاح الدين، فقد حدثهم عن بطولاته كثيراً، وهاهو يلمس مدى تفاعلهم مع هذه الشخصية..

- اسمعوني.. هدوء.. هدوء.. أنا سأقسّم الأدوار.. إبراهيم السهلي يأخذ

دور صلاح الدين. عبد الكريم الأسعد يقوم بدور نور الدين زنكي. إحسان

عباس نعطيهِ دور شيركوه عم صلاح الدين. أما الكنفاني فيقوم بدور أرناط

قائد الصليبيين. أبو غربية يقوم بدور القاضي يوسف.. ليقراً كل منكم

دوره، ويحفظه عن ظهر قلب..

ودخل عليه الشيخ علي الحاج عبید فجأة، وهو يلهث..

- ما وراءك يا شيخ علي؟

- التتوخي قرر الرحيل، وهو ينتظرك في الخارج.

- الرحيل!.

- كان يلح في طلبك، واستعجلني في الوصول إليك.
- أسرع القسام، فوجد الشيخ التوخي يقف لدى الباب..
- ما هذا الذي سمعت؟
- أردت أن أودعك..
- تودعني؟
- قررت السفر إلى دمشق، والقطار سينطلق بعد قليل.
- إلى دمشق! وبهذه السرعة؟.
- وشكّ القسام بأن التوخي إنما يريد العودة، بعدما خسر قضيته مع اليهود بشأن مزرعة عين غزال..
- لا يكون هؤلاء الظلمة سبب رحيلك عنّا..
- ذهب فكرك بعيداً، لن تكون مزرعتي المستأجرة أفضل من أراضي فلسطين التي تذهب كلّ يوم.
- فما الذي حصل؟.
- وصلنتي برقية من الأهل، تدعوني للحضور على عجل!.
- عساه خيراً؟.
- لا أدري. أرجو من الله أن تكون العواقب سليمة.
- وتعانق الصديقان..
- هل ودعت الشيخ كامل؟
- مررت عليه قبل قليل وودعته.
- لا تنسانا من الأخبار.
- وأنت لا تنسانا من الدعاء.
- سأفتقدك في هذه الغربة..
- ضحك التوخي:

- عن أي غربة تتحدث.. ما شاء الله.. صرت واحداً من أهل حيفا،
في كل يوم تكسب صديقاً أو مريداً، ويشير الناس إليك بالبنان.
ضحك القسام :
- هذا أنت، مولع بالمبالغات..
- بل أنت المولع بالناس.. تألف وتؤلف، وتجمع الناس حولك أينما
ذهبت.
- المهم أرسل لي رسالة حالما تصل.. أريد أن أعرف أخبار دمشق،
وخططكم هناك.
- أراد التنوخي أن يعده، لكن غصة الوداع حبست لسانه، فعانقه القسام
وضمه بقوة، وعيناه مغرورقتان.
- سأشتاق إليك يا تنوخي.
- الله يكرمك، ونجتمع بك في الشام عما قريب..
- انتبه لنفسك.
- قال عزالدين التنوخي، وهو يمسك بصاحبه من كلا ذراعيه، ويرمقه
في ودّ شابه الكثير من القلق:
- بل أنت الذي يجب أن تنتبه لنفسك.. اقتصد في الحركة والنشاط،
وتذكر دائماً لؤم الإنجليز وكيدهم، وإنني لأراك تخطط لشيء أخشى أنك
قد أوغلت فيه، فتريث، وسدد وقارب، وارم عندما تكون واثقاً.. لا أستطيع
أن أقول لك أكثر من هذا.
- وودع القسام صديقه القديم بعينين دامعتين، وهو يغبطه لأنه عائد إلى
تلك الأرض التي حرم منها، وأوجعه إليها الحنين..

كان جدول أعمال الجمعية مخصصاً هذا اليوم لمشروع المسجد الجديد، لكن خيراً داهماً شغل الحاضرين عما اجتمعوا من أجله.. فقد بدأت الأنباء تَرِد عن قرار كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة، ودب الهلع في القلوب، وأوجس الناس شراً مستطيراً..

وقال الشيخ محمد مراد:

- للأسف كانت الخلافة في حكم الميت، بعدما سيطر عليها القوميون، وهزمتها جيوش الحلفاء.. ولم يبق إلا الإعلان عن الوفاة، وهاهو يأتينا في أحلك الظروف..

قال الأستاذ رشيد:

- الخلافة كانت آخر الخيوط التي تربط فلسطين بكيان جامع، لاسيما بعد أن انقطع الخيط السوري، الذي كان يربطها بسورية الكبرى، وأخشى ما أخشاه أن يستمر مشروع الوطن القومي اليهودي، ليحول فلسطين إلى مستعمرة يهودية كبيرة!

وترحم الشيخ عز الدين على السلطان عبد الحميد، الذي رفض أن يبيع فلسطين لليهود.. وتابع يقول:

- نال اليهود أخيراً من عبد الحميد، وقوضوا الخلافة التي حاول أن ينهض بها.. وما أرادوا أن يرشوه به ليعطيهم فلسطين، اشتروا به وعداً من أعدائه بوطن فيها.. إنهم شياطين العصر الجديد..

وعودة إلى موضوع الاجتماع، قال الشيخ محمد مراد:

- دعونا الآن نقرر في شأن المسجد الجديد.

وأردف يقول:

- لدينا مشكلة في تأمين المال الكافي، والبناء مكلف، فأشيروا علينا..
قال الأستاذ رشيد:
- بناء المسجد في السوق سيكون مفيداً وحيوياً لحيفا التحنا كلها، ولكنه سيكلف حسب رأي المهندس أكثر مما جمعنا، ويجب أن نجمع له ما يكفيه..
قال الشيخ عز الدين القسام:
- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نبني دكاكين تجارية تحت المسجد، تكون أوقافاً تدر عليه المال، وتساعد في سد المصاريف، وهي ستغري التجار بشرائها قبل أن تقام، فيتوفر لنا مبلغ يساعدنا على النهوض بالمشروع بالسرعة المطلوبة..
- تبادل الجميع نظرة استحسان، وتناول الشيخ كامل القصاب مخطط المسجد، وراح يتأمل فيه بعين لا تنقصها الخبرة..
- في تقديري أن مساحة الأرض المخصصة للمسجد، تسمح لنا ببناء أربعة عشر مخزناً ودكاناً تحت المسجد، ويمكن أن يكون للدكان أو المخزن سعر معقول..
- سأل الشيخ محمد أفندي مراد الشيخ خليل طه:
- كم جمعتم حتى الآن يا شيخ خليل؟
- أربعة آلاف جنيه تقريباً..
- على بركة الله.. سأكتب للشيخ أمين الحسيني ليعطينا موافقة المجلس الإسلامي الأعلى، وبعدها نبدأ على بركة الله.
- وماذا تقترحون تسمية المسجد؟
- صمتوا يتفكرون، ولم يلبث الشيخ القسام أن تقدم باقتراح جاء بغتةً وذهب مثلاً:
- نسمة جامع الاستقلال.

- الاستقلال؟..
- ولماذا سميته الاستقلال؟
- رد الشيخ عز الدين على التساؤل بسؤال:
- أليس هذا ما نحتاجه اليوم؟
- قال الأستاذ رشيد، وقد مالت نفسه للاقتراح:
- اسم الاستقلال موفق وذكي، وسيعجب أهل حيفا.
- وأضاف الشيخ محمد مراد:
- إذا أجمعتم على الاسم فلا مانع، المهم أن نرسل الآن لسماحة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس، وإن كنت أظن أن الشيخ أمين ليس من أنصار إلحاق الدكاكين والمخازن بالمساجد..
- أبدى الشيخ عز الدين بعض القلق:
- بدون الدكاكين والأوقاف، سنأخذ وقتاً في إيجاد التمويل المطلوب، والحال كما تقولون!
- أنا أتكلم عن احتمال أتوقعه من معرفتي بالشيخ أمين، ولكننا حينذاك سنعتذر منه برفق، ونستقل برأينا.
- ثم أردف مستدركاً، وهو يضحك:
- ألم تسمّه جامع الاستقلال؟؟



- أيها الناس.. اسمحوا لي أن أحدثكم عن حدث سيكون له مابعده.. لقد كانت للمسلمين خلافة تجمعهم.. صحيح أنها كانت ضعيفة، لكن كان يمكن أن تنهض، أو كان من الممكن أن يقبض الله لها زعامة جديدة تقودها إلى خير.. لكن ماحدث اليوم جد خطير، لم يحدث من قبل، منذ أن بدأت هذه الخلافة على يد أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ وإلى يومنا هذا.. لقد انفرط عقد الجامعة الإسلامية في وقتٍ هو الأسوأ في حياة هذه الأمة.. وقتٍ اعترأها فيه الضعف والهوان، وتكالتبت عليها الأمم.. وهاهي بريطانيا وفرنسا تتجرأ علينا، وترمي بنا بداء الصهيونية، التي تشجع اليهود على الهجرة من كل حذب وصوب، ليقيموا وطنهم رويداً رويداً.. ونحن نائمون..

واستغرق الشيخ عز الدين في كلمته التي ألقاها هذا العصر في جامع الجرينة، والناس مشدودون إليه، يصغون بقلق واهتمام، وكان أثناء حديثه يستعرض الوجوه، ليختبر وقع كلماته، فلفت نظره ذلك الانفعال الذي علا وجه شاب لم يخطئه.. شاب يلاحقه من مسجد إلى مسجد ومن درس إلى درس، ويصغي إليه باهتمام، ثم ينسحب بعد كل صلاة مسرعاً..

وعندما انتهى الدرس تحرك هذا الشاب نحوه لأول مرة، اقترب منه في هدوء، وصافحه بيد قوية، ووجه حزين، وداهمه بالسؤال:

- من سيقف في وجه بريطانيا العظمى بعد اليوم؟..
تأثر الشيخ عز الدين.. لعل الشاب كان يعول على خلافة يرجو أن تنهض، لتأخذ دورها في وجه الطغيان الجديد.. لعله كان ينتظر أن يدعو

- الخليفة لجهاد مقدس، يزلزل الأرض تحت جحافل الصليبيين الجدد،
الذين عادوا أكثر حقدًا وقوة.. وربت على منكبه العريض..
- هذا حديث طويل يا أخي.. نتكلم فيه يوماً إن شاء الله!
- قال الشاب بنبرة متلهفة، وسمت رصين:
- ليتك تشرفني في دكاني لو اتسع وقتك، فأنا تواق لهذا الحديث.
- دكانك؟
- دكان صغير لا يبعد كثيراً عن المسجد، أبيع فيه الصوف وأكياس
الخيث، تكرمني لو شرفنتني فيه.
- بكل سرور، لكني لم أتعرف على الاسم الكريم؟
- خليل محمد عيسى.. أبو إبراهيم.



قال أبو إبراهيم وهو يرحب بالشيخ:

- أنا فلاح من قرية المزرعة الشرقية في رام الله، شاءت الأقدار أن أعمل فلاحاً هنا في حيفا في شفا عمرو، كنت أنزل إلى الحسبة كل يوم لبيع الخضروات التي كنت أجنيها، فتعرفت على السوق وأهله، وأحببت هذه البلدة، وانتبعت إلى حاجة السوق لأكياس الخيش، فقررت أن أعمل في هذه التجارة، وقد وفقني الله فيها، فحرصت عليها، لا أعادها إلا للصلاة أو لسماع درس علم، وبالذات دروس شيخنا عز الدين القسام.

همس الشيخ في تواضع:

- بارك الله فيك. وبارك لك في رزقك وتجارتك.
- والله يا شيخني لا أقول هذا الكلام في وجهك، بل هي الحقيقة.
- ولماذا دروسي؟..
- لأنك الشيخ الوحيد في حيفا، الذي يتحدث بما يهمّ الناس ويشغلهم، ويشير إلى هؤلاء الأوغاد الإنجليز الذين عاثوا في فلسطين فساداً وقهراً.

- ولهذا تسأل من سيقف في وجه الإنجليز؟.
- لا أخفيك. كنت أظن أن بريطانيا العظمى لا تهزمها إلا دولة عظمى كتركيا، ولكن الترك فرطوا بالخلافة، وتركونا وحيدين في وجه هذا الغزو، الذي زاده الصهاينة خطورة وتعقيداً..

ونفت أبو إبراهيم آهة تنمّ عما يعتل في صدره من حرقة على البلاد، فأدرك القسام أنه أمام رجل نبيل، يشاركه نفس الهمّ ونفس الانفعال بقضايا أمة يعشقها، قال مواسياً:

- يا أخ خليل.. لقد بدأ رسول الله وحيداً، فصبرَ وصدق، فالتف الناس حوله، وبعد وفاته بسنوات استطاع صحابته أن يزلزلوا أكبر امبراطوريتين كانتا تحكمان العالم، لأنهم صدقوا وثابروا، فأنجزوا النصر الذي رفلنا به قروناً، حتى جاء هذا الأتاتورك ومن وراءه من يهود الدونمة وغلاة الترك، فسرقوه منا، ونحن ليس لنا إلا أن نمضي على ذات الطريق، فنصبر ونصدق ماعاهدنا الله عليه، فمن مات ممّ دون هذا ذهب إلى ربه شهيداً، ومن بقي يمضي على ذات السبيل، حتى يعيد لهذه الأمة مجدها القديم.

سأل أبو إبراهيم على الفور:

- ومن أين نبدأ؟

- تبدأ بنفسك، وأبدأ بنفسي، ثم نضم الكف للكف، حتى نشكل سداً في وجه هذا الانهيار، لا حل إلا بالعودة إلى الله، والتعاون على الخير، وتوحيد الهدف.. ولا أجد طريقاً غيره.

تحمس أبو إبراهيم.. وجد أخيراً من يفكر بما يراوده، فراح يبث الشيخ

بعض خواطره:

- كلامك جميل ومريح، لكنني يا شيخنا أتطلع لشيء أفعله، أحياناً تحدثني نفسي بالجهاد، فأنوي أن أشتري بندقية، أنقض بها على دورية من دوريات الإنجليز، فأبيدها عن آخرها، لكنني أفكر بأن يداً واحدة لا تصفق، فأتراجع عن خطتي تلك، وأكتفي بالمراقبة وانتظار فرصة جديدة، هل أنا

على حق يا شيخ عز الدين؟

نظر إليه في إكبار:

- كل الحق.

- تقصد؟

- أنت قلتها.. يد واحدة لا تصفق.
تهللت أسارير أبو إبراهيم، فنهض من مجلسه وجلس قرب الشيخ، ومد يده في حماس:
- اعتبرني جندياً معك يا شيخ عز الدين.
فوجئ الشيخ بهذا الحماس. مد يده يتلقف يد الشاب، وقد اغرورقت عيناه..

لم تعد مدارس البرج كما كانت عندما دخلها أول مرة.. فقد أرهقت مصاريفها الباهظة الجمعية الإسلامية، فناءت بحملها، وكانت أمام خيارين، إما أن تتراجع عن مستواها وأدائها المميز بسبب نقص التبرعات، أو تحيل إدارتها إلى مستثمر يستطيع أن يبحر بها في هذه الظروف المادية الصعبة.. ووقع الاختيار على رجل يجمع بين خبرتي التعليم والتجارة، فكان الشيخ كامل القصاب العالم والمُرَبِّي، الذي اشترط أن تفصل الجمعية بين التعليم وبين العمل الخيري، فمن أراد أن يعلم أبنائه في هذه المدرسة، عليه أن يدفع كلفة التعليم، ولم يكن الشيخ عز الدين سعيداً بمنطق صديقه القصاب، فأبدى اعتراضه بوضوح:

- ميزة مدارس البرج الإسلامية أنها مفتوحة للغني والفقير، فلماذا نحرم غير القادر من نفس الفرصة المتاحة للمقتدر؟.

أجاب القصاب بنبرة هادئة، ومنطق واثق:

- هذه سنة الكون يا شيخ عز الدين.. افرض أنك فتحت محلاً لتجارة الذهب أو السجاد، فهل تبذل بضاعتك لمن ليس لديه مال؟.

- لا أستطيع أن أقبل هذه المقارنة بين مدرسة ودكان!.

- الأمر ليس على هذا الوجه.. أردت أن أقول أن المدرسة في أحد

وجوهها خدمة لها ثمن، فإذا استثنينا كلفة البناء الذي أنجز، فنحن بحاجة لمال يغطي كلفة صيانتها، وإلى ثمن الكتب والمستلزمات ورواتب الأساتذة

والموظفين.. إلى آخر ما هنالك من مصاريف.. وإذا لم نحصل دخلاً يغطي

هذه المصاريف ويزيد عليها، فستواجه المدرسة خسارة محققة، وهذا

سينعكس حتماً على مستواها وأدائها التعليمي..

أيد الشيخ محمد مراد كلام الشيخ كامل، بينما ظلّ الشيخ عز الدين حائراً بين منطق لا يستطيع أن يردّه، ورسالة لا يجوز أن تخضع لقوانين الربح والخسارة. وقال في محاولة أخيرة لإقناعهم:

- لماذا لا نكثف جهودنا لدى أهل الخير والمحسنين ليمولوا المدرسة، ويغطوا عجزها، وتظل مفتوحة للجميع؟
أكد الشيخ مراد:

- لقد بذلنا أقصى ما في وسعنا يا شيخ عز الدين، ولم نحصل على ما يكفي..

وأيده الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم..

- التجار يا شيخ عز الدين بدؤوا يَشْكُون من تدهور الأحوال وركود الأسواق، لا سيما بعد مزاحمة التجار اليهود لهم، ولا نملك أن نضغط عليهم أكثر.

قال الشيخ عز الدين بنبرة يائسة:

- قد يكون الشيخ كامل على حق، لا سيما وأنه يضع أمواله مستثمراً في التعليم، لكنّي لا أجد نفسي مرتاحاً للتعليم في مدرسة ستصبح عمّا قريب حكراً على القادرين، فاعذروني إن تركت التدريس في هذه المدرسة التي أحببت.

والتقط الشيخ محمد مراد رغبة الشيخ القسام في الاستقالة..

- والله يا شيخ عز الدين نحن في حاجة إليك في ما هو أهم.

التفت الشيخ القسام إليه بنظرة تفيض بالتساؤل، فتابع يقول:

- تذكر أنا بدأنا منذ عام مشروع مسجد الاستقلال، وقد شارف الجزء الرئيسي منه على الانتهاء، وقد فكرنا فيمن يتولى إمامة وخطابة هذا المسجد، فلم نجد من هو أفضل منك ليقوم بهذا العبء، فأنت خير

- من يقوم بهذه المهمة، وخير من نأتمنه عليها..
- كان الاقتراح مبالغاً، لكنه جاء في الوقت المناسب، فقد توسعت دعوة الشيخ القسام، وصار بحاجة إلى منبر..
- هذا شرف كبير لي يا شيخ محمد، وثقة أعترز بها.. ولكن..
- وتأمل في وجوه الأعضاء المجتمعين يستطلع رأيهم، فرغم كل ما تطور إليه وضعه في حيفا، ظل حريصاً على أخلاق الضيف، الذي لا يجوز أن يفرض نفسه على مضيفيه..
- وعلق الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم، وقد حدس بمراد الشيخ:
- اطمئن يا شيخ عز الدين.. لقد تداولنا في هذا الأمر منذ مدة، وهو محل إجماع بيننا.
- شعر الشيخ عز الدين بالارتياح، فالمسجد هو المكان المناسب الذي يستوعب حركته، ويسمح له باستكمال مشروعه.. وانهمكوا في التفاصيل..
- وفجأة دخل عليهم الشيخ حنفي، وهو يلهث..
- ممكن لحظة يا شيخ عز الدين!.
- مالك يا شيخ حنفي. قل بسرعة..
- ثمة إشارة جاءت إلى بوليس حيفا بشأنك!..
- بشأني أنا؟
- يقولون أنك محكوم بالإعدام في سوريا، وقد طلبت فرنسا من الإنجليز تسليمك إليها.

كان التحقيق روتينياً، تم أخذ أقوال الشيخ عز الدين حول سبب مجيئه إلى حيفا، ودوره الذي كان يقوم به ضد الجيش الفرنسي في سوريا، وإذا ما كان يقوم بأي نشاط معادٍ لفرنسا في ظل الانتداب البريطاني في فلسطين؟. وكان كلام الشيخ صريحاً ومقتضباً. نفى القيام بأية نشاطات ضد الفرنسيين في الوقت الحالي، لكن الضابط الإنجليزي الذي كان يستجوبه بحضور مترجم، عقّب على هذه النقطة بنبرة باردة، وهو يضغط على مخارج الحروف:

- في الوقت الحالي. وفي المستقبل.

صمت القسام، ولم ينبس.

تابع الضابط، وهو يسدد لعيني القسام نظرة خبث، استوعبها الشيخ

بصمت وهدوء:

- بما في ذلك عدم إرسال الأسلحة إلى عصابات المتمردين في

سوريا، التي تحارب فرنسا على الأرض السورية.

وتابع بلهجة فيها نوع من الوعيد:

- أظن أن كلامي واضح ياشيخ.

تدخل الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم الذي أصرّ على مرافقة القسام

كمحام، وكعضو ممثل للجمعية الإسلامية التي يعمل الشيخ لديها:

- أحب أن أوضح أن الشيخ عالم دين، متفرغ لنشاطه الوعظي

والتعليمي، ولا يقوم بأيّ نشاطات من شأنها أن تخرج سلطات الانتداب أمام

الفرنسيين، وهو يتعاون مع الجمعية الإسلامية في حيفا في شؤون التعليم

والوعظ الديني، وهو حق مكفول لكل مسلم في هذه البلاد.

هزّ الضابط البريطاني رأسه بشيء من عدم الارتياح، قال منهيّاً
الحديث:

- سوف نعتبر هذا الكلام تعهداً بالالتزام التام بالهدوء، ومراعاة
العلاقات الحساسة التي تربط بين بريطانيا العظمى والحكومة الفرنسية.
صمت الشيخ عز الدين، ولم يعلق.. هز الضابط رأسه في غيظ، قال
للأستاذ رشيد:

- يستطيع الشيخ الانصراف الآن.
ومضى الشيخ عز الدين بصحبة الأستاذ رشيد، فألقى جمعاً من محبيه
في الخارج، ينتظرونه للاطمئنان عليه..
وحمد الشيخ علي الحاج عبيد الله على سلامة أستاذه، بينما أقبل
الشيخ حنفي عليه يعانقه:

- واللّه خفت أن يفعلها الإنجليز، فيسلموك للفرنسيين.
- لكلّ أجلٍ كتاب يا شيخ عارف.. أرجو أنّ الأمور تقف عند هذا الحد.
ثم وهو يلتفت للأستاذ رشيد:
- الشكر للأستاذ رشيد، فقد قام بدور محام بارع..
ابتسم الأستاذ رشيد. قال هو يضع يده على كتف الشيخ:
- من حسن حظك أن العلاقة بين حكومتي بريطانيا وفرنسا ليست
على ما يرام هذه الأيام.

وتساءل الشيخ القصاب الذي التحق بالمجموعة للتو:

- خبرونا يا جماعة ؟ كيف جرت الأمور؟
 - على خير إن شاء الله.
 - وما هو نوع الأسئلة التي وجهوها لك يا شيخ عز الدين؟
- أجاب الأستاذ رشيد:

- أسئلة روتينية لا تتجاوز التعرف عن قرب على الشيخ، وعلى نشاطه المعادي لفرنسا في حيفا.
- لكنه استدعاء يثير الريبة!
- هذا وضع طبيعي في بلاد تحت الانتداب.
- وقال الأستاذ رشيد محذراً:
- المهم أن تنتبهوا إلى خطواتكم في فلسطين، فالإنجليز حريصون على متابعة كل شاردة وواردة.
- كان الأستاذ رشيد يتحدث عن خبرة، فبعد أن انتهى التحقيق، كان الضابط الإنجليزي قد ذيل محضر التحقيق مع الشيخ القسام بالملاحظة التالية:

«سري جداً»

يوضع الشيخ عز الدين القسام تحت المراقبة لمدة شهر، وترصد تحركاته بدقة، كما يتم التحري عن نشاطات زميله رشيد الحاج إبراهيم، إذ أنه حسب معلوماتي: مصنف ضمن «المجموعة الرديئة» التي تضرر العداء لحكومة الانتداب، وتوجهاتها السياسية في فلسطين.

«صورة إلى قلم المخابرات».

كانت دعوة على الغداء ضمّت الشيخ حنفي والشيخ علي وابني أخيه ظافر وعبد المالك القسام، وشكر الشيخ علي الشيخ عز الدين على أكلة الصيادية، التي ذكرته بأكلات جبلة، وهيجت أشواقه للأهل، بينما قال الشيخ حنفي، وهو يختبر حاسة شمه:

- إذا لم يخطئ أنفي، فسوف نذوق بعد الصيادية طبقاً من الكنافة الجبلاوية.
ضحكوا لدعابة الشيخ حنفي، ونهره الشيخ علي مؤنباً:
- لا تخرج الشيخ. ماذا لو كانت حاسة الشم عندك مصابة بالخرف؟
- نكون قد وصينا على الكنافة للوليمة القادمة.
ضحكوا ثانية..

ولم يلبث الشيخ عز الدين أن غاب، وعاد بصينية الكنافة الساخنة، التي فاحت رائحتها الشهية في الغرفة..
قال الشيخ عز الدين، وهو يدعوهم:

- تكرم يا شيخ حنفي. اطلب وتمنى، فأنت اليوم في ضيافة أم محمد، التي صمّمت أن تذكركم ببلدتكم، وأخذت على عاتقها أن تطبخ لكم كل ما تشتهونه من الأكلات التي حرمت منها في غربتكم.

رفع الشيخ حنفي يديه يدعو لها، بينما قال ظافر معاتباً:
- تدعو لزوجتي عمي التي طبخت لك الصيادية، ولا تدعو لمن ذهب إلى شاطئ العزيزية في الصباح الباكر، واصطاد لك سمكات الصيادية.
وعقب الشيخ علي:

- المهم الآن، أننا تأكّدنا من أنّ حاسة الشم عند الشيخ حنفي

ما زالت بخير..

رد الشيخ حنفي، وهو يتلذذ بطعم الكنافة اللذيذ:

- تحدثني نفسي أن أنضم إلى دروس محو الأمية التي يديرها الشيخ عز الدين في هذه الغرفة، لأستمع بروائح الطبخ الجبلابي كل يوم..

قال الشيخ عز الدين، وهو سعيد بهذا الجو المرح، الذي شمل الجلسة:
- إن شاء الله نزوجكم عما قريب، فتأكلون من أيدي زوجاتكم كل ما تشتهون.

قال الشيخ حنفي، وهو يميل إلى الجد:

- دعوكم من المرح يا جماعة، فأنا فعلاً أستمع بكل طعم أو رائحة تذكرنى بمدينة جبلة.. وطبخ أم محمد ذكّرني اليوم بطبخ والدتي التي..
وغص بالكلام.. وأراد أن يكمل، لكنه راح في بكاء صامت لم يستطع أن يكبّحه..

شدّ الشيخ عز الدين على كتفه..

- احتسبها عند الله يا شيخ عارف. حتى دموع الشوق للأحبة لها ثواب في حياة مجاهد.

وتساءل عبد المالك القسام:

- أظنهم ينوون تسليمك للفرنسيين يا عماء؟

- الله أعلم، لكنني قلق من خطوتهم الأخيرة، وأخشى أن يعيقوا حركتي في حيفا..

تبادلوا نظرة قلقة، وهمس ظافر:

- هل لاحظت شيئاً؟

- أشعر بأن أحداً يتبعني أنني ذهبت، وهذا مربك، ولو أنهم في هذه المرحلة لن يصلوا لشيء، لكنني أخشى أن يدوم هذا الوضع طويلاً..

وساد صمت وترقب:

- وبعد..

- نتعاون في رصد هؤلاء الأعوان حتى نتجنبهم، ونخفف من لقاءاتنا في الوقت الحاضر، حتى لا نعطيهم الذريعة باتهام السوريين في حيفا بأنهم يدبّرون شيئاً..

- لكن..

- دعوا الشيخ حنفي يتصل بي في هذه المرحلة وعند الضرورة، وكلما سنحت لكم الفرصة لرصد حركتي وشاهدتم شيئاً مريباً، أخبروا به الشيخ حنفي، وهو سينبهني..

صمتوا جميعاً تحت وطأة القلق، قدرهم يلاحقهم، والآن عليهم أن يحترسوا من مكر الإنجليز، بعدما نجوا من بطش فرنسا.

انهمك الشيخ عز الدين القسام في متابعة بناء مسجد الاستقلال، وهو سعيدٌ بهذا المشروع، يشعر بالامتنان للجمعية الإسلامية ورئيسها الشيخ محمد مراد الذي أوكل إليه هذه المهمة.. وأوشكت أعمال البناء على الانتهاء، فبدأ الشيخ يحضّر لفرش المسجد، وتهيئته للافتتاح واستقبال المصلين..

ومضى الشيخ عز الدين بصحبة الشيخ محمد حنفي يتجولان في سوق الشوام، للاتفاق مع أحد تجار السجاد من أجل فرش مسجد الاستقلال، واستبد بهم الجوع، فتذكر القسام محل «فلافل الكفرسوساني» الذي زاره يوماً مع ابن أخيه ظافر..

- أعرف محلاً هنا يبيع الفلافل، صاحبه شاب طيب من دمشق.
- أين؟
- أغلب الظن كان هنا، قرب سبيل الماء..
- لعله هذا المطعم!.
- وتأمل القسام يافطة المحل.. «مطعم لبنان الشام».
- لكن لم يكن هذا اسمه!..
- المهم فيه ما يسدّ الجوع..
- واستقبلهم صاحب المحل بالترحيب..
- إذا لم أخطئ، فحضرتك الشيخ عز الدين القسام؟..
- حياه الشيخ بإيماءة..
- حضرت لك بعض الدروس في جامع الجرينة.. ماشاء الله.. كلماتك كانت مؤثرة جداً..

سُرَّ الشيخ بهذا الاستقبال. وشكر صاحب المحل على مجاملته المبالغتة، وقد تأكد الآن أنه غير ذاك الرجل الذي قابله من قبل!. قال وهو يحك جبهته متفكراً:

- كان في المطعم أخ آخر يدعى.. قاطعه صاحب المحل.
- ممدوح الكفرسوساني.. أنت على حق، فقد اشتريته منه بعد أن اضطر للعودة إلى الشام.
- تقول اضطر؟.
- الله يعينه. جاءه خبر استشهاد أخيه في معارك الغوطة ضد الفرنسيين، وترك له كوم لحم، سبعة أولاد وأمهم، فحزن عليه كثيراً، وقرر أن ينزل إلى الشام، ليقوم بواجب الأسرة التي تيتمت.
- أشاع الخبر في نفس القسام حزناً وكدرأً..
- أعانه الله، ورحم أخاه..
- وتوجها إلى الطاولة التي دعاها صاحب المحل إليها، قال الشيخ حنفي، وهو يلقي بجسده فوق كرسي القش.
- هذا يعني أن الثورة في الشام تشتدّ..
- الله ينصرهم.
- قال الشيخ عزّ الدين بنبرة تشي بالفخر:
- هذه الشام. أم كنت تتوقع أن تصمت على الذل والضييم؟
- ردّ الشيخ حنفي:
- والله نفسي تحدثني أن نتوجه إلى دمشق، ولنلتحق بالثورة هناك.
- هز الشيخ القسام رأسه، وقال في مرارة:
- الفرنسيون طفوا وتجبروا، أرجو أنّ ساعتهم قد اقتربت.

علق صاحب المطعم، وهو يقدم لهما اللبن العيران:
 - صدقتَ يا شيخنا، لقد طغت فرنسا وتجبرت، وليس لها إلا الحديد
 والنار..

واستدرك يسأل:

- ما رأيكما بالفول المدمس على الطريقة اللبنانية..
 رحبا بالعرض، دون أن ينسى الشيخ حنفي التأكيد على البصل
 والمخلل، بينما سأله الشيخ عز الدين:
 - من أين الأخ في لبنان؟
 - محسوبكم جمال الصلح.. من بيروت.
 - أنعم وأكرم.. ونحن من جبلة، وهذا أخي الشيخ حنفي.. شريك
 الهجرة والغربة.

- بل قل مريد الشيخ وخادمه، ويكفيني هذا شرفاً..
 هزّ القسام رأسه متوعداً. وقال للبائع:
 - هذا هو منذ أن عرفته.. مجامل و ودود.
 وانطلق جمال يحضّر الطعام بحماس، بينما قال الشيخ الحنفي، وهو
 يرشّف من اللبن الشهي:

- ألاحظت شيئاً على بائع السجاد قبل الأخير؟..
 - شيء؟! مثل ماذا؟.
 - أغلب الظن أنه يهودي من يهود الشام!
 - ما أدراك؟.
 - كنيته ليست غريبة، أذكر تاجر قماش يهودي من الشام، له نفس
 الكنية، كان يزور جبلة ويبيع القماش لأهلها..

وسأل الشيخ عز الدين صاحب المطعم حين عاد بالطعام:

- هل تعرف من هو صاحب محلات «بنبهجي» لبيع السجاد؟
سحب جمال الصلح كرسياً وجلس، وهو يضحك ضحكة لا تخلو من
دعابة..

- تقصد محلات يوسف بنبهجي..

- اسمه يوسف؟

- أجل.. يهودي من الشام، ويعمل في حيفا..

هتف الشيخ حنفي..

- آخر ما يتوقعه المرء!. يهودي يمدّ مسجد الاستقلال بالسجاد..

الحمد لله أنا اتفقنا مع تاجر غيره.

ثم وهو يتوجه لجمال..

- كدنا نشترى من عنده سجاد للمسجد الذي يشرف الشيخ على بنائه..

- تقصد المسجد الجديد، الذي يبنى في حيفا التحتا؟..

- أجل.. مسجد الاستقلال.

ولم يرتح الشيخ القسام لمنحى الحديث:

- على مهلكم يا جماعة..

ثم وهو يتوجه لصاحب المحل:

- اسمع يا أخ جمال.. هل يوسف هذا جاء مع المهاجرين - إياهم - ويقيم

معهم في مستعمراتهم؟

- لا، لا. إنه تاجر من الشام، أبوه تاجر كبير، لكنه مات وخلف

ثروته لسبعة أولاد، كل واحد منهم تمسك بالاسم لشهرته، ففتح محل

سماه «سجاد البنبهجي»، فضاربوا على بعضهم، أما يوسف فقد اختار أن

ينقل تجارته إلى فلسطين، لينأى بنفسه عن هذه المنافسة.. هذا ما فهمته

منه، فهو يأكل عندي بين الحين والحين..

قال الشيخ عز الدين، يضع النقاط على الحروف:

- اسمعوا يا جماعة.. بما أنه من يهود بلادنا، فنحترمه، ونحترم حقوقه، ولا نمسه بكلمة.. ما لم ينضم إلى هؤلاء الغرباء القادمين تحت حماية الإنجليز، ليقموا وطن اليهود المزعوم.. هذا منهج الإسلام الحنيف في تعامله مع الأديان الأخرى، لا سيما أهل الكتاب، يجب أن ننتبه - الله يرضى عليكم - إلى حدود الله، فلا نتجاوزها.

هز الشيخ حنفي رأسه ملتزماً بما وجه له شيخه..

واكتملت المائدة، فدعاها جمال لتناول الطعام. ولكنه انتبه إلى

شيء..

ثمة رجل كان ينظر إلى المطعم من خلف الزجاج، ظنه جمال في البداية أنه مجرد زبون، لكنه لاحظ أن الرجل كان ينظر باتجاه الشيخ عز الدين، وما لبث أن دخل، واختار كرسيًا مجاوراً للطاولة التي يجلس عليها، وبدت نظراته قلقة، وملامحه متجهمة، ووجهه غير مريح، وحَدَسَ جمال بما يدعو للريبة!

وافتل جمال ترحيباً صاخباً بالضيف.. عله ينبه الشيخ وصاحبه.

- تفضل يا أخ.. ماذا تحب أن تأكل؟

- أي شيء..

- لدينا فول.. حمص.. فته.. فلافل؟

- فول. هات صحن فول.

والتفت الرجلان للزائر الغامض، لكن لم يكثرثا به، فتأكد جمال من أنهما لا يعرفانه من قبل، فغاب قليلاً، ثم عاد بصحن الفول، ليضعه أمام الرجل.. فلاحظ محاولات واضحة منه لإمالة أذنه نحو الشيخ.. كمن يتقصد التقاط ما يدور!..

- وقرر جمال أن ينبه الشيخين إلى ما يجري. فوقف وظهره للضيف، وعينه في عين الشيخ حنفي، وهو يشير بإبهامه سراً للخلف..
- كيف وجدتم طعامنا يا جماعة؟
- شكره الشيخ عز الدين، بينما انشغل الشيخ حنفي بمراقبة الرجل، وقد أدرك مراد صاحب المطعم.
- ونهض الشيخ حنفي فجأة.
- هل ننطلق يا شيخ عز الدين؟
- ما لك مستعجل؟.. لم تكمل صحنك بعدا..
- قال الشيخ حنفي، وهو يشير بطرفه للطاولة القريبة..
- المطعم صغير، ولا نريد أن نعطل رزق الأخ جمال.
- التفت الشيخ عز الدين، فأدرك الموقف..
- لا بأس أكمل طعامك، ثم نمضي..
- وران صمت، قطعته الشيخ، وهو ينهض بعد قليل..
- الحمد لله رب العالمين..
- وتقد جمال ثمن الطعام..
- هذه المرة على حسابنا
- هز الشيخ يده بالنقود في إصرار
- لم تقصر. بارك الله لك في رزقك.
- ولم يكد الشيخ يمضي، حتى فوجئ جمال بالرجل الغامض يقطع طعامه، ويخرج النقود على عجل، فيلقبها أمامه، ثم يسعى خلف الرجلين!..

كان الشيخ عزّ الدين يشرف على تنظيف مسجد الاستقلال، وتهيئته لمدّ السجّاد، عندما دخل جمال فجأة، وألقى تحية السلام.
خفّ الشيخ حنفي للترحيب بالزائر، بينما وقف الشيخ عز الدين مندهشاً لهذه الزيارة غير المتوقعة..

قال جمال الصلح، وهو يجلس إلى الشيخ وصاحبه..
- ثمة أمر يجب أن تعرفه يا شيخ عز الدين!
- تفضّل

تلقت حوله في حذر، فرأى بقية الرجال منهمكين بالشطف والتنظيف، لكن المسجد كان فارغاً، وأي كلمة تقال يتردد صداها في فضاء المكان، فأدرك الشيخ أن لديه شيء يتحفظ على البوح به أمام من لا يعرف.
- لا تقلق.. المكان آمن.

شعر جمال بالارتياح.
- لا بد أنكما تذكران ذلك الرجل، الذي نبهتكما إليه، وهو يسترق السمع لحديثكما في المطعم ظهر أمس.
- وبعد..

- بعد أن غادرتما المحل، تحرك الرجل خلفكما على الفور، فتركت المحل ومضيت خلفه.. ظلّ خلفكما حتى وصلتما إلى المسجد، ثم توجه إلى مركز البوليس. إنه مخبر بلا جدال.

شكره الشيخ القسام على اهتمامه، وتضحيته بعمله من أجلهما، بينما قال الشيخ حنفي:

- يراقبون الشيخ منذ مدة.. يظنّون أنه يعمل من هنا ضد فرنسا..

- كان مريباً منذ البداية.. حتى أنه لم يكن أكمل صحنه، عندما أسرع بالخروج خلفكما.

تنهد الشيخ..

- يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.. لو كان هناك ما يمكن أن أفعله لسوريا، لما حسبت لهم حساباً، لكننا في هذه الساعة لا نملك إلا الكلمات.. ندعو لإخواننا المجاهدين هناك، ونشرح قضية سوريا للناس، وهذا أضعف الإيمان.

وعلق الشيخ حنفي..

- الشيخ واجه الموت مراراً، فلن تخيفه مثل هذه التصرفات..

قاطعته الشيخ عز الدين.

- لكن نسدد ونقارب يا شيخ حنفي.. ونستعين على قضاء حوائجنا

بالحرص والكتمان.

نظر إليه جمال الصلح بإكبار.. كان سعيداً أنه في حضرة مجاهد كبير، وقال بنبرة بان فيها التأثر:

- أحياناً تراودني نفسي أن أغلق محلي، وأعود إلى لبنان أو سوريا، لأشترك في أي ثورة أو جهاد، ثم أتذكر أنني مسؤول عن أمّ وأختين، ليس لهنّ إلا الله ثمّ أنا، ولا يجوز أن أكلهنّ للمجهول..

ابتسم الشيخ.. كلام جمال أوحى له بفكرة جميلة.. «لدينا الآن عروسان من منبت طيب، ولدينا عدد من الشباب.. وتأمل الرجال حوله.. كان ابن أخيه مالك ينقل الماء، وأخوه ظافر يشطف الأرض، والشيخ علي الحاج عبيد يجتهد في نرح الماء إلى خارج المسجد، وهاهو الشيخ حنفي منهمك مع جمال في حديث الثورة، التي مازالت في دمه.. فمن يختار؟»

ولمعت الفكرة في ذهن الرجل الذي جبل على الوفاء.. منذ متى وهو

يبحث للشيخ حنفي والشيخ علي عن زوجتين.. لقد هاجرا معه، وأخلصا له منذ أن كانا طالبَي علم، ينهلان من علوم الدين في جيلة على يديه، فإذا بظروف الاحتلال الفرنسي تدفعهما ليكونا معه على خطوط المواجهة ضد العدوان، ولم يترددا في الهجرة معه إلى فلسطين، ومازالا في صحبته وعلى عهده..

وبدأ القسام يجبك فصلاً سعيداً في واقع تتخطفه المآسي والأحزان.



مدرسة بعد المغرب تنمو وتكبر..

مرّ بها طلبة كثيرون، واستقرت فيها قلّة، التقطت الخيط من معلمها وقائدها، وراحت تنسج معه مشروع المواجهة العادلة ضد ظلم مركب، صنعه انتداب خبيث، يغيّر الحقائق والوقائع تحت قهر القوة، وغزاة ماكرون يتسللون من خلفه بصمت.. سلاحهم المعلن مال غزير، وتنظيم محكم، وقوانين يفضّلها لهم الانتداب على قدر مصالحهم، أما سلاحهم الحقيقي فشاباب ورجال مدرّبين، يحتشدون خلف الأسوار، ويشحذون السكاكين، لينقضّوا على شعب مسالم.

واكتشف الشيخ في مدرسة الليل معادن ورجال، ونفوس حرّة تواقّة للفجر، وقادة تخفيهم الأسمال المتواضعة والهيئات البسيطة، التي قد لا يلقي لها المرء بالاً، واطمأن القسام إلى الغرس.. فهنا.. في بيوت الصفيح وأحضان القرى الطيبة.. وجد الرجال الذين يأتّمهم على الوعد، ويستثمر مواهبهم للمستقبل.. وراح ينضجهم على نار هادئة.. فحتى تؤتي هذه القلة أكلها، يجب أن يكون كل واحد منهم أمة وحده.. فتذرع بالصبر، وراهن على الوقت، فغسى تجربته في الجنوب، تكون أنضج وأبقى منها في الشمال..

وراح يتأمل الوجوه الطيبة، التي كانت تتحلق خلف موقد الجمر في شتاء حيفا القارص، ريثما يأخذ أصحابها قسطاً من الراحة، ويتناولون كوباً من الشاي الذي نضج على نار هادئة، ليبعث الدفء في أجسادهم..

وراح العبد قاسم، يدور بالأكواب على إخوانه، وهو سعيد بانضمامه لمدرسة الليل، التي ستلبّي توقه لتعلم القراءة والكتابة، وهو الفلاح الذي حرم من المدرسة لظروفه المتواضعة، واضطرّ بعد أن طرده اليهود من

أرضه، أن يعمل بائعاً للكاز، وقد أصرّ أن يكون من يوزع الشاي على زملائه القدامى، احتفالاً بهذه المناسبة..

كان الشيخ عز الدين سعيداً بهذه التجربة التي تدخل عامها الثالث، ويعتز بهؤلاء التلاميذ الذين يتخرجون من مدرسته أصدقاء خالصاء، يتعاونون على البرّ والتقوى، ويجتمعون على حبّ فلسطين، والدفاع عنها. ورغم أنه صار نجماً بين وجوه حيفا وأعيانها، لكنه يشعر أنه لهؤلاء أقرب.. لأنهم خلاصة المحنة التي تعيشها فلسطين، وضحايا هذا الظلم الذي دمر حاضرهم، وبيهدّد مستقبلهم، فوجد فيهم الفطرة النقية، والإيمان العميق، والوفاء الخالص، والتسليم الجميل بقضاء الله.. وكانت ثقته بهؤلاء بلا حدود، لأنهم يملكون يقيناً راسخاً بحقهم، وانتماء حميماً لتاريخهم، وإيماناً جازماً بالنصر على العدوان، واقتلاعه مهما طال الزمان..

وخطر للقسام فجأة خاطر أطاح بسكينته، فراوده أن الإنكليز قد يغدرون به، ويسلمونه عنوة لعدوه القديم، فشعر بغصّة كدّرت روحه، ليس خشية من فرنسا التي تنسج له حبل المشنقة منذ سنوات، ولكن خوفاً على هذه الصحبة المميزة، التي نشبت بينه وبين هذه النخبة من الطيبين الصابرين التواقين للعدل والحرية.. وإشفاقاً على وعد قطعه لهم، بأن يكون وفتياً لقضيتهم العادلة، وصوتاً أميناً لحقّهم المهدور، وصدىً لآلام فلسطين التي تحاصرها الحراب الأثمة، تريد أن تغتال هويتها ومستقبلها..

وتساءل العبد قاسم إن كان الوقت قد حان لاستئناف الدرس، فأيقظ الشيخ من خواطره، فابتسم لهذا الطالب الجديد، الذي يبهره بحماسة للعلم والتحصيل، لكنّ ابتسامته الحزينة لم تستطع أن تخفي ما يعانيه الشيخ من قلق، على حلم يداعب روحه منذ مدّة، بحشد هذه القلوب في جبهة واحدة ضد الغزاة.

تأمل الضابط الإنجليزي المكلف بمتابعة الشيخ عز الدين التقارير التي أمامه. لم يجد ما يدل على أن الشيخ عز الدين منهمك بأي نشاط من أي نوع يحمل طابعاً مسلحاً، أو أنه جمع أموالاً لإرسالها للثوار السوريين ضد فرنسا.. كتب في تقريره أن «الشيخ القسام يمارس نشاطه الديني كواعظ، ولا يبدو أنه متورط في نشاطات تثير القلق، إلا أنه يكثر من الثرثرة في موضوع الهجرة اليهودية، واعتبار قوات الانتداب الفرنسي والبريطاني امتداداً للحملات الصليبية.. ويمكن تنبيهه بين الحين والآخر».

وذيل التقرير برأيه الأخير.. «يمكن أن نردّ على السلطات الفرنسية في سوريا بأن الشيخ عز الدين القسام لا يمارس أي نشاط ضد فرنسا في فلسطين».

وبعد أيام كان مدير قلم المخابرات الإنجليزية في حيفا يجتمع معه..

- تقريرك يؤكد أن الشيخ القسام لا يمارس أي نشاطات تخريبية في الوقت الحالي.

- هذا ما تأكد لنا من خلال رقابة حثيثة استمرت أربعين يوماً.
- واضح أنّ لسانه طويل.
- لا يتحدث بأكثر مما نسمعه من العرب في كل مكان.
- ألا تعتقد أنه يحرض علينا بشكل أو بآخر؟.
- بالنسبة للسلطات الفرنسية كانت شكاوهم أنه يعدّ لشيء هنا، وهذا ما أستطيع أن أنفيه بقوة.
- قصدت أنه يتحدث حول الأوضاع في فلسطين، بأكثر مما يجوز لوافد هنا.

- أهل حيفا لا ينظرون إليه كوافد. تعرف أنّ هذه كانت بلاداً واحدة.
- مفهوم.. مفهوم.
- تبدو ما زلت قلقاً.
- خطورته أنه رجل دين، ولرجال الدين تأثير خاص بين العرب.
- إذا كانت جرعة التحريض مقبولة، فلا خوف منها.. فقد تريح الجمهور الغاضب، دون أن تتطور إلى فعل واضح..
- لا بأس أن تراقبوه من حين لآخر.. يجب أن نكون متأكدين من أنّ جرعات تحريضه ضمن الحد المقبول.

كان افتتاح مسجد الاستقلال يوماً مشهوداً في حيفا، حضره وجهاء المدينة والقرى المجاورة، وعدد من مدراء الأوقاف في فلسطين، ومندوب عن الشيخ أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والأستاذ محمد دروزة مدير أوقاف نابلس، وآخرون من الوجهاء والعلماء والمخاتير..

وكانت الكلمة الأولى للشيخ محمد أفندي مراد مفتي حيفا، الذي زفّ للمسلمين بشرى افتتاح هذا المسجد، لينضم إلى باقة المساجد العامرة في عموم فلسطين، تلك القناديل المضيئة التي تتألق في سماء البلاد بالحق والخير، والقلاع الصامدة في وجه المحاولات الأثمة لتغيير هوية هذه البلاد، والتي تشهد مآذنها الشامخة بانتمائها العربي الإسلامي الأصيل..

وقبل أن يختم كلمته وجه التحية للشيخ المجاهد عز الدين القسام، الذي انتقل من ساحة الجهاد ضد الفرنسيين الغاصبين في سوريا الشمالية، إلى ساحة الدفاع عن سورية الجنوبية وجوهرتها فلسطين، أرض الإسراء والمعراج..

وجاءت كلمة الأستاذ محمد دروزة، مدير أوقاف نابلس لافتة ومعبرة، فتحدث عن دور المساجد في الدفاع عن هوية فلسطين، وكان مما قال:

«لقد اطلعت على مناهج المدارس الإنجليزية، وراعتني عندما ترجمت كتاب القراءة الجديدة للناشئين الإنجليز، نصّ غريب يكشف كم أنّ هذه الأمة قد هانت، وغفلت عما يراد بها ولها، فصدّق بعضنا أنّ بريطانيا إنما هي دولة محايدة، يمكن أن تكون أمينة على هذه البلاد. إذ يقول الكتاب المذكور على لسان مؤلفه، في معرض حديثه عن الوعد الذي منحه بريطانيا بإقامة وطن لليهود في فلسطين..»

وخرج الأستاذ دروزة عن النصّ الذي أعدّه برهة.

- انتبهوا يا إخوان..

يقول الكاتب إياه: «ودعني أقول لك قبل أن أختم هذا الفصل أن آخر حملة صليبية، هي الحملة التي قادها اللورد النّبّي، وفتح بها المدينة المقدسة أو «إورشليم».. أي القدس الشريف.. فهل هناك أصدق مما يعلمه الإنجليز لأبنائهم تعبيراً عما يفكرون فيه، ويدبرونه لنا؟..»

هذا الناشئ الذي يتربى على هذا الزيف، سوف يكبر عما قريب، وقد يأتينا جندياً أو ضابطاً في قوة الانتداب، لينفذ ما تعلمه، فيعاملنا بروح الحروب الصليبية، فينتقم منا، ويتحالف ضد إرادتنا واستقلالنا، مع من يعتقد أنهم أصحاب المدينة المقدسة أو «إورشليم»، كما تسميها مناهجهم، فانظروا ماذا أنتم فاعلون، ومع أي عدو أنتم تتعاملون!.

واعلموا الشيخ عز الدين المنبر، فحرك القلوب والعزائم، ووضع الناس أمام الصورة المؤلمة التي ينبغي أن يواجهوها، ولفت الأنظار بصراحته وقوة كلماته..

«لقد كانت هذه الأمة على مرّ القرون مثلاً في إكرام الضيف ونجدة الضعيف، مسلماً كان أو يهودياً أو نصرانياً، لكن ما يجري اليوم في فلسطين أمر غير هذا تماماً.. أمر يحتاج إلى تدبر وانتباه.. فقد زادت هجرة اليهود إلى هذه البلاد إلى القدر الذي يثير المخاوف، ويرسم حول الهدف منها ألف سؤال، وكأنني بهذه البلاد تحتل اليوم مرتين.. مرة باسم الانتداب، ومرة على يد هؤلاء المهاجرين الغرباء، الذين يحتلون مدنكم وقراكم، وأنتم فيها..»

هؤلاء المهاجرون إنما يتجمعون على أرضكم ليبنوا قوتهم، ويؤسّسوا

دولتهم، تحت حماية بريطانيا العظمى، التي أعطتهم ذلك الوعد المشؤوم،
 وهاهي تنجز ما وعدت، وإذا أردتم الدليل فاسألوا المندوب السامي
 صموئيل، الذي يتباهى بأنه أول وزير يهودي في حكومة بريطانيا.. صموئيل
 هذا هو الذي سهّل لهؤلاء المهاجرين اليهود كلّ أسباب القوة، ومكّن لهم،
 بتزوير القوانين وتهديد السلاح، والانحياز الصريح ضد أهل البلاد، الذين
 أخشى ما أخشاه أن يصبحوا غرباء في وطنهم.

فاللّهُ اللّهُ في فلسطين، يا أهل فلسطين..

أدركوا بلادكم قبل أن نبكي على أندلسٍ جديدة، تضيع فيها قدسكم،
 ويتهدد مستقبلكم منّ تعرفون من الطغاة والغزاة..

كانت كلمة القسام صرخة مسجد الاستقلال الجديد.. الذي اشرأبت
 مئذنته لتروي قصة الحقّ الذي يأبى أن يموت، والأرض التي لا تطيق
 الغاصبين.



عندما توجه الشيخ عز الدين إلى مسجد الاستقلال لأداء صلاة الظهر، ألقى جمعاً من الناس وهم يحملون نعشاً، ويدخلون به المسجد للصلاة على ميتهم، ولفت نظره وجود شاويش من الشرطة، يقف مقابل المسجد، وقد تأبط ذراع شاب في العشرينات، كان يبكي بحرقة، ويده مقيدة إلى يد الشاويش في «الكلبشات»، وتوجه الشيخ للشاويش يفك لغز هذا المنظر..

- ما القصة؟

- هذا السجين توفيت والدته، وسمح له قائد المخفر بحضور الدفن..

- تقصد أن الجنائز لوالدة الأخ؟

أجهش الشاب، ورفع للشيخ عينيْن مخضلتين..

- ادع لها يا شيخنا.. فقد كانت من الصالحات.

رق الشيخ لحال السجين، وقال يعزيه:

- عَظَّم اللهُ أجرك فيها يا بني، وجعل مثواها الجنان.

- شكرَ اللهُ لك يا شيخنا، ادع لي بالتوبة وحسن الختام.

- غفر اللهُ لنا ولك.

قال الشاويش وهو يشدُّ على يده:

- من يسمعك يظن أنك من أهل الصلاح، ولولا هذا الظرف الذي

تمر به، لحدثتُ الشيخ عن سوابقك التي تعرف.

طأطأ السجين رأسه، وبدت الذلة على محياه، لكن الشيخ عز

الدين انزعج من ملاحظة الشاويش، التي لم تراع ظرف السجين

المكجوم بأمه.

- مهما كانت سوابقه فلن تكون أكثر من ذلك الذي حدّث عنه النبي ﷺ، والذي قتل مئة نفسٍ ثم تاب الله عليه، لأنه صدق في توبته.

تأثر الشاب لدفاع الشيخ عنه في هذه المحنة، وأكبّ على يد القسام، يريد أن يقبلها..

- أستغفر الله العظيم..

همس بها الشيخ عز الدين، وهو يسحب يده، بينما أردف الشاب والدموع تغسل وجهه:

- على يدك يا شيخنا أريد أن أتوب، وأعاهدك على أن أكون خلفك في هذا المسجد حتى أموت.

أدهشت كلمات الشاب الشاويش، واحترار فيما بدّل هذا السجين العنيد، الذي طالما اعتقله من حانات الخمر وحواري التسكع، وما آل إليه حاله بعدما توفيت والدته..

وسأل الشيخ الشاويش عن مشكلته، فأخبره بأن عليه عدة قضايا منظورة في المحاكم، ولكن يمكن الإفراج عنه بكفالة..

قال الشيخ، وهو يربت على كتف الشاب:

- أنا سأكفله، ولكن دعه يدخل، ليصلي على أمّه.

بُهِتَ الشاويش. قال وهو ينظر إلى القيد:

- ولكن..

- قلتُ لك هو عندي، وبعد الصلاة أذهبُ معك لعمل الكفالة.

كان الشاب يراقب الموقف في ذهول، وأعجب بشجاعة الشيخ وعطفه، وسمع صوت المفتاح، وهو يدور في قفل الكلبشات التي تقيده إلى سجانته، فكاد يطير من الفرح، وأسرع إلى المسجد، فتوضأ وانضم إلى الصلاة،

والشاويش يراقبه بقلق واضح، ويده على المسدس، خشية أن يفلت منه، بينما مضى الشيخ إلى المحراب، ودخل في الصلاة، وهو واثق بأن الكلمة الطيبة والمبادرة إلى المعروف، لا بد أن تثمر في القلوب، مهما ران عليها من قسوة..

وصدق حدسه، فقد عقد الشاب العزم على توبة نصوحة، لا يعود بعدها إلى سيرته الأولى. وقد كان.



دروس الاستقلال تزداد شهرة وإقبالاً.. ليس في حيفا وحدها، بل في سائر قرى وبلدات الجليل.. وهؤلاء هم مريدو القسام يأتون من صفد وعكا والناصرية وبيسان وجنين.. ليسمعوا ما يتوقون سماعه من حق صراح، وهكذا صار درس القسام يزدحم كل يوم بتلاميذه، الذين غلب عليهم عمال الميناء والخط الحجازي وفلاحو القرى البعيدة، وزوار المدينة من أصحاب القرباب والحاجات، وكل المتحرقين لسماع مايشفي صدورهم المحترقة بالغيظ على انتداب غليظ وتسلل يهودي ماهر، يكبر يوماً بعد يوم، ويزاحم الناس في وجودهم..

ولم يضيع الشيخ عز الدين درساً، دون أن يذكر الناس بماضيهم وحاضرهم، ويثير فيهم الوعي بما يراد بفلسطين ولفلسطين، ويحشد القلوب والأرواح حول هدف الاستقلال، ويشجذ الهمم لفعل يساهم في إزاحة هذا الكابوس، الذي يتفاقم يوماً بعد يوم..

وذات عصر كان القسام، يلقي درسه وقد تحلق حوله العشرات.. ودخل الشيخ حنفي بصحبة جمال الصلح، فابتسم الشيخ لجمال، ولوح له بتحية وقورة، ترحب به في درس الاستقلال، وقد أضمر في نفسه شيئاً..

وتدقق الشيخ عز الدين في الحديث، وهو يرفع للحاضرين خريطة ملونة، انتزعها من كتاب ابنته خديجة، بعد أن اكتشف بأن يد سلطة الانتداب امتدت إلى مناهج الجيل الجديد، لتشوه الحقائق، وتزور التاريخ..

- إنهم يرسمون حدود بلادنا يا إخوان بالمسطرة.. هل رأيتم في الدنيا بلاداً طبيعية، حدودها مستقيمة بهذا الشكل.. انظروا إلى الخريطة الجديدة التي أصدروها، ويعلموها اليوم لأبنائكم، لتعرفوا ماذا يدبر لهذه

الأمّة.. أنا السوري الذي ولدتُ في جبلة قرب اللاذقية، وقطعت المسافات لأعيش هنا في حيفا.. في فلسطين الشام، سأصبح غريباً هنا أو هناك، لأنهم قسّموا سوريا الكبرى إلى فلسطين وسوريا ولبنان وشرق الأردن.. أعداؤنا يا إخوان يعرفون التاريخ أكثر منا.. عرفوا كم كنا ضعفاء عندما كنا دويلات وطوائف، أيام ضاعت منّا الأندلس، وهاهم يلعبون اللعبة من جديد.. يرسمون لنا دولاً هزيلة ليسجنونا داخلها.. القضية باختصار أنا دخلنا عصر الوهن، وحالنا أصبح كما تنبأ لنا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: «تكاد تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟.. قال: بل أنتم كثير، ولكن كغناء السيل»..

هذه هي حالنا الآن يا إخوان.. نحن القصة، والأكلة كثيرون.. فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وعصابات الصهيونية العاتية وغيرهم.. نحن اليوم كثير، ولكننا كغناء السيل.. بأسنا بيننا شديد، وبأسنا على عدونا.. وصمت الشيخ عز الدين.. فأثار بصمته على رأس جملة مبتورة انتباهاً أراد.

- هل ترون عليهم في بلادنا من بأس يا جماعة؟..
- وسرى همسٌ وابتسامٌ.. و هتف أكثر من صوت صريح بقوة: لا. تابع الشيخ بنبرة ساخرة:
- إنهم مرتاحون، يعرّبون، وينهبون، ويظلمون، ونحن، ماذا؟
- نائمون..
- أحسنت.. نائمون.. لا نملك إلاّ الثرثرة و«العلك المصدّي» كما نقول في الشام..
- جرّبنا يا شيخ..

وهتف أحد الشباب، وهو يكاد يقفز من مكانه حماساً وتأثراً بكلام القسام.

تابع الشيخ عز الدين..

- ومع ذلك فهم يحسبون لنا ألف حساب..
واستدرك قائلاً:

- ليس لنا نحن.. بل لأجيالٍ قادمةٍ بإذن الله، سوف تستيقظ فيها عقيدة الأمة، وتتمرد على حدود المسطرة، عندما تعي حضارتها وتاريخها.. الأعداء يا إخوان لا يخافون منكم، بل يخافون أطفالكم وأحفادكم.. أن ينشأوا على حب الدين والعقيدة والجهاد.. لذلك يريدون منكم أن ترزحوا في الجهل، وأن تفوصوا في المتعة، وأن تورثوا لأبنائكم الميوعة والخنوع والهوان..

وصاح واحد من أقصى الصفوف:

- الجهاد يا شيخ يحتاج بندقية.

ابتسم الشيخ.. لكم يشاق إلى البندقية، ليعلم هؤلاء الغزاة درساً لا ينسوه..
- المجاهد يا إخوان قبل البندقية.. يجب أن نربي أنفسنا أولاً ونهذبها.. نريد المجاهد المؤمن الصابر العارف بحدود الله.. المجاهد الصلب الذي يتوق للاستشهاد في سبيل دينه وحقوقه، لأن عدونا لديه العديد والعدة، ولن نجاريه إلا برجال كما قال سيدنا خالد بن الوليد للروم «جتكم اليوم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».. فلنربّ أنفسنا على حبّ الشهادة ومواجهة الظلم، و«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله؟...»..

- مع الصابرين.

- أحسنت.. «والله مع الصابرين»

واستمر الشيخ في درسه يتدفق بالمعاني، يثري العقول ويحرك

الضماير، ويضع النقاط على الحروف، ليرسم بها وعياً جديداً، ويبعث في الناس روحاً تأبى الانكسار..

وأذن المؤذن لصلاة العشاء، فقام الناس إلى صلاتهم خاشعين، وبعد الصلاة.. تقدم الكثيرون يشدون على يد الشيخ عز الدين، يؤكدون تأثرهم بما قال..

وجاءه جمال بصحبة الشيخ حنفي وهما سعيدان مستبشران بهذا الحماس الذي أبداه الحاضرون لكلمات القسام، فابتسم لهما، وقد تذكر شيئاً، وجد أن وقته قد حان..

قال الشيخ عز الدين للشيخ حنفي:

- أريد أن تجمعني بالشباب الذين تفاعلوا مع الدرس.. إلحق بهم، ورتب لهم موعداً غداً بعد صلاة العشاء.

تحرك الشيخ حنفي سريعاً ليلحق بمن قصدهم القسام، بينما اختلى الشيخ بجمال الصلح عند المحراب، ليفاتحه برغبته في خطبة أخته لكل من عارف حنوف وعلي الحاج عبيد، ويزكيهما بما يعرف عنهما من شجاعةٍ ونبليٍّ وخلقٍ كريم..

ولولا أن الشرع يقضي باستشارة الفتاتين في هذا الزواج، لأجاب جمال الصلح الشيخ من فوره إلى ماطلب دون إبطاء.



الأيام تمضي حبلى بالمفاجآت..
لكن ما حملته اليوم من أخبار، كان له وقع الصاعقة!..
وسارع الشيخ عز الدين مع صديقه رشيد الحاج إبراهيم لزيارة الشيخ
كامل القصاب، لبحث ما سينتج عن هذا التطور الخطير..
قال الأستاذ رشيد:

- يبدو أن تداعيات سقوط الخلافة، قد وصلت إلى فلسطين!.
- ماذا تقصد؟. سأل القصاب.
- لعلك سمعت عن معاهدة الصلح التي وقعتها بريطانيا وفرنسا مع
الحكام الجدد في تركيا..
- هذا تحصيل حاصل. تركيا دولة مهزومة، ولا بد أن تدفع الثمن.
- قال الشيخ عز الدين..
- وكنا نحن الثمن!.
- كيف؟
- الاتفاقية تقضي بأنه لدول الحلفاء الحق في امتلاك الأراضي
والأموال والمرافق العائدة للإمبراطورية العثمانية، دون أن تدفع قيمتها.
- تقصد؟.

قاطعها الأستاذ رشيد:

- هذا يعني أن المندوب السامي في فلسطين يستطيع أن يتصرف بكل
الأراضي الأميرية التي صارت بموجب المعاهدة ملكاً لبريطانيا، ويبيعها أو
يمنحها إذا أراد لليهود.
- هذه كارثة.

- نصف أراضي فلسطين تقريباً كانت ملكاً للدولة العثمانية.
 همس القسام وهو يكظم غيظه..
- يعني بجرّة قلم، يمكن للمندوب البريطاني أن يمنح اليهود نصف فلسطين..
- الله يستر..
- وقررت بريطانيا ما هو أسوأ..
- فقد أصدر ملك بريطانيا قراراً بمنح الجنسية الفلسطينية لليهود في فلسطين، وصار يمكن للمندوب البريطاني أن يمنح الجنسية لكل مهاجر يهودي على أرض فلسطين، إذا مضى على وجوده سنتين، أو كان يتكلم اللغة العبرية.
- وعاد الشيخ عز الدين إلى بيته غاضباً.. فالיום ليس كغيره من الأيام.. اليوم هو البداية الحقيقية للحلم اليهودي الذي لم يعد حلماً في فلسطين.. اليوم يحسم القسام خياره، وينحاز نهائياً إلى ثغر فلسطين، لأنه الثغر الأخطر والأكثر تهديداً بين ثغور هذه الأمة المثخنة بالجراح. وقرر الشيخ في نفسه أمراً..
- دخل الشيخ عز الدين البيت متجهماً، وتوجه إلى مخدعه مباشرة، دون أن يحفل بالمرح الذي أحدثه دخوله بين بناته اللواتي اشتقن لأبيهن، وهو المشغول دائماً، الذي لا يكاد يأوي إلى الدار إلا ويغادرها، ليستوعب حجم الأعباء التي زادت عليه، منذ أن استلم مسؤولياته كإمام وخطيب لمسجد الاستقلال.
- ولاحظت أمينة ما حدث، فلحقت به تستطلع الخبر، بعد أن أوصت ميمنة، بأن تأخذ أختها إلى الغرفة المجاورة..
- تبدو غاضباً، ماذا حدث؟
- قال وهو يقف على رؤوس أصابعه، ليتناول حقيبة جلدية قديمة من فوق خزانة الملابس.

- ما يجري يا أمينة لا يمكن السكوت عنه.. ثمة جريمة كبرى تجري على هذه الأرض، والناس غافلون..
- ماذا تقصد؟
- ملك بريطانيا أصدر قراراً بمنح الجنسية الفلسطينية لليهود في فلسطين.
- وفوجئت به يخرج من الحقيبة مسدساً، ويتفحصه باهتمام..
- ولم هذا المسدس؟!.
- لم يجبها. تابع ينفث الغضب الذي احتقن في صدره:
- وفوق هذا سيوزعون أراضي فلسطين التي كانت مملوكة للدولة العثمانية على اليهود، لتصبح نصف أراضي فلسطين ملكاً لهم، ويعلنوا وطنهم المزعوم.
- ورفع المسدس إلى الأعلى، وصوب فوهته نحو السقف، وكأنه يجرب قدرة عينه على التسديد.
- فلسطين تضيع منا يا أمينة، ونحن نتفرج..
- لم تقل لي لماذا المسدس؟
- غدا عند صلاة الجمعة تعرفين؟
- أرجوك لا تتسرع، فتحن غرباء هنا..
- بل هم الغرباء..
- أقصد..
- اهدئي يا أمينة، ودعيني أرتب لما أريد..
- لن تستطيع أن توقف وحدك ما تخطط له دول كبيرة وقوية.
- ابتسم في سخرية:
- قد لا أستطيع، لكن لن أسكت.



في اليوم التالي وقف الشيخ عز الدين على منبر الاستقلال، وقد عزم على شيء!..

- أيها الناس.. لقد أتى على سوريا حين من الدهر، صار أهلها كالأيتام على مائدة اللئام، فهذه فرنسا وبريطانيا بموجب الصلح الذي عقده مع دولة الطورانيين البغاة، الذين اغتالوا الخلافة ودفنوها، تراثان كل أملاك الدولة العثمانية، لتتصرف كل منهما بكل الأراضي والعقارات والأموال العائدة للخلافة الآفلة..

ويبدو أن الإنجليز قد جبلوا على كرم لو سمع به حاتم الطائي، لخرج من التاريخ إلى غير رجعة، فمن فرط كرمهم وجودهم، قرروا أن يمنحوا الأراضي التي وضعوا أيديهم عليها في فلسطين للمهاجرين الغرباء من اليهود، ليبنوا عليها المزيد من مستعمراتهم، وينشئوا مزارعهم ومصانعهم، ويجعلوا منها وطناً فسيحاً، يجمع اليهود من أرجاء الدنيا، ليقيموا هنا دولة، لا أخالها إلا سوف تكون مصدراً للشر والظلم والعدوان..

أيها الرجال.. يا شباب فلسطين.. بلادكم في خطر، فانظروا ماذا أنتم فاعلون؟ جاء في صحيح مسلم، أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: فلا تعطه مالك. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله. قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: هو في النار.

أيها الناس.. من مات دون أرضه فهو شهيد، ومن مات دون عرضه فهو شهيد، ومن مات دون ماله فهو شهيد.. وكلها صارت مهددة.. الأرض والعرض والمال.. والحاضر والمستقبل..

ووالله الذي لا إله إلا هو.. ما وجدتُ لكم حلاً إلا هذا.
وفوجئ الناس بالشيخ يخرج مسدساً من جيبه، ويشهره في الهواء!..
وهو يهدر بكلمات كالرصاصة..

- انفضوا عنكم غبار الذلّ والهوان، ودافعوا عن أرضكم التي تمنحها
اليوم بريطانيا ظلماً وزوراً لليهود، وموتوا دونها شهداء.
وكبر المصلون ترحيباً بهذه الدعوة الصريحة إلى مقاومة الانتداب
وحلفائه من الصهاينة، والقسام يرمقهم بعيني صقر، والمسدس مازال
مشرعاً بيدٍ ثابتة ووجدانٍ واثق..

وصاح أحدهم من بين الصفوف:

- ومن أين تأتي بالسلاح؟

هتف الشيخ:

- صاحب الحق سلاحه في حقه.. سلاحه في إيمانه.. سلاحه في
عزيمته.. ومن أراد أن ينتزع حقه فعلاً لما أعيته الحيلة.. حتى لو اضطر
لأن يهجم على جنود الانتداب، وينتزع أسلحتهم، من أجل أن يدافع بها عن
أرضه ووطنه وأمته.

أرأيت لو اعتدى أحد على عرضك أو ولدك أو أرضك، أفكنت تسأل

هذا السؤال؟.

أصبحت قصة هذه الخطبة الجريئة على كل لسان، وتداول الناس معانيها بإعجاب، وصار مسدس القسام حديث المجالس والنوادي، واندلع الحوار حول دور الجهاد في وقف هذه المهزلة، وبالغ بعض الوجهاء والزعماء في انتقاد الشيخ، لكن الكثرة الكاثرة من الناس كانت معه، لأنه عبّر عنها، وأعلن عما يمور في وجدانها من ثورة وغضب، إزاء هذا الذي يجري تحت حراب القهر، في حين سكت الكثيرون..

والتأم مجلس إدارة الجمعية الإسلامية على عجل بدعوة من الشيخ محمد مراد، فأبدى الأستاذ رشيد إعجابه بهذه الخطوة الجريئة، التي وضعت الناس أمام مسؤولياتهم، ودلّتهم على الطريق الذي لا طريق غيره، وتردد بعضهم في تأييد موقف الشيخ، مشفقاً عليه من النتائج، وعبّر أحدهم عن مخاوفه أن يحسب هذا الموقف على الجمعية وجامع الاستقلال، لكنّ الأستاذ رشيد قال بكلمات حاسمة: «نحن نقول وهم يفعلون، فلا أقلّ من أن نقول كلمة حقّ في وجه ما يقترفون من جرائم وانتهاكات»..

على أن الشيخ كامل القصاب حسم النقاش برأي وسط، خلاصته أن كلام الشيخ عز الدين في مكانه، إلا أنه قد تسرع قليلاً، إذ لا يثير الإنجليز في بلد يحتلونه، أكثر من الحديث عن السلاح، ولا يجوز أن نلوح به، ما لم نكن جاهزين للمواجهة والجهاد.. واتفقوا على أن يقوم الأستاذ رشيد والشيخ كامل بزيارة الشيخ القسام، ليناقشا معه ما يمكن أن يقوله للدفاع عن نفسه، إن وجهت له سلطات الانتداب أية اتهامات..

وأوضح الشيخ عز الدين لزمّانيه أن التلويح بالسلاح قد يخيف اليهود أكثر من الإنجليز، لأنهم يتصرفون وكأنهم غير معنيين بالغضب العربي

عليهم، معتمدين على الإجراءات القانونية التي تغطيهم بها بريطانيا، وكأنهم الحمل الوديع، الذي لا يرتكب ما يستوجب غضب الناس وثورتهم، فيختبئون وراء بريطانيا، التي تمدهم بكل أسباب القوة والتمكين.

واختتم الحوار بنصائح من الأستاذ رشيد للشيخ عز الدين في كيف يتصرف عندما يداهمه الإنجليز للتحقيق..

- لعله خير.

همس بها الشيخ، وهو يتحسب للمفاجآت..



لم يتأخر رد الإنجليز، فصباح اليوم التالي توجهت قوة بريطانية نحو منزل الشيخ القسام، وترجل أفرادها المدججين بالسلاح، ووقفوا في حالة تأهب، وأيديهم على الزناد.. وتقدم قائد القوة، وطلب من أحد الجنود أن يطرق الباب..

أطل الشيخ بكامل هندامه، وكأنه كان ينتظر هذه الزيارة..

- أنت الشيخ عز الدين القسام؟

- نعم؟

- مطلوب لقسم البوليس.

- الآن؟

- وفوراً.

- لديك أمر اعتقال؟

- وأمر تفتيش أيضاً..

- تفتش عن ماذا؟

- عن السلاح طبعاً..

- إنه مجرد مسدس، إن أردته سلمته لك.

ومدّ القسام يده إلى عبّيه ليخرج المسدس، فتحفّز الجنود خوفاً من أي

حركة مباغثة.

تحسب الشيخ لأي حماقة، فأخرج مسدسه بهدوء، وفوهته عكس اتجاه الجنود.

- هذا هو المسدس.

- يفضل أن تأتي معنا أنت وسلاحك.

- أنا لم أفعل ما يستدعي الاعتقال.

تبرّم الضابط لهذه الجرأة، وطلب منه الصعود إلى السيارة، لكنه أبقى..
 - ألحق بك. أعرف الطريق إلى مركز البوليس جيداً.
 - ولكن..

ونظر القسام حوله، فأثلجت صدره تلك الأعداد من الناس، التي
 تجمعت من كل حدب وصوب، بعد أن نبههم الشيخ حنفي إلى احتمال
 اعتقال الشيخ عز الدين، وطلب منهم التظاهر عند المسجد في الوقت
 المناسب، وداخل الشيخ شعور بالثقة والاطمئنان، وهو يرى الناس يهبون
 للدفاع عنه، وأدرك أن كلماته أخذت طريقها إلى القلوب.

ولاحظ قائد القوة أن الناس يتزايدون بسرعة، وكأن أحداً يحشدهم، فأوجس
 قلقاً، وتذكر أوامر قائده له بجلب الشيخ بهدوء وبلا مشاكل، ففضل أن ينسحب،
 بعد أن تلقى وعداً من الشيخ بأنه سيقوم بزيارة مركز البوليس في الحال.
 وما إن غادرت القوة الإنجليزية الحارة، حتى انفض الناس، ليظهر
 الشيخ علي الحاج عبيد وقد وقف في أقصى الحارة مع حنطور أحضره لهذا
 الغرض، وأشار إليه القسام أن يتقدم، فجاء بالحنطور، وترجل منه، ليركب
 مكانه، وهتف القسام بأصحابه:

- بلغوا الأستاذ رشيد والشيخ كامل بما حدث.
 وانطلق باتجاه مركز البوليس.



- استقبله جنرال في الخمسين. يرطن بعربية ثقيلة، تثير الضحك..
- أهلاً بالشيخ المشاغب.
 - صدمه الشيخ عز الدين..
 - لا أسمح لك بالحديث معي بهذه الطريقة.
 - حدجه الجنرال بطرف غاضب، قال، وهو يفتح ملفاً ويقرأ فيه..
 - عز الدين القسام. شيخ سوري محكوم بالإعدام، يقيم في حيفا لاجئاً، يعمل بالوعظ الديني، تطور وضعه مؤخراً ليصبح إماماً وخطيباً لجامع الاستقلال..
 - هل في هذا ما يعيب؟
 - هل تعتقد أنك ستكلم الضابط الفرنسي الذي سنسلمك إليه بهذه الطريقة، وأنت تمضي لتعدم رمية بالرصاص؟
 - توجس الشيخ في نية غدرٍ مبيتة.. لكنه تماسك، وأجاب بهدوء:
 - لماذا تظن أنني سأخاف منه، أنا لم أخرج من سوريا لأنني أخشى من الموت أو الشهادة، بل خرجت حتى لا ينكّل الفرنسيون بأهل مدينتي عقاباً لي، لأنني أقاومهم.
 - حسناً. إذا كان الفرنسيون أعداءك، فلماذا ترفع في وجهنا السلاح؟
 - أنا لم أرفع السلاح.
 - أنت دعوت الناس في الجامع يوم الجمعة إلى الهجوم على الجنود البريطانيين، وانتزاع سلاحهم منهم، وقتلهم إذا استدعى الأمر.
 - ابتسم القسام، وقال بنبرة واثقة:
 - نعل الذي نقل لك الكلام لم يفهم المقصود تماماً.

- قال الجنرال، وقد بدأ يفقد أعصابه:
- أولاً يجب أن تسلمني المسدس، الذي أشهرته في خطبة الجمعة.
 - أخرج الشيخ عز الدين المسدس، ووضعه على الطاولة.
 - تلقفه الضابط، وراح يتفحصه.
 - مسدس ماركة «روبي». هذا فعلاً من أسلحة الجيش الفرنسي. على كل حال هذا سلاح غير مرخص في حيفا. هل لي بمعرفة مصدره؟
 - هذا ما خرجت به من بلدي، عندما غادرتها فارّاً بنفسي.
 - قال الجنرال في غيظ، وهو يضع المسدس جانبا..
 - هذا المسدس من أسلحة الجيش الفرنسي، ولا يباع للجمهور..
 - لعلك قتلت جندياً، وغنمته منه.
 - أنت تطلق التهم جزافاً.
 - ما علينا. لماذا أشهرت هذا السلاح على منبر الاستقلال؟
 - أردت به رمزاً للدفاع عن النفس.
 - ودعوت لاقتنائهم.. بل والهجوم على جنودنا لتخليصهم السلاح.
 - هل لي أن أسدي لكم نصيحة.
 - أسمعك.
 - عندما تريدون إرسال مخبر أو جاسوس إلى مساجدنا، أنصح بأن تختاروه على درجة من الذكاء، تسمح له بفهم الحقائق كما هي..
 - تقصد أن مخبرنا غبي؟
 - ابتسم الشيخ وكأنه يؤكد المعنى، وتابع يقول:
 - لو كنت مكانكم لتساءلت؟.. لماذا يدعو شيخ مسلم في فلسطين لحمل السلاح؟

بلغ الحنق بالضابط مداه..

- لماذا؟..

- لأن الناس هنا قلقون على مستقبلهم.. يرون اليهود وهم يشترون الأراضي، ويطعمون المستعمرات، وأنتم تقدمون لهم الأراضي مجاناً، وتعدون بدعمهم لإقامة وطن ودولة.. أهل فلسطين يخشون ألا تبقى لهم في بلدهم بعد هذا باقية.

أشاح الضابط بوجهه تلقاء النافذة، متهرباً من نظرات القسام الواثقة، وقال وهو يتصنع مراقبة حركة الناس خارج السراي..

- ذهبت بعيداً يا شيخ قسام. ذهبت بعيداً جداً.. نحن وعدنا اليهود بوطن فقط، وإلى جانب العرب.

ثم وهو يعتدل كمن تذكر شيئاً..

- لكن دعني أسألك. أنت رجل سوري هربان من السلطات الفرنسية، تقيم في حيفا لاجئاً، فما دخلك بفلسطين؟!

- فلسطين جزء لا يتجزأ من بلاد الشام، التي قسمتموها حسب اتفاقية سايكس بيكو.

- هذا الكلام كان زمان، قبل أن يتم ترسيم الحدود بين سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.

- هذا لا يغير من الأمر شيئاً.. نحن شعب واحد، ولن تفصل بيننا الحدود.

- شيخ عز الدين. أنت لا تريد أن تعترف بأن الدنيا قد تغيرت. اتفاقية سايكس بيكو أُقرت في عصبة الأمم، ونحن موجودون هنا بموجب ذلك، وصك الانتداب الذي نحكم فلسطين بموجبه، ينص على إقامة وطن لليهود في هذه البلاد.. يعني وجودنا هنا قانوني، لكن وجودك هنا كسوري، تحرض ضد الانتداب وضد اليهود وضد عصبة الأمم غير قانوني.

- هذه الأرض أرضي وأهل فلسطين أهلي، والدفاع عن هذه الأرض جزء من عقيدتي، ولن يجبرني أحد على تغيير قناعاتي.
- شعر الضابط أنه أمام شيخ عنيد، يتمتع بمنطق ذكي، لا يمكن هزيمته، وتذكر نصيحة قائده بأن ينقل رسالة صارمة إلى الشيخ، دون أن يؤذيه جسدياً أو يعتقله.. واعتدل الضابط في جلسته، وهو يحاول أن يصل مع القسام إلى نتيجة..
- نحن لا نمنع أحداً من الكلام.. أما التحريض فهو ممنوع، وأريد منك أن تتعهد بذلك.
- كان الشيخ هادئاً رابط الجأش، غير مكترث بالوعيد المبطّن، الذي تحمله كلمات الجنرال البريطاني، لكنه أنس رغبة في حل الموقف بشكل سلمي، فلم يرد أن يعطي أية تعهدات..
- أريد أن أكون صادقاً معك. أنا عالم دين، مسؤول عما أقول أو أفعل أمام الناس، ولن أقوم إلا بما يفرضه علي ديني.
- استشاط القائد الإنجليزي غضباً..
- أووه.. أنت عنيد فعلاً.. وغير متعاون.. وسوف أحملك مسؤولية أي عربي في حيفا يهجم على جندي بريطاني ليخلصه سلاحه. أرجو أن يكون ذلك واضحاً.
- صمت الشيخ ولم ينبس. وممرت لحظات مشحونة بالتوتر، وهو يرى القائد يقرع الجرس بعصبية، ليدخل قائد الوحدة التي كلفت باعتقال الشيخ.
- أمرك سيدي.
- احجز هذا المسدس باسم الشيخ القسام، حتى نتأكد من أنه لم يستعمله على أراضي الانتداب. وأطلق سراحه الآن، ليذهب إلى بيته.

ثم وهو يتوجه للشيخ بنظرة متوعدة..
- أرجو أن تكون الرسالة قد وصلت شيخ قسام.
نهض الشيخ بإباء، وغادر المكتب بخطوات هادئة، أثارت غيظ القائد،
الذي شعر أنه أصبح أمام مشكلة حقيقية اسمها عز الدين القسام.



الهمس يملأ حيفا من أقصاها إلى أقصاها..

شيخ سوري محكوم بالإعدام، يفر من سوريا إلى فلسطين، ويتحول من لاجئ في حيفا، إلى علم من أعلامها. وهاهو يتجرأ على الانتداب، وينبه إلى خطر الهجرة الصهيونية، فيشهر السلاح في المسجد، ويدعو للثورة على هذا الاحتلال الغاشم، ومهاجمة الجنود الإنجليز في الطرقات..

وتحلق الناس حول نار الشتاء، يتبادلون الأحاديث عن الشيخ القسام.. فقد صار حديث أهل حيفا الذين نسجوا حوله الكثير من الحكايات والبطولات، وأكبروا هذا المجاهد، الذي جاء ليلوذ بمدينتهم، فشرفها..

وأقبل الشباب على مسجد الاستقلال.. فاكتمت دروسه بكل حرّ ينحاز إلى رأي القسام وفكره، ويؤيده في منهجه وجرأته.. وذاع صيت الشيخ في فلسطين كلها، فكان الكثيرون يسافرون إلى حيفا لحضور خطبة القسام، الذي صار رمزاً، يلتف حوله كل من يؤمن بمقاومة الظلم والطغيان..

وذات يوم كان الشيخ عز الدين يؤدي صلاة الوتر، وبينما هو يسلم التسليمة الثانية، التقت عيناه بوجهٍ يضحك له، ويردّ عليه بنبرة ودودة، لم يخطئها.. «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

وتعانق الصديقان، والذكريات القديمة تترى من خلال الدموع، لتبعث في الروح نفحات لم تمحها السنون.. وقال الشيخ فرحان السعدي، وهو يتأمل صاحبه بعين تفيض ودّاً وإعجاباً:

- هذا أنت يا عز الدين.. كما تركتك من زمان..

وأردف، وهو يشدّ على كتفيه.

- إلا أنك قد ازددت شيباً.. لعلك الآن في الأربعين!.

ضحك القسام..

- بل تجاوزتها بقليل.. وأنت أيضاً لم تتغير كثيراً..

ثم مداعباً:

- لكنك مازلت أكبر مني كما كنت يوم التقينا.

ضحك الشيخ فرحان ضحكته الدافئة:

- أنا غادرت الشباب منذ زمن، ولم أعد في عنفوانك الآن.

- دعك من هذا يا شيخ فرحان.. مازلت زينة شباب جنين.. أما زلت

تصطاد الغزلان من على ظهر حصانك، وهو في أقصى سرعته؟

- تلك أيام قد خلت، كنا فيها متفرغين للهو والمرح، نبحث عن متع

الحياة، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال، ودخل النفس ما يعكرها..

- بحثت عنك كثيراً.. وأخيراً حدثني أحدهم بأنهم رأوك تلقي خطبة

في الأقصى، فقلت لعله صار من سكان القدس..

- لو جئت إلى جنين لدلوك علي، لكنك على ما يبدو مصر على

الإقامة في حيفا، لا تبرحها أبداً..

- أحببت حيفا كثيراً، ولعلي مقصر مع أخواتها، لا سيما جنين.

وانتبه القسام لشاب وسيم ذو لحية سوداء، تبدو عليه المهابة والوقار،

يقف خلف الشيخ فرحان، ويراقب الموقف باهتمام، سأل وهو يمد له يده..

- ابنك؟

تقدم الشاب من الشيخ عز الدين، وصافحه بحرارة..

- بل ابن عمي.. نمر السعدي.. ولولاه لما عرفت أنك هنا..

وقال نمر بنبرة تتدفق لطفاً ووداً..

- نحن نحبك في الله يا شيخ عز الدين.. ونتمنى دعواتك ورضاك.

نظر القسام إلى الشيخ فرحان، وفي عينيه فضول..

- لعلنا التقينا من قبل؟
- أنا أداوم على خطبك يوم الجمعة، منذ أن رفعت المسدس ودعوت للجهاد.
- ابتسم الشيخ عز الدين، وازداد ثقة بما زرعه في نفوس الناس، وهو يرى بعضاً من الحصاد.
- وعلق الشيخ فرحان..
- نمر شاب سيعجبك إن شاء الله.. وهو أستاذ لغة عربية.. زارني في جنين خصباً، ليحدثني عن شيخ حيفا الذي رفع المسدس في خطبة الجمعة، وطالب الناس بالجهاد ضد اليهود والإنجليز، ولما عرفت أنك أنت، قررت أن أزورك في مسجدك، الذي صار على كل لسان.
- وأردف الشيخ فرحان..
- أنا أعرف أن خطيب الجمعة يتكئ على سيف أو عصا، أما أن يشهر مسدساً، فهذه جديدة، لم يقدم عليها أحد قبلك!
- ضحك الشيخ عز الدين:
- وأنت قلتها. سأستبدل المسدس بالسيف.. ليبقى رمز الجهاد حاضراً رغم أنف الأعداء.
- ودعا الشيخ عز الدين ضيفيه إلى طعام العشاء..
- تفضلوا. بسم الله..
- قال الشيخ فرحان..
- أتذكر تلك الأيام؟..
- أيام الجهادية؟
- الجهادية التي جمعتنا في غوطة دمشق..
- يالها من أيام..

- بنفسي الكسوة.. ما أجملها من أرض، وما أروع أهلها وأطفهم.
وتنهذ القسام، وهو يصب الماء لضيفيه..
- إيه.. الله يهدي العصملي.. عندما كنت جندياً في الشام، كنت مزهواً بأنني جندي في الجيش العثماني.. جيش الخلافة العظيمة.. ولكني اكتشفت بعد حرب فاشلة خضناها، أن الخلافة قد تاهت خطاها، وأن السوس قد نخرها، فإذا بها كما تقولون في فلسطين «فستق فاضي»، ولم تلبث أن انهارت، وتركتنا بلا معين!.
- قال الشيخ فرحان، وقد طغت على ملامحه سحابة من القلق:
- ما يهمني الآن.. كيف نواجه هؤلاء الغرباء الذين تكالبوا علينا.. المهاجرون اليهود يملؤون جنين..
- ليس لنا إلا أن نتجمع من جديد.. تحت راية الجهاد..
- أنا معك.. ولكن من أين نبدأ..
- قال الشيخ نمر:
- الشباب في كل مكان متحمس للجهاد، وهو يبحث عن يقوده، ويوجه خطاه..
- أعجب الشيخ عز الدين بكلمات نمر، وتوسم فيه خيراً، بينما هتف الشيخ فرحان في حماس..
- لنضع أيدينا بأيدي بعض، ونخطط منذ الآن..
- ضحك الشيخ عز الدين..
- الحقيقة أنني احترت من منكما أكثر شباباً.. أنت أم ابن عمك..
- قال الشيخ فرحان، بنبرة تصنع فيها الجد:
- أنا أكثر شباباً، لكن نمر أصغر مني بكثير.
- ضحكوا لهذه الدعابة. ونهض الشيخ عز الدين..

- سأخبر الأهل ليروا لكما الفراش، لتتاما عندي.
 - لا تزج الجماعة، فسوف نمضي الآن..
 - ما الذي سيأخذكم إلى جنين في مثل هذه الساعة؟!
 - ومن قال لك أننا سنذهب إلى جنين؟..
- شمله القسام بنظرة متسائلة، سرعان ما استوعبها الشيخ فرحان ضاحكاً:
- أنزل عند ابن عمي نمر هنا في قرية السعدية على أطراف حيفا.
 - نمر قريب علينا إذن..
 - وسأكون في خدمتك ساعة تريد.

لم يكن زواج الشيخ حنفي وزواج الشيخ علي الحاج عبید إلا مناسبة للفرح، جمعت بين شركاء الغربية والكفاح من أبناء جبلة، الذين شردتهم محنة سوريا، فاستقروا في هذه البلاد، واستضاف الأستاذ أمين نور الله في بيته حفل الرجال، بينما أقيم حفل النساء في بيت الشيخ عز الدين، ورغم الحضور القليل الذي استقطبه الفرح، ورغم التواضع الذي تميز به هذا الزفاف المزدوج، إلا أن البهجة كانت طاغية، لا سيما عند الشيخ القسام، الذي ساهم في إنجاز هذا الزواج بين أعز طالبين من طلاب العلم، شاركاه أيام الجهاد في الساحل السوري، ورحلة الغربية في حيفا.

وبينما كان الجميع منهمكون في طعام العشاء، الذي أقيم قبل أن يزفّ الرجال العريسين إلى عش الزوجية، انتحى الشيخ عز الدين بالأستاذ رشيد الحاج إبراهيم:

- الإنجليز ما زالوا يراقبوني ياأستاذ رشيد، ويرسلون خلفي العيون..
- هذا متوقع، لكنهم يهابونك في نفس الوقت.
- يهابوني؟ أنت تمزح.
- المهم عندهم ألاّ تحمل ضدّهم السلاح.
- كنت أتمنى لو أن هذا ممكن الآن، لزلزلت الأرض تحت أقدامهم..
- هذه بريطانيا ياشيخ عز الدين.. مواجعتها تحتاج إلى استعداد طويل.

- ولكن كيف لي أن أتحرك، وعيون الإنجليز تتبغني في كل مكان! قال الأستاذ رشيد:

- يجب أن نفكر في طريقة تغطي حركتك، دون أن تلفت الأنظار إلى ما نخطط له.
- طريقة مثل ماذا؟
- شيء يسمح لك بالحركة ضمن القانون.
- مأذون مثلاً؟..
- فكرة معقولة.. في القانون من حق المأذون أن يدخل أي بيت يدعى إليه، وأن يزور أي حي أو قرية تقع ضمن المنطقة المصرح له بالعمل فيها.
- قال الشيخ عز الدين:
- ثمة فكرة أخرى كنا قد تحدثنا بها من قبل، وأراها مفيدة..
- تفكر الأستاذ رشيد..
- تقصد؟..
- أجل، لنكتب للدكتور عبد الحميد سعيد بأننا موافقون على افتتاح فرع لجمعية الشبان المسلمين في حيفا.
- وحسب قانون الجمعيات، نحن نتحرك في إطار الجمعية.
- ونحشد شتات الشباب الثائر، الذي يبحث عن دور، ويتطلع لمواجهة هذا الطغيان.
- على بركة الله.

اندلعت الثورة السورية الكبرى، فزلزلت الأرض تحت أقدام الفرنسيين، وازدهرت الآمال بفجر جديد يشرق على سوريا الجريحة، يحررها من قهر فرنسا واحتلالها الغاشم.

وتعلقت قلوب الرجال بهذا الأمل، فاستغرقتهم أخبار الأحداث والمعارك التي حملها الزوار والتجار والقادمون إلى حيفا، واشتدت الثورة، فتنادى رجال فلسطين لجمع التبرعات للشوار، ورغم أن الإنجليز راقبوا هذا التعاطف وهذه الجهود بقلق، إلا أنهم فضّلوا أن يفضّوا الطرف على مضض، تنادياً للاصطدام بالمشاعر الملتهبة، التي تأججت في فلسطين، تفاعلاً وتعاطفاً مع الثورة السورية العارمة، ضد احتلال ليسوا على غرام بحكومته على أية حال..

وبلغت الجهود ذروتها مع جولة المفتي على بلدان فلسطين، يحرض رجالها على نصره إخوانهم في دمشق، فانتصار السوريين في الشمال قوة لهم في الجنوب، وما إن وصل المفتي إلى حيفا، حتى عقد اجتماعاً مع وجهائها، وكان الشيخ عز الدين القسام والشيخ كامل القصاب في مقدمة المدعوين، والتفت المفتي إلى شيخ حيفا الذي نما إليه تألق نجمه..

- بوركت يا شيخ عز الدين، وبوركت جهودك الخيرة في نشر الوعي والعلم الشرعي في أوساط الناس.. أخبارك الطيبة تملؤنا فخراً وإكباراً..

ندت عن الشيخ القسام ابتسامة خجولة، وشت بتواضعه..

- هذا واجبي. واجب العالم أينما كان..

- نلعلك متشوق للجهاد ضد أعدائك القدامى من الفرنسيين..

- الفرنسيون لا يختلفون عن الإنجليز في حقيقتهم.. كلهم يثأرون من هذه الأمة التي هزمتهم يوماً، لكنهم حشدوا في هذه المرة كل أحقاد الدنيا، وجلبوا اليهود إلى أطهر أرض، ليدنّسوها، والبقية أنت تعرفها.. تنهد المفتي في ألم..

- صدقت يا شيخ عز الدين.. التحدي هذه المرة خطير وكبير.. نحن بحاجة لكل إخواننا المسلمين ليقفوا معنا.. لهذا تجدني متحمساً لنصرة إخواننا في الشام، حتى يكونوا لنا عوناً في مواجهة الخطر الكبير الذي يستهدف فلسطين والقدس.

وسأل الشيخ محمد مراد المفتي عن جولته:

- الحمد لله.. لقد أثبت أهل فلسطين حماساً وحرصاً على نصرته إخوانهم في سوريا، وكأنهم يؤكدون لهؤلاء الذين يسعون لتقسيم سوريا، أن هذا شعب واحد لا تفصل بينه حدود أو سدود.

وتابع الشيخ أمين وهو يهز رأسه في أسف:

- لكن ما أدمى قلبي وحرّ في نفسي، أنّ اليهود بدؤوا يغيرون وجه البلاد.. أينما ذهبنا وجدتهم في وجهك زرافات ووحداناً، والآن يتحدثون عن موجة هجرة ضخمة قادمة من بولندا..

قال الشيخ عز الدين، وقد استفزّه الخبر:

- لا بد من موقف صارم يضع لهذا الطوفان حداً.

- عندما تكون ضعيفاً، قد تكون السياسة أجدى في تحصيل الحقوق.. لو انتزعنا من الإنجليز وعداً بالحفاظ على حقوق العرب في هذه البلاد، لأوقفنا تدفق المهاجرين اليهود بعض الوقت، ريثما نحشد للأمر ما يستحقه.

علق الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم:

- لكن الإنجليز ليس لهم وعد أو أمان، وقد جربهم الشريف حسين

فباعوه، وجربهم الملك فيصل فخذلوه، وهم يمكّنون لليهود علناً بالقانون والقوة معاً..

قال الشيخ أمين بنبرة واثقة:

- يا إخوان يجب أن نقلق من اليهود أكثر، فالإنجليز قوة انتداب سترحل يوماً، لكن اليهودي الذي يشتري الأرض ويزرعها، ويتزوج وينجب هنا، لن نستطيع أن نطرده منها عندما يعيش في البلد، ولديه كوشان الأرض، وحق التصويت في البلدية، وفي يده مصالح التجارة والزراعة والصناعة..

تساءل الشيخ عز الدين:

- وهل سننتظر حتى تأتي تلك اللحظة؟

- نحن نجتهد ياشيخ عز الدين، ولكن التحدي أكبر منّا..

علق الشيخ كامل القصاب:

- الإنجليز هم الذين يمنحون الكوشان ويشرّعونه لليهودي الغريب، ويمنحونه حق التصويت في البلديات، ويعطونه ما لا يستحق من حقوق.. هذه قوانين باطلة، ولا يجوز أن نعترف بها..

- مع ذلك أرى ألا نكثر من استفزاز الإنجليز في هذه المرحلة، حتى لا نجعل منهم جبهة واحدة مع اليهود.. لعلّ الأهم الآن أن نشجع أهل البلاد على رفض عملية بيع الأراضي، وقد أصدرت فتوى تحرّم ذلك، وتصلني أنباء طيبة عن جهودكم هنا في حيفا في هذا السبيل، وجهود الإخوان في عكا ويافا وصفد وغيرها..

قال الشيخ عز الدين في حماس:

- لكن الناس مساكين ياشيخ أمين.. قلّما نسمع عن فلاح باع أرضه.. الذين يبيعون هم أولئك الملاك الكبار، الذين أعماهم مال اليهود، فألغوا ضمائرهم، وراحوا يبيعون الأراضي بالجملة.

قال المفتي، وهو سعيد بهذا الحماس:

- المشكلة أن أكثر هؤلاء الملاك، يقيمون بعيداً في بيروت والشام..
وليس لنا عليهم سلطان.

تدخل الأستاذ رشيد:

- ليت الأمر وقف عند سماسرة الأراضي، لقلنا إغراء بالمال وشراء
للذمم.. لكن سلطة الانتداب - كما تعرف - توزع الأراضي التي آلت لها بعد
سقوط الخلافة على اليهود..

- أنا معكم يا إخوان. لسنا ساكتين، لكن دلّوني على طريق غير
هذا.. عليهم من الله ما يستحقون.

قال الشيخ عز الدين بنبرة بدا فيها شيء من اللوم..

- لن يوقف الدعاء هذه الهجرة الأثمة بعد اليوم يا شيخ أمين.

ران صمت. كانت ملاحظة قاسية لم يتوقعها الحاضرون من الشيخ عز
الدين، وخشي الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم صديق الشيخ أمين، أن يفهم
الكلام على غير ما أراد القسام، الذي يبدو أن الحماس لم يسعفه في
اختيار كلماته، قال مستدركاً، قبل أن يذهب خيال الشيخ أمين بعيداً:

- الشيخ عز الدين يقصد أن الهجرة لن تتوقف، ما لم تجد مقاومة
حقيقية بكل ما استطاع..

ابتسم الشيخ أمين.. كان ألمعياً بحيث استوعب اندفاعه الشيخ عز
الدين، ومحاولة الأستاذ رشيد لتهديب ما أوحى به كلمات القسام من غمز
غير مقصود، بمنطق أراد هادئاً وعاقلاً في مجلس مفتوح، حتى لا يسجل
عليه الإنجليز مواقف لا يريد أن تترك جهوده الآن، وهو يحاول تحييدهم
في هذا الصراع مع المدّ الصهيوني العارم. قال بنبرة هادئة لا تتم عن أي
انزعاج قد يكون الحاضرون توقعوه:

- ما يثج الصدر أن ترى الإخوان في الشام يحملون همّ فلسطين،
مثلاً نحمل اليوم همّ ثورتهم في سوريا، ونحشد الجهود لنصرتها.. هذا
يؤكد وحدة سوريا التي أردناها كاملة، عندما التقينا في المؤتمر السوري
العام قبل سنوات، وبايعنا الملك فيصل ملكاً عليها، لكنه للأسف لم يصمد
أمام سطوة غورو، فانسحب مبكراً، وتركنا نقلع شوكتنا بأيدينا.

قال الشيخ عز الدين، في محاولة لتبديد ما ألقته به كلماته من
ظلال، تجاوزها الشيخ أمين بدماثته وحكمته:

- أردت أن أقول أن المهاجرين اليهود لو فقدوا الأمن فوق أرضنا،
لتردّد من هاجر في البقاء، ولتردّد من لم يهاجر قبل أن يحزم حقائبه!
هزّ الشيخ أمين رأسه في مرارة.. كان يعرف هذا وأكثر، لكنه يشعر أن
يديه مكبلتان، وهمس بنبرة أشبه بالتفويض، وهو يتأمل الوجوه، ويختبر وقع
كلماته عليها:

- بوركت يا شيخ عز الدين.. واعلم أنني قد سمعت عن جهودك،
والتنافس الشباب حولك، فامض لما أردت، ولك منا كل الدعم والعرفان..
ولكن سدّد وقارب، فليست الرياح دائماً كما تشتهي السفن..
على أن الشيخ أمين، استدرك قائلاً، وهو يتحدث بنبرة مرحة، وكأنه
يروى طرفة نادرة:

- سألني شاب بعد خطبة الجمعة في المسجد الأقصى، كنت قد دعوت
فيها إلى تأسيس فرق للكشافة، وتشجيع شباب فلسطين للانضمام إليها،
قال: ما هو حكم نظام الكشافة في الإسلام يا شيخ، وهل من الحكمة أن
نقلد الإنجليز الذين اخترعوا نظام الكشافة؟..

قلت له: يا بني، هل تعرف ماهو نظام الكشافة؟..

قال: نعم. نظام ابتكره قائد إنكليزي عندما كان محاصراً في هولندا،

لتنظيم الحراسة وتدريب جنوده على الدفاع عن النفس.

قلت له: وهل هذا يتعارض مع الإسلام؟

قال: لا.

قلت له: ماضرك لو كان اسم هذا النظام الكشافة أو غيره؟..

قال: ولكنه تقليد للإنكليز وتقليد الكفار حرام.

قلت له: يا بني.. لماذا لا تقول أن هذا النظام فيه حكمة، والحكمة

ضالة المؤمن أتى وجدها فهو أحق بها؟.

قال: لكننا اليوم لسنا في حصار، حتى نلجأ إلى مثل هذا النظام!.

وتابع الشيخ أمين ضاحكاً:

- قلت له في هذه معك حق، والتفتُّ إلى من حولي، وسألت:

- هل نحن في حالة حصار يا إخوان؟. فانفجروا ضاحكين.

ضح المجلس بالضحك، ونظر الجميع إلى المفتي بودّ وإعجاب، واطمأن

الشيخ عز الدين لما رمى إليه الشيخ أمين من تلميح ذكي، وأدرك الجميع

أن المفتي يدعو للإعداد، ويشجع الشباب على الاستعداد العسكري للمواجهة

القادمة، من خلال نظام الكشافة الذي راجَ مؤخراً في العالم.

وتبادل الشيخ عز الدين ابتسامة راضية مع صديقه الأستاذ رشيد، لقد

قال المفتي بحكمة الدبلوماسي مايريد، دون أن يتبنى فعلاً ما يقول!.

وسأل سائل:

- كيف ستوصلون الأموال للثوار في سوريا؟

التفت القسام إلى رجل المهمات الصعبة، فالتقت عنده الأنظار،

وضحك الحاج أمين الحسيني:

- ليس لها إلاك يا شيخ كامل.

اغرورقت عيناه.. كان يتطلع لشيء يفعلُه من أجل الشام.



كان اللقاء حاشداً للاحتفال بالإعلان عن افتتاح فرع جمعية الشباب المسلمين في حيفا، وتكلم الدكتور عبد الحميد سعيد، ممثل رئيس جماعة الشباب المسلمين في مصر عن رسالة الحركة وأهدافها في حشد الشباب المسلم، وتنمية طاقاته في مجالات الفكر والثقافة والرياضة، وملء فراغهم بالأنشطة المفيدة، وحمايتهم من الفساد والضياع.

وقال أن جمعية الشبان المسلمين التي لاقت إقبالاً بين جموع الشباب المصري، رأت أن تنقل تجربتها إلى البلاد العربية، تعبيراً عن الوحدة التي تجمع الشباب العرب على قيم الإسلام والعروبة الأصيلة..

وتكلم الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم، فرحب بالأستاذ عبد الحميد سعيد في فلسطين، وبيّن أن الشباب الفلسطيني الذي يعتز بانتمائه للوطن السوري الذي يجري تمزيقه الآن، ويعتزّ بانتمائه العربي والإسلامي الذي يشكل هويته الحضارية، يحتاج إلى جمعية كجمعية الشبان المسلمين لتستوعب طاقاته، وشكر الجمعية الأم لموافقتها على افتتاح فرع لها في فلسطين.

وأضاف: على أن شباب فلسطين يواجه اليوم تحدياً خاصاً جرّاء تنامي الهجرة اليهودية، وحذر من أن اليهود المهاجرين يغلب عليهم أنهم جميعاً في سن الشباب، من القادرين على العمل والإنتاج، ومن الجنسين، وقد بدؤوا يزاحمون الشباب العرب في فرص العمل، عدا عن فقدان الكثير من الشباب لعملهم في أراضيهم، بعد أن اشتراها اليهود وطردوهم منها عنوة.

وجاء دور الشيخ عز الدين القسام، فابتدأ كلمته من حيث انتهى الأستاذ رشيد في تعجبه من شبوية اليهود الأجانب، الذين تقذف بهم شواطئ يافا وحيفا كل يوم، فقال:

- أوافق أخي الأستاذ رشيد فيما قال، وأضيف بأن هؤلاء المهاجرين فعلاً هم من القادرين على العمل والإنتاج ..

وصمت، وهو يستعرض الحضور من المنصة، وكأنه ينبههم إلى ما سيقول:

- والحرب أيضاً.

واستدرك ساخراً:

- ورغم أنني لن أضعهم في ذمتي اليوم، حتى لا أرح مشاعر المندوب السامي..

ضحك الحاضرون، بينما تابع وهو يميل للجد:

- لكنني أعتقد أن احتشاد هذه الألوف المؤلفة من الشباب اليهودي القادم من بلاد بعيدة على أرض فلسطين، وانهماكهم في بناء المستعمرات، ومزاحمة شبابنا في الزراعة والتجارة، وتكاثرهم في جو من الحماية والدعم المالي والسياسي من حلفائهم الإنجليز، ومنحهم الجنسية الفلسطينية بعد سنتين حسب قوانين الانتداب الذي فرض علينا، ولم نُستشر فيه.. كل هذا، يعدّ إعلان حربٍ على فلسطين وسوريا والعرب والمسلمين.

والتهب الحفل بالتصفيق لجرأة الشيخ عز الدين وكلماته، التي مسّت المخاوف التي تشغل وجدان الجميع إزاء هذا التمدد اليهودي، الذي تمادى إلى درجة تدعو للغضب..

وتابع الشيخ بنبرة زادت الحفل التهايباً..

- إن اليهود (الأجانب) - بين قوسين - كما أحب أن أميزهم عن اليهود الأصليين الذين نشأوا معنا، ولهم مالنا وعليهم ماعلينا، كما أوصى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.. صلّوا عليه..

ضجت القاعة بالصلاة والسلام على النبي الكريم..

- هؤلاء المهاجرون الأغراب، الذين سمّمت الصهيونية عقولهم، وأقنعتهم بأن لهم حقّ ديني في فلسطين، يتمتعون اليوم بدعم وحماية من الانتداب البريطاني، ليس لأنّ الانكليز مغرمون باليهود، ولا الفرنسيين الذين أيدوا قرار إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، بل لأنّ الدولتين الظالمتين أرادت أن تزرعا في أرضكم وطناً غريباً لقوم غرباء، يثيرون المشاكل والأحقاد في بلاد الشام، حتى لا تقوم لها قائمة في المستقبل.. أتدرون لماذا؟

وران صمت بين الشباب، وهم يتابعون هذه المعاني الجديدة، التي تكشف عن جوهر التحدي الذي تعيشه البلاد، ويتأملون في كيدٍ يتجاوز بيع أرضٍ ليهودي مدجج بالمال..

وتابع القسام يجب عن سؤاله..

- لأن بلاد الشام تشكّل جبهة الشرق الصامدة عبر التاريخ.. دحرت الرومان في اليرموك، وقادت جيوش الفتح أيام الأمويين، حتى وصلت إلى الأندلس، فأقامت فيها أزهى حضارة، وهزمت حملات أوروبا الصليبية التي تكالبت على الأمة، ومرغت أنوف الفرنجة في حطين.. لذلك جاؤوا اليوم ينتقمون.. وجاؤوا معهم بهؤلاء المهاجرين ليزرعوهم في فلسطيننا، تمهيداً لإقامة وطن حرام.

ثم بنبرة تفيض بالغضب..

- لقد آن لشباب هذه الأمة أن يوقفوا هذا العدوان، وهذا التحدي السافر الذي يستخفّ بعقولنا وكرامتنا.. هذه هي الرسالة الأولى للشبان المسلمين في فلسطين اليوم.. عليهم أن يصرخوا في وجه الغزاة بملء فمهم وإرادتهم «فلسطين ليست للبيع».. «فلسطين ليست للبيع»..

وضجت القاعة بالهتاف، وراح الشبان يرددون كلمات القسام بحماس.. «فلسطين ليست للبيع».. فكانت أبلغ من كل ما يمكن أن يقال، وجرت الانتخابات، فأجمعت الأصوات على اختيار الشيخ عز الدين القسام رئيساً لجمعية الشبان المسلمين في حيفا. وبدأت مرحلة جديدة من جهاد القسام، الذي كان يصغي لضمير فلسطين، ويعرف كيف يحشد القلوب حوله لهدف كبير.



- الشيخ كامل القصاب في حيفا.
- قطب الشيخ عز الدين، وهو يصغي للشيخ محمد الحنفي..
- أين رأيته؟
- قابلته قرب بيته في الحليصة، وهو يترجل من الحنطور الذي حمّله من محطة القطار.
- قال لك شيئاً؟
- يقرئك السلام، ويبلغك أنه سيرتاح قليلاً، ثم يأتي ليصلي العصر هنا في الاستقلال..
- سألتُه عن الأخبار؟
- قال اسألوا الله الفرج.
- أخشى أن الثورة قد أعمدت سيوفها.
- وأنهى الشيخ تلاوته، ثم غادر المسجد، وهو واجم.. واستقبلته زوجته بالترحاب، وقد أعدت له الطعام كعادته بعد صلاة الظهر. جلس إلى مائدة الغداء وهو ساهم حزين، لكنه لم يستطع أن يضع الطعام في فمه..
- ما لك لا تأكل؟
- قال بنيرة شابها الأسى:
- كنت أظن أن ساعة الفرنسيين قد حانت..
- هل من أخبار؟
- كان يجب أن أذهب إلى الشيخ كامل من فوري لأعرف ما آلت إليه الأمور..
- ولم يستطع صبراً. ترك أهله يتابعون الطعام، وتوجه نحو بيت الشيخ

كامل، لكنه تردد.. «قد يكون نائماً الآن.. ولم يبق لأذان العصر الكثير».. وقفل عائداً للمسجد.. كان المسجد فارغاً إلا من عابر سبيل، ضاق به وقته، فجاء يصلي.. وراح الشيخ القسام ينتظر أذان العصر بفارغ الصبر..

وجاء المؤذن قبيل العصر، فوجد القسام قد سبقه على غير العادة في مثل هذا الوقت، الذي غالباً ما يخصّ به أسرته، وألفاه يذرع المسجد جيئةً وذهاباً، وهو غارق في التأمل والوجوم..

وابتدره القسام فجأة:

- حان الأذان؟

- ما زال هناك بعض الوقت..

- أسرع ما استطعت!..

ابتسم المؤذن ولم ينبس. يسرع في ماذا؟.. العصر هو العصر!. وأدرك أن ثمة ما يشغل الشيخ هذا العصر، وماهي إلا دقائق حتى انطلق الأذان، فاتجه القسام إلى باب المسجد يرقب القادمين.. «أين أنت يا شيخ كامل؟» وحن موعده صلاة الجماعة، والشيخ عز الدين واقف لدى الباب، فاقترب منه المؤذن، وهو مشفق عليه..

- هل نقيم الصلاة؟

- أه.. نعم، نعم.. و

وما لبث أن استدرك، وقد رأى الشيخ كامل قادماً مع الشيخ محمد مراد..

- تريث قليلاً.

وأكبر فيه الشيخ كامل أن يستقبله لدى باب المسجد، وتعانق

الرجلان.. واستعجله القسام، وهو يسلم على الشيخ مراد.

- بشر يا شيخ كامل..

- الطريق ما زال طويلاً يا عز الدين..
 - ماذا تقصد؟.
 - أعداؤنا ليسوا سهلين كما تخيل البعض.
 - لا تقل لي أن الثورة قد انتهت.
 - لنُصَلِّ العصر، ثم نتكلم.
- وبعد الصلاة انتحى الشيخ عز الدين بالشيخ كامل القصاب والشيخ مراد..

- طمئني يا شيخ كامل؟..
 - للأسف.. قوة الفرنساوي العاتية كسرت في النهاية شوكة المجاهدين..
 - لا حول ولا قوة إلا بالله.
 - الرجال فعلوا ما بوسعهم.. ولكن..
- وعلق الشيخ محمد مراد:
- قاتلهم الله.. فرنسا وبريطانيا واليهود تقاسموا بلاد الشام، وأذّبوا.
- قال الشيخ كامل:
- المشكلة كانت في قلة السلاح..
- ثم التفت إلى الشيخ مراد:
- ومع هذا فالشكر لأهل فلسطين على ما قدموه للثورة السورية من أموال وتبرعات..

- قال الشيخ عز الدين، والألم يعتصر فؤاده:
- الطريق على ما يبدو طويلٌ جداً.
 - وعلينا أن نستعد أكثر..
 - لكن الثورة يجب أن تستمر، مهما كان الفرنساوي متفوقاً علينا بالسلاح.

- هذا ماتعاهد عليه رجال سوريا، ولكن لا تدري متى ينهضون من جديد.

واستدرك القصاب متسائلاً:

- ما أخباركم هنا؟

- كلانا في الهمّ شام..

قال الشيخ مراد..

- كنت عند الحاج أمين الحسيني منذ أسبوع في القدس، وأخبرني أن اليهود مازالوا يتجرؤون على المقدسات بين الحين والحين، ويعتدون على حرمة حائط البراق.. إنهم يحاولون أن يحتلوا ساحة البراق بأية وسيلة.

هز الشيخ كامل رأسه في قلق:

- هذا التحدي المتكرر يعني أنهم يزدادون قوة.. يريدون أن يفرضوا وجودهم.

- وبريطانيا تتفرج.. وكأنها تشجعهم على التماذي!

ونهض الشيخ عز الدين، مصراً أن يصحبهما إلى المنزل، فاستبطاءه الشيخ كامل:

- نسيت أن أقول لك.. أخوك فخر الدين يقرئك السلام، ويقول لك

أن الوالدة بخير، وقد يزورناك في حيفا عما قريب.



كانوا أربعة وهو خامسهم.. أبو إبراهيم، ومحمود زعرورة، والعبد قاسم،
ومحمد صالح الحمد..

وكان الجو في مرج بني عامر غارق في سكون مهيب، ورائحة الطبيعة
قد جمعت عقب الأزهار والنباتات والأشجار، فصنعت منه عطرها البديع،
ليخلع على المكان سحره الخاص..

وراحوا يخوضون في الظلام، في طريقهم نحو خميلة قريبة، تلوح
كسفينة هائلة وسط بحر من حقول القمح، الذي نضج، وأمسى قريباً من
الحصاد.

وتحركت النسائم، فأرسلت السنابل حفيفاً ناعماً، وتمايلت الأشجار،
فوشوشت للرجال بأنسٍ سكب في وجدانهم إحساساً فريداً.

وتوقف الشيخ عز الدين برهة يتأمل المكان، الذي حولته العتمة إلى
لوحة فاتنة، يضيء حلكتها بدرٌ منيرٌ يسعى نحو الاكتمال، فيلقي بخيوطه
الزرقاء فوق معالمها، لتكشف بعض فتنها الخفية، التي كانت تتألق بها
طيلة النهار..

وأشار القسام إلى شجرة تين قريبة، فجلسوا تحتها، وهم يتأملون
الآفاق الممتدة على ضوء القمر..

وفاجأهم الشيخ بسؤال:

- أستمعون ما أسمع؟

تبادل الرجال نظرة..

لا يسمعون سوى صوت الطبيعة الخلاب، وهي تأوي إلى النوم، لتطلق
حديث كائناتها، التي كانت متوارية خلف ضوضاء النهار..

قال يفكّ لغز الكلام الخفي الذي سمعه، ولم يدركوه..
 - لو أصغيتم حقاً، لسمعتهم صهيل الخيل، وصليل السيوف.. وصوت
 التكبير وهو يهز المكان.. صوت المجاهدين وهم يخوضون معركة التحرير
 ضد جيوش المغول، ويدحرونهم هنا على هذه الأرض.. في معركة عين
 جالوت.. ولعلي أسمع قريباً من هنا على بُعد سويقات صهيل خيل صلاح
 الدين، وهي تتوجه إلى طبريا، ليخوض فرسانها معركة حطين، ويحرروا
 القدس من الصليبيين..

تبادل الرجال نظرة باسمة.. يعرفون شيخهم خطيباً مفوهاً، لكنها المرة
 الأولى التي يجدون فيه أديباً بارعاً، يستنطق المكان، ويصغي عبر الزمان
 إلى صوت التاريخ!.

وتابع القسام حديثه بنبرة واثقة، وروح مترعة باليقين..
 - وما هم الغزاة يعودون اليوم، وهم أكثر مكرراً وقوة، وما هي
 فلسطين تسقط بين براثنهم، ولا سبيل للخلاص إلا بالجهاد والاستشهاد،
 فمن يبايعني على الموت؟..

كان وقع كلمات القسام في نفوس الرجال، كوقع الماء البارد على
 النفس التي أضناها الظمأ، حتى إذا ما ابتلت العروق، بُعثت فيها الروح من
 جديد..

وتعاهدوا على تشكيل عصابة تتولى الإعداد للجهاد، وحشد الرجال
 والسلاح ليوم لا بدّ قادم، عندما يأذن الله للذين يهدد اليهود والإنجليز
 حاضرهم ومستقبلهم بأنهم ظلموا، ويصبح الجهاد فرض عين لا يتخلف عنه
 إلا متخاذل أو جبان.

«ولكن يا إخوان»..

تابع الشيخ وهو يتحدث بنبرة أقرب إلى الهمس:

- «أوصيكم ونفسي أولاً بالكتمان.. ثم الكتمان... فعدونا ماكر.. الإنجليز الذين تعرفون، حريصون على مراقبة كل حر، ليستبقوا أي حركة، ويحبطوها، قبل أن تفاجئهم.. وهم هنا ليملكوا لليهود، في خطة خبيثة لزرعهم في قلب الشام، أرض الرباط التي بارك الله فيها حول المسجد الأقصى..»

همس العبد قاسم:

- خستوا والله..

تابع الشيخ:

- واليهود يسعون في هذه البلاد ليقيموا وطناً، وأخشى أن هؤلاء المهاجرين طلائع جيش يتشكل الآن، ليحمي مشروعهم.. ونحن قلة.. لذلك أريد الرجل منّا بألف.. فلنبن عصبتنا بصمت.. ولا نضم إليها إلا المخلص والكتوم.. فإذا حانت الساعة كان كل رجل منّا بأمة، وكل مقاتل منّا قائد، يستطيع أن يحرك الناس، ويحشدهم ضد هذا الحلف الخبيث بين الإنجليز واليهود..

وتساءل محمد صالح..

- لكنك يا شيخ عز الدين تستطيع أن تحشد المئات، فما معنى أن

تختارنا وحدنا؟!.

ابتسم الشيخ.

- لستم وحدكم!.

- من؟.

- الخير فيّ وفي أمّتي إلى يوم القيامة..

وأضاف بلهجة واثقة..

- سوف تجد عما قريب الكثيرين ممن تعرف أو لا تعرف، وهم

يتحركون بنفس الاتجاه، وقد يقومون بمهام تشبه ما قد يطلب منك، فاتركهم يمضون لما أمروا به، ولا تسألهم عما يقومون به، وادع لهم بالسداد، إلا أن يكونوا في محنة، فمدّ لهم يد العون، في حدود ما يطلبونه منك.

وتابع الشيخ..

- منذ اليوم سيكون أبو إبراهيم قائداً لكم، وعندما تحتاجون إليّ، أرسلوا لي عن طريق أخيكم محمود زعرورة.
- نحتاج إلى بندقية للتدريب.
- يجمع كل واحد منا مبلغاً صغيراً ليشترك في الجهاد بماله، ومن زاد فله الأجر والثواب، واتركوا الباقي عليّ.
- وانفض الجمع وقد عرف كل واحد دوره، واتفقوا أن يبقوا تحركاتهم بعيداً عن الشيخ، حتى يتابع دوره في قيادة الحركة الوليدة، والحشد لها من خلال جامع الاستقلال وجمعية الشبان المسلمين.



بعد كل فجر كان الشيخ عز الدين يخطط لرحلة جديدة.. يزور فيها قرية أو بلدة أو مدينة.. يدعو الشباب للانضمام إلى جمعية الشبان المسلمين، ولا يلبث أن يعود بعد أسابيع ليدشن فرعاً للجمعية هناك، وخلال هذه اللقاءات والاجتماعات كان القسام يبشر بمستقبل ليس له إلا شباب فلسطين، الذين يتدفقون حباً وحماسةً لوطنهم وأمتهم، واستعداداً لفدائه والدفاع عنه بالمهج والأرواح..

وعندما كان الشباب يسألونه عن الخطوة التالية.. كان يحكي لهم كيف بدأ النبي صلى الله وحيداً، وعاد إلى مكة فاتحاً ومنصوراً، ويوصيهم دائماً أن يقرؤوا ما بين السطور، وهم أذكي من أن يخطئوا الطريق..

وفي كل بلدة أو قرية يزورها كان يتأمل في هؤلاء الشباب، فيختار من هم أكثر إخلاصاً وانضباطاً، ويقربهم منه، ويعتني بتوجيههم وتثقيفهم، ليكونوا يوماً رجال الغد القادم..

واستهلكت نشاطات الشبان المسلمين جلّ وقته، فكانت أسرته أول من افتقده، وشعر بوطأة مشاغله الجديدة.

واليوم عاد الشيخ من صفورية، بعد أن شارك في الاحتفال، الذي أقامه الشبان المسلمين بمناسبة افتتاح فرع الجمعية هناك، فاستغرق ذلك كلّ النهار، وهاهو يعود أدراجه قريباً من منتصف الليل..

أغلق الباب بهدوء، ومضى إلى زوجته، فأيقظها بلطف، وحيّاها بنبرة تفيض ودّاً واعتذاراً..

نظرت إليه بعينين ذابلتين، وهمست تردّ التحية، وهي تبسم ابتسامة

وادعة، تنمّ عن تلك الطيبة والسماحة التي طالما أحبهما فيها، فقال، وهو يتأمل عشاءه الذي انتظر على ما يبدو طويلاً:

- اعذريني يا أم محمد، لقد تأخرت مضطراً.

- لا بأس.. المهم أنت بخير؟

- الحمد لله.. كان احتفالاً رائعاً.. شارك فيه مئات الشباب من الناصرة وحيفا والقرى المجاورة، شباب مثل الورد يا أمينة.. كله متحمس لدينه وأمته..

- لكنك تأخرت كثيراً.

صمت ولم يرد. فلم تلخّ في معرفة سبب التأخير، إذ اعتادت شغف زوجها بالكتمان، وسألته:

- هل أنت مطمئن إلى ما تخطط له؟

- أنا عقلت، والباقي على الله.

- نعم الاتكال.

وأسرعت لتسخن له حساء العدس الذي كان قد برد..

وأراد الشيخ أن يستوقفها ليقول لها بأنه قد تناول العشاء حيث كان، لكنه شعر بأنه سيجرح شعورها بعد كل هذا الانتظار، فأثر على غير العادة أن يتناول عشاءين في يوم واحد، حتى لا يخذل شريكة عمره، التي ما ضنّت عليه يوماً بالصبر أو الانتظار..

وعادت وهي تحمل الإناء بحذر:

- احزر من جاء لزيارتنا اليوم.

نظر إليها الشيخ وهو يخمّن، قالت وهي تضع الإناء أمامه، وتقطع له ليمونة ريانة، قطفتها له من شجرة الليمون الوحيدة التي ترعاها في الدار..

- لن تصدق..

- من؟
- تلميذتك التي عقدت قرانها عند قدومك لحيفا..
- ابتسم الشيخ عز الدين..
- أمانة؟
- هي.
- المسكينة تريد أن تنجب، ولم توفق حتى الآن..
- طلبت أن أتوسط لديك لتدعو لها.. يراودها وسواس بأنها قد أغضبت الله في شيء، فعاقبها بعدم الإنجاب.
- لا حول ولا قوة إلا بالله..
- دللتها على داية مشهورة.
- قال الشيخ عز الدين، وهو يعصر مزيداً من الليمون فوق حساء العدس الذي يحبه.
- حسناً فعلت. ربنا يكرمها وتنجب الذرية الصالحة.
- وضحكت، أم محمد فجأة..
- لو تعلم ماذا قالت لي المسكينة؟
- ماذا؟!
- قالت أشتهي ولداً صالحاً يكون مجاهداً كالشيخ القسام، ونذرت إن رزقها الله بولد أن تسميه عز الدين!.
- تأثر بكلام الفتاة، وشعر بأنه أمام امتحان خطير..
- لو تعلمين كم أشعر بالمسؤولية.. محبة الناس لي، وثقتهم بي، تدفعني للعمل أكثر في سبيل خدمة الناس..
- نظرت إليه زوجته في إكبار..
- لعلّ هذا ماجعلها تعشقه، وتصبر عليه..

ازدادت شهرة القسام في فلسطين، وأصبح مسجد الاستقلال مقصد أهل العلم وطلاب الثورة، والباحثين عن صوت يعبر عما يجول في خاطرهم من قلق وغضب وثورة.. صوت يسمي الأشياء بأسمائها، ويصف الداء والدواء، يشحذ العزائم، ويحشد الجهود حول وطن مهدد..

وتحول مسجد الاستقلال إلى خلية نحل.. درس أو وفد بعد كل صلاة، وزيارات لا تتوقف لشباب يتوقون للانفراد بالشيخ، يستفتونه في التمرد على سلطة الانتداب، واستخدام السلاح من أجل وقف تدفق المهاجرين اليهود، وتهديد مستعمراتهم التي تنمو وتكبر..

واليوم كان درس القسام عن أحكام الشهيد في الإسلام، وبعد أن انتهى تقدم من الشيخ شاب أنيق، تبدو عليه سيماء النعمة، فألقى عليه السلام، وصافحه بجرارة..

شدّ الشيخ على يده، وهو يرقب أنداء الدمع التي كانت تتلألأ في مقلتيه، وكان قد لاحظ مدى تفاعله مع كلماته أثناء الدرس.

قال الشاب بنبرة واثقة:

- ادع لي يا شيخنا أن أكتب في الشهداء.

هزت كلمات الشاب روح القسام من الأعماق، تأمل هذه الوسامة، وأعجب بهذا التوق الذي يبديه الشاب للشهادة، بينما غيره من الشباب كانوا بالأمس القريب يتدافعون في شارع الملوك، لحضور حفلة المطربة أسمهان.

وردّ الشيخ على الشاب وهو يمسك بكتفه في ودّ وإكبار:

- كتب الله لك الخير والنجاح في كل خطواتك يا بني.. لم أرك في

المسجد من قبل، أأنت من هنا؟..

- بل من صفد.. اسمي فؤاد حجازي.. حدثني صديق عن دروسك وأفكارك، فانتهزت فرصة وجودي هنا، لأحظى بلقاء جنابك الكريم.
- أهلاً بك يا بني، وماذا تعمل؟
- ما زلت أبحث عن عمل.. تخرجت منذ شهر من الجامعة الأمريكية في بيروت، وجئت إلى حيفا أبحث عن وظيفة.
- يا أهلاً.. وفقك الله في مسعاك.
- ادع لي يا شيخي بالشهادة!.. وطّنت نفسي أن تكون هذه نيتي إلى أن ألقى الله عز وجل.
- أعجب الشيخ عز الدين بإصرار الشاب!..
- كتبنا الله جميعاً من الشهداء في سبيله..
- فلسطين تضيع يا أستاذ، ولا بد أن يجد هؤلاء الإنجليز والصهاينة من يرد كيدهم وقهرهم.
- صدقت يا بني.. ولكن لا بد من الإعداد والاستعداد، حتى يأذن الله بقدره.
- رأيت إلى مستعمراتهم في الجليل.. لقد زادت الأمور عن الحد، ولم نعد نطبق هذا الاستفزاز.
- صدقت، يتصرفون وكأنهم أصحاب البلاد..
- تنهد فؤاد حجازي، قال بحرقة وألم:
- حدّثني قريب لي من القدس عمّا يفعله اليهود للسيطرة على حائط البراق، وكيف أن الإنجليز سمحوا لهم بإحضار الكراسي لممارسة شعائرهم عند الحائط، فماذا بقي يا شيخ؟! الأمور أوضحت من الشمس، ونحن جالسون نتفرج.
- وأذن لصلاة العشاء، فانتظمت الصفوف خلف الشيخ القسام، وهو يتلو

آيات الجهاد في سورة التوبة، وبعد الصلاة بحث الشيخ عن ذلك الشاب
الذي التقاه، فلم يجد له أثراً..
وشعر الشيخ عز الدين بالأسف..
كان يود أن يصارح هذا الشاب الرائع بشيء.

داهم الطلق أمينة نعنوع زوجة الشيخ عز الدين، فأرسلت ميمنة أختيها خديجة وعائشة إلى المسجد، لتخبرا أبوهنَّ بضرورة إحضار الداية، ولمح الشيخ حنفي البنيتين، فهرع إليهما بقلق:

- ماذا تفعلان هنا؟.

قالت عائشة:

- أرسلتنا ميمنة. أمنا تصرخ من الألم، ميمنة قالت يجب أن يحضر

أبونا الداية فوراً..

- الداية؟.

وهرع إلى الشيخ عز الدين، الذي كان مشغولاً مع شباب جاؤوا يزورونه

من برقين..

- ماذا لديك ياشيخ حنفي؟

وأراد الشيخ حنفي أن يتكلم، لكن يده التي أشارت إلى البنيتين سبقت

كلامه، فانخلع قلب القسام لرؤية فلذتي كبده لدى باب الاستقلال..

- عن إذنكم يا إخوان..

ونهض بسرعة

- ماذا حدث؟

أجابت خديجة:

- ميمنة قالت أمنا تريد الداية، وهي تتألم كثيراً..

نظر القسام إلى الشيخ حنفي، يستغيث به.

- الداية أمّ العبد التي تقيم في شارع الملوك.

- سأحضرها بسرعة..

واعتذر الشيخ من جلسائه، وأسرع إلى البيت بصحبة صغيرتيه، والقلق يأكل صدره على رقيقة عمره، ولم تمض سوى نصف ساعة حتى توقف حنطور عند الباب، وترجلت منه امرأة توجهت إلى غرفة أمينة على الفور.. ودلف الشيخ عز الدين مع صغيرتيه إلى الغرفة المجاورة، وطلب من ميمنة أن تظلّ في المطبخ، لتلبي الداية فيما تحتاجه.. وبكت عائشة، وهي تصغي لصراخ أمها، وقد استبدّ بها الألم، فراح أبوها يواسيها..

- لا تبك يا عائشة، سيكرمنا الله عز وجل، ويجعل الله بعد العسر يسراً، ألا تريدان أختاً صغيرة تلاعبها وتكاغيها..

قالت خديجة معترضة:

- بل نريد أختاً يا أبي..

قرصته كلماتها في موطن وجع، لكم يتوق إلى الولد، لكنه يوطن نفسه على ابنة رابعة، فأغلب ظنه أن نسله كله من البنات، وهو راضٍ بما قسمه الخالق عز وجل، وسعيد ببنياته اللواتي يملأنّ عليه دنياه بهجة وسعادة.

واشتدّ الطلق، وازداد صراخ الأم، فضمّ بنتيه إلى صدره، وقلبه يخفق عطفاً على زوجته، وإشفاقاً عليها من هذه النوبات الشديدة، التي لم تألفها في الولادات السابقة، وراح يدعو لها بقلب ضارع، وروح فياضة بالحنان..

وتوقف صراخ الأم فجأة، فتوقف معه قلب الشيخ عز الدين، لكن صوتاً آخر انبثق من أعماق الصمت، فحرك فيه مشاعر الأبوة الجارفة، فهرع إلى الباب، وألقى ميمنة تطل عليه بالبشرى..

- أُمي ولدَتْ، وجاءت لك بمحمد.

تهللت أساريه، ونطقت عيناه بفرحة لم تعدها ميمنة فيهما من قبل..

- محمد!؟

- مثل القمر.

- وأمك؟ كيف هي الآن؟؟

- تقرئك السلام، وتقول لك مبروك.

- اقترب الشيخ حنفي من الشيخ القسام، وهمس:
- أبو إبراهيم يقول أن الضابط محمد أبو العيون وصل.
 - تهللت أسارير الشيخ..
 - قل له أنني سأكون عنده بعد المغرب، سأمر أولاً على بستان الشيخ أحمد حجاب في الياجور، سأجتمع مع بعض الشباب هناك.
 - ضحك الشيخ حنفي..
 - تحت التينة إياها؟..
 - ها أنت تذكرها؟..
 - ماشاء الله تحتاج إلى ست رجال، حتى يحيطوا بها.
 - المهم بعد هذا الاجتماع نلتقي في الكباير لنقابل أبا العيون.
 - ومضت برهة ريثما صلى الشيخ عز الدين ركعتي السنة، مالبت الشيخ حنفي أن عاد قائلاً:
 - الحنطور جاهز.
 - بهذه السرعة؟.
 - وجدته قريباً من هنا، فوفّر عليّ الذهاب إلى ساحة الحناطير.
 - وكانت جلسة لطيفة في ظل شجرة التين الوارفة، اجتمع حولها ثلثة من خيرة شباب الياجور، وكلهم شوق لسماع حديث القسام.
 - وتحدث الشيخ عن تحصين الشباب في وجه المغريات، وبناء المجاهد الصلب، الذي ترتبط روحه بخالقه، ويرتبط فكره بواقعه، لينهض بمجمعه وأمته..
 - كان الشباب يصغون باهتمام، إلا واحداً كان مشغولاً بالنظر إلى الأفاق

القريبة، وقد بدا على وجهه الغضب.. والتفت الشيخ إلى حيث كان الشاب ينظر، فوفعت عيناه على مستعمرة «نيشر» القريبة، وقد انتشر المزارعون اليهود في ربوعها يحصدون القمح، وأكثرهم من الشباب والشابات في سن القوة والعطاء.. وقال بلهجة ساخرة..

- هؤلاء اليهود الذين يلقي بهم بحر يافا وحيفا، ليتحولوا إلى عمال ومزارعين، وأظنهم أيضاً مقاتلين.. إنما هم شعب دخيل تستورده لكم بريطانيا العظمى، ليقاسمكم الأرض والماء والهواء..

قال الحاج أحمد حجاب، صاحب المزرعة:

- تمددوا كثيراً يا شيخ، ولم يبقَ إلا أن يحكمونا..

قال الشاب الذي كان مشغولاً عن حديث الشيخ بالمستعمرة إياها:

- ولماذا نذهب بعيداً يا حاج.. هاهم يقاسمونا عضوية البلدية في

حيفا وغيرها.. وقد يفوزون برئاستها..

ردّ عليه عبد الله الزيباوي:

- إن شاء الله يا شيخ عز الدين لن تقوم لهم قائمة في هذه البلاد..

لكن الشاب انفعل، وقال:

- وفرّ لنا السلاح يا شيخ، وسترى إن شاء الله منّا العجب..

قال الشيخ عز الدين، وقد أدرك ما يعتمل في فؤاد الشاب الثائر من

غضب، وهو يرى الغرباء يتوسعون في وطنه، وقد يكون أحد ضحايا هذه

المستعمرات، التي طرد أهلها منها:

- أريدكم أن توقنوا بأن المجاهد قبل البندقية، وأن الجهاد ليس

نزهة.. الجهاد محن وابتلاءات ومغالبة طويلة.. فيها النصر وفيها الهزيمة..

- بل النصر إن شاء الله..

- المجاهد الحق هو الذي يوطن نفسه على كل الاحتمالات، فلا يبطره

النصر، ولا تحبطه الهزيمة.. وهذا ما أريد أن ندرّب عليه أرواحنا..

- لكنهم يتصرفون، وكأن البلاد صارت بلادهم..

- مع ذلك لا نستعجل.

وتدخل الشيخ أحمد حجاب..

- يذكرني المهاجرون اليهود بقصة ذلك اللص الذي طلب من أحدهم أن

يحمّله على حصانه في طريقه إلى بلدته، فرحب بصحبته، فلما قطع ربع الطريق،

قال له: ما أجمل حصانك!.. وبعد أن قطعنا نصف الطريق صار يقول: ما أجمل

حصاننا!.. وأخشى ما أخشاه أن يأتي يوم يصل فيه هؤلاء الغرباء إلى ما وصل له

ذلك اللص، عندما انقض في النهاية على صاحب الحصان، وصاح به: «لقد

أثقلت على حصاني، وأن لك أن ترحل!»..

كان الجميع يخافون ذلك اليوم..



كانت زيارة الشيخ القسام لجنين لاتنسى.. فهناك حلّ ضيفاً على صديقه الشيخ فرحان السعدي، الذي جمع له رجال جنين ووجهاءها، ليتعرفوا على هذا العالم السوري الذي جاء إلى فلسطين، ليمنحها من روحه وعلمه وجهده..

وتواعدوا بعد أسبوع للإعلان عن افتتاح فرع الشبان المسلمين في جنين، ليسجل لهذه الجمعية نصراً جديداً، وانتشاراً بين شباب هذه المدينة، الذين أبدوا حماساً للفكرة، ووضعوا كل إمكانياتهم لخدمتها.. وتكررت زيارات الشيخ عز الدين إلى جنين، وذات أصيل كان في زيارة للشيخ فرحان، يتجولان في كرم الزيتون الذي يمتد أمام دارته، يتبادلان الرؤى والأفكار، ويتأملان في الطبيعة الخلابة.. وقال الشيخ فرحان:

- تعلمت في هذه الدنيا أن أواجه الحقائق كما هي.. ما يجري الآن في فلسطين أكثر من غزو بريطاني، وأكثر من احتلال.. ما يجري هو بيع فلسطين لليهود بالقهر والإكراه.. وإذا طال انتظارنا، فسوف نجد أنفسنا غرباء في بلادنا.. لذلك قررت البدء بالجهاد، ولا أظنك إلا تفكر كما أفكر.

قال الشيخ عز الدين وهو يتأمل حقول القمح الممتدة، التي تتماهى مع كرم الشيخ فرحان، لترسم أفقاً ساحراً، زاده قرص الشمس الغاربة جمالاً وبهاء..

- صدقت. لا طريق إلا الجهاد، ومقاومة هذا المشروع بالغالي والنفيس.. لكن العدو هذه المرّة ماكر وصعب، ولا بدّ من الإعداد والاستعداد.. وقبل هذا، لا بدّ من تخيّر المجاهدين القادرين على هزيمة هذا الحلف الغاشم.

- لكن الوقت لا يرحم.. أنت ترى أن اليهود يعملون بدأب وخبث..
- مستعمراتهم تنتشر في كل مكان.. وهم يستقبلون آلاف المهاجرين كل شهر.
- أنا معك.. بل ولديهم مجموعات مسلحة للدفاع عن هذه المستعمرات..
- وبحجة الدفاع عن مستعمراتهم يجمعون السلاح، ويتدربون عليه..
- وما خفي كان أعظم.. هؤلاء لا يلعبون.. فلنبداً بالإعداد.. نتعاون الآن بالتدريب وبالسلاح..
- والرجال؟..
- نتجنب في هذه المرحلة خلط الرجال من هنا أو من هناك..
- وليكن ابن عمي نمر الوسيط بيننا.. نتبادل عبره الرأي والمشورة..
- ولكن أين نمر؟.
- والتفت الشيخ فرحان..
- ابن حلال.. هاهو قادم بالشاي..
- وجلسوا يرشفون الشاي، وسنابل القمح الذهبية تتمايل أمامهم في دلال.. وتساءل الشيخ عز الدين عن الأسلحة التي يملكها الشيخ فرحان.
- لدينا عشر بنادق وكمية كافية من الخرطوش.. لكنها لا تكفي لعدد الرجال.. لدينا مبلغ من المال، فإذا كان لديك من يبيعنا سلاحاً، تسدي لنا خدمة كبيرة..
- هناك ضابط تركي يدعى جلادات وعدنا بتهريب كمية من الأسلحة..
- عندما يزورني سأزورك بصحبته لتتفق معه.
- وتردد أذان المغرب فسكب في قلوبهم الطمأنينة، وحرك في وجدانهم يقيناً بأن بعد الغروب صباحاً، لا بد أنه قادم مهما طال الظلام..



- كاز. كاز

- كاز. كاز

وراح يضغط على حجرة هواء البوق الذي يحمله، لينطلق منه صوت غليظ
ينبه الأسماع، وينسجم مع رائحة الكاز، التي لا تغفرها له سوى منافعه.

- كاز. كاز

- كاز. كاز..

كانت الأمطار تسقط بغزارة، فيختلط صوتها بصوت بيع الكاز، الذي
كان يريد أن ينبه الشيخ القسام إلى وجوده، واضطر محمود زعرورة أن
يدور دورة طويلة، ليعود من حارة القسام مرة أخرى، دون أن يلفت الأنظار،
ورفع صوته هذه المرة بأقصى ما يستطيع..

- كاز.. كاز.. يا بردانين كاز..

وأطلّ القسام هذه المرة.. وقد غطّى رأسه بفترة بيضاء اللون، يحمل
«تنكه» فارغة ليملاًها بالكاز.

أوقف محمود زعرورة البغل، ونزل ليملاً التنكة للشيخ..

ووقف القسام قريباً من محمود زعرورة، يتأمل زيت الكاز، وهو يتدفق

من الصنبور، وسأل بنبرة أقرب للهمس:

- ما هي الأخبار؟

- أبو إبراهيم يقول أنه استطاع أن يشتري ثلاثة مسدسات جديدة مع

ما يكفي من الخرطوش.

- خبر جيد، فليحفظوها عند الشيخ علي الحاج عبيد، في البئر الذي

يخزن فيه السلاح.

- الحاج حسين حمادة أرسل لك معي عشرين جنيهاً، تبرع بها أحد المحسنين للجهاد. كيف أعطيك إياها؟
- أعطها للشيخ حنفي، وقل له يدفعها عربوناً لضمان المزرعة الجديدة، التي حدثني عنها في «أم الزينات».. زرتها من يومين.. موقعها متميز في حوض الكرمل، وهو مناسب للتدريب.
- الشيخ عبد الله الزياوي يقول أن مجموعته صارت جاهزة للتدريب.
- قل له أن يترث، ريثما يعود أبو العيون من تركيا ليدرهم.
- محمد الصفوري وأحمد التوبة في صفورية جهّزوا ما طلبت، وينتظرون منك الإشارة.
- سوف أرسل لهم في الوقت المناسب.
- أوامر أخرى؟
- انتبه للزبون القادم..
- وأقبل طفل يافع، يحمل «تكة» صغيرة، يريد ملأها بالكاز:
- أبوي يسلم عليك، ويقول عبّئ لنا هذه «التكة» وسيدفع لك ثمنها غداً..
- من أبوك يا ولد؟
- أبو رزق.. الحارس في السوق الأبيض.
- تكرم عينك.. أنت وأبوك.. إن شاء الله أنت مثله بطل ومحترم؟
- ابتسم الطفل في حياء، بينما شرع محمود زعرورة يسكب الكاز في صفيحة الطفل، وهو يستأنف الحديث مع الشيخ..
- تأمرني بشيء آخر؟..
- أخبر الجميع أن يحضروا خطبة الاستقلال هذه الجمعة.. سأقول شيئاً أريدهم أن يسموه.

وأخرج القسام قطعة معدنية ونقدها لبائع الكاز، فأخذها بامتنان، ثم قبلها ورفعها، ووضعها على جبهته، حتى يعلم المارون أنه يمارس عمله المعتاد، ثم دسها في جيبه.

وهتف الزعرورة محاولاً إسماع كل من في الطريق.

- الله يعوض عليك يامولانا.

- وعليك، يسلموا..

وأراد الشيخ عز الدين أن يعود أدراجه إلى البيت، لكن صوتاً يعرفه

جيداً استوقفه فجأة:

- أمانة؟

- لمحتك من بعيد، فلم أرد أن أخسر فرصة دعائك لي.

- أهلاً أهلاً يا ابنتي.. ما أخبارك؟

- الحمد لله..

- وكيف مصطفى؟

- يسلم عليك.

- أرجو أنك جئت لزيارتنا..

- ميروك الوليد الجديد.

- بارك الله فيك، عقبال عندك

قالت بصوت متهدج:

- ادع لي يا أستاذ.

- الله كريم يابنتي.. الله كريم.

صارت الأوقات التي يقضيها الشيخ في بيته وبين أهله أقل من ذي قبل، وأقل منها ساعات الصفاء، التي يكون فيها القسام مرتاحاً ومنطلقاً، واليوم كان يشعر بشوق لبناته الحبيبات، ولصغيره محمد، الذي بدأ حضوره الطفولي الصاعد، يستقطب الأسرة جميعاً حوله، ويبعث في روح القسام سعادة غامرة..

واندس محمد في أحضان أبيه، وراح يداعب شعرات لحيته الرمادية..

- عيب يا ولد.. لحية القسام لا يعبت فيها أحد.

ضحكت أم محمد:

- إلا محمد.. فيعبت بها كما يشاء..

قال الشيخ عز الدين، وهو يمسح رأس الصغير بلطف وحنان:

- لكم أحبه!.

- ألاته الولد الوحيد!؟.

رمقها بطرف عاتب:

- بل لأنني أنجبت لك رجلاً..

- لا رجل بعدك.

- لا بد من رجل بعدي، يحمي هذا البيت.

أثارت كلماته في أعماقها هاجساً قديماً، عندما حمل الشيخ بندقيته ذات يوم، وغادر البيت ليبدأ ثورته ضد الفرنسيين، يومها حاصرها قلق الغياب، وأقضى مضجعا الليالي الطوال، وخفق قلبها وهي تخوض تلك الذكريات المؤلمة، فسددت إليه نظرة ثابتة:

- تخطط لشيء؟.

- الله المستعان
- نلعلك تنوي أن تستأنف الجهاد من جديد!
- الله يكرمنا..
- في هذه البلاد؟
- مالها هذه البلاد؟
- ليس لنا هنا سند أو معين نلوذ به. ولم يكن الأمر كذلك في جبلة..
- تأمل الشيخ ولده محمد، ثم رفعه عالياً بكلتا يديه، وراح يهزه مداعباً، فنذت عن الصغير ضحكات بريئة، ملأت البيت بهجة ومرحاً، خلع الشيخ عمامته ووضعها فوق رأس الصغير، قال يخاطب وليده، وهو مازال يهزه برفق..
- أريدك رجلاً.. فلتكبر بسرعة، وكفاك كسلاً..
- وأقبلت خديجة، فخطفت محمداً من أبيها، وراحت تمطره بالقبلات.
- قال الشيخ عز الدين، وهو يرى القلق لا يزايل عيني زوجته:
- اطمئنني يا أمينة. مازال الوقت مبكراً على هذه الأحاديث..



كان العبد قاسم ينعطف عند نهاية شارع الملك فيصل، متجهاً نحو التقاطع الذي ينزل يساراً إلى الميناء، ويتجه يميناً نحو الطريق المؤدي إلى وادي النسناس، أملاً في أن يدرك بعربته الشيخ عز الدين، الذي صلّى الظهر وخرج بصحبة الحاج حسن حمادة، ليزور أسرة فقيرة تعففت عن السؤال، فساق الله لها جاراً طيباً يسأل عنها، ولمّا رأى البؤس الذي تعيش فيه، هرع إلى شيخه، يطلب منه مساعدتها، ولم يتأخر القسام، فكلف الشيخ حمادة أن يكلم من لديهم القدرة، ليجمعوا مبلغاً من المال، ثم تواعد معه ليزور هذه الأسرة، ويقدم لها ما تمّ جمعه.

وشعر القسام بجلية عربة تجري خلفه، فالتفت ليجد العبد قاسم، وهو ينطلق بأقصى سرعته..

- ما باله مسرع هكذا..
- وكبح العبد قاسم لجام بغليه، متوقفاً في محاذاة الشيخ..
- لديك ضيوف من الشام..
- من الشام؟!..
- الوالدة الكريمة وأخوك فخر الدين..
- الله أكبر..
- هكذا همس القسام وهو يستوعب الخبر..
- والوالدة أيضاً؟..
- وربّت الحاج حمادة على كتفه.
- ميروك يا شيخ عز الدين. أسرع لتلقى الأحبة..
- وأينهم الآن؟..

- أخذهم الشيخ حنفي إلى بيتك، وأرسلني لألحق بك.
- وقض الشيخ إلى العربة.
- اعذرني يا حاج.. أكمل المهمة بنفسك.

وانبثقت في قلب الشيخ ينابيع من الشوق، كان قد كتّمها كلّ هذه السنين، فدفن حنينه بالمزيد من الدأب والكفاح، وإن كان حضور الزوجة والأولاد قد خفّف عنه، لكن شوقه لأمّه وأخوته كان فياضاً، وهاهو يتدفق دمعاً هتوناً، لمحّه العبد قاسم، فأدرك وجهاً رقيقاً لقائده لم يألفه من قبل، وهو الذي رسمت له المهابة وجهاً صارماً، فأسرع ليحمل الشيخ إلى أحضان أمّ طيبة كانت تتحرق لرؤية ابنها، الذي افتقدته كل هذه السنين.. وتخيّل القسام أمه الحبيبة وهي تتأمل وجوه الواقفين أمام المسجد، بحثاً عن وجه أثير افتقدته طويلاً، وكيف صدمت عندما لم تجده، وقد قطعت من أجل لقياه أميالاً من العذاب، فغاب بريق الفرح الذي كان يشعشع في عينيها، لتنهمر دموع الشوق، التي كان قد كتّمها أمل اللقاء، فلم تعد تطيق صبراً على البعاد، ولو ريثما ينادونه لها حيث كان.

وغرق الشيخ في بحر الذكريات، فراح ينبش في أعماق الذاكرة صوراً حميمة، كانت قد توارت، بعد أن طغت عليها الأحداث.. وتراءى له من خلال الدموع عز الدين الطفل، وهو يأوي إلى حضن أمّه، ينهل منها العطف والحنان، وعز الدين الصبي وهو ينشأ على عيناها، ويستمد من سجاياها وطبعها النبيل، وعز الدين الفتى اليافع وهي تودّعه إلى الأزهر، فترجوه وديعة في ذمة القدر، وترسل خلفه الدعوات الضارعات، أن يحفظ المولى لها ابنها الحبيب، وعز الدين الشاب وهو يعود مسلحاً بشهادة الأزهر، لتقرّ به عيناً، وتعلنه زينة شباب جبلة، وتطلب له ستّ البنات..

وشعر الشيخ بالذنب، وهو يتذكر كم عانت أمّه، وهي تراه في أتون الأخطار، يتحدّى الطغاة مهدّداً بالموت والاعتقال، إلى أن فقدته في منفاه البعيد..

وراح يتخيل مشهد اللقاء الوشيك الذي سيجمعه بوالدته، وكيف ستلقاه؟ وماذا سيفعل؟ وماذا سيقول؟.. وما إن رآها حتى لاذ بحضنها وهو يبكي، وكأنه ذلك الطفل القديم.



- ما كان ينبغي أن تأتوا دون أن تعلموني، حتى أكون في استقبالكم في محطة القطار.

قال فخر الدين:

- أرسلنا لك، لكن الرسول لم يصل إليك، والله أعلم بعذره.

- فكيف وصلت من المحطة إلى المسجد؟

- أوصلنا حارس القطار.

- حارس القطار؟

- شاب مهذب وذا مهابة، رأنا نتطلع ذات اليمين وذات الشمال، فسألنا عن غايتنا، فلما قلنا له عز الدين القسام، أشرقت أساريره، وقال شيخنا وحبينا، فترضت أمك عنك، وقالت هذا هو ابني عز الدين، محبوب أنى ذهب وغاب، وأنا الذي قطعت معها الفيافي والقفار من جيلة حتى حيفا، لم تقل لي حتى الآن «الله يرضى عليك»..

ضحكوا من قلوبهم. وقالت الأم وهي تفيض بشراً وسعادة بقاء ابنها..

- رضي الله عنكم جميعاً، لكن شوقي لعز الدين ليس له حدود.

وغصت بالكلمات، فتناول الشيخ عز الدين يدها، ولثمها.

وتابع فخر الدين..

- المهم الحارس أوقف حنطوراً، وطلب منه أن يحملنا إلى جامع

الاستقلال، وأعطاه أجره رغم اعتراضه، لكنه أصر، وقال:

- أنتم ضيوفنا في حيفا التي شرفها القسام.

وتساءل الشيخ عز الدين..

- من تراه يكون؟

- قال لي اسمه محمود سالم..
- لعله من رواد خطبة الجمعة. يحضرها الكثيرون بفضل الله.. من أعرف ومن لا أعرف.
- وفي اليوم التالي سألت الشيخ علي الحاج عبيد عن رجل يدعى محمود سالم، يعمل حارساً في محطة القطار، فلم يعرفه، فقرر أن يمضي إلى المحطة ليتعرف عليه مباشرة، وعندما وصل سألت أحد الحراس عن محمود سالم..
- تقصد محمود سالم المخزومي.
- لعله هو؟.
- هو ذاك يا مولانا.
- وأشار إلى حارس يقف على الضفة الأخرى من سكة الحديد، تبدو على سيماه ابتسامة وادعة لا تكاد تفارقه، فمضى إليه باشاً، وما أن رآه محمود قادماً، حتى خفت إليه..
- يا أهلاً.. يا أهلاً بشيخ حيفا كلها..
- بارك الله فيك. لقد أكرمتني بأكثر مما أستحق..
- بل أكافئك بنذر يسير مما يجب أن تكافئك عنه فلسطين. أنت صوت الحق الذي أيقظ النائمين..
- أدهشته كلمات محمود سالم، وأعجب بدماثته وأخلاقه..
- أشكرك على ما فعلت، والوالدة تدعو لك..
- حفظها الله..
- لعلك تحضر خطبة الاستقلال عندنا.
- كل جمعة. لكنني أمضي مسرعاً إلى المحطة، فقطار الشام يصل في الثانية ظهراً، ويجب أن أكون هناك..

- أتمنى أن نراك في دروس الاستقلال، لنتعرف أكثر..
- أعدك منذ اليوم أن أحرص عليها، فقد سمعت عنها الكثير.
- وأخرج الشيخ عز الدين نقوداً، يريد أن يسدد له أجرة الحنطور..
- معاذ الله. لو كانت والدتي وأخي وأنت مكاني، لفعلت ما فعلته..
- وقفل الشيخ راجعاً، وهو يفكر في هذا الرجل النبيل..



- قال الشيخ عز الدين للشيخ كامل القصاب:
- سأضطر الليلة للمبيت في جنين.. لدي اجتماع هام للشبان المسلمين هناك..
 - تأبى إلا وأن ترهق الوالدة الكريمة بالقلق عليك..
 - ابتسم الشيخ عز الدين..
 - ثقة تاجر سلاح مضمون وعدت الشيخ فرحان بأنني سأجمعه به ليلاً، ولا أظن أنني سأعود إلى حيفا قبل الفجر، أو لعلي أبيت هناك، فهل تكرمني الليلة بالتدريس في مدرسة الليل بدلاً عني؟
 - رحب الشيخ كامل بالفكرة..
 - طلابك كلهم مضمونون؟
 - الحمد لله.. هذه المجموعة من خيرة الشباب.. تستطيع أن تتحدث لهم كيف شئت..
 - اتفقنا.
 - واندesh تلاميذ القسام لغياب أستاذهم، وحضور شيخ غيره..
 - السلام عليكم.. لعلكم تتساءلون من أنا.. أنا الشيخ كامل القصاب، أوصاني الشيخ عز الدين أن أكون معكم الليلة.. أخرجوا الكتاب والدفتر..
 - استجاب الطلبة لأوامر الشيخ، الذي بدأ يدور عليهم.. ووصل إلى شاب يذكر أنه رآه أكثر مرة من قبل..
 - ما اسمك؟
 - محمد صالح الحمد
 - ماذا تعمل في النهار؟

- أعمل في الحسبة.. بياعاً للخضار.. إذا جئت إلى هناك.. فقط اسأل عن أبي خالد.. سأكون في خدمتك.
- الله يوفقك.
- وراح يتأمل دفتره..
- لديك خطأ هنا يا محمد.. الضاد المنفصلة بدون سنّ، فقط عندما تكون متصلة نضع لها سنّ.
- والتفت لطالب آخر..
- اسمك؟
- محمد أبو قاسم خلف
- عملك؟
- عامل في معمل الكازوز والعصير
- لماذا تتعلم القراءة والكتابة؟
- لأنني أردت تعلّم القرآن والعلوم الشرعية، فطلب مني الشيخ عز الدين أن أتعلم القراءة والكتابة أولاً..
- معه حق.
- وتأمل دفتره، فأبدى إعجاباً واضحاً..
- ما شاء الله.. تتقدم بسرعة.. خطك جميل.. ثابر، نفع الله بك.
- وأنت؟
- عطية أحمد عوض.
- عملك؟
- فلاح.
- أين؟
- أقصد كنت أعمل فلاحاً..

- ولماذا تركت الزراعة؟
- لأن اليهود اشتروا الأرض التي كنت أعمل فيها..
- تأمل دفتره، ثم ربّت على ظهره..
- وتوقف عند الطالب الأخير، الذي بادر فرحب به..
- يا هلا بالشيخ كامل.
- أهلاً بك..
- أنا عبد الفتاح السيلاوي.. أبو عبد الله.. أتذكرني؟
- لعلي التقيتك من قبل.
- التقينا عندما كنتَ في زيارة الشيخ عز الدين من أشهر.
- تذكرتك. لماذا أنت هنا؟
- لأنّي أريد أن أتعلم علوم الشرع والدين، وها أنا أدرج في تعلم القراءة والكتابة..
- كان الشيخ القسام قد نصحك أمامي بأن تنضم إلى المدرسة من ذلك الوقت، فلماذا تأخرت؟
- كنت أستخسر أن اقضي العمر في العلم والتعلم، وأنا انتظر الساعة التي ألقى فيها هؤلاء الأعداء، الذين لم يبقوا لنا من فلسطين شيئاً، فأقاتل حتى أقتل، وأنال الشهادة في سبيل الله.
- أثار جواب الطالب دهشة القصاب.
- العلم أولاً يا بني.. لأن المجاهد الذي لا يعرف دينه، لا يستطيع أن يخدمه.
- ثم أخرج الشيخ كامل من عبّه مسدساً، وقال وهو يشير إلى الكتاب:
- هذا قبل هذا..
- والتفت لبقية الطلاب..

- انتبهوا يا إخوان الكتاب قبل السلاح.. والعلم قبل الجهاد.. مفهوم؟
وانهمكوا في درسهم، وهم يفكّرون بكلام السيلاوي، حول الأعداء
الذين لم يبقوا لهم من فلسطين شيئاً.



ذات شروق، كان الشيخ عز الدين عائداً من صلاة الفجر برفقة أخيه
فخر الدين، فدعاه ليمشيا على شاطئ البحر، فهذا الوقت من أحب
الأوقات إلى قلب القسام، وأكثرها صفاء..

وقال الشيخ فخر الدين فجأة:

- أراك تعد العدة لثورة جديدة يا عز الدين..
- التفت إليه، وقد بوغت..
- ثورة؟ من قال لك؟
- أمك.
- أمي؟
- أنت تعرف أمك.. لها قلب ذكي، لا يمكنك أن تكابر أمام هواجسه
طويلاً..

- لكنها لم تفاتخني بالأمر.
- تعرفك عنيداً. قالت لي أخوك يدبر لشيء!.
- أبعد أن علمت ما علمت عن الأوضاع في فلسطين، أيمن لرجل بين
جنبه ذرة من شرف أن يسكت؟!..

قال فخر الدين متندراً..

- من قال أنك ساكت. ما شاء الله عنك. حيفا تحفظ خطبك عن
ظهر قلب، والإنكليز أيضاً.

ابتسم الشيخ عز الدين..

- أضعف الإيمان يا فخر الدين..
- ما أراك إلا قد أخذت بالعزائم.

- استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان..
- كلّ ما أردته أن أطمئن عليك.
- الأجل مكتوب، وها أنا أسدد وأقارب، كما ينصحني دائماً الشيخ كامل. ومضى وهو يتأبط ذراع أخيه، يتأمل طيور النورس، وهي تلعب على تخوم البحر.. وقال فجأة:
- تأمل فيما يجري يا فخر الدين.. تلمح خطة خبيثة لتمزيق بلاد الشام.. ما يجري في فلسطين هو الوجه الآخر لما يجري في سوريا، لكن ما يخطط له هنا إحكام الطعنة في القلب.. إذ لم يفهم تقسيم سوريا إلى أربع دويلات، وترسيم الحدود بينها، فخطّطوا لإقامة دولة لليهود هنا، وأوكلوا أمورها لبريطانيا، لتمدّها بكل أسباب القوة..
- تقول دولة لليهود؟.. لعلهم قالوا وطناً؟!
- لا يوجد وطن بلا قوة تحميه.
- لو صدق ما تقوله، فتلك مصيبة..
- وعلى كل عاقل أن يستبقها بما أوتي من أسباب.
- ستواجه بريطانيا؟!
- كما واجهت فرنسا من قبل.
- لكنك لجأت حين ضعفت إلى فلسطين، فماذا ستفعل لو حاصرك الإنكليز هنا؟!

لم يفاجئه السؤال. كان قد فكّر وقرر.

- أمام فرنسا كان همّي البندقية، لذلك بعْتُ البيت واشتريتُ بثمنه سلاحاً يكفي للعصبة التي كنت أقودها.. لكنّي وجدت أن السلاح ليس كل شيء، فعندما انقطع عنّا السلاح فشلنا.
- وأمام بريطانيا؟!

- أسعى لبناء ثلة من المجاهدين، كل مجاهد أمة وحده.. يحمل
 جذوة الجهاد، ويستطيع أن يوقدها فيمن حوله..
 تنهّد فخر الدين، قال، وهو يتأمل في النهايات:
 - لن يتركوك تكمل مشروعك يا عز الدين.. إن لم تقتلك بريطانيا،
 فسيقتلك اليهود..
- ما أنا إلا رجل واحد. إن قتلت، فسأكون قد صدقت فيما أدعو الناس
 إليه.. الجهاد أو الاستشهاد.
 - لكنك القائد!..
- أحاول هنا أن أزرع ثورة يا فخر الدين، لا أن أقود ثورة.. سيكمل
 بعدي من آمنوا بفكرتي.. وسيتحول القائد إن كتبت له الشهادة إلى قدوة
 ومثال، يلهم خطى من بعده على ذات الطريق..
 رمقه فخر الدين بطرفٍ فخور.. هذا هو عز الدين الذي يحبّه، ويتمنى
 أن يمضي على خطاه..

بعد صلاة العصر غادر الشيخ عز الدين مسجد الاستقلال، متوجهاً لزيارة الأستاذ نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل ورئيس تحريرها، بعد أن تواعدا على ذلك في سهرة جمعتهما في منزل الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم..

ووصل الشيخ إلى مطبعة صغيرة في وادي الصليب، فألقى رجلاً قصيراً ضخماً الهامة، يقف وسط المطبعة ويوزع ملاحظاته على العمال، ثم ما لبث أن استل صفحة، قد خرجت للتو من الطباعة، وراح يتفحصها.. وألقى الشيخ عز الدين التحية، فالتفت الأستاذ نجيب نصار بملامحه الجادة مستطلعاً، ونظر إليه من فوق نظارة القراءة التي أمالها إلى تحت، ليرد التحية على صاحبها، وما أن رأى الشيخ حتى انفرجت أساريره، واستقبله بالبشاشة والحبور:

- يا هلا بالشيخ عز الدين.. صحيفة الكرمل نورت وزادت شرفاً.
- الكرمل منورة بك يا أستاذ نجيب أفندي، وبنفسك الحرّ الذي نفتقده هذه الأيام..

قال الأستاذ نجيب، وهو يقوده إلى مكتب زجاجي صغير، يطل على أعمال المطبعة:

- أخبارك تملأ الروح فخراً..

شكره الشيخ على هذه الحفاوة. قال وهو يطأطأ رأسه تواضعاً لهذا الإطراء..

- أخبار عبدٍ فقيرٍ يرى فيه الناس صوتاً.

ربت الأستاذ نجيب نصار على ركبته، وهو يجلس قبالته:

- بصراحة.. لم أكن أعرف أن المشايخ يمكن أن يكونوا بهذا الوعي، وهذه الجرأة في الدفاع عن حقوق البلاد.. أنت قلبت لي عقلي، وصرتُ أتساءل؟ لماذا لا ينحو بقية المشايخ نحو الأستاذ القسام.. والله كانوا زلزلوا الأرض تحت أقدام بريطانيا العظمى.. لكن ماذا نقول؟.. قالوا لفرعون من فرعنك؟ قال: لم أجد أحداً يردني.

- لعلك سمعت عني ولم تسمع عن غيري.. ما زالت الأمة بخير..
- أقدر لسماحتك هذا التواضع.. لكن لدي دليل حي على ما أقول..
- دليل؟..
- انتظر.

ونهض الأستاذ نجيب، ففتح باب غرفته الزجاجية ونادى:

- يا نوح يا إبراهيم.. تعال..
- من نوح إبراهيم؟
- عامل عندي يعمل في التجليد الفني، لكنه يحبك كثيراً..
- ودخل شاب يبدو تحت العشرين، وما أن رأى الشيخ، حتى أقبل عليه يسلم بحرارة.

- أستاذنا الجليل؟.. مفاجأة سارة لم تكن تخطر لي على بال..
- حاول الشيخ أن يتذكر الشاب، وسرعان ما بدد الأستاذ نجيب حيرته:
- نوح لا يترك لك خطبة إلا ويحضرها، وقد حدثني اليوم عن موضوع خطبة الجمعة الماضية.

وقال الشيخ لنوح إبراهيم:

- لعلي لمحتك من قبل!..
- في الحقيقة لا أجد من الوقت ما يجعلني أتابع دروسك، لكنني معجب بأفكارك وأسلوبك في الخطابة.

وتدخل الأستاذ نجيب:

- نوح شاعر مرهف.

- ما شاء الله..

- لكن ظروفه صعبة قليلاً، لذلك يقضي معظم وقته عندنا في تجليد

الكتب..

ثم ضاحكاً:

- قال لي أنك حرمت الجمعة الماضية بيع الأراضي لليهود، واعتبرت

بريطانيا أسّ البلاء.. في الحقيقة بدأت أقلق عليك..

- وهم غير مقصرين، لكن الله هو الحامي..

ضحك الأستاذ نجيب، وقال مداعباً:

- للأمانة أنا مواظب على عظة الأحد في الكنيسة، لكن حديث نوح

عن خطبك الرائعة، سوف يضطرني للصلاة عندك يوم الجمعة.

ضحكوا. وأستاذ نوح، بينما تابع الأستاذ نجيب..

- نوح يحبك كثيراً، ويكاد يقول فيك شعراً من شدة الإعجاب.

- ما زلت تبالغ يا أستاذ نجيب..

- هو شاعر موهوب فعلاً، وأنا أثق برأيه.. وقد لفت نظري إلى الدور

الذي تؤديه - حضرتك - اليوم في حيفا، أحياناً أصل إلى انطباع بأنك لو

طلبت منه أن يمضي إلى الموت لفعل!.

وتشوق الشيخ عز الدين لمعرفة الشاب أكثر!.

- ماذا نقول يا أستاذ نجيب.. قد يكون لعالم مثلي تأثير على العامة

من الفلاحين والعمال والبسطاء، لكن مايشغلني فعلاً أنّ عليّة القوم..

وجهاء البلد وكبراءها مشغولون بالسفاسف.. يراهنون على عطف بريطانيا

ووعودها التي لم تصدق يوماً.. هؤلاء لن تفلح معهم خطبي ودروسي..

ينظرون إلينا على أننا دراويش نحرث البحر، ولا نفهم مثلهم في السياسة..
 هز الأستاذ نجيب رأسه مبدياً تفهمه لمشاعر الشيخ..
 - أرجو ألا يحبطك هذا يا أستاذ عز الدين..
 تابع الشيخ..

- أعجبنى حماسك ليلة التقينا عند الأستاذ رشيد.. فكرت أن أتى
 إليك لنبحث في هذا الأمر.. جريدة الكرمل مقروءة على نطاق واسع،
 وأعتقد أنك قادر على التأثير في هؤلاء.. فأنت سياسي وصحفي بارع،
 وتملك قلماً مؤثراً قادراً على تنفيذ هذه الترهات والأوهام التي يجرون
 خلفها، بينما الغزاة يقضمون وطنهم قطعة قطعة، ويمكثون لليهودا.
 كان الأستاذ نجيب يصغي لكلام القسام باهتمام، قال وهو يهزّ رأسه
 في حيرة:

- هذا هو الواقع للأسف، وإن كنت لا أمل للتعميم، فهناك كثير من
 رجال السياسة يؤمنون مثلي ومثلك بضرورة المواجهة، لإيقاف هذا الوضع،
 لكنهم يقولون لك أيضاً ما في اليد حيلة.. إنما نلعب بالسياسة.. عسى
 ولعلّ..

- اليهود هم الخطر الحقيقي، لكن الإنجليز هم السبب، ولولا
 رعايتهم وحمائتهم للمشروع اليهودي، لما تمكنوا من التمدد والتمادي..
 قال الأستاذ نجيب، وقد مال على مكتبه يبحث عن شيء:

- «دق الماء وهو ماء».. مثلٌ عندكم بالشام.. منذ متى ونحن نحذر
 من الخطر اليهودي.. لقد حذرت منه قبل أن يصدر وعد بلفور، ولكن لا
 حياة لمن تنادي..

وتناول عدداً قديماً من جريدته، كان مخبوءاً تحت كدسة من الصحف
 والأوراق، وقرب العدد إلى الشيخ، وأشار إلى عبارة تحتها خط.

- انظر ماذا كتبت محذراً من هذا الخطر الذي بدا يتضح من سنين:
«هل تقبلون أن تصبحوا عبيداً للصهيونيين الذين جاؤوا لطردكم من بلادكم مدعين أنها بلادهم؟.. أيرضيكم ذلك أيها السوريون؟».
- ثم أشار بإصبعه إلى تاريخ العدد..
- انظر فضيلتك.. هنا في تاريخ العدد.. ١٩١٣.. منذ ذلك الوقت وأنا
أنبه وأحذر، والناس نائمون!.
- ثم أردف وهو يطوي العدد، وينحيه جانباً..
- ماذا نقول يا شيخ عز الدين.. أعداؤك يعملون كل شيء في وضح
النهار، ونحن ندفن رؤوسنا في الرمال، ونعول على بريطانيا وعصبة الأمم
في أن تنصفنا..
- وأردف قائلاً:
- ثمة قصة معبرة نشرناها مراراً في الكرمل.. عندما قرر هرتزل
وحركته الصهيونية إقامة الوطن اليهودي في فلسطين، أرسل اثنين من
الحاخامات إلى هذه البلاد، ليكتبا له عن أوضاعها وبيئتها وخيراتها..
وفعلاً حضرا، وتجولا، وأرسلا له رسالة صغيرة.. قالوا له: العروس جميلة
جداً، ولكن ظهر أن لها زوجاً!
- اكتشفوا أن لها أصحاب.
- وطبعاً حتى تخلو لهم الجميلة، لا بد أن يتخلصوا من الزوج.
- هذا أخطر ما في الأمر..
- ودخل أحد المحررين فجأة على الأستاذ نجيب..
- ثمة خبر عاجل..
- ماذا هناك؟.
- مظاهرات وصدامات دامية في القدس..

- صدامات؟!
- اليهود احتلوا حائط البراق، ورفعوا عليه علمهم، والوضع متوتر للغاية، والمسلمون يحشدون للدفاع عن البراق..
- هل حررت الخبر؟
- ليس بعد..
- حرره سريعاً وهاته، ولاتنس أن تهتم بالعناوين، فسيكون خبر الصفحة الأولى.

صدرت جريدة الكرمل في اليوم التالي تحمل التفاصيل.. وراح الشيخ عز الدين يقرؤها باهتمام..

«.. وكان اليهود قد نظموا مظاهرات في القدس سار فيها آلاف المتظاهرين، وهم يهتفون بالموت للعرب، وتوجهوا إلى حائط البراق.. وهناك أشهروا أسلحتهم، ورفعوا علمهم، وأنشدوا نشيدهم، وتمادى خطبائهم، فشتموا رسول الإسلام، مما أغضب العرب الذين تنادوا للرد، فهاجموا اليهود عند الحائط، واشتبكوا مع القوات الإنجليزية، التي دافعت عن اليهود المعتدين، وسقط عدد من الشهداء والجرحى..

وأفاد مراسلنا هناك بأن الأوضاع متوترة للغاية، ويمكن للوضع أن ينفجر في أي لحظة..»
وتفاقت الأحداث..

فاجتاحت الثورة العارمة كل فلسطين، وهبت القدس عن آخرها، لتضع حداً للغطرسة اليهودية، التي تجاوزت الحدود، وبدأت تفرض وجودها المعلن، وتُزاحم المسلمين في مقدساتهم، وتشهر في وجههم السلاح.. وزاد من غضبهم وقوف القوات البريطانية إلى جانب المعتدي، لتشجعه على البطش والطغيان..

وفي يافا اقتحم اليهود، وعلى رأسهم شرطي يهودي يعمل في شرطة الانتداب يدعى «خانكين»، بيت الشيخ عبد الغني عون، إمام مسجد حي «أبو كبير» القريب من تل أبيب، فقتلوه هو وجميع أفراد عائلته الستة، ومثلوا بهم تمثيلاً شنيعاً، فبقروا بطن الأب، وحطموا رؤوس ابن أخيه وزوجته وابنه ذي الثلاث سنوات.

وانتفض العرب يثأرون لأقصاهم وشهادتهم وكرامتهم التي أهينت، فهاجموا الكثير من المستعمرات اليهودية، ودمروا ستاً منها، وصبّ الشباب الغاضب جام غضبه على هؤلاء المهاجرين، الذين جاؤوا من أقاصي الأرض، ليزاحموهم في أرضهم، ويعتدوا على شعبهم، ويدنسوا مقدساتهم، ويهددوا مستقبلهم..

وتحولت فلسطين إلى ساحة قتال، فهوجم اليهود في يافا وحيفا وبيسان ونابلس وجنين.. وبلغت الأحداث ذروتها في الخليل، فما أن وصلت أنباء ما جرى إليها، حتى قام المتظاهرون بمسيرات صاخبة، وهاجموا الحي اليهودي، ونتج عن الهجوم مقتل ما لا يقل عن ستين يهودياً وجرح أكثر من خمسين، وفي صنف هاجم العرب حياً يهودياً، فقتلوا عشرين وجرح الكثيرون..

وحملت الأنباء خبر استشهاد صالح أبو شقرا في حيفا، فحزن عليه القسام حزناً شديداً، وصلى عليه صلاة الغائب في مسجد الاستقلال.
وطرق نمر السعدي باب بيت الشيخ عز الدين ذات صباح على عجل..
- قبضوا على الشيخ فرحان بالأمس.

- كيف؟

- قاد الشيخ فرحان الشباب الغاضب في جنين، وراحوا يهاجمون اليهود والإنكليز أينما وجدوهم، حتى حاصرتهم قوة إنكليزية، وألقت القبض عليه، مع عدد من الشباب..

حوقل الشيخ..

- فكّ الله أسرهم.. لا تخف عليه فهو رجل، وسوف يزيده السجن قوة..

- هل من أوامر؟

- قل لإخوانك في جنين أن يقبضوا على الجمر، ويتجنبوا البوح بما

يجمعهم مع الشيخ فرحان مهما حدث.. فالمعركة مازالت في أولها..
وأراد نمر أن يمضي، فاستوقفه الشيخ..
- قل للجميع: إذا اعتقل أحدكم، فليقل أن دمه قد فار عندما سمع
بهجوم اليهود على حائط البراق، ولا يزيد على ذلك شيئاً.

كانت الأوضاع في حيفا تتدهور بسرعة..

وفار الدم في عروق البعض، فراحوا يرشقون محلات اليهود بالحجارة، ونشبت اضطرابات في الحي القديم، تخللتها غارات على «هدار هاكرمل» ضاحية حيفا اليهودية، وتدخلت القوات البريطانية، فأطلقت النار على المتظاهرين، فسقط عدد من الجرحى..

ونبهه الشيخ عز الدين أخاه فخر الدين، ناصحاً بالألا يتجول كثيراً في المدينة، فقد تدلح أحداث كبيرة..

- هل لجماعتك علاقة بما يجري؟

- لا. الأحداث داهمت الجميع، ولسنا جاهزين لدخول معركة مبكرة، تكشف رجالنا، وما قد أعدناه..

وأسرع أبو إبراهيم إلى مسجد الاستقلال، وصلى خلف الشيخ القسام، وأبلغه بعد الصلاة بأن الرجال غاضبون، ويريدون أن يهاجموا الأحياء اليهودية، وسأله التوجيه..

تفكر الشيخ ملياً، ثم قال:

- لا أستطيع أن أمنع شاب يرى وطنه ينتهك ويهان من أن يغضب، لكن لا أرى أن نشارك نحن كعصبة منظمة ولها قيادة في هذه الأحداث.. فالحركة كما ترى مازال عودها طرياً، وليس من الحكمة أن نكشف ما بنيناه بفورة غضب.

- قد يكون من الصعب أن نقنع البعض بأن الحركة التي نُعدّها

للجهاد، ستأى بنفسها عن ثورة كالبراق!..

حاول الشيخ أن يوضح أكثر..

- ما أردت قوله أن الناس الآن غاضبون، ويريدون أن يثاروا لما جرى في البراق، لكنهم لا يملكون ما يهاجمون به عدوهم، أو يدافعون به عن أنفسهم، لذلك يجب أن نحفظ بما بنيناه قدر الإمكان، لأنه قد يأتي يوم يكون لهذه العصبة دور أكثر تأثيراً وفاعلية.. لذلك أرجو أن توصيهم بالصبر والسيطرة على المشاعر، لنرى كيف ستتطور الأمور.

واستدرك الشيخ عز الدين:

- أهمُّ نقطة ألا يستعمل السلاح الذي جمعناه الآن.. حتى لا ينتبه الإنجليز لوجود حركة مسلحة تشارك في الثورة.
- الناس يتلهفون لسماع خطبتك يوم الجمعة..
- سوف أقول ما يشفي صدورهم إن شاء الله.
- ثورة البراق أيقظت وعي الناس.. والكل أصبح يتحدث عن الجهاد ضد بريطانيا والصهيونية..
- فرصة طيبة، لنكتشف المزيد من الرجال..

سرت شائعات صباح الخميس بأن اليهود يخططون لإحراق جامع الاستقلال، فاحتشد الشباب الغاضب متحفزاً، يسدّ الطرقات المؤدية إلى المسجد..

وشعرت والدة القسام بقلق كبير لما يجري، فقد صدقت مخاوفها، فما كان اليهود ليحرقوا المسجد الذي يؤمّه ابنها، لولا أنهم يخافون منه، ويعتبرونه خطراً عليهم..

وتقاطر أهل حيفا إلى الاستقلال، وقد عزموا أن يحموه بدمائهم، وتوجه بعض الوجهاء إلى المسجد تضامناً مع الشيخ القسام، واقترح أحدهم على الشيخ عز الدين أن يسمح لهم بالتوجه إلى المندوب السامي لطلب المساعدة من الإنجليز، لكن الشيخ القسام أبى ورفض ذلك رفضاً قاطعاً، وقال لهم «دُمنا هو الذي سيحمي مساجدنا ومقدساتنا، فليجربوا.. وسيرون أي منقلب ينقلبون».

واعتصم الناس حول المسجد طيلة الليل.. وفي اليوم التالي أقبل الناس على صلاة الجمعة في الاستقلال.. يريدون أن يسمعوا ما يشفي صدورهم من هذا الذي ملأ عروقهم غضباً وثورته..

وامتلاً المسجد عن آخره.. وجلس المئات خارج المسجد، وحبس الناس أنفاسهم بانتظار ما سيقوله القسام..

- «سبحان الذي أسرى بعبدته ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله».. سبحان من حملنا الأمانة، وسوف يسألنا عنها.. سبحان من إئتمن أهل فلسطين وشرفهم بمهمة الحفاظ على هذه الأرض، فكانوا أهلاً لهذا التكليف والتشريف، وهامهم يبذلون المُهج

والأرواح في سبيل أقصاهم.. يرفضون أن يدنسه الغرباء، الذين طغوا وتمادوا، فلم يتركوا خياراً لحليم، ولا عذراً لمتعقل، ولا حجةً لغبيّ يضع رأسه في الرمال، ويهوّن من أمر هؤلاء المهاجرين، الذين كسّروا عن أنيابهم، وأزاحوا القناع عن وجوههم الكالحة، التي تقطر سماً وحقداً..

- لقد أتى على فلسطين زمن، يتجرّأ فيه غلاة اليهود ممن درّبتهم وسلّحتهم الحركة الصهيونية على احتلال حائط الأقصى المبارك.. حائط البراق.. الذي يسمونه زوراً «حائط المبكى»، ويدّعون أن هيكل النبي سليمان يوجد تحته، وهو لعمرى ادّعاء أخرق، وتحدّ سافرٍ لمشاعر المسلمين وشعائهم..

وتدفق القسام بلاغة وغضباً..

- فله درّ فتية غاروا على أقصاهم.. وغلت النار في عروقهم، وهم يرون أبناء صهيون يرفعون عند البراق علمهم، وينشدوا نشيدهم، ويشتمون دينهم ورسولهم..

- لله درّ رجال دفعوا أرواحهم فداءً للأقصى والبراق.. منهم من استشهد بسلاح اليهود الذين أفصحوا عن حقدهم.. ومنهم من استشهد بسلاح الإنكليز الذين انحازوا للباطل، وتحالفوا مع شياطين الصهيونية.. فانظروا أيها المسلمون.. أيها العرب.. بأيّ عدوّ رمتكم عصابة الأمم وانسلّت، بعد أن أعطت الإنكليز حقّ الانتداب، ومنحت الحركة الصهيونية حق سرقه فلسطين وابتلاعها.

- أيها الناس.. لقد بلغ السيل الزبى، ولم يعد هناك حجة لساكت أو متردّد.. إنهم يقيمون كياناً خبيثاً داخل البلاد، ماضون في إنجاز الوعد الذي انتزعوه من بريطانيا العظمى بالمكر والمال، وهاهم يشهرون السلاح في وجوهنا..

تنبهوا واستفتقوا يا أهل فلسطين، واعتصموا بحبل الله، ولا تترددوا..

وأعدّوا واستعدوا ليوم لا ريب فيه، وتذكروا دائماً أن هذا اللص الذي تسلّل إليكم بليل، ما كان ليتسلل إلى الدار، لولا طرف آخر، تواطأ معه، وفتح له الباب، فلا تنشغلوا باللص، وتنسوا من حرّضه ودفعه وحماه، لغاية في نفس يعقوب يريد أن يقضيها!.

وتحمّس أحد الشباب، فوقف وهتف بأعلى صوته: الجهاد، الجهاد.. الموت للصهيونية.. يسقط الإنكليز.. وكبّر الحاضرون، وتنادوا للانتقام للأقصى، والثأر للضحايا مهما كلف ذلك من تضحيات..

وتركهم الشيخ يفرغون شحنات الغضب التي تضطرم في نفوسهم، حتى إذا هدأوا، نصّحهم بالصبر والتروي، والإعداد ليوم قادم، تكون المبادرة بيدهم لا بيد أعدائهم، الذين استفادوا من حادثة البراق لمعرفة مواطن القوة في هذا الشعب الثائر..

وفي اليوم التالي، كان تقرير المخبر الذي أرسل لسماع خطبة الشيخ القسام، جاهزاً على طاولة رئيس المخابرات البريطانية في حيفا، الذي وضع خطأً أحمر تحت الفقرة التالية:

«والملاحظ أن القسام على غير المتوقع كان يهدئ من حماس الشباب الغاضبين، ناصحاً لهم بالهدوء والتروي، لكنه ظلّ في نفس الوقت ينصحهم بأن يعدّوا ويستعدوا، ولا يندفعوا بلا تخطيط!..»

وتوقف الضابط طويلاً عند العبارة الأخيرة!.. ثم تناول القلم، وكتب بالحبر الأحمر الملاحظة التالية:

«الشيخ السوري ما زال غامضاً، وكلامه يحمل الكثير من التحريض ضد حكومة الانتداب.. أقترح استبدال المخبر الذي يتابعه بأخر أكثر حنكة وذكاء، ليكشف لغزهِ!..»

حان وقت المؤتمر العام الثاني للشبان المسلمين، فكان حاشداً.. كشف حجم الانتشار والتأييد الذي حققته هذه الجمعية لا سيما بعد هبة البراق، وفاز الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم برئاسة الجمعية هذه المرة، واختير القسام نائباً له، وأقام الأستاذ رشيد حفل غداء لأعضاء مجلس إدارة الجمعية الجديد، ورؤساء أفرع الجمعية في فلسطين، وعدداً من الوجهاء والأصدقاء..

وبعد أن انفضّ الجمع، جلس ثلاثة رجال يتداولون فيما آلت إليه الأمور.. وقال الشيخ عز الدين:

- رجالنا ما زالوا يتحرقون للمواجهة، وقد بذلت جهوداً كبيرة لإقناعهم بالتروي، لكن قيام الشيخ فرحان بالهجوم على الإنجليز واليهود في جنين أشعرهم بأننا مقصرون.

علق الشيخ كامل:

- حسناً فعلت. لم يكن من الحكمة أن تلقي برجالك في معركة غير متكافئة، فتكشف عما استغرقت سنوات في بنائه.. لكن أما وقد هدأت أحداث البراق، دعونا نخطط للمستقبل..

ضحك الأستاذ رشيد:

- لكن خطبك النارية ألهمت الشارع من جديد..

- أضعف الإيمان يا أستاذ رشيد.. لولا هذه العصبة التي بنيناها،

لذهبت بعيداً في الثأر للأقصى والبراق..

ومال الأستاذ رشيد إلى الجدّ:

- وصلنا اليوم في جريدة اليرموك خبر سوف أنشره غداً، حول ما

توصلت إليه لجنة الانتداب للتحقيق في أحداث البراق، حيث اعترف رئيسها «وولتر شو» في تقريره، أن معظم إصابات العرب كانت على أيدي القوات البريطانية، وعزى أسباب الغضب العربي إلى خوف العرب على مستقبلهم وتجارتهم، وخشيتهم من سيطرة اليهود بسبب الهجرة اليهودية المتزايدة.. وقد أحدث التقرير ضجة في بريطانيا، وأغضب وزارة المستعمرات التي لم تتوقع هذه النتيجة..

قال الشيخ كامل مرحباً بالخبر:

- هذا درس لإخواننا الذين ما زالوا يأملون بحياد بريطانيا وسياستها، ليقنعوا عن أفكارهم..
- تابع الأستاذ رشيد:
- لكنني قلق من شيء..
- ماهو؟

- رغم هذا التقرير فما زال التجني البريطاني مستمراً.. الأحكام التي صدرت مؤخراً برأت اليهود الذين اعتقلوا بالجرم المشهود، فأفرجت عنهم، ماعدا الحكم بالإعدام على يهودي واحد كان يعمل شرطياً في يافا، وأدين بقتل عائلة عربية من سبعة أشخاص، بينما حكمت بالإعدام على عشرة عشرين عربياً وبالسجن على ثمانمئة..

وقال الشيخ عز الدين:

- يجب أن نفكر في طريقة نوقف بها أحكام الإعدام.
- ليس لنا إلا أن نفضح هذا التجني الواضح.. يعدمون عشرين منّا، بينما لا يعاقبون إلا يهودياً واحداً. هذا ظلم واضح!
- أثنى الأستاذ رشيد على هذا الاقتراح..
- الشيخ كامل على حق. يجب أن نثير هذا المعنى لنخرج الإنجليز..

الشيخ عز الدين من خلال خطب ودروس الاستقلال، الشيخ كامل من خلال توجيه الطلبة في مدرسة البرج وعلاقاته التجارية والاجتماعية، وأنا من خلال جريدة اليرموك، وسأنسق مع بقية الصحف في فلسطين.

علق الشيخ عز الدين:

- كل هذه حلول مؤقتة، ولن يفل الحديد إلا الحديد.. الشباب متحرقون للجهاد، لكن الأسلحة مازالت محدودة.. ليس لدينا إلا بضع بنادق ومسدسات..

قال الشيخ كامل:

- تأمين السلاح سهل إذا توفر المال.. سنعمل على توفير ما يكفي لشراء السلاح اللازم، لكن عليك أن ترتب طريقة لتخبئته وحفظه إلى أن تحين الحاجة.

- في هذه لا تقلق.. الشيخ علي الحاج عبيد بارع في تخبئة السلاح.. وقد فرغته لمتابعة هذه الأمور.

وقال الأستاذ رشيد:

- أرجو أن تطمئن يا شيخ عز الدين.. كلنا معك في ما تخطط له، وسوف نسعى أنا والشيخ كامل لتأمين ما يمكن من مال وسلاح.. المهم الرجال الذين تختارهم، وتعدهم للثورة.. وقد أعجبت بحرصك على أن تحافظ عليهم في هذه المحنة، وأرجو أن تستمر الأمور على هذا الحال.

زاد نوح إبراهيم من تردده على مسجد الاستقلال بعد حوادث البراق، فأعجب القسام بفكره وأخلاقه، وقرر تشكيل فرقة من الكشافة لتجمع الشباب في سن الفتوة والمراهقة، واختار نوحاً قائداً لها.. وذات صباح طرقت نوح إبراهيم بيت القسام، وهو كسير النفس مهموم، فدعاه للدخول..

- ما بالك يا نوح.. تبدو ساهماً وحزيناً!
- مصيبة جديدة مما يصنع بنا هؤلاء اليهود..
- أفصح يا بني..
- الصندوق اليهودي اشترى أرض الحوارث في «طول كرم» بالمزاد العلني، وبالأمس جاءنا مراسل جريدة الكرمل هناك، يخبرنا بأن البوليس الإنجليزي نفذ عملية إخلاء الوادي بالقوة، وقد تشردت بسبب ذلك ثلاثمئة عائلة كانت تعيش من هذه الأرض.
- لا حول ولا قوة بالله
- أردت أن أستأذنك في أن نجتمع الكشافة، وندور على التجار والمقتدرين لجمع بعض المعونات لهذه الأسر..
- فكرة طيبة.. أريد نسخة من الجريدة للاطلاع على التفاصيل، وسوف أتكلم عن الموضوع بعد صلاة العصر، ثم تبدؤون حملتكم.
- وتحمس الناس لنصره أهل الحوارث الذين شردوا في الأرجاء، لا مأوى لهم أو ملاذ.. وعادت مشكلة المهاجرين اليهود تفرض نفسها بقوة، فلم يعد أهل فلسطين يطيقون هؤلاء المهاجرين المدللين، الذين تنتصر لهم دائماً القوة البريطانية الباغية، غير عابئة بضحاياها من العرب.

وراح كشافة الاستقلال يدورون على المتاجر والأماكن العامة.. يشرحون للناس ما حلّ بأخوة لهم، حوّلهم اليهود والإنكليز إلى فقراء ومشردين، ويحثّونهم على التبرع ببعض ما يساعد على نجدتهم.

ووصلوا إلى خان قديم في البلدة التحتا، فوجدوا صاحب الخان يجلس وحيداً، يدخن النارجيلة، وتقدم منه نوح إبراهيم، وألقى عليه التحية..

- أهلاً وسهلاً.. كم غرفة تريدون؟

تبادل الشباب نظرة باسمة..

- لم نأت من أجل السكن، بل من أجل أمر آخر..

بدت الخيبة على وجه الرجل..

- قلت لِمَا شفتكم جاءت الرزقة.. لكن ليس لي نصيب!

قال نوح:

- الله الرزاق يا عم..

لفت الرجل نريش الأرجيلة على جذعها الزجاجي المزخرف. قال وهو

يعتدل في جلسته:

- كان هذا الخان لا يهدأ من كثرة الزوّار، لكن الفندق الذي نشأ

قريباً من هنا قطع رزقي..

- ولماذا لا تحوله إلى فندق حديث؟

- البناء يحتاج إلى مال.. ومن أين لي بالمال الذي ينافس هؤلاء،

اليهود الذين يكادون بأموالهم يشترون حيفا كلها.

وشعر نوح بأن مهمته مع رجل منكوب برزقه غير مجدية، فاستأذن..

- إلى أين؟

- لا نريد أن نثقل عليك.

- لم تقولوا لي ماذا تريدون منّي!

- قال نوح، وهو مشفق على الرجل..
- نجمع تبرعات لأهل وادي الحوارث..
 - ما لهم؟
 - نكبوا بمثل ما نكبت.
 - لم أفهم!
 - اشترى الصهاينة أرضهم من مالكما في لبنان، وطردهم منها الإنكليز بالقوة، فهاموا في البلاد يبحثون عن مأوى..
 - حوقل الرجل، وهبّ واقفاً يتساءل..
 - وما دخلكم أنتم بهم؟
 - نحن من جامع الاستقلال. نجمع لهم بعض التبرعات..
 - كم عددهم؟
 - ثلاثة آلاف..
 - أطرق الرجل في حزن..
 - لو جئتم في تلك الأيام، لما قصّرت.
 - لك ثواب النية كما يقول الشيخ القسام..
 - وودّعوه يريدون أن يمضوا، لكنه استوقفهم..
 - عندي في الخان عشر غرف، تتسع لعشر عائلات.. هذا أكثر ما أستطيعه.



كان الشيخ عز الدين متوجهاً إلى المحراب لأداء صلاة العصر، عندما لمح شاباً من رجاله في عكا، كان قد كلفه بجمع المعلومات عن سجناء البراق، فاقترب منه، وصلى بجانبه ركعتي سنة المسجد، ثم سأله بلهفة، وهو يتصنع الهدوء:

- ما الأخبار؟.
- قرروا إعدام ثلاثة فقط من المحكومين بالإعدام..
- من؟.
- عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي.
- أنت متأكد؟.
- أجب بنبرة تقطر ألماً وحنناً:
- سيعدمون يوم الثلاثاء.
- واليهودي الذي حكم بالإعدام؟.
- خانكين؟.
- أجل.
- صدر قرار بتخفيض عقوبته إلى السجن..
- رغم أنه قتل أسرة بكاملها!؟
- في ظل الانتداب ذنب هؤلاء مغفور.
- بلغ الغيظ بالشيخ عز الدين مداه، همس للرجل:
- غادر المسجد بعد الصلاة فوراً، وتابع أخبار المعتقلين.. وحاول أن تطمئنني على الشيخ فرحان..
- وغطى الشيخ عز الدين وجهه بكفيه، وهو يستحضر وجوه هؤلاء

الرجال، الذين شرفوه مراراً بحضورهم لبعض دروسه وخطبه، وتذكر كلمات الشهيد فؤاد حجازي «ادع لي يا شيخي بالشهادة!.. وطلت نفسي منذ اللحظة، أن تكون هذه نيتي إلى أن ألقى الله عز وجل» فنفرت من عينيه دمعة تتلظى بالحرقة والأسى..

وجاء يوم الثلاثاء الحمراء، فاشتعلت الشوارع من جديد.. وانطلقت المظاهرات الغاضبة في مدن فلسطين، تزفت الشهداء وتتوعد الانتداب، وصدحت المآذن تستمطر الرحمات على الأبطال الثلاثة، الذين بذلوا أرواحهم من أجل القدس في معركة البراق.. المعركة التي بدأت، ولن تنتهي..

وتنادى الزعماء والوطنيون لإقامة جنازة كبيرة للشهداء الثلاثة، وتقرر دفنهم في مقبرة النبي صالح بعكا، وتولى الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم رئيس جمعية الشبان المسلمين بناء قبورهم بنفسه، وكانت جنازة حاشدة تحولت إلى مظاهرة غاضبة، تهتف ضد بريطانيا والصهيونية، وكادت الجنازة تتحول إلى مجزرة، عندما اعترضتها قوات الخيالة البريطانية، لولا أوامر عاجلة وصلت إليها بالانسحاب من وجه المتظاهرين، بعد أن أدرك الحاكم العسكري أنّ جذوة البراق بدأت تشتعل من جديد.

وتفاعلت قصة الشهداء في وجدان الفتى الشاعر نوح إبراهيم، فأطلق قصيدةً صارت أغنيةً يصدحُ بها المنشدون في الأمسيات..

مِنْ سِجْنِ عِكا وَطُلِعْتَ جَنَازَةً
مَحَمَّدُ جَمْجُومٌ وَفُؤَادُ حِجَازِي
جَازِي عَلَيْهِمُ يَا رَبِّي جَازِي
الْمُنْدُوبِ السَّامِي وَرُبُّعِهِ عِمُومَا
إِمِّي الشَّفُوقَةَ بِالسُّجْنِ تِنَادِي
ضَاقَتْ عَلَيْهَا كُلُّ الْبِلَادِ

نَادُوا فُؤَادَ وَمُهْجَةَ فُؤَادِي
 قَبْلَ نِتْمَرِّقٍ تَابُودُّوْنَا
 تَبْدَهُ عَ عَطَا مِنْ وِرا الْبَابِ
 وَقَفَّتْ تَسْتَنْظِرُ مِنْهُ الْجَوَابِ
 عَطَا يَا عَطَا زَيْنِ الشَّبابِ
 بِهَجْمِ عَ الْعَسْكَرِ وَلَا يَهَابُونَ
 حَبْسَكَ يَا عَطَا مَا عُدْنَا نُهَابُوا
 مَا دَامَ الظُّلْمُ ظَارِبًا أَطْنَابُوا
 هَذَا وَطَنًا وَاحْنَا أَصْحَابُوا
 جِزْبِ الصَّهْيُونِيِّ قُومُوا ارْحَلُونَا
 يَقُولُ مُحَمَّدٌ أَنَا أَوْلَكُمُ
 خُوفِي يَا عَطَا أَشْرَبَ حَسْرَتِكُمْ
 يَقُولُ حِجَازِي أَنَا أَوْلَكُمُ
 مَا نَخَافُ الْمَشَانِقَ لَوْ عَلَّقُونَا
 شَرْقِيَّ الْقُدْسِ صَارَتْ مَنَاحَةَ
 سَمِعَتْهَا يَا فَا طَلَعَتْ صَيَّاحَةَ
 قَالَتْ يَا قُدْسُ يَا لَلَّ يَا رِيحَا
 نِعْلُنَهَا ثَوْرَةَ عَلَى صَهْيُونَا



استقطبت جماعة الشبان المسلمين آلاف الشباب، وصارت ملاذاً لكل شابّ يبحث عن دور وفكرة، ويسعى لتغيير هذا الواقع البغيض.. وكان الصحفي عبد الغني الكرمي أحد ألمع الشبان المسلمين في حيفا، فقد جذبته الفكرة، فتفاعل معها، وكان يكثر من التردد على مقرها الرئيسي، وله صحبة مع الشيخ القسام.. وذات يوم.. كان الكرمي مع بعض أقرانه في مقر الجمعية بحيفا يلعب النرد، فدخل قرويّ وسأل عن عيادة الطبيب؟!..

ضحك الشباب، وانبرى الكرمي يمازحه..

- لعلك لم تقرأ اليافاطة على الباب يا أخ، هذه جمعية وليست عيادة.
قال القروي:

- أعرف... قالوا لي أنه توجد عيادة في الجمعية..

قال عبد الغني الكرمي لأصحابه:

- الأخ مصرّ على العيادة.. دبروها يا شباب..

قال أحدهم:

- هل أنفع أنا؟

- أنت دكتور؟

- دعت لي أمي يوماً أن أصبح طبيباً، لكنّ دعائها لم يستجب.

انفجروا ضاحكين.

ودخل الشيخ عز الدين، فصدم بالمشهد..

- ما القصة يا شباب؟

ارتبكوا وهم يرون الشيخ القسام فوق رؤوسهم.. وقال الصحفي عبد

الغني الكرمي، يحاول تبرير ما حدث:

- الأخ يبحث عن دكتور في الجمعية، فاستغربنا طلبه.
 - هب أنه أخطأ. هل كان في ذلك ما يدعو للضحك.
 - لم نقصده بالذات، بقدر ما أثار سؤاله استغرابنا.
- التفت الشيخ إلى القروي، وقال له:
- لعلك تقصد العيادة التي في الجمعية الإسلامية.
 - أجل.
 - هذه جمعية الشبان المسلمين، أما الجمعية الإسلامية ففي شارع البرج.
 - اعذرني، فقد خربت.
 - لا تقلق. سأذهب معك.
- وصاحب الشيخ القروي إلى عيادة الجمعية الإسلامية، فانتظر القروي حتى خرج من عند الطبيب، فأخذ منه الوصفة، واصطحبه إلى صيدلية دميان في شارع اللمبي، فدفع له ثمن الدواء، ثم ودّعه، وقفل راجعاً..
- كان الكرمي ما زال في الجمعية، يطالع بعض الصحف.. وعندما شاهد الشيخ عز الدين يدخل مكتبه، لحق به..
- المعذرة يا شيخ عز الدين.. لعلك غاضب منّا. إنما كنّا نمزح.
 - قال الشيخ عز الدين، وهو يتهالك على كرسيه، خلف مكتبه المتواضع..
 - أعرف أنه كان مزاحاً.. لكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا أن نعرف أين تقع كلماتنا في نفوس الآخرين عندما نمازحهم، ونتجنب أي مزاح يسخر من الآخرين أو يروعهم..
 - وخالط الكرمي شعور بالذنب.
 - أعترف بأنك علمتني اليوم درساً بليغاً في التواضع.
 - أهل القرى يتصرفون على الفطرة. كلما كان الإنسان بسيطاً كلما كان أكثر صدقاً وإخلاصاً.

- أهذا سرّ اهتمامك بالعمال والفلاحين وبسطاء الناس؟
 - لا تنسَ كم ظلموا بسبب بريطانيا واليهود.
 - قد يتهمك البعض بالشيوعية، لأنك تنحاز لهؤلاء!.
 - هذا ديننا يا أستاذ عبد الغني. عندما تكون مؤمناً بما تفعل، فامض في مشروعك، ولا تلتفت للأقويل.
- كتب الصحفي عبد الغني الكرمي في اليوم التالي..
- «.. وقد تعلمت من الشيخ عز الدين القسام درساً لن أنساه.. درساً في احترام الإنسان والانحياز إلى البسطاء من العمال والفلاحين وأبناء القرى.. لأنهم أكثر صدقاً وإيماناً، وأقرب الناس إلى التضحية، وأجرؤهم في الحق، ولعلّ هذا هو سرّ هذا الحب الجارف، الذي حظي به هذا العالم المتواضع، الذي أصبح اليوم نجماً يلمع في أفق الجنوب.».



- أترون إلى هذا الخبر؟
تساءل القصاب..
- أي خير؟
- هنا يا شيخي.. عند صورة هذا الإنجليزي.
تناول القسام جريدة اليرموك، وقرأ الخبر الذي أشار إليه الشيخ حنفي:
- «إطلاق النار على المستشار القضائي للانتداب في فلسطين..
محمد عبد الغني أبو طيخ سباعنة يطلق النار على «نورمان بنتويش»
الذي اشتهر بقراراته الجائرة ضد العرب..».
- علق الشيخ حنفي:
- الحمد لله دماء الزير وجمجوم وحجازي لم تذهب هدرًا..
- هذا أول الغيث.. والبقية تأتي إن شاء الله
- من تراه وراء هذه الحوادث؟
قال القسام:
- علمت أن مجموعة من الفدائية تسمى نفسها «الكفّ الأخضر» قامت ببيعض العمليات.
- سأله الشيخ القصاب:
- هل اتصلت بهم؟
- هم اتصلوا بي، ونصحتهم أن يتبهاوا لأنفسهم، ولم أمض معهم أبعد من ذلك..

- كيف وجدتهم؟
 - شباباً متحمسين أدعو لهم دائماً..
 - وماذا عن أبو جلدة والعرميط؟..
- هتف الشيخ حنفي بنبرة مرحة:
- أخيارهما خلبت أبواب الناس.. لا تقابل أحداً إلا وتجده يتحدث عن هذين البطلين، اللذين دوخا بريطانيا في مرج بني عامر، ويتدرون بالكمائن الذكية، التي يعدونها للجنود الإنجليز، يخلصونهم فيها أسلحتهم.

قال الشيخ عز الدين:

- أحداث البراق نبهت الناس إلى حجم الخطر الذي يتهددهم.
 - هذا هو الوقت المناسب للعمل والإعداد..
 - لكن الإنجليز زادوا من التشديد في مراقبتي..
 - فلتنتبه.
 - أحاول أن أتصرف على سجيتي مع الحذر الشديد..
 - وماذا عن «الشبان المسلمين»؟
- ضحك الشيخ عز الدين..
- لو تعلم حجم الإقبال على الجمعية بعد هبة البراق، في كل يوم نستقبل عشرات طلبات الانضمام إلى الشبان المسلمين.. فلسطين تستيقظ من جديد يا شيخ كامل.
- والتفت القصاب إلى الشيخ حنفي.
- وما أخيار بيارة الطنطورة، متى تبدوون قطاف البرتقال هناك؟
 - وصينا على الصناديق، وحالما نستلمها سوف نبدأ القطاف فوراً.
- وأردف الشيخ عز الدين:

- نرجو أن تدرّ علينا المزرعة دخلاً يكفي، فقد وعدني أبو العيون بتأمين عشرين بندقية، ولعل العائد هذا العام يغطي الثمن.

قال الشيخ كامل:

- كانت فكرة ضمان البيارات فكرة موفقة للاستثمار وزيادة الموارد..
على أية حال إذا لم تكفِ عائدات البيارة، أتكفل أنا بالباقي.



أصّر عمال حيفا على أن يجتمعوا لتأيين شهداء البراق، ودعوا القسام ليلقي كلمة فيهم.. ووقف الشيخ عز الدين على المنصة في ساحة الجرينة، فساد صمت، وراحت الأذان تتشوق لكلمات فارس الكلمة، الذي ألهمت خطبه فلسطين كلّها، وأجّجت الثورة في دماء الأحرار في كل مكان..
وتدفق بالكلام..

«ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون».. لا تحسبنّ فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير الذين أعدمهم الغازي البريطاني كرما لعين الصهيونية أمواتاً.. بل هم شهداء عند ربهم يرزقون.. شهداء.. في حواصل طير خضر، يرفرفون الآن في ظلال العرش.. يشكون لربهم الانتداب الغاشم.. يشكون الحملان الغبية التي ما فتئت تحدثنا عن السلام مع الذئب البريطاني، علّه يشكم اللص الصهيوني الذي هدّد البلاد والعباد..

الذئب البريطاني الذي أعدم شبابنا، لأنهم دافعوا عن وطنهم ومقدساتهم، وخفّف حكم الإعدام عن الجزار اليهودي في شرطة الانتداب «خانكين»، الذي قتل أسرة كاملة من سبعة أشخاص في يافا.. ليحكموا عليه بالسجن لسنوات، ولا أستغرب أن يراه أهل يافا قريباً بينهم حرّاً طليقاً، يستعد لافتراس أسرة جديدة من أهلنا الأبرياء..

وبمناسبة الحديث عن «خانكين» كنموذج عن اليهود الذين شحنتهم الصهيونية بالأحقاد، وأرسلتهم لنا في فلسطين، حدّثني الشهيد صالح أبو شقرا، رحمه الله.. الذي قضى شهيداً على يد قطعان المهاجرين في يافا أيام البراق..

وغصّ الشيخ بالكلمات، وهو يتذكر الشهيد صالح، فمسح دمعة أفلتت منه، وضغط على نفسه ليتماسك أمام هذا الحشد. وتابع يقول:

حدثني قبل سنوات عن إمام مسجد طيب من حارة العراينة في يافا، كان يعتقد أن المهاجرين الأجانب تنطبق عليهم أحكام أهل الكتاب، وكان يرى أنّ لهم مالنا، وعليهم ما علينا، مثلهم مثل اليهودي الذي نشأ بيننا وعاش معنا في هذه البلاد، وكان خانكين هذا جاره، فكان الشيخ يكرمه ويحترمه على هذا الأساس، وظلّ مخدوعاً به حتى قامت هبة البراق، فإذا بخانكين هذا يدخل عليه، فيقتله هو وأطفاله.. ولا ندري كم قتل من العرب الآخرين.. فانظروا أي قوم ترميكم بهم بريطانيا، وأي وطن سيقيمه هؤلاء على دماثنا وأشلائنا؟..

حجازي وجمجوم والوزير يا شباب فازوا بالشهادة، ونحن ننتظر.. فمن أراد أن يقتضي آثارهم فالطريق واضح.. ومن أراد أن يركن إلى الدعة والسلامة، فلينتظر سكين الجزار اليهودي خانكين.. فالصهيونية جاءت إلى هذه البلاد لتقييم وطناً ودولة، وسوف تحاول أن تزيح كل الأحرار الذين يرفضون أن تتحول فلسطين إلى وطن لليهود الأجانب، فانظروا ماذا أنتم فاعلون.

كانت القلوب تمور بالثورة، والعيون تترقرق بالدمع، والشفاه تترحم على الشهداء، الذين سقطوا على طريق الحرية والاستقلال.. وكان في مقدمة الحاضرين شاب تبدو عليه علامات التأثر، وما كاد الشيخ يمر من أمامه ليعود إلى مكانه، حتى تلقفه وعانقه، وهو يغصّ بالدمع..

- يسلم فمك ياشيخ.. كلماتك تهزّ الصخر..

- الله يبارك فيك.. مين بلا صغرى؟..

- حنا عصفور. محامي

- حياك الله..
وأردف وهو يودعه..
- أرجو أن نراك قريباً في جامع الاستقلال.
ارتبك الشاب، وتلعثم..
- عفواً أنا حنّاً.. حنّاً عصفور
- أنعم وأكرم.. أهلاً بك متى أردت.. نحن أهل وإخوان.
نزلت كلمات القسم برداً وسلاماً على قلب حنّاً، وكبر القسم في
عينيه.. هذا رجل مختلف فعلاً. ولكن.. ماذا سيفعل «حنّاً» في مسجد
الاستقلال؟

- أفسحوا الطريق للشيخ.. المأذون وصل..
- وشق الشيخ عز الدين طريقه بين الرجال، الذين جاؤوا ليباركوا هذا الزواج، وقدمه الشاب الذي أحضره لوالده:
- الشيخ عز الدين القسام.
- هتف الوالد بحماس:
- يا أهلاً بالشيخ الشامي.. واللّه زارتنا البركة، سمعتك يا شيخ عز الدين تملأ حيفا.
- ثم وهو يخاطب من حوله..
- حضرتُ له خطبة في جامع الاستقلال.. ما شاء الله.. علم وحماس ووجه يتلألأً بالنور.
- هذا من لطفك..
- أنا والد العريس أبو العبد.
- ثم وهو يعرفه على من حوله:
- وهذا الحاج أبو محمد والد العروس.. نريدك أن تعقد قران ابني عبد الله على كريمته صفاء.
- ثم وهو يتلفت حوله:
- أين أنت يا عبد الله؟
- وحضر الشاب، فصافح الشيخ..
- هل نبدأ بكتب الكتاب؟
- تفضل.. في هذه الغرفة..
- وكانت من عادة القسام أن يستوثق من رأي الفتيات، خشية أن يكنّ

تحت ضغط الأهل، ليرضين بمن لا يردن، لا سيما بعد أن اكتشف حالات أجبرت فيها فتيات على اختيار من لا يرغبن من أقربائهن، بسبب الإرث أو تفاهات الكبار، وبعد أن سمع رأي الشاب، أراد أن يستمع لرأي الفتاة..

- هل أنت موافقة يا ابنتي على هذا الزواج؟

صمتت الفتاة، ولم تجب.

وهمست إحدى النساء من خلف الباب الموارد:

- السكوت علامة الرضى يا شيخنا..

هتف القسام منبهاً:

- أرجو من أخواتنا عدم إحراج الفتاة.. دعوها تقول رأيها بصراحة،

ولا تؤثرن في قرارها.

تدخل الحاج أبو محمد والد العروس..

- هي موافقة يا شيخنا، ولكنها تستحي أن تقول.

- أريد أن أسمع منها ما يقنعني أنها موافقة بملء إرادتها.

ثم وهو يشجع الفتاة:

- قولي يا بنتي.. توافقين على هذا الزواج؟..

همست الفتاة بنبرة ترتعش من فرط الحياء:

- الخيرة فيما اختاره الله.

وأنس القسام منها صدقاً، فأبرم العقد.

- مبروك. سمعونا الفاتحة.

وغمرت الفرحة القلوب، فلعلت الزغاريد احتفاء بهذا الزواج.. وتكاتف

الشباب يرقصون الدبكة فرحاً بزفاف عريسهم، ودعا صاحب الدار الشيخ

للتفضل بالجلوس في صدر المجلس مع بعض التجار والوجهاء، ودارت

أطباق الكنافة والمبرومة على الحضور ابتهاجاً بهذه المناسبة..

وكان ابن عم الحاج صالح ممن يحملون على الشيخ عز الدين،
وينتقدون منهجه، فقال بنبرة جافة:

- نحن سعداء بلقائك ياشيخ عز الدين، لكن قلما نراك بيننا..

- أنا رهن إشارتكم..

تابع فيما يشبه اللمز..

- يقولون الشيخ القسام يحب الجلوس مع الفلاحين والعمال، ويقضي

أغلب وقته مع البسطاء عند بوابة عكا..

فهم الشيخ ما يرمي إليه..

- والله أتشرف بالجلوس مع هؤلاء، فهم من خيرة أهل فلسطين..

- أخشى أنا في نظرك من أشرارها..

صدم الشيخ بهذه النبوة، فاعتصم بالحلم والهدوء. قال دون أن

يستجيب للاستفزاز:

- مثلي يجب أن يكون مع هؤلاء، حتى يظل يشعر بالظلم الفادح،

الذي أصابهم بسبب هؤلاء الصهاينة الذين طردوهم من أرضهم، وزاحموهم

على لقماتهم.

- لعلك تقصد يا مولانا أنا لا نشعر بهؤلاء!..

انزعج الشيخ لأنه حشر في هذا المجلس، وأراد أن يحسمه على

طريقته..

- بل قصدت أنني عندما أجلس مع هؤلاء أستطيع أن أنقل للأفاضل

أمثالك ما يعانون منه، فيقوموا بواجبهم في نجدتهم وإغاثتهم..

احتد الرجل، وقال بلهجة متعالية:

- لدينا من هؤلاء الكثير في مزارعنا وحوانيتنا، ولم نقصر معهم

يوماً..

استفزّت القسام هذه اللهجة المتعالية. قال وهو يهيم بالانسحاب:
 - هؤلاء ليسوا متاعاً تقول لدينا منهم الكثير، تذكر أن هؤلاء كانوا
 معززين مكرمين في أرضهم قبل أن يطردهم اليهود والإنجليز، فلا نأت
 اليوم ونتعالى عليهم، ونتقص من كرامتهم.
 ونهض منهياً الحوار مع رجل جاهل، أنساه غناه أن يتحلى بقدر من
 الأدب والتواضع.

وأردف وهو ينظر للرجل نظرة تفيض لوماً..
 - قرأت منذ أيام في جريدة المقطم أن اليهود أطلقوا على البارون
 روتشيلد لقب «السخيّ المشهور» لأنه ينفق ماله من أجل إقامة وطن لليهود
 في فلسطين، ويقف وراء تمويل نصف المستعمرات التي أنشأها الصهاينة
 هنا، وأتمنى أن أرى بيننا سخيّاً يتبرع بمعشار ما أنفق هذا اليهودي، حتى
 يسدّ حاجة بعض العرب، الذين طردوا من وادي الحوارث على الأقل.
 وأراد الشيخ أن يخرج، فاستوقفه بعض الحاضرين، ما نبه صاحب
 المناسبة، فأقبل مسرعاً..

- إلى أين ياشيخ عز الدين؟
 - بيتكم عامر.. يجب أن أمضي.
 ونظر الحاج إلى الرجال في دهشة، فقال أحدهم:
 - ابن عمك عكّ في الكلام كالعادة..
 - سوّد الله وجهه.. ومع من؟.. مع الشيخ القسام!..
 وأردف يطيب خاطر الشيخ:

- حقك علي.. هذا البارد قد يكون تفلسف بالحكي، والله كوعه ماهو
 عارفه من بوعه..

- العفو.

- والله لا تخرج قبل أن يعتذر منك. لك الصدر وله العتبة.
- يا أخي الأمر لا يستحق. مجرد نقاش وانتهى.
- وصاح الحاج بابن عمه غاضباً:
- الأستاذ القسام ضيفي، ومن يزعجه كأنه يطعنني في ظهري..
- ما قصدت أن أخرج الشيخ، لكنني نقلت له ما يقوله البعض، وأردت أن أسمع رأيه..
- قال أبو العبد ساخراً، وهو يضع يديه على خصره، فيما يشبه التحدي:
- عساک سمعت الرد.
- قال، وقد شعر بأنه قد تمادى بحقّ الشيخ..
- كلام الشيخ على العين والراس.
- لا بد أن تعتذر باسم العيلة كلها.. والله لا يخرج الشيخ القسام من بيتي، وهو زعلان، ولو على رقبتني.
- ونفض الرجل، وقبّل رأس الشيخ عز الدين، وعانقه أبو العبد معتذراً عما لاقاه من إساءة، فعاد راضياً، والتأم المجلس من جديد، والرجل الذي أخطأ بحق القسام يتساءل في سرّه عن لغز هذا الشيخ، الذي جاء حيفا لاجئاً، فإذا به اليوم ألمع نجم فيها؟!.

ابتسم القسام ابتسامة رقيقة عندما رأى المحامي حنا عصفور يتقدم على استحياء، ويجلس في مؤخرة الصفوف ليصغي لدرسه اليومي.. كانت ابتسامة تشجيع لهذا الشاب المسيحي، الذي يزور المسجد لأول مرة..

- وسّعوا يا شباب لأخينا حنّا..

التفت الجميع في فضول.. من هو «حنّا» الذي يتابع دروس القسام؟..

- تفضل يا أستاذ.. المكان يتسع للجميع..

راح حنّا يرقب الوجوه التي استقبلته بابتسامة هادئة، لا تخلو من

غرابة.. مسيحي في درس القسام!؟

لم يترك القسام المناسبة تمرّ..

- يا إخوان سوريا بلد الكل.. سوريا الكبرى التي نعرفها قبل أن يتقاسمها

هؤلاء الغزاة.. من لبنان إلى فلسطين إلى شرق الأردن إلى سوريا الشام.. بلد

الطيبة والتسامح التي عاش فيها الجميع أحبباً متعاونين.. المسيحي ابن هذه

البلاد أخونا وشريكنا في هذه الأوطان.. وليس المسيحي الفرنسي أو الإنكليزي

الذي جاءنا غازياً بالحديد والنار.. الآن أو بالأمس.. أجدادنا في كتب التاريخ

كانوا يسمونهم الفرنجة، أي الأجانب، والبدو حتى اليوم يسمونهم الحمران..

والحقيقة يا إخوان أنهم هم الذين سمو أنفسهم بالصليبيين، حتى يقنعوا

جنودهم بالذهاب إلى الحرب، بحجة أن الدين يأمرهم بقتال المسلمين،

الذين يضطهدون أهل الصليب، ولم يكن هذا صادقاً.. تماماً كما تقنع

الصهيونية اليوم اليهود بالهجرة إلى فلسطين، لاستعادة مملكة داوود وهيكل

سليمان، ولهذا هاجموا حائط البراق، وأحدثوا كلّ هذه الاضطرابات..

لقد عاش اليهود - يا إخوان - بيننا في سلام.. لهم ما لنا وعليهم ما

علينا.. وعندما طردوا من الأندلس، لم يجدوا ملاذاً إلا في بلاد الإسلام، فاستضافهم المسلمون، وقدموا لهم كل ما يضمن حقوقهم.. أما اليهود الذين يأتونا اليوم من روسيا وبولندا وألمانيا وأوربا، فلهم شأن آخر.. بعد أن أطلقت الصهيونية أطماعهم وأحقادهم خلف الحلم اليهودي بإقامة وطن في فلسطين.. وطن ترونيه اليوم يتشكل أمام أعينكم من مئات المستعمرات وعشرات الألوف من اليهود الأجانب، وما خفي كان أعظم.

وبعد الدرس خرج الشيخ بصحبة ضيفه المحامي حنّا عصفور.. ودعاه إلى بيته المتواضع..

- اليهود يتزايدون يا أستاذ حنّا، ومستعمراتهم المنيعه ترتفع في أرجاء البلاد كقلع غامضة، تخفي خلفها غموضاً وأسراراً، والإنسان يتفكّر فيما يمكن أن يوقف هذا الطوفان، فلا تسعفه إلا الكلمات.

- كلماتك تصيبهم في مقتل يا أستاذ عز الدين.. الناس في حيفا يتبادلون كلماتك وأفكارك كلّ يوم..

- ليت الكلمات تكفي.

- والله يا أستاذ لا ينفع مع هؤلاء إلا الرصاص..

- صدقت.. لكن بريطانيا قوية وماكرة، والأمر يحتاج إلى تعاون كلّ

المخلصين من أجل وقف مشروع الوطن اليهودي..

قال حنّا، وعيناه تلمعان ببريق قرأ فيه الشيخ عز الدين الصدق والإخلاص:

- أنا رهن إشارتك يا شيخ عز الدين في كل ما تراه تعاوناً مفيداً،

يصبّ في مصلحة البلاد.. ولعلي أرى في كلماتك بوادر ثورة مباركة تلوح

في الأفق، ويراودني أن هذه الأفكار التي تنثرها في وجدان الناس من

محببك ومريدك لا بدّ أن تزهر عمّا قريب.. كيف؟ لا أدري..

أيقن القسم أن غرسه يثمر.. ويطرح في كلّ يوم جديداً..



في ليلة غاب عنها القمر، وعند كسارة حسن شبلاق في الكبايير،
اجتمع القسام مع كل من خليل عيسى (أبو إبراهيم)، ومحمود زعرورة،
وناجي أبو زيد، والعبد قاسم، ومحمد صالح الحمد.. وفاجأهم
بالكلام..

- اسمعوا يا إخوان.. لعلي على ما شاهدت في حياتي، لم أرَ ظلماً
أسوأ من هذا الذي يجري في فلسطين، فإذا لم نوقف جحافل الهجرة.. إذا
لم نضرب مشاريع الصهيونية الغاشمة ومستعمراتها، فإن الوطن المشؤوم
الذي يخططون له بتأييد من الإنجليز، سيصبح حقيقة عما قريب، وسيهدد
مستقبل فلسطين وسوريا وأمة الإسلام جميعاً.. وقد ارتأيت أن تنتقل
بحركتنا من الإعداد إلى التنفيذ..

فرح الرجال بهذا القرار، واستبشروا، وتحمس محمود زعرورة وهو يشد
على سلاحه..

- منذ متى ونحن ننتظر هذه الخطوة!.

- لقد كلفت الأخ ناجي أن يجمع معلومات وافية عن الأهداف التي
سنضربها، وهو سيخبركم عنها الآن..

- الأهداف؟.

- لا تنسوا أننا قلة، وتسليحنا متواضع.. وحتى تتكامل قوتنا، وتكتمل
عدتنا، سنختار أهدافاً محددة.. ستكون الآن محصورة بمعاقبة كل من قتل أو
ظلم عربياً أثناء أحداث البراق.. وأول هدف لنا سيكون مستعمرة نهلال.

هتف العبد قاسم في حماس:

- أكرمني بهذه المهمة، وأنا أعدك بأني سأنجزها على أحسن وجه..

اعترض الشيخ حماسه، وقال بحزم:

- أبو إبراهيم هو القائد.. ناقش الأمر معه، ولا تخرجه، دعه يأخذ قراره بدقة وروية..

قال محمود زعرورة..

- هناك أهداف كثيرة تحت اليد، لو أمرت هاجمناها؟.

عاد القسام يؤكد:

- ضعوا خطأً محكمة حتى نضمن النتائج.. يجب أن تكون عملياتنا متقنة بدون أخطاء.. لا أريد أن نكشف ما بنيناه.. وتجنبوا الضربات التي تجعلهم يصبوا جام غضبهم على الناس..

قال محمد صالح الحمد:

- المثل يقول إذا ضربت فأوجع..

تابع الشيخ، يضع قواعد التحرك الجديد.

- لم أقل أننا سنعلن عليهم حرباً، فهذا أكبر منّا.. بل نزعجهم بعمليات مدروسة، تؤدبهم، وتشعرهم بأن مشروعهم ووطنهم المزعوم مرفوض، وسنستفيد من وجود عدة جهات فدائية تعمل في نفس الوقت، حتى نشنت تفكيرهم، فلا يعرف العدو من أين يأتيه الضرب..

وأردف:

- لا تضربوا هدفاً إلا بعد تخطيط.. أبو زيد يجمع المعلومات.. وأبو إبراهيم يضع الخطة.. ثم تتفقوا على دور كل واحد في التنفيذ.. وكلما كان العدد محدوداً كان أفضل.. لا تتوسعوا الآن في تكليف الجميع بالمهمات.. نريد أن نحافظ على الحركة، حتى يشتدّ عودها، وتصبح قادرة على قيادة ثورة حقيقية ضد الإنكليز واليهود..

كان لكلمة «الثورة» وقع السحر.. وقال العبد قاسم:

- بِشْرِكِ اللّٰهِ بِالْخَيْرِ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ.. وَاللّٰهُ هُوَ الَّذِي لَا يَنْفَعُ مَعَهُمْ إِلَّا ثَوْرَةٌ تَزَلْزَلُ الْأَرْضَ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ..

- مَا يَهْمُنِي سَلَامَةُ الرِّجَالِ.. لَا أُرِيدُ أَيَّ تَسْرِعٍ، يَجْعَلُنَا نَخْسِرُ أَخَا فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، أَوْ يَقَعُ أَحَدٌ مِنَّا فِي يَدِ الْأَعْدَاءِ..

وَاسْتَدْرِكِ الشَّيْخَ عِزَّ الدِّينِ..

- انْتَبَهُوا يَا شَبَابَ.. نَحْنُ مُسْلِمُونَ أَوَّلًا.. وَلَا نَفْعُ إِلَّا مَا يَرْضِي الرَّبَّ.. نَلْتَزِمُ بِأَخْلَاقِ الدِّينِ الْحَرَبِيَِّّةِ.. لَا نَقْتُلُ طِفْلًا وَلَا شَيْخًا وَلَا امْرَأَةً، مَا لَمْ تَقَاتِلْنَا أَوْ تَقْتُلْ مِنَّا.. لِانْقِطَعِ شَجَرَةٌ أَوْ نَتَلَفُ زَرْعًا أَوْ نَعْكُرَ مَاءً لِلشَّرْبِ.. وَلَا نُوْذِي إِلَّا مَنْ آذَى أَهْلَنَا وَبَلَدَنَا..

وَبَدَأَ التَّنْفِيزَ..

وَجَنَّ جُنُودُ بَرِيطَانِيَا الْعِظْمَى، وَهِيَ تَرَى الْأَرْضَ تَهْتَزُ تَحْتَ أَقْدَامِهَا، وَأَثَارَتِ الْعَمَلِيَّاتُ الْجَرِيئَةَ الرَّعْبَ فِي مَسْتَعْمَرَاتِ الْيَهُودِ، الَّتِي بَدَأَتْ تَضْجُ بِالشَّكْوَى، وَانْتَشَرَ الْجَوَاسِيسُ بَيْنَ النَّاسِ، يَبْحَثُونَ عَنِ خَيْطِ يَدْلِهِمْ عَمَّنْ يَقُومُ بِهَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ، لَكِنِ الْإِنْضِبَاطُ وَالْحَرَصُ الَّذِي رَبَّى الْقِسَامَ عَلَيْهِمَا رَجَالَهُ، جَعَلَ مَهْمَةً هُوَ الَّذِي فِي غَايَةِ الصَّعُوبَةِ.

وَتَقَاعَلُ النَّاسُ بِنَهَايَةِ لِهَذَا اللَّيْلِ.

سلم الشيخ القسام التسليمة الأخيرة من صلاة العصر، واستدار في جلسته، يستغفر الله العظيم، وبينما كان يتأمل المصلين، وقعت عينه على صديق عزيز.. أكمل الورد الذي يحافظ عليه بعد كل صلاة، وعندما حان وقت الدعاء، طلب من صديقه الشيخ طه الدريني من الناصرة أن يدعو عوضاً عنه..

شكره الشيخ طه بإيماءة من رأسه، ودخل في دعاء ضارع حرّك القلوب، وشحذ الهمم لتقبل على الله بتوبة نصوحة، وعزيمة على التغيير..

واصطحب القسام ضيفه إلى المنزل..

- يا هلا بالشيخ طه.. لكم أنا سعيد برؤيتك..

- بارك الله فيك يا شيخ عز الدين.. وجزاك الله خيراً على هذا

الجهد الذي تبذله.. لقد أحدثتَ وعياً كان شبابنا بحاجة إليه..

- لا تُعن الشيطان على أخيك يا شيخ طه.. إنما أجتهد فيما يوفقني الله

إليه..

- هذا رأي الجميع.. ولعل البعض بدأ يحسدك على هذا التأثير وهذا

القبول!

ابتسم الشيخ عز الدين..

- نسأل الله القبول..

ضحك الشيخ طه:

- أحدهم قال لي..أريد أن أعرف ماذا يقول الشيخ القسام للناس في

خطبه في الاستقلال؟.. كثير من رواد مسجدي يتركون خطبتي في الناصرة،

وينزلون إلى حيفا ليسمعوا خطبته!

تنهد الشيخ عز الدين، قال، وهو يسكب كأساً من مغلي الميرامية لضيفه:

- حتى ننجز لأخرتنا يجب أن نترفع عن هذه الصغائر يا شيخ طه،
ونتفرغ لما هو أهم وأجدى..

وما لبث الشيخ طه أن استدرك وقد تذكر شيئاً دهمه للتوّ:

- ثمة شاب أعرفه من برقين يدعى حسن الباير..
قلّب القسام الاسم في ذاكرته، فلم يذكر أنه قد سمع به من قبل..
وتابع الشيخ طه:

- يلقبونه شيخ شباب برقين.. شاب مثال الشهامة والنخوة، لكنه كان
مبتلياً بالحرام.. يأتي حيفا لبحث عن الشرب واللهو والنساء، وقد صدف
وجوده يوماً هنا، فاصطحبه قريب إلى اجتماع الشبان المسلمين، فسمع
منك كلاماً رقّ له قلبه، فتاب من يومها، وقد زارني من أيام، وحكى لي
قصته، وعندما أخبرته أنني أعرفك، طلب مني أن أزيه عندك.
- تبدو واثقاً به..

مال الشيخ طه على أذن القسام، وقال بنبرة تميل نحو الجد:
- الرجل يتحرق شوقاً للجهاد.. يتمنى أن يفعل شيئاً ينال به من هؤلاء
الغرباء، الذين يعيشون في البلاد غطرسة وظلماً.

اهتزت نفس القسام تأثراً، وشكر الله على توفيقه، وضرب له موعداً.



تواترت التقارير اليهودية والبريطانية حول خطر القسام على فكرة الوطن القومي لليهود، وكلفت حكومة الانتداب ضابطاً من أكفاً ضباطها، يدعى كلايتمان، بالإمساك بملف الشيخ القسام، لمعرفة ما وراء هذه الحملة التي يشنّها على المشروع اليهودي البريطاني في فلسطين.

وطلب بن غوريون أهم قادة اليهود المهاجرين مقابلة كلايتمان، ليعرب عن انزعاج زعماء الحركة الصهيونية، من الحملة التي يشنّها هذا الشيخ السوري على الهجرة، ونبهه إلى أن الشيخ يحرض الفلسطينيين على بريطانيا مباشرة، ويعتبرها هي العدو الأول للعرب..

قال كلايتمان:

- مستر بن غوريون نحن لا نعول على الكلام.. دعهم يقولون ما يشاؤون، وتابعوا جهودكم على الوجه الذي تريدون..
- الكلام عندما يحمل التحريض، يصبح أخطر من الرصاص.
- اطمئن نحن ما زلنا نراقبه.. وقد قررنا أن نراقب الأعضاء الناشطين في جمعية الشبان المسلمين أيضاً، وإذا لاحظنا أي سلوك تخريبي سنقف لهم بالمرصاد.

لم يقتنع بن غوريون بتطمينات كلايتمان:

- نحن نشك بالشيخ القسام، وسوف أكلف مجموعة من اليهود بمراقبته.
- سيكونون مكشوفين، وقد يتعرضون للخطر.. تخيل واحداً من رجالك اليهود يصلي في المسجد، ليراقب القسام. أنت تمزح بلا شك!.
- ليس بالضرورة أن يصلوا بالمسجد.

- اطمئن. كلفت مساعدي المصري بترتيب أمور المراقبة.
- تقصد..
- حلیم بسطة.
- حلیم بسطة قبطي، وسيكتشف القسام أمره أيضاً.
- لا. لا. ليس بنفسه.. لديه ضابط عربي سري محترف، جنده ودرّبه،
وقد جربناه..
- هل يمكن أن أعرفه؟
- لن يكون سرياً إذا عرفته!
- قد يكون مفيداً لكلينا أن نعرفه.
- أحمد نايف.. من برقين، ولدينا آخرون من العرب.. أريدك فقط أن
تطمئن.
- ونهض بن غوريون، يريد أن يمضي.
- جنرال كلايمان.. لقد قمتم بعمل عظيم، لتفوا بالتزاماتكم لنا
بإقامة الوطن القومي في فلسطين، لكننا قلقون من أن تتم محاصرة هذا
الوطن، وخنقه قبل أن يولد..
- أنتم دائماً قلقون!.. يجب أن تتقوا ببريطانيا العظمى..
- نحن واثقون، لكننا مستعجلون..
- وما وجه الاستعجال؟..
- الأخبار التي تأتينا من ألمانيا لا تسرّ.. وقد وردتنا رسائل من
زعماء اليهود هناك، بأن نستعد لاستقبال موجة جديدة من المهاجرين.

انتهت صلاة العشاء، وكاد المسجد أن يفرغ من المصلين، ماعدا الشيخ القسام والشيخ علي الحاج عبيد وشابّ ظل يقرأ القرآن في زاوية المسجد، وهو يراقب الشيخ بطرف تختلط فيه اللفظة بالحذر.. ونهض الشيخ علي، فسمع الشاب الشيخ عز الدين يشوش له بشيء، ثم يطلب منه أن يغلق الباب خلفه، فأيقن أن اللقاء الذي تاق إليه قد أُرِف، فطوى المصحف في هدوء، ووضع على الرفّ، وتقدم من الشيخ، الذي استقبله مصافحاً، والتقط حسن يد الشيخ يريد أن يقبلها، فسحبها بحركة سريعة، ولفها حول كتف الشاب، واحتضنه في ودّ، وهتف بنبرة تفيض بالترحاب:

- يا هلا بشيخ شباب برقين.. لقد سمعت عنك الكثير.
- قال، وهو غارق في التأثر..
- ما أنا إلا شاب عاثر، تاهت خطاه، وقد هداه الله على يدك..
- قال القسام، وهو يقوده من يده:
- لا تقل هذا يا ولدي. لولا أن نفسك تواقّة للخير، لما وجدت كلماتي في نفسك صداها..
- الله يغفر لي يا شيخخي.. كنت غارقاً في الموبقات..
- اطمئن.. التوبة تجبّ ما قبلها..
- الشيخ طه يقول لي هذا، لكنّي ما زلت أشعر بتفاهة تلك الأيام..
- المهم يا حسن أن تحسن التوبة.. تتدم على مافات، وتعزم على أن لاتفعل إلاّ ما يرضي الله، وتأكّد من أن الله سيبدل سيئاتك حسنات.

أشرق وجه حسن بابتسامة، وشت بالفرح والتفاؤل، وأراد أن يمضى بصحبة القسام، فاستوقفه، وقال بنبرة هامسة:

- اسبقني إلى الخارج.. ستجد الشيخ علي الذي كان هنا قبل برهة بانتظارك.. امض معه إلى بيتي، وسوف ألحق بكما بعد قليل.

رضخ حسن لرغبة القسام، ومضى مع الشيخ علي الحاج عبيد، الذي توجه به إلى بيت قريب، وطرق باباً متواضعاً..

- من؟

- أنا علي.. الشيخ لديه ضيف.. وهو خلفنا..

- دقيقة.

وغاب الصوت، ليفتح الباب بعد برهة طفل في الرابعة من العمر، فدخل معه، وكان الشيخ وراءهما، فلم يلبث أن لحق بهما.. وضمتمهم سهرة أنسٍ تبادلوا فيها الأحاديث.. وطرق باب الغرفة، فغاب القسام ليعود بطبق من القش، عليه أصناف بسيطة من الطعام، وبعد أن تناولوا عشاءهم، استأذن علي الحاج عبيد، فنهض معه حسن، فاستوقفه الشيخ عز الدين..

- الشيخ علي يقيم هنا في حيفا، وله بيت يؤويه، أما أنت فقادم من برقين، وستبقى عندي الليلة، فييني وبينك حديث..

لا يذكر حسن الباير أنه كان أكثر صفاءً وروحانية من تلك الليلة التي قضاها مع الشيخ عز الدين.. وتشعبت بهم الأحاديث إلى هذا الاحتلال الجاثم فوق الرؤوس، وهذه المستعمرات التي تحشد خلف أسوارها آلاف المهاجرين القادمين من وراء البحار.. إلى قصص الفلاحين الذين يتضورون ذلاً وجوعاً.. ترهقهم الضرائب والديون والأعباء.. إلى العمال الذين يفقدون أعمالهم بسبب مزاحمة اليهود لهم..

وشعر حسن الباير بدفء وسلام كان يفترقه حقاً.. وأوى إلى النوم

تحت إلحاح الشيخ، وهو لا يكاد يصدق أنه في كنف هذا العالم الجليل، الذي كان لا يجروء على التحديق في وجهه قبل هذه الليلة، وتذكر كلمات القسام حول التوبة النصوحة والسيئات التي تتبدل إلى حسنات، فشعر وكأنه يولد من جديد.. وغاب في نوم عميق.. ولم يلبث بعد سويغات، أن شعر بيد حانية توقظه برفق:

- ما رأيك يا حسن بركعتين قبل الفجر؟

وعلى الرغم من أن الشيخ انتزعه من نومه الهانئ، إلا أنه كان سعيداً بالحياة الجديدة، التي يقوده إليها القسام..
توضاً بنشاط، ووقف يصلي خلف الشيخ، الذي لم يستغرق في صلاته طويلاً كما كان يتوقع، ولم يلبث أن انطلق أذان الفجر من مئذنة الاستقلال، فانسكب في قلبه برداً وسلاماً، وانفعل بالنداء.. كأنه يصغي إليه لأول مرة.



بعد صلاة العشاء بدأ الرجال يتحركون تحت جناح الظلام.. بدوا وكأن كل واحد قد مضى إلى بيته.. واطمأن الجاسوس أحمد نايف، إلى أنه لا شيء غير عادي يستحق السهر خلف هذه المجموعة.. فطوى حرصه، وتوجه لدار السينما، ليحضر فيلماً للممثل تشارلي تشابلن، شاهد الإعلان عنه قبل يومين، وما هي إلا ساعة أو تزيد، حتى بدأت بضعة أشباح تتحرك على الدروب المختلفة، كل من طريق.. وتسלّوا إلى الدروب الترابية المظلمة، التي تؤدي إلى كسارات الكباير..

وتجمعت المجموعة عند كسارة حسن شبلاق.. فرحب بهم الضابط أبو العيون بلغته العربية الممزوجة بلكنة تركية محببة.. وراح يوزع عليهم سلاح التدريب، واستبقى بحوزته ثلاث بنادق..

تأمل أحمد التوبة في البنادق الثلاث.. الوحيد الذي لم يأت بعد هو الشيخ القسام، والبنديقية الأخرى لأبي العينين، فلمن الثالثة؟..
ولاح لهم شبح قادم، سرعان ما تبين أنه ليس وحيداً، فقد ظهر خلفه شبح آخر يمشي على بعد خطوات منه، وكأنهما يمضيان منفردين، ولم يلبثا أن اجتمعا في نهاية المطاف، وقال القسام وهو يقترب بسمته الرصين وخطواته الواثقة:

- لدينا ضيف عزيز.. أريد أن أعرفكم به..

وتناول بنديقية من أبي العينين، ودفعها إلى المجاهد الجديد:

- أخوكم حسن الباير من برقين.. سيكون أحد أفراد مجموعتكم منذ

اليوم..

تساءل حسن، وهو يتأمل البنديقية..

- لمن هذه البندقية يا شيخ؟
- هذه لك.. لتتدرب عليها.. ألم تسأل متى نعلن الجهاد في سبيل الله.
- نظر حسن إلى شيخه بإكبار، وشعر بالامتنان لهذه الثقة التي يوليها له، وسأله المدرب أبو العيون:
- هل سبق لك أن استخدمت البندقية؟
- أحياناً.
- صوب هناك.
- وأشار إلى فزاعة حقول نصبت في حوض الجبل على شكل جندي على رأسه صحن من الألمنيوم، أشبه بخوذة جندي بريطاني.
- أطلق حسن الباير طلقة دوّت أصدائها في المكان.. تحرك المدرب وفحص مكان الإصابة، فوجدها قد نفذت من أيمن الهدف، بعيداً عن القلب، فعاد يقول:
- تحتاج إلى تدريب أكثر.. رصاص المجاهد قليل، ولا بد أن يحقق هدفه.. صوب إلى القلب.
- شعر حسن بالخجل، لكن الشيخ عز الدين ربّت على ظهره مشجعاً:
- أحسنت يا حسن.. مرة بعد مرة، تصبح رامياً ماهراً، وتحقق هدفك.
- تأمله حسن بإعجاب. هذا الشيخ.. لكم يحبه..



لم يعد السيد يوسف الهندي يطيق جاره.. هذا المدمن الفاسد الذي يزعجه كل يوم بصراخه الأجهش وشتائمته الخارجة عن حدود اللياقة والأدب لزوجته وأولاده.. كثيراً ما قابله وهو عائد من الحانة.. يتطوح يمناً ويسرة من فرط السكر.. ويغني بصوت أشبه بالهذيان.. حتى أنه فكّر أخيراً بترك هذا البيت بسبب هذه الجيرة السيئة.. لكنه كان يكاد يفقد صوابه، كلما فكر بترك بيته من أجل هذا التافه، الذي لا يعرف من الدنيا سوى السكر والعريضة.. العدل أن يرحل جاره المتعب هذا، ليترك أهل العمارة يعيشون بسلام.

وتحلّى بالحلم، وبعد خطبة حضرها في جامع الاستقلال، نكأ القسام جرحه عندما تحدث عن آداب الجيرة وأخلاقها، فقرر أن يبث الشيخ بعض ما يعانيه..

- عطيفة أحمد المصري.. عامل سفن.. وأحياناً يعمل عتالاً في الميناء.. كان مهرب حشيش، ولعله كان مطلوباً للبوليس المصري، فهرب إلى حيفا خوفاً من السجن، وهو مدمن على الخمر.. صرت أخشى منه على بيتي وأهلي.. سيئ الطباع.. دائماً يصرخ، ويشتم.. يضطهد زوجته المسكينة كل يوم.. وكما يقولون في الشام.. كوم حجار أرحم من هذا الجار.. انصحنى ياشيخ.. ماذا أعمل حتى أتخلص منه؟

واحتار الشيخ في الجواب..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. اتركني أفكر لك في حلّ.

ثم ما لبث أن استدرك قائلاً:

- اسمع.. سأزورك اليوم وتدعوه لي.. واترك الباقي علي.

- ستشرفني بزيارتك يا شيخنا.. أنتظرك بعد صلاة العشاء.
- في المساء زار الشيخ القسام يوسف الهندي، وطلب منه أن يدعو جاره إلى طعام العشاء.
- ولكن..
- جرب.
- أخشى أن يصدني، فأفتك به..
- حسناً، سأتي معك.
- وفوجئ عطيفة أحمد المصري بوجود جاره بصحبة الشيخ عز الدين القسام لدى الباب..
- أهلاً.
- كيف الحال؟
- «كويس»..
- لدينا ضيف اليوم في العمارة..
- وتابع وهو يشير إلى الشيخ:
- الأستاذ عز الدين القسام، إمام وخطيب مسجد الاستقلال، يشرفني اليوم في بيتي، وأحببت أن أدعوك لتنضم إلينا على طعام العشاء.
- ارتبك الرجل..
- سأحاول..
- تبادل يوسف مع الشيخ عز الدين نظرة، فعاد يؤكد عليه..
- سأكون سعيداً لو قبلت الدعوة..
- حسناً.. دقائق وأكون عندك.
- وانضم عطيفة إلى الشيخ في ضيافة جاره، وهو مذهول من هذه البادرة، رغم كل سوء المعاملة التي لاقاها منه.. وراح الشيخ يحدثه عن

الذكريات التي قضاها في مصر أيام الأزهر.. ويمدح معدن المصريين الطيب.. وسأله عن عمله وأحواله، ودعا له بالتوفيق..

ولعلّ الشيخ عز الدين استطاع أن ينبش بقية من حياء، كانت مازالت كامنة في أعماق الرجل، فانتبه لسوء سلوكه مع جار بادلته الإساءة بالمعروف، فصار أقلّ إزعاجاً، وأكثر أدباً معه..

وأقبل شهر رمضان.. فإذا بالشيخ عز الدين يطرق باب عطيفة، ويدعوه مع جاره للإفطار عنده، فأكبر في نفسه هذه الدعوة، وشعر بامتنان لهذا الشيخ، الذي يعامله بكل هذا الاحترام، فنوى التوبة عن ماضٍ صار يخجل منه.. وأقبل على الله، فصار لا يرى إلا في الصفوف الأولى، خلف الشيخ القسام..

وزارت زوجته يوسف الهندي، تحكي لها عن الوثام الذي ساد البيت، بعدما طرأ على زوجها من تغيير.. وتشكرها على ما فعلته صحبة زوجها بعطيفة، فضحكت وقالت بنبرة صافية..

- بل أسألي عما فعلته به صحبة القسام!.

تفاقت العمليات الفدائية ضدّ المستعمرات.. وضج اليهود من هذا الاستهداف المتكرر، وأيقنوا أن مستقبلهم في هذه البلاد قد صار مهدّداً.. وطلب كلايتمان من حليم بسطة أن ينشط في البحث عن الفاعلين..

- نريد أي خيط يجعلنا نصل إلى هؤلاء.

- كنا نظن أن جماعة الكفّ الأسود هم وراء العمليات الأخيرة.. لكن الأسلوب مختلف، والعمليات محكمة.. يضربون في الصميم، ولا يتركون أثراً.

- ماذا عن أبو جلدة والعرميط؟

- لا أعتقد.. هذه عمليات أكثر حنكة وتخطيطاً.

ضرب كلايتمان المنضدة بقيضته..

- اليهود يضغطون. قادة المنظمة الصهيونية وصلوا إلى وزير

المستعمرات في لندن، يؤلّبونه علينا، ويتهمونا بالتقصير.. لا بدّ من خيط نبدأ به..

- الشبان المسلمين.

- تقصد؟

- الشيخ القسام وراء كل هذا، ولو بالتحريض.

- أريد دليلاً.

- حتى الآن لم نجرب أن نعتقه.. لعله يراجع حساباته، ويتوقف عن

هذا التحريض المتكرر.

- أصدر أمر اعتقال، وهاتوه.

واستمرّ اعتقال الشيخ عز الدين أربعة أيام، قضاها وهو صامت ثابت

على موقف واحد.. هذا ما جنّته أيديكم يوم أن سمحتم بالاعتداء على

حائط البراق.. وما هذه العمليات سوى صرخة مظلوم، يريد أن ينتصف. ولم يثبت على الشيخ أنه نحا نحواً يمكن أن يدلّ على أدنى علاقة مع ما يجري من عمليات منظمة ضد الانتداب والهجرة اليهودية..

وحشد الأستاذ رشيد الحاج إبراهيم أصدقاءه من الصحفيين ليثيروا قضية اعتقال الشيخ في مقالاتهم، وكتب الصحفي اللامع أكرم زعيتر مقالاً نارياً في جريدة اليرموك، هاجم فيه سلطة الانتداب، التي بدأت تتجرأ على القامات الوطنية والروحية، واعتبر اعتقال القسام، الذي أحبه شباب فلسطين، صفة للكرامة الوطنية، وامتهاناً لهذا الشعب، الذي ضاق ذرعاً بالغطرسة البريطانية، والهجرة اليهودية، التي تستفز كل حرّ في هذه البلاد.

وطلب الأستاذ رشيد من أعضاء جمعية الشبان المسلمين أن يتجمعوا للاعتصام أمام السرايا التي تضم مقرّ الحاكم الإنكليزي، ليطالبوه بالإفراج عن الشيخ الأسير.. واحترار كلايتمان في هذا الاعتصام، الذي كان حاشداً لدرجة أذهلته، وسأل حليم بسطة إن كانت كل هذه الألوف كلّها تنتمي لجماعة الشبان المسلمين؟..

- الحقيقة لا.

- فإذا؟..

- تقرير أحمد نايف يشير إلى أن معظمهم من عمال الميناء والفلاحين الذين طردوا من أراضيهم، وأعضاء «الشبان المسلمين» بينهم لا يزيدون عن الربع في أحسن حال!..

وأفروجا عن الشيخ تحت إلحاح الناس، وعاشت حيفا عرساً بخروج شيخها الأسير من الاعتقال..

وظلّ السؤال يشغل اليهود والإنكليز حول هوية هؤلاء الضدائين، الذين يقومون بكل هذه العمليات الجريئة، وأصبحوا لغزاً يحير الجميع!.

- وسأل الحاج حسين حمادة الشيخ حنفي ذات مساء، وهما يتوجهان معاً إلى صلاة المغرب:
- من تراه يقوم بهذه الأعمال الرائعة، التي دوخت الإنكليز واليهود؟..
 - أجاب الشيخ حنفي، وهو صادق..
 - ناس يقولون جماعة الكفّ الأسود، وناس يقولون جماعة الكفّ الأخضر، والبعض يقول أبو جلدة والعرميط، والله أعلم بمن هم؟.
 - قال الحاج وهو في غاية البشر:
 - كائناً من كانوا.. المهم أنهم يدافعون عن فلسطين.
 - ابتسم الشيخ حنفي في سرّه. لم يكن معجباً بقائده كاليوم..



كانت الرسالة التي وصلت للجميع قصيرة وسرية للغاية: «الاجتماع غداً بعد الفجر في الكبايير عند الكسارات، ولا تخبر بالموعد أحداً حتى أقرب الناس إليك».

وتحلق الجميع حول «تنكة» الحطب التي امتلأت بالجمر، وكأن على رؤوسهم الطير.. ترى ماذا يريد القسام من هذا الاجتماع؟.. وبدأ الكلام..
- جمعتم اليوم لأؤكد عليكم بضرورة الانتباه.. يجب أن نكون اليوم أكثر حيطة وهدراً.. فالتحقيقات التي جرت معي تدل على أن الشكوك تحوم حولنا.. تجنبوا كلمات من مثل «نحن» و«وعصبتنا» و«جماعتنا» و«تدربنا» و«سوف نريهم».. حتى كلام الجهاد والقتال اتركوه لي.. سأمطر به فلسطين كل يوم.. أما أنتم فاعملوا بصمت.. مارسوا جهادكم، كما يدفع المحسن صدقة السر.. حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

وسأل محمود زعرورة..

- لماذا لا نعلن الجهاد يا شيخ عز الدين.. الناس يحبونك ويثقون بك، وينتظرون منك إشارة أو ندهة.. حتى ينضموا إلى جماعتنا، ويقاتلوا معنا..

- ليس الآن.. عدونا قوي وغاشم، وله عيون في كل الأنحاء، وعلينا أن نحافظ على أنفسنا، ونبني رجالنا البناء الأمثل، حتى يكون الرجل منهم بألف في الإخلاص والتفاني والخبرة.. فإذا حانت الساعة أبلينا في سبيل الله، وحققنا أقصى الممكن والمستطاع..

وتدخل العبد قاسم:

- يراودني أحياناً أن قصارى ما يمكن أن نحققه هو إزعاج هذا

الجيش البريطاني وأذنا به من الصهاينة، ثم أقرأ كلام الله تعالى، فأتساءل بالنصر. لا سيما قوله سبحانه «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»..

- «والله مع الصابرين». لماذا لا تكمل الآية.. الصبر شرط من شروط النصر.

- هل سنصبر كثيراً؟.

- لكل موقف أوان.. دعونا نتأني، ونحن نستعد.

وقال أبو إبراهيم:

- لكن الصهاينة يستفيدون من الوقت.. وبينون ويستعدون.. أرى أن نسرع في عمل شيء يوقظ الناس..

- ها نحن نعمل قدر استطاعتنا.. إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها..

وسأل القسام أبا إبراهيم..

- ما أخبار تاجر السلاح اللبناني؟.

- يطلب أسعاراً عالية.

- كونوا حذرين.. بعض تجار السلاح لا أمان لهم..

- اطمئن.. الشباب صاحين.. وقد أخبروه بالسعر الذي نستطيع أن

ندفعه، وكأنه قد وافق.. غداً بعد صلاة العصر سيكون الخبر عندك.

- رتبوا مع الشيخ علي الحاج عبيد، ليخبئها في مأمن.

وزفّ أبو إبراهيم للشيخ خبراً مهماً..

- أحمد الغلاييني..

- ما به؟

- تمكن من صناعة قنبلة، ويريد أن يجربها..

- صنعها بنفسه؟!

- في محل لحام التنك الذي يملكه.
 - نعلها ضعيفة الأثر!
 - يقول أنها فعالة ككذيفة مدفع.
- ابتسم الشيخ. هذه الأمة لا تهزم. المهم أن تعود إلى دينها، وتتوحد على إرادة الجهاد.

أغرى النجاح الذي حققه أبو إبراهيم في قيادة العمليات الأخيرة، باختيار أهداف جديدة أكثر جرأة وإيلاماً للمهاجرين، لا سيما بعد نجاح أحمد الغلاييني بتصنيع القنابل في محله المغمور، القائم في زقاق ضيق من أزقة حيفا، وكان الهدف هذه المرة شخصية من كبار قادة الصهيونية في مستعمرة نهلال، التي أصبحت أهم مستعمرات اليهود في شمال فلسطين..

واختار أبو إبراهيم لتنفيذ العملية كل من أحمد الغلاييني صانع القنابل، وأحمد التوبة وصالح طه ومصطفى الأحمد من شباب صفورية، وشرح لهم أهمية الهدف، وضرورة الدقة في التنفيذ، وطمأنهم بأنه كلف أحد الرعاة من أعضاء العصبة، بتحريك قطيعه من الأغنام على طريق المستعمرة بعد العملية مباشرة، لإضاعة أثر الأقدام بعد انسحاب المجاهدين.

واستيقظت نهلال على انفجار هزّ أركان المستعمرة الهادئة، قتل فيه يوسف يعقوبي، أحد زعماء المستعمرة المهمين مع ابنه داود، فجن جنون اليهود والإنجليز، وشعروا بتهديد خطير، لا سيما بعد أن وجدوا في مكان العملية قنبلة محلية الصنع، فأوجسوا خيفة من هؤلاء الذين نجحوا في تصنيع السلاح داخل فلسطين، وقرروا أن يضاعفوا الجهود لكشف هذه المجموعة، التي أقدمت على هذه العملية الجريئة، وقد تأكد لهم أن الحركة المسلحة قد تطورت في تنظيمها وأدائها، واتفقوا على القضاء عليها دون تأخير.

وبدأت عملية بحث واسعة لمعرفة الفاعلين، وكانت الشكوك مازالت

تدور في ذهن رجل المخابرات كلايتمان حول جمعية الشبان المسلمين، فداهمت الشرطة بيوت بعض أعضاء الجمعية في قرية صفورية، التي كانت تعد من أكثر مناطق انتشار هذه الجمعية، وبدؤوا التحقيق مع عدد من أعضائها المشهورين بأرائهم حول طرد اليهود، وإحباط مخططهم لإقامة وطن لهم داخل البلاد.

وفوجئ الشيخ عز الدين بالعملية، وتساءل في أحد الاجتماعات عمن يقف وراء هذه الضربة الموجهة التي أثارت كل هذا الغضب عند الإنجليز واليهود؟..

وكاد أبو إبراهيم أن يصارح الشيخ بما أقدم عليه، لولا أن سارع أحد الحاضرين لينسب العملية إلى جماعة الكفت الأخضر، بينما تساءل آخر ما إذا كان ذلك هجوم دبره أبو جلدة والعرميط، إلا أن نمر السعدي قال بأن هذين مجرد قاطعي طريق ولا يجب أن نبالغ في دورهما فيما يجري، وسأل الشيخ حنفي شيخه عن حكم هؤلاء المشاغبيين الذين يرهقون الجيش الإنكليزي، ويقصّون مضاجع المهاجرين الغرباء، هل يمكن اعتبارهم من المجاهدين، رغم أنهم كانوا لصوصاً وقطاع طرق؟.

وكان جواب القسام:

- قد يكونوا من العصاة، لكنهم أبناء هذه البلاد، ورأوا أبناء وطنهم وهم يسقطون برصاص الإنكليز واليهود، وشعروا بواجب الردّ على هذا العدوان، وعلى من يمكنه الاتصال بهم، أن ينصحهم بأن يتوبوا إلى الله، ويخلصوا النية، حتى يتحول جهدهم ضد طغيان اليهود والإنكليز إلى جهاد مقبول ومبارك بإذن الله.

وتدخل ناجي أبو زيد ليعيد الحوار إلى أصله، فحذّر من حملة اعتقالات

واسعة بدأ بها الإنكليز في صفورية، ونصح الشيخ بإيقاف كل نشاطات التدريب ونقل السلاح، التي قد يتم ربطها بالأحداث الأخيرة. كان أبو إبراهيم ما زال يراقب الحوار، وهو متردد في مصارحة الشيخ.. وخطر له أن العملية كانت محكمة، والأفضل ألا يسرّ بأسرارها أمام البقية، وقد يأتي وقت أنسب ليخبر قائده، بأن هذه الضربة الموقعة، إنما كانت من صنع عصبته الواعدة.

أتت الرياح بعكس ما اشتهى أبو إبراهيم، فلم تمضِ أشهر، حتى داهمت القسام أخبار اعتقال اثنين من رجاله!.

- من؟.

- مصطفى الأحمد وأحمد الغلاييني.

- هل عرفتَ بم اتهموهما؟.

قال ناجي أبو زيد:

- لدى مدهامة منزل مصطفى الأحمد، عثر البوليس على قنبلة مماثلة

لتلك التي انفجرت في واقعة نهلال، وصادر أيضاً بندقية حربية.

- تقصد أن انفجار نهلال الأخير، كان بقنبلة من القنابل التي صنعها

أحمد الغلاييني؟.

وأوماً أبو زيد بالإيجاب.. وتابع يروي ما جمعه من معلومات دقيقة

لقائده..

- عندما قام خبير المتفجرات الإنجليزي بتفكيك القنبلة، وجد أنها

مصنوعة من نوع من المواسير، ولدى البحث في السوق عن مصدر هذه

المواسير، وجدوها عند تاجر يهودي، فلما راجعوا زبائنه من العرب، ذكر

فيمن ذكرهم أخ شقيق لأحمد الغلاييني، وكانت هذه المعلومة أول الخيط،

فقام الإنكليز بمدهامة دكانه، فقبضوا عليه وعلى مصطفى الأحمد، الذي

وجدوه عنده.

وعكر روح القسام خاطرٌ مزعج..

- لكن أبا إبراهيم لم يخبرني بأن جماعتنا وراء هذه العملية!..

تردد أبو زيد قليلاً، ثم قال مفضلاً مصارحة الشيخ:

- أحد شبابنا شاهد أبا إبراهيم يدل أحد القساميين على بيت رئيس اليهود في نهلال، القائم على مكان مرتفع من الكرمل، ويخبره بأن اليهود الذين كانوا يقتلون العرب أيام حوادث البراق كانوا يختبئون عنده.
- تقصد أن أبا إبراهيم يعمل وحده؟!
- يمكنك أن تسأله..
- ومضى الشيخ عز الدين إلى أبي إبراهيم وهو غاضب حزين، فوجده مشغولاً بترتيب رزم الخيش على الأرفف، وقد تفصد وجهه عرفاً من شدة التعب.. وأقبل أبو إبراهيم يرحب بشيخه، لكن ملامح القسام المتجهمه أربكته. قال بنبرة نطقت بالمرارة..
- لعلك تريد أن تقول لي شيئاً نسيت أن تخبرني به؟
- ابتسم أبو إبراهيم ابتسامة دارى بها حرجه، وأدرك أن الشيخ قد عرف بهجوم نهلال الأخير. قال وهو يمسح العرق عن جبهته:
- كانت عملية جريئة ردّت الصاع للإنكليز واليهود، وأشعرتهم بأن دم شهداء البراق ما زال ساخناً، وأن له ثمن.
- كان الأولى بك أن تخبرني!.
- لا تؤاخذني يا أبا محمد.. كان لدي هدف يستحق المغامرة..
- وخشيت ألا توافق على العملية..
- تعرف أنا وضعنا قواعد وضوابط للعمليات..
- تأكد من أن التخطيط كان محكماً..
- اعتقلوا الأحمد والغلابيني.
- عرفت..
- كلّ هذا، وأنا لا أعلم!.
- اطمئن.. سيصمدون بعون الله.

- سكت الشيخ ليستوعب الكلام الذي يسمعه. شعر بالألم لأن هؤلاء الرجال المتعجلين، تصرفوا دون أن يشعروه بنيتهم، وقصّروا في واجب الشورى، وهاهم يكادون أن يهدّوا كل ما بناه بتسرّعهم..
- اتفقنا ألا نبالغ في نوعية العمليات.. اليهود والإنكليز مستنفرين عن آخرهم الآن لمعرفة من وراء صنّع القنابل في حيفا، وقد وصلوا إلى اثنين من رجالنا.. إذا اعترف أحدهما، فسيهدد العصابة كلها.
- لأول مرة يستيقظ أبو إبراهيم من نشوة النصر.. كان تفكيره محصوراً في النّيل من الإنجليز واليهود، والثأر لشهداء البراق، لكن كلمات الشيخ صدمته، وشعر بأن تسرّعه خدش الثقة المطلقة التي كان يشعر قائده بها نحوه، فحاول أن يعتذر..
- سامحني يا أبا محمد.. مقامك عالي، أنت القائد والأمير.. ولكن..
- المهم الآن أن تنبه الباقيين إلى أهمية الصمود أمام التحقيق.. فلينكر الجميع علاقتهم بالتفجير مهما حدث.
- ثمّ وهو يودع أبو إبراهيم، والألم بادٍ على محيّاه..
- لنتهيّاً لكل الاحتمالات..

طلب الشيخ من المحامي حنّا عصفور أن يتولّى الدفاع عن الأحمد والغلاييني، وطلب منه أن يبلغه بأي تفاصيل قد يقع عليها مهما كانت بسيطة.. واليوم عاد حنّا إلى الشيخ بخبايا ما حدث..

- علمت أن حليم بسطة مساعد مدير الأمن العام الإنجليزي، قد كلّف محامياً يدعى شريف عبيد بالتحقيق مع الأحمد والغلاييني، فأنكرا أي علاقة لهما بالعملية، رغم ما لقياه من ضغط وتعذيب..

- وبعد..

- للأسف لجأ شريف عبيد مع مصطفى الأحمد إلى حيلة قذرة، فأوهمه بأن البوليس قد اعتقل زوجته، وهذّدها بالاغتصاب، فاعترفت بما لديها من معلومات، عند ذلك ضعف الأحمد بعد أن عرف بأن زوجته مهددة في شرفها، فانهار، واعترف بالعملية، وأخبر عن رفاقه..

- علينا منذ الآن أن نتوقع الأسوأ..

وتدهورت الأمور بسرعة.. فقد جاء الشيخ ظهيرة هذا اليوم، خبر اعتقال أبو إبراهيم وأحمد التوبة وصالح طه، فأيقن أن خطراً داهماً يحاصر جماعته، وخشي أن تؤتى الحركة من قبل هؤلاء الرجال الذين تجاوزوا تعليماته.

وأرسل الشيخ عز الدين أوامر صارمة إلى أعضاء الحركة بضرورة التزام الحيطة والحذر، وسرّب إلى مصطفى الأحمد من يطمئنه على زوجته، وإلى المعتقلين من يوصيهم بالثبات وعدم الاعتراف بأي شيء، ونفي أي علاقة لهم بالقضية.. وهكذا كان..

واكتشف مصطفى الأحمد أن ما قاله له شريف عبيد حول زوجته كان مختلفاً وعارٍ عن الصحة، وأن المحامي قد ضلّله، فعصّ أصابع الندم لأنه اعترف.

وأقيمت محاكمة علنيّة في أحد الأحياء اليهودية بحراسة الإنكليز، فأنكر الأحمّد أمام القاضي كل الاعترافات التي قال أنّها انتزعت منه بالتهديد والإكراه، وألحّ بأنّه غير مذنب.

واستمرت المحاكمة قرابة ثلاثة أسابيع، فكان ناجي أبو زيد ينقل لقائده كل يوم ما يجري، وصدرت أخيراً الأحكام..

- الإعدام لمصطفى الأحمّد وأحمّد الغلاييني..
- والآخرون؟..

- حكم أبو إبراهيم بالسجن لمدة ثلاث سنوات، أمّا أحمّد التوبة وصالح طه، فلم يثبت عليهما شيء، فأفرجوا عنهما.
- هذا يعني أنّ الشباب قد صمدوا في التحقيق.
- لولا خدعة المحقق التي أوقعت الأحمّد، لم ينكشف شيء.
- قدر الله، وما شاء فعل.
- لكن هناك أمر مهم يجب ألاّ نغفله!
- وهو؟..

- المحاكمات كانت تشير إلى انتماء المجموعة لجمعية «الشبان المسلمين» وورد اسمك فيها أكثر من مرة.

- هذا ليس جديداً؟.
- لكنني أخشى أن يتسلل إليك أحد الموتورين من مجانين الصهيونية، ويحاول قتلك.

ابتسم الشيخ..

- ليس هذا ما أفكر فيه..
- أنصح بأن تأخذ الأمر على محمل الجدّ..
- ما يهمنيّ في هذه اللحظة جماعتنا.. بلّغ الجميع بأن يتوقفوا عن الحركة، ويخفوا أسلحتهم في مكان أمين.

انتهى الشيخ عز الدين من صلاة السنة بعد الظهر، وأراد أن يقوم، لكن الشيخ نمر السعدي الذي كان يجلس خلفه منتظراً، مال على أذنه، ونقل له خبراً تهلل له وجهه..

- تقول الشيخ فرحان السعدي خرج من السجن!

كان ينتظر هذا الخبر منذ زمن، فقد طال سجن الشيخ فرحان الذي أوجع الإنجليز واليهود في جنين.. وعندما حكم الإنجليز عليه بالسجن منذ ثلاث سنوات، أدرك يومها أن هذه السنوات الثلاث، ستكون بالنسبة له خلوة مؤمن، يقضيها بالعبادة والذكر، ويخرج بعدها أصلب عوداً، وأشدّ بأساً..

وتعانق الرجلان، وشدّ كل منهما على يد صاحبه..

- الحمد لله على سلامتك يا شيخ فرحان..

- بالي عندك يا شيخ عز الدين.. أعرف أن أولاد الحرام يحومون حولك..

ومضيا في ظلال أشجار الزيتون..

- قل لي يا شيخ فرحان، كيف وجدت السجن..

- عذاب الحرّ، لكنه مفيد على أي حال..

- أظنّك كنت في سجن نور شمس..

- هذا كان في الفترة الأخيرة، لكنني في البداية كنت في سجن عكا..

- إذن حضرت إعدام شهداء البراق..

تلبّدت روح الشيخ فرحان، وترقرقت في عينيه دمعة..

- ذكرتني بيوم عظيم..

أطرق القسام، وهز رأسه متحسراً، قال، وعيناه معلقتان بالأفق البعيد..
 - كلما تذكرت ذلك اليوم شعرتُ بالخجل من نفسي.. كنت أتمنى لو
 جمعت رجالنا، وحاصرت ذلك السجن لأحرر الزير وحجازي وجمجوم.. لكني
 شعرتُ يومها بأني سوف أجازف بكل ما بيناه في ساعة انفعال.. وكلما كبرت
 المآذن احتفاءً باستشهادهم، كنت أتأوه من الداخل.. الظلم مرّ يا شيخ فرحان.
 مسح الشيخ فرحان دموعه بطرف غترته البيضاء، وغاص بذاكرته
 يسترجع ذلك اليوم..

- كانوا يقابلون السجن بالتحدي.. ولطالما سمعناهم وهم ينشدون..
 - ينشدون؟..

- يا ظلام السجن خيم نحن من نهوى الظلاما..
 وغصّ الشيخ فرحان بالمقطع الأخير، وأجهش..

- لكنهم كانوا في نزهة..

- يا لهؤلاء الإنجليز.. لقد أعلنوا بإعدامهم الحرب على الأمة كلها،
 ويجب أن يدفعوا الثمن.

قال الشيخ فرحان، وقد هدأ قليلاً:

- حدثني من أثق به، أنّ المفتي أرسل إلى ملوك العرب وزعمائهم،
 ليتدخلوا لدى ملك الإنجليز.. لكن ملكهم لم يستجب لهذا الالتماس، وأصرّ
 على إعدامهم، حتى لا يتجرّأ أحد على الانتداب..

وأمسك الشيخ فرحان غصن زيتون فتأمله، ثم أطلقه، وهو يرسل نظرات

حزينة إلى قرص الشمس الذي راح يتوارى خلف الأفق:

- يوم الإعدام استيقظ كلّ من في السجن منذ الفجر، وراحوا

يكبرون.. ساق الإنكليز الشباب إلى غرفة الإعدام.. كان بابها واطئاً..

صنعه هكذا عن قصد، حتى ينحني السجين غضباً عنه، وكأنه يقدم

اعتذاراً عمّا بدر منه.. وكان الأبطال يعرفون هذا، فإذا بهم يجثون على ركبهم، ويمشون عليها رافعي الرأس، حتى لا يضطروا للانحناء..
- رحمهم الله..

- حدثوني عن جرأة فؤاد حجازي في مواجهة الموت.. طلب رؤية جبل المشنقة قبل أن يأخذه إلى غرفة الإعدام.. ثم ودّع أهله، ومضى إلى الموت ثابتاً كالصقر..

قال القسام، وقد مسّ الحديث عن حجازي شغافه:

- ما زلت أذكره عندما زارني في الاستقلال ورجاني أن أدعو له بالشهادة.. وقد حدثني أحد أقربائه، وكان في وداعه أنه قال لهم: «إذا كان إعدامنا يزعزع شيئاً من كابوس الإنجليز، فليعدموا عشرات الألوف منّا، حتى يزول هذا الكابوس»..

- كذلك كان عطا الزير ومحمد مجوم.. كانا يتسابقان إلى الموت بشجاعة الفرسان.. كان الدور على مجوم لكن عطا الزير أصرّ أن يسبقه.. وعندما سئلا عن آخر ما يتمنياه من هذه الدنيا طلبا الحنّاء.
- الحنّاء؟!..

- ليحنّوا أيديهما كعادة شباب الخليل، عندما يذفون في الأعراس.. وقالوا أن محمد مجوم طلب من جلاديه أن يفكوا قيده فرفضوا، فتحامل على نفسه، وفك قيده، ثم مضى إلى حتفه، وهو يبتسم.

وجلسا في ظل زيتونة وارفة، وهمس الشيخ فرحان، وهو يريح رأسه على جذع الزيتون، ويتأمل في وجه صديقه القسام:

- أما زلت ماضٍ في طريقك يا شيخ عز الدين؟

- ليس هناك طريق غيره.. لكنّ العملية الأخيرة كشفت بعضاً من

رجالنا.

- عسى ألا تكون الخسارة كبيرة..
- تنهد الشيخ عز الدين..
- خسرتنا الأخ مصطفى الأحمد.. أعدموه قبل شهر.
- رحمه الله.
- وآخر يدعى أحمد الغلاييني، خففوا عنه حكم الإعدام ليحكم عشر سنوات، بعد أن تدخل أمير الأردن من أجله لدى الإنكليز، أمّا أبو إبراهيم الذي تعرفه، فقد حكم ثلاث سنوات.
- فكّ الله أسرهما.
- كانت محنة.. لكنّ الله سلّم، ولم ينكشف الباقون، وها نحن ننتظر.. نسدّد ونقارب، حتى يحدث الله أمراً.
- وقال الشيخ فرحان، والقلق يعيث في عينيه:
- فهمت أن اليهود تزايدوا بشكل كبير خلال هذه الفترة..
- بشكل لم يسبق له مثيل..
- أطرق الشيخ فرحان، بينما راح الشيخ عز الدين يودع الشمس الأفلة، وهي تتوارى خلف الأفق، وانتزعه الشيخ فرحان من تأمله، وهو يقول بنبوة بان فيها التصميم:
- اسمع يا شيخ عز الدين. حدثني نمر أنّ عصبتك قد كبرت، واشتد عودها، وأنا أريد أن أعيد تنظيم رجالي بعد الذي حدث، فما رأيك أن نوحّد الرجال في عصبية واحدة؟.
- ابتسم الشيخ عزّ الدين.. كان يفكر بشيء كهذا، وتعاهدا على التعاون من أجل فجر جديد.. فجر يشرق على فلسطين، ويطوي هذا الظلم الذي ينبغي ألا يمرّ.



عاد الشيخ عز الدين بعد منتصف الليل، كان مرهقاً جداً، وكان حريصاً على أن يصل قبل أن ينام الأولاد الذين اشتاق إليهم، بعد أن شغله مؤتمر الشبان المسلمين الثالث طيلة الأيام الماضية.. لكنه لم يوفق في مسعاه، إذ لم يجد سوى والدته مازالت تسهر مع حفيدتها ميمنة، في حين خلد الجميع إلى النوم، ماعدا الشيخ فخر الدين الذي كان يبيت في وادي النسناس في ضيافة ابني أخيه ظافر ومالك.

- تأخرت كثيراً يا عز الدين

- اختاروني رئيساً للجمعية هذه المرّة، فلم أستطع أن أغادر قبل أن أودع عشرات الضيوف الذين حضروا من أنحاء البلاد.

- الله يحميك يا ابني..

وسأل الشيخ ميمنة:

- أين أمك؟

- تحاول أن تنيم محمد، ويبدو أنها قد نامت معه.

- فخلا لك الجو مع جدتك.

قالت الجدة، وهي تمسح شعر ميمنة:

- ميمنة ست البنات. سأخذها معي إلى جبلة..

حرك ذكر جبلة في نفس الشيخ وجعاً قديماً..

- لماذا لا تأخذيني معك؟..

تأملته، وقالت بصوت متهدج:

- يا ليت..

- الله كريم

- سألت أذاك فخر الدين أن يرتب معك شؤون الرحلة..
- ظننتك تمزحين!.
- اشتقت لأخوتك في جيلة..
- واعترضت ميمنة الحوار:
- جدتي كانت تحدثني عن طفولتك.
- وماذا قالت؟
- تقول أنك منذ أن كنت جنيناً في بطنها وأنت كثير الحركة..
- ضحك القسام. وقالت الجدة لحفيدتها:
- قومي فسرخني العشاء لأبيك.
- اعترض الشيخ:
- لا. لا. أريد أن أنام.
- لكنّ زائراً أطلّ من الباب غير من خططه..
- محمد؟.. ما الذي أيقظك؟
- أُمي نامت، وهي تحكي لي الحكاية، فهل تكملها لي؟
- ضحكوا. وقالت ميمنة:
- تعال لأحكىها لك أنا.
- لكن الشيخ عز الدين اعترض..
- اتركه لي، فعندي حكاية لا يعرف أن يحكيها له غيري.
- وأسرع إلى حضن أبيه:
- ما هي الحكاية؟
- قصة الأرنب والسحفاة..
- السحفاة التي سبقت الأرنب؟
- ضحكت الجدة:

- بسم الله ما شاء الله.. الولد حافظ كل الحكايات.
غمره الشيخ بالقبلات:
- وأنا الذي ظننت أن لديّ قصة فريدة.
واستيقظت أمينة على صوت الضحكات. قالت الجدة:
- هذه أمينة قد حضرت فاسمحو لي. أريد أن أنام..
- وأوى القسام إلى فراشه ينشد الراحة.. لكنه تذكر قرار الجمعية بعمل
محاضرة كل يوم جمعة لتوعية الشباب، وأنه وعد شباب يافا بالمحاضرة القادمة،
فانشغل فكره بالموضوع.. أراد موضوعاً قوياً ومتميزاً يشبع روح شباب هذه
المدينة المجاهدة.. وداهمه الأرق، فراح يتقلب في فراشه..
- وتذكر كلام والدته، وكيف أنه كان كثير الحركة منذ أن كان جنيناً
في بطنها، فابتسم.. ولاذ بالذكريات ليهرب من الهموم، فاستسلم لنوم
عميق.

طرق الشيخ كامل القصاب باب الشيخ عز الدين القسام، وانتظر
الجواب..

وأطلّ طفل يسأل عن الطارق، فإذا بهم ثلاثة رجال!.
- ما شاء الله.. ما شاء الله.. أنت محمد؟
قال الطفل في ثقة:

- اسمي محمد عز الدين القسام.
- أنعم وأكرم..

وقال، وهو يرفعه بين يديه، ويضمّه بذراعه الأيسر..
- ومتى ستصبح رجلاً؟
ابتسم محمد في حياء..

- أمي تقول لي أني سأكبر وأصبح مثل أبي.
- وماذا يقول لك أبوك؟

- يقول لي أني عندما أكبر يجب أن أُخْرَجَ الإنكليز واليهود من
فلسطين.

- أحسنت.. والآن ادخل وقل للوالد أن الشيخ كامل ينتظرك بالخارج.
- لكنّ أبي ليس هنا.
- أين هو؟.

- قال أنه ذاهب إلى «أبو خليل».

- من «أبو خليل»؟.

- هناك.

وأشار الطفل إلى حمّامٍ قديم، يقع قريباً من البيت.

وقال أحد الثلاثة:

- نعلنا جئنا في وقت غير مناسب.
- وأطلق الشيخ القصاب الطفل، ثم أمسك بيده:
- تعال لنرى ماذا يفعل أبوك هناك؟.
- ومضى الجميع إلى حيث أشار الصغير.. ففوجئوا بالشيخ عز الدين وهو جالس يشرب الشاي مع خادم الحمام، ويصغي إليه، وهو يحدثه كيف تحول من فلاح في سهول طبريا، إلى عامل يوقد النار في حمام حيفا الصغير، بسبب المهاجرين اليهود الذين طردوه من أرض آبائه وأجداده..
- وهبَّ الشيخ لما رآهم، وأقبل هاشأً هاشأً، يرحب بهم..
- يا أهلاً.. يا أهلاً.. زارتنا البركة..
- قال الشيخ كامل القصاب وهو يقدم رفيقه:
- هذا الأمير الشيخ راشد الخزاعي.. شيخ عشائر الفريجات في عجلون وعموم الأردن، وألمع شيوخ العرب هناك.
- يا أهلاً ومرحباً.
- وهذا عبد الله، فارس الفريجات بلا منازع.
- وصاح محمد، وهو يأخذ دوره في الحوار:
- جاؤوا إلى بيتنا ولم يجدوك.
- ضحكوا لبراءته، بينما حمله الشيخ عز الدين، وهو يقول له مداعباً:
- لعلهم وجدوني الآن.
- والتفت لضيوفه:
- تفضلوا.. تفضلوا..
- واستأذن من قيّم الحمام..
- عن إذنك يا أخي.. سأعود لك فيما بعد، لنكمل الحديث.

وتقدمهم مع صغيره، ليسبق، ويعلم أهله بضيوفه، بينما كان الأمير الخزاعي يتأمل هذا العالم الأزهري، والتائر المجاهد الذي ذاع صيته في بلاد الشام، كيف يتسع وقته لسماع هموم فلاح بسيط، حولته الظروف إلى عامل حَقَام، ويشرب معه الشاي!).



قال الأمير الخزاعي، وهو يبعد يد الصغير عن المسدس الذي بدا من تحت عباؤه.

- أخبرك يا شيخ عز الدين تتلج صدورنا، وتدعو للفخر والتقدير.. وقد حدثني الشيخ كامل عن مضايقات هؤلاء الحمران وحلفاءهم من اليهود الأجانب لفضيلتك، وسجنهم لرجالك، قبحهم الله، فعقدت العزم والعزيمة على أن أكون معك.. اعتبرني منذ اليوم جندياً من جنودك..
- أستغفر الله..

- واعلم يا شيخ عز الدين أن مالي وأولادي وكل ما نملك من سلاح في خدمتك أنت ومن معك من الرجال.. وإن شاء الله نحن يدٌ واحدة حتى يأذن الله بنصره، وندحر هؤلاء الإنكليز واليهود عن أرض العرب.
قال الشيخ، وهو يتناول صغيره من حضن الشيخ، حتى لا يتمادى أكثر في مضايقته:

- هذا من طيب أصلك ونبل أخلاقك يا شيخ راشد، وإن شاء الله ستجدنا عند ثقتك بنا، ولعلها قد حانت الساعة التي يتحد فيها الأحرار والمجاهدون للدفاع عن أمتهم وعقيدتهم وأرضهم التي استباحها هؤلاء الغزاة.

وسأل الشيخ كامل الأمير راشد الخزاعي، إن كان بإمكانه أن يوفر للقسام ما يحتاجه من سلاح..

هتف الشيخ راشد:

- السلاح والرجال لو أراد.. وإن شاء الله سوف يقوم فارسنا عبد الله بتهريب ثلاثة من الإبل المحملة بالسلاح هدية لك يا شيخ عز الدين،

عربون محبة من أخ لأخيه، والشيخ كامل يعرف مدى حبنا لك، وإعجابنا بما تقوم به من جهود.

اتسعت ابتسامة الشيخ عز الدين، ونطقت عيناه بفرحة عارمة.

- بارك الله فيك يا شيخ راشد، وكتب ذلك في ميزان حسناتك.

قال الشيخ راشد:

- واعلم يا شيخ عز الدين أن أرض الفريجات ومضاربهم وبيوتهم في خدمتك وخدمة رجالك، من جاءنا لاجئاً أو مستجيراً، حميناه بعيوننا وأرواحنا.

وهبّ الأمير الخزاعي واقفاً.

- والآن ترخص لنا يا شيخ..

سارع القسام يدعوه للبقاء حتى الغداء، ليسعد بإكرامه، فاعتذر..

وقال الشيخ راشد، وهو يستعدّ للرحيل:

- سؤد الله وجوههم، لقد قطعوا هم والفرنسيون أوصال بلاد الشام.

وقد قلت لإخواننا في مؤتمر وحدة سوريا عندما اجتمعنا في بلودان منذ أعوام، الشام مقصودة من هؤلاء الصليبيين، لأنها هزمتهم أكثر من مرة، وستهزمهم بإذن الله هذه المرة، فلا تستجيبوا لهذا التقسيم الذي يريد أن يفتت بلاد الشام ويباعد بين أهلها.. الشام منصوره بعون الله، وسيأتي اليوم الذي تستعيد فيه مجدها وعزّها.. عاصمة للعروبة والإسلام.



كلما شاهد عربي البدوي سيارات الإنجليز، وهي تجوب يافا شعر بالغيظ.. ماذا يفعل هؤلاء الغرباء في بلادنا؟.. لماذا لا يتركونا وحدنا ويرحلوا؟.. ويتذكر شهداء يافا الذين سقطوا على يد الإنكليز واليهود، فيفور الدم في عروقه، ويزداد غيظاً ويشتعل ثورة.. وتلهب روحه كلمات لن ينساها لمعلمه حيدر التميمي الذي أحبه.. «لقد انتهت الحرب العالمية بانتصار الغرب على دولة الخلافة، وهاهي بلادكم تسقط بيد الأجانب، وعندما تكبرون عليكم أن تحرروها من هؤلاء».

لقد تخطى عامه السادس عشر، وصار شاباً يافعاً يستطيع أن يفعل شيئاً، ليفي بوصية معلمه الكبير.. وقد وهبه الله قوة وحيلة، يمكنه بها أن يدوخ هؤلاء الإنجليز.. لكم تتوق نفسه للجهاد.

وذات يوم غادر عربي البدوي الشركة الألمانية التي يعمل فيها، واتجه إلى المسجد القريب، يبحث عن أحد يساعده على اتخاذ القرار. صلى المغرب في جامع البلدة، واقترب من الإمام.. كان شيخاً طاعناً، ولكن تبدو عليه الحيوية والبشاشة.. تشجع عربي، وقال له فيما يشبه الهمس:

- سيدي الشيخ..

- تقضل..

- أريد أن أجاهد..

قطب الشيخ فجأة. رمقه بنظرة استخفاف، وتأمله من فوق إلى تحت،

وسأله باستنكار:

- أنت؟..

ثم بلهجة تعنيف ولوم..

- ماذا تعمل أنت مع بريطانيا العظمى يا ولد؟.. هذه أفكار صبيان. صدمه الجواب. وشعر بالإهانة.. ماذا جنيت إذ فكرت بالجهاد ضد الأجانب القادمين من آخر الدنيا، ليتدخلوا في حياتنا، ويعبثوا بمصائرنا؟.. وغادر المسجد محبطاً، وأقسم أن يترك يافا كلها!

وسمع عن ازدهار الأعمال في حيفا، فشدّ إليها الرحال مع الشروق.. كانت عيناه تودعان بيارات البرتقال والليمون التي راحت تنثر عبق أزهارها، ليوقظ فيه كل مشاعر الحب لبلاد يعشقها.. ووصل إلى مستعمرة تل أبيب التي تقع على الطريق الساحلي بين حيفا ويافا، فشعر بالاستفزاز.. فهذه المستعمرة سرّ شقاء أهل يافا، الذين عاشوا أسرى لعدوان المهاجرين، وتذكر ما يتداوله الآباء عن أحداث المنشية، التي ذهب ضحيتها عشرات الشهداء، وما عرفه عن دور يهود هذه المستعمرة في أحداث البراق، عندما ساروا بالألوف إلى القدس، واحتلوا حائط البراق، ورفعوا علمهم، وشتّموا الإسلام ونبي الإسلام..

ووجد نفسه على مشارف حيفا.. ففتنه هذا التنوع بين بحر وسهل، وجبل تكسوه الأشجار، وبيوت وادعة تتراعى على السفوح، وراح يجوب شوارع المدينة، حتى تعرف على من دلّه على صاحب محلّ حدادة في بلدة الشيخ، ليعمل عنده..

وانهمك في عمله يريد أن ينسى الفكرة التي تطارده، ولا يجد من يساعده عليها، وكلما تذكر كلمات الإمام الذي جرحه بكلماته، أقبل على الحديد المحمّي يضربه بعنف، وكأنه ينقّس بذلك عن غضبه المكبوت.. «هذه أفكار صبيان.. ماذا تفعل مع بريطانيا العظمى يا ولد؟..» أي شيخ هذا الذي يحتقر الناس؟.. هل كان أسامة بن زيد الذي قاد جيش المسلمين لفتح الهند ولداً؟.. هل كان علي بن أبي طالب عندما جلس مكان النبي

ليواجه سيوف قريش ولداً؟.. لا يكاد ينسى هذه الإهانة.. وألقى بالمطرقة فوق السندان، ومضى إلى الحارس سالم المغربي، ليروح عنده عن نفسه، فقد ارتاح له كثيراً منذ أن عمل في هذه الورشة، وأنس منه قريباً.. وكان الحارس بسيطاً وودوداً.. وقال له، وهو يراه قادماً نحوه:

- ابن حلال.. الشاي قد غلى لتوه، تعال لتشرب معي..

- جاء في وقته..

- يبدو عليك التعب..

- تعب الجسم لا يساوي شيئاً أمام تعب الفكر..

- ما الذي يشغل فكرك؟.. ما زلت شاباً في أول عمرك..

- هل تعتقد أنني شاب فعلاً؟

ضحك الحارس. قال وهو يربت على كتفه..

- شبّ ونصّ.. لماذا تقلل من قيمة نفسك.. ما شاء الله.. شباب وقوة

ونشاط.. وها أنت تعمل وتحصل على المال.. ماذا بعد؟.. لعلك تفكر في

بنت الحلال..

ثم ضاحكاً بملء فيه، وهو يقول بصوت مرتفع:

- مازلت مبكراً على الهمّ يا عربي..

ابتسم عربي البدوي..

- الله يسامحك.. ما يشغل فكرك هذه البلاد، وما آلت إليه أحوالها..

هل يرضيك ما يجري يا عم سالم؟

- ماذا يجري؟.

- الإنجليز في كل مكان يذلّون الناس ويرهبونهم.. واليهود صاروا

أكثر من العرب.. ماذا سيحدث لو ظللنا ساكتين.. هل سنصبح شحادين بعد

ما يأخذ اليهود أرضنا وأعمالنا ولقمتنا.. والله ما في حل إلاّ الجهاد..

تنهد سالم، وقال:

- أنت تتكلم مثل الشيخ عز الدين القسام.
- ومن هذا الشيخ؟
- إمام وخطيب جامع الاستقلال في حيفا. ألم تسمع به؟
- هذه أول مرة أسمع به!
- اسمع. غداً الجمعة.. ما رأيك أن تصلي في جامع الاستقلال، لتسمع خطبته.. حيفا كلها تصلي الجمعة عنده..
- رشف عربي البدوي رشفة من شايبه، وراح يتلذذ بطعمها الحلو، وهو يبحر في الصمت.
- سأرى ماذا سيقول هذا الشيخ!؟

وصل العربي إلى مسجد الاستقلال مبكراً، وجلس في مقدمة الصفوف.. كان المسجد هادئاً، والناس مستغرقون في تسبيح خاشع.. وصعد إلى المنبر رجل مهيب، فألقى تحية السلام، ثم جلس وهو يحرك الشفاه بذكر صامت، ريثما رُفِع الأذان، فقام متكئاً على سيف، وشرع يخطب بالمصلين.. وكانت خطبة ملتهبة، هاجم فيها القسام أولئك الذين ما زالوا يثقون ببريطانيا، ويتزلفون إليها لتضغط على اليهود حتى يوقفوا الهجرة إلى فلسطين، وكأننا نسينا أن بريطانيا هي التي تعهدت بإقامة الوطن اليهودي، وهي التي منحت اليهود الجنسية الفلسطينية، وسهلت لهم الاستيلاء على الأراضي.. بل ودافعت عن جرائمهم في كل المناسبات، وكانت شريكهم في قتل العرب أيام البراق..

وتساءل الشيخ عز الدين:

- إذن ما الحل؟ كيف نوقف هذا المدّ اليهودي الذي تجاوز الحدود، وكيف نوقف هذه الغطرسة البريطانية الغاشمة، التي ما فتئت تذلل أهل البلاد، وتنتهك حقوقهم وكرامتهم.

وسرعان ما أجاب، وهو يلوح بالسيف في يده..

- والله لا حل لنا إلا بالجهاد.. حتى يعود الحق إلى نصابه، ويعود الغزاة أدراجهم، وتعود الأمة حرة عزيزة.

كان العربي يستمع إلى كلمات القسام والأرض لا تكاد تسعه، وأيقن أنّه على الحق، وكأنّ كلمات هذا الرجل رجع الصدى لصرخة أستاذه القديم حيدر التميمي، لكأنّ القدر قد قاده إلى الرجل الذي سيضعه على الطريق الصحيح، ليحرر وطنه من كيد الغاصبين.

ما إن انتهت الصلاة، حتى أسرع عربي البدوي، ووقف عند باب المسجد، منتظراً خروج الشيخ عز الدين القسام..

- سيدي. عندي سؤال.

- تفضل..

- سمعت خطبتك، وأعجبت بها، وأنا أبحث عن طريق الجهاد منذ زمن، أحد المشايخ قال لي أن الجهاد في وجه بريطانيا عبث مستحيل، لكنني سمعت اليوم منك كلاماً آخرًا.

ابتسم الشيخ عز الدين..

- لا يوجد شيء مستحيل، مادمننا على الحق..

- ولكن، كيف أجاهد؟.. مع من؟.

ابتسم الشيخ، وأشفق على الشاب من فرط الحماس، وأنس منه صدقاً.

- نعلّ ذاك الشاب يدلك.

وأشار إلى رجل ذو لحية سوداء، كان يجلس قريباً من المحراب..

- عندما يخرج ذاك الرجل.. امض وراءه إلى أن تصل إلى حيث هو ذاهب.. وبعد ذلك ستجد نفسك مع من تحبّ.

كان الشيخ نمر، صاحب اللحية السوداء يراقب ما يجري، وفهم من نظرات الشيخ وإشارات ما أراد، فما لبث أن قام من ساعته، وغادر المسجد.. فتبعه الشاب، وهو سعيد بهذه المغامرة، التي قد تفضي لأفاق جديدة، يتوق إليها منذ زمن بعيد.

ومضى عربي البدوي يتابع دليله عن بعد، وسار خلفه حتى نهاية شارع الناصرة، فرآه يدخل دكاناً، فدخل خلفه، وتشاغل بتأمل البضائع، فلاحظ صاحب اللحية السوداء وهو يهمس لصاحب المحلّ بشيء، وما لبث أن خرج

- من الدكان، واتجه إلى ساحة تقع في الخلف وعربي وراءه، وعندما تأكد أنّ أحداً لا يراه، استدار، ومدّ يده..
- أخوكم نمر السعدي.
 - بهت عربي، وقال في ارتباك..
 - وأنا عربي البدوي من قرية قبلان في يافا.
 - تعال معي..
- ودارا دورة في السوق، ثم عادا إلى صاحب الدكان، فوجدا باستقبالهما رجل طويل، تبدو عليه القوة والمهابة..
- محمود سالم.. ويلقبوني «أبو أحمد القسام».
 - لعلك قريب الشيخ!
 - بل خادمه الأمين.
 - ضحك الشيخ نمر..
 - لقد تسمّى بهذه الكنية محبة بشيخه
 - وتساءل عربي:
 - والآن؟
 - يمكنك أن تتابع معه..
 - إلى أين؟
 - قال محمود سالم:
 - أنت ضيف شيخنا القسام، تفضّل معي.
- كان عربي مأخوذاً بهذا الجو المفعم بالغموض، لكنه كان في أشدّ الارتياح لهذه الوجوه، التي ائتمنها الشيخ عز الدين عليه.

استضافه محمود سالم في غرفة قصيَّة من داره، أعدتْ لتتسع لعدد كبير من الضيوف.. وبعد دقائق وصل شابان آخران، أحدهما يدعى توفيق إبراهيم، والآخر نوح إبراهيم، وجلسوا جميعاً يتبادلون الأحاديث، وبعد قليل حضر الغداء، فأقبلوا على طعامهم، وبدأ عربي ينسجم مع هذه الصحبة الطيبة، وتحمس نوح، فألقى بعضاً من شعره..

صارت الثورة في القدس صارت
 وديوك العرش في السَّما صاحت
 شباب العرب عليها صاحت
 بُسَّحِب الخناجر على الصهيونا
 * * *

صارت الثورة بُباب الخليلِ
 ودم الصهيوني عالارض بيسيلِ
 شباب العرب شيلو المرتيني
 نحمي وطننا من الصهيونا
 * * *

يَمَّا يَا يَمَّا أوعي تهَمِّي
 فِدا للوطن ضحيت بدمي
 مع القراب وأولاد العمِّ
 شباب الوطن لا تَهَمُّونا

- وأذن العصر، فصلّوا جماعة، وانضمّ للمجلس بعد الصلاة رجال آخرون،
وسأل عربي عن الشيخ عز الدين؟..
- لعلك قد ملّلت منا.
قالها محمود سالم مداعباً.
- العفو.. بيتك عامر.. لكنني في شوق للشيخ. أول شيخ أسمعته يفتي
علناً بفرض الجهاد.
- وقال توفيق إبراهيم:
- على ذكر بارودة المارتيني التي ذكرها نوح في شعره، ألا ترون يا
إخوان أن السياسة أجدى؟..
- ورفع سبابته مؤكداً:
- لن يوقف اليهود عند حدهم سوى الإنكليز.. وكما يقول مختارنا، إن
استطعنا استمالة بريطانيا إلى جانبنا، تنتهي قصة اليهود.
- صدم كلام المتحدث أسمع عربي، فقال في إنكار:
- لكأنك لم تكن معنا في خطبة الشيخ القسام.. متى كانت بريطانيا
مع العرب.. هي التي جاءت باليهود وهي التي تدعمهم، وقد فتكت بنا في
يافا من أجلهم..
- هذا رأيك!.
- استفزه هذا الردّ:
- لعلّه رأي كل حرّ يرى ما يجري في فلسطين.
- وراح عربي يتأمل الوجوه عسى أن يجد من يؤيده.. فانبرى نوح إبراهيم
منحازاً لعربي:
- من جرّب المجرب عقله مخرّب. خبّرنا عن موقف واحد وقفت فيه
بريطانيا إلى جانب العرب..

- مواقف كثيرة..
- وأفلتت من عربي غضبة لم يستطع أن يكبجها..
- يا أخي حرام عليك.. لكأنك لا تعيش في فلسطين، أصلاً بريطانيا دولة محتلة.. وهي التي جاءتنا بهذا الطاعون الذي اسمه الصهيونية، وإذا انتظرنا أكثر، فسوف يصبحون هم أهل البلاد، ونحن الغرباء..
- وما لبث طفل في العاشرة أن دخل، وقال موجهاً الكلام لأبيه:
- «يا بابا».. الشيخ عز الدين واقف بالباب.
- وهرع أبو أحمد لاستقباله، فاستبشر عربي، وتهلكت أساريه، وهو يرى الشيخ يدخل خلف محمود ليلقي تحية السلام، وجلس حيث انتهى به المجلس.. وتوجه مباشرة إلى عربي بالحديث..
- أهلاً بك يا بني.. أعذر إذ تأخرت.. عساك وجدت الصحة التي ترضيك.
- قال وهو ينظر بطرف عاتب إلى توفيق إبراهيم:
- نِعَمَ الصحة..
- لقد اجتمعنا منذ مدة على فكر الجهاد والاستشهاد، وقد توسمت فيك الصدق، فهل توافق أن تكون واحداً منّا؟
- أشرق وجه عربي بابتسامة يفيض منها الفرح، ولمعت عيناه بأنداء التأثر والانفعال..
- لكنني لم أمسك سلاحاً من قبل.
- أنت منذ اليوم في مجموعة أبو إبراهيم الصغير.. تواظب على عملك، وفي كل يوم بعد العشاء، تذهب إلى حيث يدلك، لتتلقى التدريب اللازم.
- وصدم عربي عندما وجد الشيخ يشير إلى توفيق إبراهيم، الذي كان يحاول أن يقنعه قبل قليل بفكره السقيم!.

وسأل عربي توفيق إبراهيم في إنكار:

- أنت أبو إبراهيم الصغير؟
- هكذا ينادوني، حتى يميزوني عمّن هو أفضل منّي.
- ولكن..

تبادلوا الضحكات. بينما ربت محمود سالم على كتفه في ودّ. وأدرك

عربي أن الحوار كان مفتعلاً، فابتسم، وقال:

- لم تكونوا بحاجة لتضعوني في هذا الاختبار..
- اعتبره مزحة.
- واستأنف القسام حديثه..

- يجب أن تعرف يا ولدي أن لنا في هذه العصبة قانون ونظام..

نسمع ونطيع قائدنا، وننضبط بشرع الله، ونستعين على قضاء حوائجنا بالكتمان..

كانت فرحة عربي بهذا اللقاء لا توصف. لقد وجد الآن ذاته، وأصبح

جندياً من أجل فلسطين.

- مبروك. حبيبك أبو إبراهيم خرج من السجن.
- متى؟.
- اليوم صباحاً.
- وسجد الشيخ لله شكراً..
- ألا تريد أن تذهب لتهنئته؟
- تأمل الشيخ عز الدين وجه أبو أحمد القسام.
- ليس الآن.
- متى؟..
- عندما نتأكد أن الإفراج عنه لم يكن طعماً.
- تقصد؟
- قم بزيارته، وانقل له سلامي، وقل له أنا سنلتفي في الوقت المناسب.
- وفي صباح اليوم التالي قدم وفد من وجهاء المزرعة الشرقية في قضاء رام الله، لتهنئة ابن قريتهم أبي إبراهيم بالإفراج، فاستقبلهم بالترحاب، وقال المختار:
- مبروك طلعتك من السجن يا أبا إبراهيم.
- الله يبارك فيك.
- الكلّ كان يدعو لك..
- وأضاف آخر..
- أنت فخر المزرعة كلها، والكل يحسدنا عليك..
- وشكرهم أبو إبراهيم على هذه المشاعر، ولم يلبث أن أذن الظهر،

فدعاهم ليصلوا جماعة في جامع الاستقلال، ليعرفّهم على الشيخ عز الدين القسّام، وهكذا كان..

وبعد الصلاة تقدم الوفد، يسلم على الشيخ عز الدين القسام، وجاء دور أبو إبراهيم فتعانق الرجلان بحرارة..

- هل الأمور على مايرام؟

- اطمئن..

- نتغدى إذن مع الجماعة، وبعدها نتحدث.

- الغداء عندي، وأنت على رأس المدعويين..

وقال مختار شفا عمرو بعد الغداء، وهو يحتسي القهوة العربية المشبعة

بالهيل:

- والآن حدثنا بالقصة من «طأطأ إلى سلام عليكم».

ضحك الحاضرون:

- لا تنكأ الجراح يا مختار.. تذكر، وما تتعاد.

علق الشيخ عز الدين:

- أبو إبراهيم قدّها.. والحمد لله أنه خرج منها بأقل الأضرار.

وكرر الرجال التهاني، ووقفوا مودعين، وانتهى الشيخ عز الدين به

لدقيقة، وهمس:

- اعذرني على التأخير، فأولاد الحرام يراقبونني صباح مساء..

- أتفهم هذا.. المهم كيف تتطور الأمور؟.

- الوعي يزداد.. والحركة - والحمد لله - تكسب كل يوم رجالاً

وأنصاراً..

- الشباب داخل السجن يتبعون خطبك.. واحد ممن اعتقلوا أيام

البراق، يرسل أخاه كل جمعة، لينقل له ما تقول..

- الحمد لله. أشعر أن الأرض صارت جاهزة لعمل كبير.
- مازال التريث مفيداً..
- اليهود يزدادون بشكل كبير، وهم يقتربون من غايتهم.
- لا قدر الله.
- المهم انتبه لنفسك.. لا بدّ أنهم يراقبونك الآن.
- فعلاً.. لاحظت ذلك.
- سأخرج مع ضيوفك حتى لا يلفت لقاؤنا الأنظار..

طلب المندوب السامي الجنرال آرثر جرنفيل واکهوب الاجتماع مع ضابط المخابرات كلايتمان، المكلف بملف الشيخ القسام، الذي شغل حيفا بأحاديثه ضد الانتداب والهجرة اليهودية، وكان واکهوب قد قرأ ملخصاً عن هذا الشيخ، ولفته ما أشارت إليه محاكمات نهلال حول علاقة المتهمين بالشيخ وجمعية «الشبان المسلمين» التي انتشرت على نطاق واسع، ومدى تمادي هذا الشيخ المفوه ذو الشعبية الواسعة في تحريض الجمهور على مقاومة الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني.

وشدّد واکهوب على أهمية مراقبة الشيخ، ورصد نشاطات رجاله، والتحقق من أي استعداد لأعمال تخريب قد تنتج استجابة لهذا التحريض. واجتمع كلايتمان مع حلیم بسطة وأحمد نايف.. وطلب من كل واحد أن يعرض تقديره للموقف..

- كل التقارير التي تأتينا حتى الآن، تشير إلى أن جهود القسام لا تعدو أن تكون كلاماً.. لكن نبرة التحريض الصريح ارتفعت في الآونة الأخيرة.

- هل لاحظتما أي نشاط غير عادي على مرديه الذين يزورونه في

المسجد؟

تكلم أحمد نايف:

- تقارير مخابراتنا تشير إلى ترابطهم الاجتماعي.. زيارات متبادلة،

ودعوات على الطعام.. أشياء من هذا القبيل..

- و«الشبان المسلمين»؟

- زادت أعدادهم، وافتتحوا فروعاً جديدة.. لكن نشاطهم لا يعدو أن

يكون احتفالياً.. مؤتمرات وتنظيم مهرجانات في الأعياد..

تدخل حلیم بسطة:

- لكنّ محبتهم للشيخ القسام وولاءهم له منقطع النظير.
- هذا كلام خطير.
- بمعنى؟
- أقصد أن رجلاً لديه كل هذا الحب والتأييد من جماعته، قادر على أن يحرك الناس ضدنا في أي وقت.
- الحلّ الوحيد أن يختفي هذا الشيخ لمنع خطوة كهذه!
- يختفي؟!.. كيف؟
- عندما توافق على هذا الحلّ، سنجد طريقة..

حذرهم أحمد نايف:

- أيّ أذى يلحق بالقسام سيشتعل ثورة.. وسوف يحوله من شيخ مسجد إلى بطل يحذو حذوه الكثيرون..
- لكنّه سوري!.

تبادل أحمد نايف نظرة مع حلیم بسطة، وتابع موضحاً:

- سيدي.. القسام والشبّان المسلمین لا يؤمنون بالفصل بين سوريا وفلسطين.. القسام يعتقد أنه في بلده، وهو بنشاطه هذا يدافع عنها..

- هذه عقيدة خطيرة ضد الانتداب.

- كثيراً ما يبدأ كلامه بعبارة «نحن عرب فلسطين».

قال كلايتمان، وهو برّم بما يسمع من كلام:

- حسناً.. الأفضل أن نستمر في المراقبة، ونبحث عن ثغرة في سلوكه

تجعلنا نوجه له إدانة واضحة.

قال حلیم بسطة:

- حتى الآن كل تقارير المراقبة سلبية، لا تزيد عن الحديث عن
خطب القسام وكلماته، ثم لا شيء..
- يبدو أنه يجب أن نقرب من القسام أكثر..
- كيف؟
- كأن نزرع رجلاً بين مرديه..
- نبه أحمد نايف رئيسه، وهو يتلطف بالكلام:
- هذا صعب جداً. أي رجل سنزرعه بين تلاميذه سينكشف، لأنه
يشترط فيمن يتبعه التدين الخالص، وهذا ما قد يعجز عنه أيّ مخبر
لدينا، وبالتالي سينكشف أمره.
- وأردف نايف:
- إنه يطلب منهم قيام الليل، وأحياناً يرتب لهم صلوات ليلية جماعية
يسمونها التهجد.
- أثارت ملاحظة نايف قلق كلايمان:
- تقصد أنّ القسام ينشط بالحركة في الليل؟!
- أتحدث عن الصلاة في الليل.
- هل أنت متأكد من أن نشاطات الليل تقتصر على الصلوات فقط؟!
- صمت أحمد نايف. وقد فهم من السؤال لوماً.. وقال حلیم بسطة:
- لكأنك تشك في شيء!.
- قال كلايمان بنبرة حاسمة وهو يوجه الكلام لأحمد نايف:
- منذ الغد تبحث عن بيت يكون أقرب ما يمكن من بيت القسام،
وتسكن فيه..
- نظر نايف إلى قائده الإنكليزي في دهشة..
- ولكن..

- لا تهتم بالمال. سندفع لك أجرة السكن، وندفع لك علاوة مجزية.. المهم أن تراقب القسام عن قرب، أريد أن تحصي عليه أنفاسه.. متى يدخل؟ متى يخرج؟.. من يزوره، ومن يرافقه؟..
- أمرك سيدي.
- ولا تنس.. أريد أن أعرف متى يخرج ليؤمّ مريديه في صلوات الليل؟.. متى وأين وكيف؟.



- كاز. كاز..
- كاز. كاز..
- مرحباً يا بياع الكاز.
- أهلاً..
- إِملاً لي نصف هذه..
- وفتح الصنبور هوناً ما، واستمرّ ينادي..
- كاز. كاز
- ورفع صوته، وهو ينتظر أن يصل نداءه إلى مسامع الشيخ..
- هذا يكفي.
- تفضل..
- وجاء الشيخ عز الدين، يحمل أنيته..
- «تنكة» من فضلك
- وانحنى العبد قاسم يملأ الكاز للشيخ..
- هل من جديد؟
- أبو زيد علم من أصحابه في البوليس بأن أحمد نايف قد استأجر بيتاً قرب بيتك.
- يريدون مراقبتي عن قرب.
- أبو زيد ينصح أن تكون أكثر حيلة، وقد وضع مراقباً من طرفه، يراقب تحركات أحمد نايف.
- من؟
- أبو خليل قَيّم الحمام..

- جيد.
- لكأن باب حمّامه يشرف في آن معاً على بيتك وبيت جار السوء هذا الذي ابتلاك الله به.
- ضحك القسّام:
- نعم التدبير. توكل على الله
- ونقد القسام العبد قاسم ثمن الكاز، ثم مضى..
- كم يذكره هذا الحصار بحصار الفرنسيين له قبل خمسة عشر عاماً..
- لكن الفرق أن العدو اليوم يحاصره، دون أن يدري أن البنيان يكاد أن يكتمل.. فليديه الآن رجال وقادة.. سيفاجئون العدو عمّا قريب بما يكره..
- لقد زرع فكر الجهاد في قلوب تتعطش للحريّة، وسيثمر عمّا قريب بإذن الله، ليزلزل الأرض تحت أقدام الظالمين.



كان عبد الكريم الأسعد من خيرة شباب القسام، وأكثرهم نشاطاً وتقوى، وكان الشيخ يوكل له الكثير من المهمّات، وبعد صلاة العصر، اقترب من شيخه محبباً..

- كيف أنت يا عبد الكريم؟

- الحمد لله

قال الشيخ وهو يراقب بطرفه الحذر رواد المسجد، ليتأكد أن أحداً من الغرباء لا يراقبه..

- ما جديدك؟

- هذه المرّة جئتك لأمر شخصي.

- خير؟

- عزمت على الزواج..

- مبروك؟

- وأتشرف بأن تكون أنت من يعقد القران.

رمقه الشيخ بملامحه الوقورة..

- أريدك أن تنجب أسوداً.

- ابتم..

- إن شاء الله..

- متى الموعد؟

- الخميس القادم.

ومال عليه القسام..

- بعد عقد القران، وبينما يكون الناس منهمكين بتناول الحلوى..

- ترتب لي جلسة أنفرد فيها بالشيخ كامل القصاب والأستاذ رشيد الحاج إبراهيم.. وقد يأتي أيضاً أبو إبراهيم..
- أبو إبراهيم الكبير أم أبو إبراهيم الصغير؟
 - أبو إبراهيم الكبير خليل عيسى أما توفيق إبراهيم فتدعوه إن شئت ضمن أصدقائك، ممن سيحتفون بالعريس.
 - ابتسم عبد الكريم.
 - سأدعو الجميع بنفسي.
 - لا. التقت أنت لفرحك، واترك الباقي عليّ.. المهم أن تشغل الباقين عنّا ساعةً أو بعض الساعة، حتى ننتهي من الاجتماع.
 - كن واثقاً.
 - ألا تريد حلوان الفرحة؟
 - صمت، وابتسم في حياء..
 - قل للشيخ علي الحاج عبيد أن يصرف لك مسدساً، تدافع به عن عروسك وأطفالك حين يحين الجدّ.

قال الشيخ عز الدين:

- الإنكليز يحكمون الحصار حولنا، ودولة اليهود أصبحت على الأبواب، وقد حان الوقت لعمل شيء..

قال الشيخ كامل:

- أي حركة يجب أن تكون مخططة بعناية. يجب أن تتأكد من رجالك قبل أن تقدم على شيء..

- الرجال على أتم الاستعداد، ولعلي أخشى إن تأخرنا أن يشد بهم الحماس، أو يلجئهم القهر إلى تصرف لم نحسب له حساباً.

- أوافقك في هذه، لكنني أرى أن اختيار الوقت مهم.

- ولهذا أردت أن أستشيركم اليوم..

قال الأستاذ رشيد:

- أنا مع الشيخ عز الدين.. يجب أن نتحرك لنوقف هذا السيل من المهاجرين.. والأعداد في تزايد مستمر.. أصبح لديهم المال والرجال والأرض، وأخشى أن يفاجئونا بإعلان وطنهم المزعوم تحت حراب الإنكليز.

وتساءل الشيخ كامل عما يقوله أبو إبراهيم في هذا التوقيت، فتململ

في مكانه، وقال:

- أرجو أن تعذروني إن قلت لكم بأن لي تقييماً مختلفاً للوضع. إذ أنني أعتقد أن ما لدينا من عتاد ورجال لا يسمح لنا بأن نعلن ثورة على الانتداب، ومن معه من قوات يهودية مدربة!.

فاجأ أبو إبراهيم الشيخ عز الدين برأيه، فردّ يحاوره فيما ذهب إليه..

- لا أظن أن بريطانيا ستتركنا حتى نعد لها جيشاً.

ووافقه الشيخ كامل، بينما قال الأستاذ رشيد:

- أرى أن الشيخ عز الدين دخل الآن في حصار محكم، ولا أعتقد أن الوقت سيسعفه ليجمع المزيد من الرجال.

قال الشيخ القسام وهو يقبّل الأمر من كافة جوانبه:

- فكرة أبي إبراهيم وجبهة ومحقة، لكن قد نختلف في كيفية تحقيقها.. العدو كما يقول الأستاذ رشيد لن يتركنا حتى نجتمع وندرب ونحشد ونهاجم.. هم تأكدوا الآن أن هناك حركة تعدّ للمواجهة، وينظرون إلى جمعية الشبان المسلمين بعين الريبة، وأخشى أنهم يخططون لحلّها وتجريمها عمّا قريب، لذلك الانتظار سيكون علينا لا لنا..

- والحلّ؟..

قال الشيخ عز الدين بنبرة واثقة:

- كلنا نعلم أن شباب فلسطين اليوم متحفز للمواجهة والجهاد.. ولدينا الكثير من المخلصين، الذين يتحرقون لهبّة توقف مخطط اليهود والإنكليز لإقامة وطن غريب في فلسطين، وهم يتطلعون إلى من يستوعب حماسهم، وينتظرون شرارة البدء حتى يلتفوا حولها، وسنكون نحن بعون الله هذه الشرارة، التي ستحرك أهل البلاد لكسر هذا العدوان.

وأردف القسام:

- أستطيع أن أقول أن لدينا الآن من الرجال والعتاد، ما يكفي لإشعال ثورة في البلاد، تماماً كما يفعل عود الكبريت، عندما يلهب كوماً هائلاً من الحطب.

تبادل الرجال نظرة تنطق بالقناعة. أما أبو إبراهيم، فقد كان له

رأي آخر!

خرج القسام من الاجتماع وهو غارق في التفكير، يتأمل في الخطوة القادمة.. كان بوّده لو كان أبو إبراهيم معه، وهو يخوض الثورة التي خطط لها..

وشعر الشيخ عز الدين بأن أحداً يتبعه، لكنه تابع طريقه يتنسم رائحة الخريف الماطر، الذي كان يملأ المكان بعبق الأشجار، وهي تغتسل برذاذ المطر..

كانت المصايح العتيقة تلقي بأضوائها الصفراء الباهتة على شارع وادي النسناس، وكان الطريق طويلاً، فاستجاب لخواتره وهو يحثّ الخطى إلى بيته.. كانت مفارقة أن يشعر اليوم بأن قلبه مترع بالطمأنينة، رغم الخوف الذي يراوده من حين إلى آخر على هذا الذي بناه.. على الرجال الذين اختارهم بعناية، وربّاهم ودرّبهم على عينه.. على الشباب الذين التفتوا حول دعوته للجهاد، وهم يتدفقون حيوية وحماساً للدفاع عن وطن مستباح..

وشعر بأن القدر قد ساقه إلى فلسطين، ليطلق شرارة الكفاح ضد قوى الشرّ، التي تحالفت لتغتصب فلسطين، وتنتهك تاريخها وقداستها، وتحولها إلى مستعمرة كبيرة، يتمرس فيها الغزاة خلف الفكرة الصهيونية، ويحميها انتداب ظالم، قرر مع حليفه الفرنسي، أن يفتت بلاد الشام، حتى لا تقوم لها قائمة بعد اليوم.

وخطر للشيخ أن يتوقف ليمسك بهذا الذي يراقبه، ويتتبع خطواته، ليرى إن كان عربياً أم يهودياً أم إنكليزياً؟.. وتذكر أحمد نايف الذي سكن قربه، حتى يعدّ عليه حركاته وسكناته، فتساءل

كيف يمكن لعربي مسلم أن يتحول إلى حذاء، يدوس به العدو أبناء
وطنه.

ووصل إلى بيته في وقت متأخر، فعلم أن أخاه فخر الدين قد عاد من
جبله، بعد أن قام بتوصيل أمه، واطمأن عليها هناك..
لقد عدت في الوقت المناسب يا فخر الدين.



ساعات الأمور إلى الحدّ الذي لم يعد من الحكمة أن يركن بعده القسام إلى الهدوء.. لكنه تذرّع بالصبر، وراح يراقب تطور الأحداث.. لولا حادثة خطيرة قلبت الموازين، وجعلته يعيد كل حساباته، ويعلن النذير في كل الاتجاهات..

وتخلى الشيخ عن حذره المعتاد، واتجه إلى منزل القصاب.. وفوجئ الشيخ كامل بالخطوة، وعلم أن القسام ما كان ليتخلى عن حذره لولا أمر قاهراً!

- ما بالك غاضب ومتوتر هكذا؟.

- خبرٌ جلل..

- أي خير؟..

وجلس يروي للقصاب ما حدث..

- اليوم دخل عليّ في المسجد عاملٌ في الميناء ممن أثق بهم، وحدثني أمام الناس حديثاً، يجب أن يكون له ما بعده.

- أفصح أرجوك.

- أثناء تفريغ باخرة قادمة من بلجيكا على أنها باخرة اسمنت بناءً،

سقط برميل بالخطأ، فإذا به مليء بالسلاح.

- ولمن السفينة؟

- مسجلة باسم إحدى المستعمرات اليهودية.

- هذا كلام خطير..

- ولما أقبل العمال ليملّوا السلاح، تدخل البوليس البريطاني، وصادر

البرميل المفتوح، ومع ذلك سمح بدخول بقية البراميل، كأن شيئاً لم

يحدث، وشحنت جميعها للمستعمرة على أنها براميل اسمنت.

- هذا دليل دامغ على نوايا اليهود.
- وعلى دور الإنكليز في تمرير الأسلحة لهم.
- ولا تدري كم سفينة سلاح قد دخلت من قبل..
- لكنهم يعدّون لحرب!..
- يبدو أنهم على وشك إعلان دولتهم!
- وضرب الشيخ عز الدين كفاً بكفاً، وقال بنبرة حاسمة:
- أعتقد أن الوقت قد حان يا شيخ كامل.
- صدقت.
- نحتاج إلى المزيد من السلاح.
- سأكتب للشيخ راشد الخزامي، ليرسل ما يمكنه.
- أخشى أن الوقت ينفذ بسرعة..
- سأسافر بنفسي إلى جبال عجلون، للاتفاق مع الشيخ الخزامي،
- ولن أعود إلا والسلاح معي بإذن الله..



استدعى الشيخ عز الدين محمود سالم المخزومي على عجل..
- اسمع يا أبا أحمد.. تذهب الآن من فورك إلى القدس، وتقابل
المفتي..

قل له أن الشيخ عز الدين لن ينتظر بعد الآن.. لقد بلغ السيل الزبي،
ولم يعد لنا على الصبر طاقة، قل له أن البلاد مهددة أكثر من أي وقت
مضى، وبواخر السلاح تلقي بأحمالها إلى اليهود أمام عيوننا، والإنجليز
متواطئون، لا يحركون ساكناً.

قل له القسام لم يعد يأكل من حكي السياسة والمؤتمرات.. اليهود
صاروا أكثر من العرب.. مستعمراتهم مدججة بالرجال والسلاح.. ولم يبق
إلا أن ينقضوا علينا، ليعلنوا وطنهم المشؤوم، ونحن مشغولون بالكلام ثم
الكلام ثم الكلام.

قل له يا أخي نحن في الشمال جاهزون للثورة، فلتعلنوا الثورة في
الجنوب، لنجمع الناس تحت راية الجهاد، وإلا سوف تجدون اليهود، وقد
صاروا جيشاً يهدد القدس، ويفتك بأهل البلاد، ليبنوا دولتهم في قلب بلاد
الشام، التي يريدونها مزقاً وأشتاتاً..

نظر الرجال إلى شيخهم، وهو يتوقد ثورة وغضباً، وتبادلوا نظرة
قلقة..

قال أبو أحمد القسام:

- هي الثورة إذن!
- نعم الثورة.. الجهاد بالنفس والمال إلى أن يزول كل الغرباء..
الثورة بالروح والدم حتى يعرف الإنجليز واليهود أن هذه الأرض حرام

عليهم، وأن الأمة كلّها سوف تدافع عن أرض الرباط.. لن نسمح بإقامة دولة صهيونية ونحن نتفرج.. لن ننتظر حتى نقول مرة أخرى لقد خدعونا.. بل سنعلنها صريحة مدوية.. الجهاد إلى آخر رجل منّا.. الجهاد أو الاستشهاد.. وعندما نبدأ ستجد أن الرجال خلفنا كالمطر.. كل الناس يتحرقون للجهاد.. لكنهم يبحثون عمّن يتقدم الصفوف، ويدلّهم على الطريق..

وامتلات صدور الرجال بالحماسة، فهذا هو اليوم الذي كانوا ينتظرونه..

وتساءل محمود زعرورة:

- هل تعتقد أن المفتي سيوافق؟

قال القسام بغيظ:

- نحن لا نستفتيه يا أخي.. نحن نعلمه أننا سنبدأ الثورة في الشمال.. حتى يستعدّ في الجنوب، أو يمدنا بما يستطيع، حتى نرهق الأعداء، ونشتت قواهم..

وراح القسام ينتظر الجواب..

ورأته ابنته ميمنة وهو عابس مشغول الفكر، فابتدرته بالسؤال عمّا يشغله..

- لو تعلمين يا ميمنة.. اليهود يشحنون السلاح لمستعمراتهم كل يوم، ونحن لاهون غافلون.

- هذا يعني أنهم يعدّون لحرب..

- فلسطين أصبحت رهينة مكر لا مكر بعده.

- ليس لنا إلا الصبر..

تأملها بطرف عاتب.

- اصمتي يا ميمنة.. والله لا يصبر على هذا إلا كل خوار ذليل.. دولة اليهود في فلسطين تكاد تقوم.. مهاجرون في سن القوة والشباب، ومئات المستعمرات، وسفن تشحن لهم أطناناً من السلاح، وتريدون مني أن أهدأ؟!..

وأقبلت أمينة على صوت زوجها..

- ما بك يا عز الدين؟

تأملها بعينين غشيتهما حمرة الغضب..

- ما حذرت منه أصبح قاب قوسين أو أدنى يا أمينة. لقد تمكن

اليهود من مشروعهم، ونحن نائمون..

صمتت. أدركت أن زوجها قد اقترب من معركته التي كان يعد لها

بصمت، واحتسبت عند الله مستقبلاً بدأ يتسرب من حياتها، التي تمضي

من ابتلاء إلى ابتلاء.

استمع المفتي للرسالة، وهو مطرق.. حوقل، وقال، وهو يرفع نظراته
القلقة لرسول القسام:

- شيخكم مستعجل يا أبا أحمد.. أنا أرى أن الأمور لم تنضج بعد..
لكني أدرك أن الشيخ عز الدين ما وصل إلى قراره هذا، إلا وهو يرى أنه
قادر على فعل شيء!.

وصمت برهة، ثم هز رأسه في حيرة، وقال:
- ومع هذا قل له أن المفتي ينصحك بالتريث.. لأن أمورنا في القدس
والجنوب لم تجهز بعد..

ونفض المفتي ثم قال وهو يشد على كتف الرسول:
- قل له أن المفتي لا يستطيع أن يمنع أحداً من الجهاد.. لكني لا
أستطيع أن أعلن الجهاد في عموم فلسطين، إلا عندما تنضج الأمور على
الوجه الأكمل.. وإلى أن تحين تلك الساعة، فنحن نسد ونقارب، والله لا
يكلف نفساً إلا وسعها..

وعاد محمود سالم إلى شيخه القسام بالجواب..

- كنت أتوقع جواباً غير هذا من المفتي..

- لعله خائف من اندفاعه لا تحقق النصر!.

قال الشيخ عز الدين:

- ليست هذه المرة الأولى التي أخوض فيها تجربة الجهاد.. أعرف
أن حركتنا لن تهزم جيشاً عاتياً كجيش بريطانيا، لكنها ستطلق ثورة لا بد
منها في فلسطين لوقف هذا العدوان، وأنا متأكد من أن الألوفا سوف
يلتحقون بهذه الثورة عاجلاً أم آجلاً.. وسوف تلتقي ثورة فلسطين مع ثورة

- سوريا ضد الفرنسيين، لتعود الأرض التي بارك الله فيها حول الأقصى موحدةً، ترفل بالحرية والاستقلال.
- وأخرج أبو أحمد القسام مبلغاً من المال:
- الشيخ أمين يقول لك أنه كان يتمنى لو كان معك، وأرسل لك هذا المبلغ.
- جزاه الله خيراً. هذا يعني أنه معنا، لكنه يترئّث..
- والتفت الشيخ إلى نمر السعدي..
- بلّغ الشيخ فرحان أن يستعد، ويجمع خيرة رجاله استعداداً للجهاد، وأخبره بأننا سنلتقي في قرية نورس مساء الجمعة، ثم ننطلق من هناك..
- وطلب من الشيخ حنفي أن يخبر أبا إبراهيم بضرورة أن يلقاه بعد صلاة فجر الجمعة في مسجد عبد الله أبو يونس الجديد.



وأراد الشيخ عز الدين أن يمنح أسرته بعضاً من اهتمامه، وهو يشعر أن أيامه معها باتت معدودة، فمضى إلى الكنفاني، واشترى طبقاً من الكنافة الشهية، ثم مضى بها إلى بيته، وهو يحاول أن ينحّي الحزن والغضب، ولو إلى حين، ليدخل إلى بيته بعض الحبور.

وطرق الباب، ففتح له محمد، وقد توارت الأم خلفه، تحتجب عن عيون المارة، فناولها الشيخ الحلوى، وحمل ابنه، وقبّله في حنان، ثم مضى به إلى الداخل، وهو يحتضنه بشوق، وكأن أياماً طويلة مضت دون أن يراه، وهو الذي ودّعه في الصباح..

- كيفك يا بطل؟

- ميمنة عندها صديقتها.

- صديقتها؟

قالت الأم ضاحكة:

- يقصد أمنة.

- أمنة هنا؟

أجابه الصغير نيابة عن أمه، فخفق قلب الشيخ عز الدين للبراءة التي تقطر من كلماته..

- تجلس مع ميمنة وخديجة في الداخل.

- وماذا تفعل؟

- تحكي لهم أنها تريد طفلاً جميلاً مثلي.

تبادل القسام نظرة مع زوجته:

- أما زالت لم تنجب؟

- أعانها الله.. هذه معاناتها المقيمة.. كلما زارتنا تحدثت في هذا الموضوع.

وشعر الشيخ بلهفة للقاء أمنة.. لكأنها ابنته الرابعة.
- جاءت الكنافة في الوقت المناسب. أدخلها عليهن، وأخبريهنّ بأني قادم لأسلم عليها..

ودخل الشيخ عز الدين، فنهضت أمنة ترحب به..

- كيف أنت يا أمنة؟

- الحمد لله..

- وكيف الوالد الكريم والأهل جميعاً..

- يدعون لك بالسلامة..

- تفضلي. تفضلي يا ابنتي..

وراحوا يتناولون الحلوى، وقد أضفى دخول الشيخ على الجلسة هيبة وصمتاً قطعته ميمنة..

- حدثتنا أمنة عن أيام المدرسة.. تقول أنك أعظم أستاذ مرّ في حياتها.

ابتسمت أمنة، بينما همس الشيخ:

- أستغفر الله يا بنتي. هذا من طيب أصلك.

- كل البنات اللاتي كنّ معنا يقلن هذا الكلام.

- هذا فخر لي.. وكيف مصطفى؟

- يدعو لك دائماً.

- أرجو من الله تعالى أن يكمل حياتكما بالسعادة.

وأطرقت أمنة، وقالت بنبرة كسيرة:

- لا ينقصنا يا أستاذ سوى ما تعلم.

تبادل القسام نظرة مع زوجته التي قالت:

- اصبري يا أمانة.. هذه الأمور تأخذ وقتاً.. تفاعلي بالخير.

أجهشت، وقالت:

- صبرت طويلاً ياخاله، وأخشى..

قاطعها القسام:

- لا تقوليها يا ابنتي.. تفاعلي بالخير كما تقول أم محمد.. سلّمي

أمرك لله، وكوني مطمئنة، فإن الله مع الصابرين..

- ادع لي يا أستاذ..

- رزقك الله بما تشتهين من أطفال وأحفاد، وجعلهم لك قرّة عين.

وانتبه الشيخ إلى أنّ أمانة قد توقفت عن تناول الحلوى!

- تفضلي يا أمانة. أكملني حلواك، وخليّ ثقتك بالله عالية.. وسوف

تأتينا عما قريب بإذن الله، لتزقي لنا البشرية.

أشرق وجه أمانة بابتسامة وادعة، وغمرها التفاؤل، فأقبلت تأكل حلواها

بشهوة.

لا تدري سرّ اليقين الذي دخل قلبها، بأن دعوة الشيخ هذه المرّة،

ستستجاب!

اختار القسام نخبة من رجاله ليكونوا طليعة الجهاد، وطلب منهم أن يجمعوا ما استطاعوا من مال يساعدهم في خروجهم هذا، فباع بعضهم أثاث بيوتهم، وبعضهم باعوا مصاغ زوجاتهم، وفوجئوا برفيقهم عطيفة أحمد المصري، يبيع أساور زوجته بثمانين جنيهاً، ويشترى بها بضع بنادق له ولإخوانه المجاهدين، وودّع زوجته الحامل، ليلتحق بالمجموعة التي اختارها الشيخ، بعد أن ألحّ عليه بالخروج، ولمّا سأله حسن الباير لمّ فعل ذلك، قال: لأكفّر عن أيامٍ لم تكن لله..

وباع محمد أبو قاسم خلف كل أغراضه، وودع زميله في الشقة بالقبلات، وعندما سأله إلى أين سيفادر؟ قال أنه سيذهب إلى الموت من أجل وطن لا يعرّب فيه الإنكليز، أو يشتريه اليهود، ليبنوا فوق بيوتنا وطناً ودولة.. لكن زميله ظنّ به مساً، ولم يأخذ كلامه على محمل الجد.

وعندما علم الشيخ بما قاله، أصدر أوامر صارمة لرجالها بالألا يكثرُوا من الحديث، وأن يكتموا سرّ حركتهم عن أقرب الناس، وطلب منهم أن يذهب كلّ منهم من طريق، ليجتمعوا في مزرعة كان الشيخ حنفي يستثمرها للعصبة في عين جارود، حيث وقعت معركة عين جالوت الشهيرة، وكان يستخدمها الشيخ علي الحاج عبيد، لتخزين السلاح..

وطلب الشيخ عز الدين من ناجي أبو زيد أن ينقل رسالة مكتوبة للأستاذ رشيد الحاج إبراهيم. كانت الرسالة قصيرة ومقتضبة، وعندما قرأها الأستاذ رشيد دمعت عيناه..

- «أخي الأستاذ رشيد.. أزمعت المضيّ فيما اتفقنا عليه، وتأكّد من أنّي واثق من نفسي، وأن صوتي سيجد صداه في كل مكان عند أول صيحة،

ونستودعك الله راجين من المولى تعالى أن يوفقنا في أعمالنا في سبيل
الوطن». وأيقن الأستاذ رشيد أن ثورة فلسطين الكبرى قد بدأت.. وأن الحجر
الأول في جدار الظلم سيسقط عمّا قريب.

بعد فجر الجمعة، أقبل أبو إبراهيم بصحبة الشيخ حنفي للقاء الشيخ عز الدين.. كان عصياً على ذهن مراقبي الشيخ أن يصلي الفجر في مسجد غير الاستقلال، لذلك اختار أن يلتقي أبا إبراهيم في مسجد الحاج عبد الله أبو يونس، وكان مسجداً جديداً، مازال بعيداً عن نشاط الجمعيات الإسلامية..

- كيف أنت يا أبا إبراهيم؟..
- بالي عندك يا أبا محمد..
- لقد أوشكنا على المسير.. أما زلت على رأيك؟..
- صدقتك القول.. أخشى أننا في هذه اللحظة لا نستطيع أن نواجه قوة الإنكليز العاتية، وعصابات اليهود المهاجرين، الذين تعرف كم جمعوا من سلاح ومقاتلين.
- ردّ عليه الشيخ يحاول التوضيح..
- أنا لم أقل أنا ذاهبون لنهزم هؤلاء في معركة أو حرب.. أنا قلت سوف أشعل ثورة يشارك فيها كلّ حر في فلسطين.. هذا أضعف الإيمان، قبل أن نستيقظ يوماً، فنجد فلسطين وطيناً لليهود الغرباء.
- هبّ أن الشباب والرجال بدؤوا بالالتحاق بنا، فمن أين لنا بما يكفي من سلاح وذخيرة؟.
- جمعنا بعض الأموال، ولدينا سند ووعدهم بالدعم ممن نعرف صدقهم وقدرتهم..
- الجواسيس يا شيخ عز الدين في كل مكان، ولن يتركوك..
- الجواسيس في كل زمان ومكان.. لا بد من أحد يطلق روح الجهاد..

فإن وفقنا استكملنا ما بدأناه.. وإن كتب الله لنا الشهادة، يأت من خلفنا من هو أحسن منا..

وقال أبو إبراهيم في محاولة أخيرة لاستيعاب اندفاعه الشيخ القسام:
 - في كل الأحوال، أرى ألا تخرج بنفسك.. أرسل مجموعة، وعين لها قائداً يبدأ حشد الثوار.. وتبقى أنت توجه الثورة وتدعمها..
 وثنى الشيخ حنفي على الاقتراح.. فرد الشيخ عز الدين عليهما بكلام قاطع.

- وعدت الرجال أن أكون معهم، ولا خير في قائد يجلس خلف الصفوف..
 وأردف:

- تعال معنا يا أبا إبراهيم. فأنا أعرف أنك تواق للجهاد.
 - لعل بقائي في حيفا ينفع، إن أذنت لي.
 - لا بأس.. لتكن ضمن مجموعة حيفا، فإن وفقنا، التقينا معاً في معركة حيفا، وإن لم يكتب لنا التوفيق.. ترى أنت وإخوانك بعدنا ما ترى..
 وودعه الشيخ، وقبل أن يفترقا، أوصى الشيخ حنفي أن ينسق معه أمور حيفا، وأوصاه أن يوفر له ما تبقى من السلاح عندما يحتاج إليه.

وكلف الشيخ أخاه فخر الدين بأن يرمى المسجد في غيابه.. وقبل أن يبدأ رحلة الجهاد قرر أن يودع حيفا على طريقته، فبعد الصلاة اعتلى القسام منبره الأثير، وكأنه يودعه..

وتصفح الوجوه الشاخصة نحوه، فلمح فيها الصدق والإخلاص، وراوده إحساس بأن كلماته تولد من جديد، وأن فلسطين ستذكر يوماً أنه كان وفيّاً لبرتها، فهاهو يعلن الجهاد على أرضها، وقد وُطن نفسه على الاستشهاد فوق ترابها، ليروي بدمائه غرساً مقدساً، يبدؤه اليوم، ويأمل ألا يتوقف حتى يزول ليل الظالمين.

وتهدج صوته وهو يتلو قول الله تعالى.. «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم أول مرة. أتخشونهم؟. فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين»

وتابع بصوت حازم، وقد لمع في عينيه بريق، يعكس ثقة وتصميماً لا يلين: - أيها الناس.. لقد علمتكم أمور دينكم، حتى صار كل واحد منكم إلى الله أقرب، وانتهى وقت الكلام، ليبدأ وقت العمل.. واعلموا أن الصليبية الإنجليزية الغربية والصهيونية اليهودية الفاجرة تريد ذبحكم كما ذبحوا الهنود الحمر في أمريكا.. تريد إبادتكم أيها المسلمون، حتى يحتلوا أرضكم من الفرات إلى النيل، ويستولوا على القدس، ولن يتوقفوا حتى يحتلوا المدينة المنورة إن استطاعوا، ويحرقوا قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.. فالذي يريد أن يستولي على حائط البراق ظناً منه أن هيكلاً سليمان كان تحت أحجاره، سيأتيكم غداً ليقول لكم أريد قلاعي ودياري في يثرب، وينتقم من أمة عاقبته يوماً على غدرة وخيانتة.

- يا أهل فلسطين لقد سرقت الصهيونية الفاجرة أرضكم، وهاهي تحشد السلاح لتذبحكم به، وما حديث براميل البنادق والرصاص، التي افتضحت في ميناء حيفا عنكم ببعيد.. وقد حصص الحق، وبان الطريق، وإنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد، فاستجيبوا لأمر الله تعالى «قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة»..

- أيها الناس.. لقد علمتكم أمور دينكم، حتى صار كل واحد منكم عالماً بها، وعلمتكم أمور وطنكم حتى وجب عليكم الجهاد، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

فإلى الجهاد أيها المسلمون.

إلى الجهاد أيها المؤمنون.

وتوجه الشيخ عز الدين إلى منزله مباشرة، فلبس «الكاكي»، وتناول مسدسه، وعقد العقال فوق رأسه، وهو يتحاشى دموع زوجته، التي تنثال على خديها بصمت.. قال وهو يشدّ حزام الرصاص على صدره:

- أخيراً حانت ساعة الجهاد.
- كان قلبي يحدثني، بأنك تعد لهذه اللحظة.
- هذا أمر الله يا أمينة، فادع لنا.
- وفقك الله ونصرك. انتبه لنفسك.
- وصيتي لك الأولاد..
- سيكونون إن شاء الله على خير ما أردت.
- وإذا كتب الله لي الشهادة، أرجوك أن تسامحيني، فقد أرهاقتك معي.

وتهدج صوته، بينما بكت أمينة، ودفنت وجهها المخضل في صدره، تودع حبيباً ورفيقاً، قد لا تلقاه بعد اليوم..
وخشي القسام من عاطفتها أن تنال من عزمته، فربّت على كتفها مشجعاً، ثم تناول مصحفه، فقبّله، ودسّه في جيب قميصه، ومضى للغرفة الثانية، فوجد الأولاد مع عمهم فخر الدين، وقد مهّد لهم الأمر، حتى يتقبلوه..

وهرعت إليه ميمنة وهي تبكي، فاحتضنها بجنان، لكنه سرعان ما تملصّ من ذراعها خشية أن يضعف، وكانت أمينة في إثره، فأسرعت إلى ابنتها تهدئها، بينما مضى الشيخ إلى خديجة وعائشة، وضمّهما معاً، وهما تبكيان، ووصل إلى محمد، فحضنه بقوة، وهو ينظر إلى أخيه فخر الدين،

وكأنه يوصيه بأن يعوضه عن حنان أب، كان قدره أن يغادره مبكراً، وهو
يتفتح على الحياة..

وقال فخر الدين وهو يودع أخاه:

- يجب أن تغادر بسرعة.. السيارة بانتظارك.

وسمعوا صوت السيارة وهي تتطلق، فانخرطوا في البكاء والنحيب.

في قرية نورس اجتمع رجالن على تخوم القدر..

قال الشيخ فرحان السعدي:

- أنا ورجالي رهن إشارتك يا عز الدين، فأخبرني بخطتك..
 - اخترت من رجالي مجموعة ينتمي أغلبها للقرى والبلدات التي سنمرّ
 بها، ليساعدونا في تحشيد الرجال، وبعث الهمم للجهاد، وأرى أن تفعل
 كذلك.

- والباقون؟

- يستنفرون على أهبة الاستعداد.. رجالي في حيفا.. ورجالك في
 جنين.. ليكونوا لنا عوناً عندما تتفاقم الأحداث، ونرى في كل مرحلة رأياً
 يناسب ما تؤول إليه الأمور..

- وبعده؟

- إن استطعنا أن نجمع ما يكفي من الرجال عدنا لنضرب في حيفا
 وفي جنين، ونزلزل المستعمرات التي باتت أوكاراً للعدوان..

- أخبرني ابن عمي نمر أنكم جهزتم خطة لاحتلال حيفا.
 - كانت فكرة.. لكن التقدير كان أننا لن نصمد فيها لو فعلنا أكثر
 من ثلاثة أيام، فاستبعدت الأمر.

- وكيف ستكون خطة سيرنا..

- أرى أن نسير من طريقتين.. طريق أنا وجماعتي.. وطريق أنت
 ورجالك..

استغرب الشيخ فرحان!.

- ولماذا لا نكون معاً؟..

- حتى إذا استشهد أحدنا، يحمل الثاني اللواء.. هذا عهدنا أمام الله،
وعليه نفترق.
- توكلنا على الله.
- وتعانق الرجال، وعقدوا النية على جهاد طويل.. لا ينتهي إلا بتحقيق
إحدى الحُسْنَيْنِ.. النصر أو الشهادة.
- ومضى الشيخ عز الدين باتجاه أحراش يعبد، بينما سار الشيخ فرحان
إلى وادي أحمر بين نابلس والغور..
- وحبس الزمان أنفاسه، يرقب رجالاً وضعوا يدهم على البدايات، وتركوا
النهايات لبارئها، واعتصموا بيقين المؤمنين.

قرر القسام أن يبدأ المسير من قرية عين جالود، التي تضم السهل الذي جرت على ترابه معركة عين جالوت الشهيرة في مرج بني عامر.. واستذكر الرجال وهم يمضون في الظلام بطولات الشهداء التي دحرت المغول على هذه الأرض يوماً..

وتوقف الشيخ فجأة وسط السهل الأخضر، واستدار، فتحلق الرجال حوله، يتهيؤون لسماع توجيهاته.. قال بصوت هادئ فيه عزم وخشوع: قولوا «اللَّهُ أَكْبَرُ. بِسْمِ اللَّهِ».. جددوا يا إخوان نية الجهاد الخالص لله تعالى.. بسم الله تعالى نبدأ اليوم جهادنا ضد الإنجليز والصهاينة من هذا المكان الطاهر..

وانطلق بخطوات واثقة، فمضوا خلفه، وقد شحنت ذكرى النصر في عين جالوت أرواحهم، بما كتبه الشهداء على جبين الزمان من معاني التضحية والفداء، وشحذوا عزائمهم لمواجهة المغول الجدد، الذين أتوا ليخضعوا هذه البلاد من أجل أهدافهم ومصالحهم، ويكسروا إرادة أهلها، وينتهكوا سيادتهم في وطنهم.

وعرف أحمد نايف بمغادرة القسام لبيته في سيارة على حين غرة، فجنّ جنونه، وأرسل عيونه يراقبون الأمكنة التي يمكن أن يتردد عليها، وأرسل تعميماً حول غياب الشيخ، الذي تقدر قيادة المخابرات بأن لديه نوايا غامضة!.

ووصلوا إلى جبال فقوعة، فاخترأوا كهفاً يتوارى خلف غابة من الأشجار، فأووا إليه..

- لماذا سمّوها جبال فقوعة؟-

- لكثرة نمو الفقع فيه..
- الفقع؟.
- يعني الفطر..
- وصاح أحدهم:
- الماء الذي لدينا نفذ.
- من أين سنشرب؟
- المنطقة مليئة بالعيون.

وقضوا في الكهف أياماً كانوا يتبادلون فيها الحراسة، وينهمك الباقون في تبادل خبرات القتال واستخدام السلاح، تتخللها جلسات الصلاة وقراءة القرآن، مع جلسة يومية يقضونها مع شيخهم في المساء، يبعث فيهم روح الجهاد والاستشهاد..

وفي كل يوم كان الشيخ عز الدين يختار بعض رجاله، فيتوجه معهم إلى قرية من القرى، ليجتمع بوجوهها ومجاهديها، يبشرهم بثورة قادمة لا بد منها، لزعزحة هذا العدو الغاشم الجاثم على صدر فلسطين، الذي أتى بالألوف المؤلفة من الغرباء، ومكّن لهم، ليصبحوا جيشاً عاتياً يهدد البلاد والعباد.

وفي كل قرية كان يترك الشيخ رجلاً يثق فيه، ليكون مسؤولاً عن تنظيم المجاهدين والاتصال بقيادة الثورة..
وتفائل القسام بفجر جديد..

وصل إلى البوليس البريطاني تقرير أولي حول تواجد مجموعة من الرجال في قرية فقوعة، فتم اعتقال عدد من الأشخاص من القرية للتحقيق معهم، ولما عجز عن الوصول إلى معلومات كافية، أطلق جواسيسه ومحققيه في القرى المجاورة، ومعهم عدد من الضباط، ليسترقوا السمع، ويراقبوا التحركات المريبة، متكرين بأزياء الفلاحين والباعة المتجولين، لتحري المعلومات التي تدل على حقيقة هذا التحرك!.

وكان الشيخ عز الدين قد غادر إلى قرية زرعين، ليجتمع مع مجموعة من وجهائها، ويدعوهم لحشد الرجال من أجل الجهاد، بينما بقي الآخرون في كهفهم، يتناوبون في الحراسة، وأثناء نوبة عربي بدوي لاحظ تحركات مريبة لبعض الأشخاص، الذين يحومون حول المكان.. فأخبر رفاقه، فتواصوا بالحذر والانتباه، بانتظار عودة الشيخ.

وعندما هبط الليل حانت نوبة حراسة مجاهد التحق بهم مؤخراً، يدعى أحمد عبد الرحمن حسن، فأوصوه بالحذر، وأوؤا إلى كهفهم، ينتظرون عودة الشيخ القسام، وراح المجاهد المكلف بالحراسة يراقب الدروب المؤدية إلى الكهف، وهو يقف على صخرة مرتفعة قليلاً، متحفزاً لكل حركة..

وحدث ما لم يكن بالحسبان!.

فقد سمع عدة طلقات نارية من مكان بعيد، فلم يكثرث، لأن كثيراً من حراس المزارع اعتادوا أن يطلقوا النار بين الحين والآخر، تحذيراً للصمص الذين يكثر في موسم جمع الحمضيات، لكنه بعد قليل تحفز وصار أكثر

حذراً، عندما سمع عواء كلب يقترب، وكمن خلف الصخرة يراقب، ويده على الزناد..

ورأى الحارس ثلاثة جنود إنكليز، يقتربون من المكان، ومعهم كلب أثار، ولمح أحدهم يتحدث باللغة العبرية، ويشير لرفيقه باتجاهه، فأطلق الرصاص عليه، فأرداه قتيلاً، بينما لاذ الآخرون بالفرار..

وانتفض الرجال، وخرجوا بكامل أسلحتهم، يستطلعون الخبر، فلما أخبرهم الحارس بما حدث، حزموا أمتعتهم بسرعة، وتحركوا، ليلاقوا الشيخ القسام في الدرب القادم من زرعين، وما هي إلا ساعة، حتى ألقوه قادماً بصحبة محمود سالم المخزومي، فأخبروه بما حدث.

حوقل الشيخ عز الدين، وقال بنبرة مستسلمة..

- قدّر الله، وما شاء فعل..

وراح يمسّد لحيته في قلق، وهو يتفكّر فيما حصل:

- الإنكليز لن يسكتوا عن قتل الجندي.

وأردف وهو يتلفت حوله، يدرس تضاريس المكان..

- باتت معركتنا مع الإنكليز قريبة، وإن كنت أمل في وقت يؤخرها

حتى نحشد أكثر، فلنخطط للقاء عدونا، إن كتبت علينا هذه المواجهة..

واقترب أحمد عبد الرحمن حسن من قائده، يحاول أن يشرح له ما

حدث. ربّت القسام على كتفه في ودّ:

- هذا جهاد يا بني.. وأي واحد منّا كان سيتصرف مثلك، وهو يرى

العدوّ يقترب منه.

وتساءل عبد الله الزيباوي:

- ما هي الخطة الآن؟

- فلنغير مكاننا بسرعة.

- بأي اتجاه؟
- نعتصم بذلك الجبل. فإذا اقتربوا انسحبنا نحو المرتفعات القريبة.
- قال نمر السعدي:
- يسمونه جبل قود.
- المهم أنه مرتفع، ويجعلنا مشرفين على الدروب، لنرصد أي قوة قادمة.
- هيا بنا.



ووصلت برقية عاجلة إلى إدارة البوليس الإنكليزي..

- مقتل الشاويش اليهودي «موشيه روزنفلد» بطلق ناري غامض في جبل فقّوعة، ويظن بوجود عصابة مسلحة في المكان.

وتحرك «المستر رايس» نائب مدير البوليس الإنكليزي في القدس بنفسه، ليحقق في الحادث، واصطحب معه عدداً من ضباطه، وأعلن مفتش البوليس العام عن مكافأة قدرها مئتا جنيه، لأي شخص يقدم معلومات تؤدي إلى الفاعلين، وتحركت قوة من الخيالة الإنكليز، قوامها مئتا فارس، فانتشرت بين الأحرار والغابات، بينما كانت مجموعة القسام، تنسحب باتجاه الجبل.

ولدى معاينة المكان الذي قتل فيه «روزنفلد» اكتشفوا في الكهف الذي كان المجاهدون يبيتون فيه، ورقة فيها ثمانية أسماء، كان محمود سالم قد تركها في الكهف مع بعض متاعه، ولم تتح له الفرصة لالتقاطها، بسبب ما حصل، ولمّا قرأوا اسم الشيخ عز الدين القسام فيها، أرسلوها إلى القيادة الإنكليزية في حيفا، لمعرفة هوية أسماء الباقين، وكم كانت مفاجأة مثيرة لحليم بسطة وأحمد نايف، عندما وجدا أنّ كل الذين ذكروا في الورقة من تلاميذ القسام، ورفعوا تقريراً للضابط كلايتمان، يحذرون فيه من عمل تخريبي، قد يقوم به القسام وجماعته.

وتابع المجاهدون طريقهم فوصلوا إلى جبل «كفر قود»، بينما كانت قوة البوليس قد وصلت إلى الجبل المقابل، وأبلغ أحد رجال البوليس قائده عند الغروب بملاحظة حركة تبدو بين أحرار التلال القريبة، فأرسل قوة استطلاع تستكشف الوضع، فاشتبكت مع اثنين من المجاهدين، كانا

يتمركزان في أول الجبل، لتنبية بقية المجاهدين عند حصول أي هجوم، واستشهد محمد أبو قاسم خلف في الاشتباك، فكان أول الشهداء..

وانسحبت قوة الاستطلاع تحت وابل النيران، ومع هبوط العتمة، أمر قائد القوة البريطانية رجاله، بأن يكمنوا في أماكنهم، مؤجلاً الاشتباك مع المجاهدين حتى الصبح، خشية أن يطلق أفراد القوة النارَ على بعضهم أثناء قتال الليل.

وكانت أحمال المجاهدين ثقيلة، فكل رجل منهم كان يحمل بندقيته، مع ستين مشط فشك، وحرية صنعها لهم الشيخ القسام عند أحد الحدادين، بالإضافة إلى ما يحملونه من طعام وأغطية، يلتحفون بها من البرد.

واقترح عربي على الشيخ اقتراحاً استحسنه..

- أرى أن ننقسم قسمين، قسم يتابع معنا، وآخر يلتحق بالشيخ فرحان السعدي في وادي أحمر، وفي طريقه يقوم بتخريب سكك الحديد، ويقطع خطوط الاتصالات التابعة للإنجليز واليهود.

أطرق الشيخ عزّ الدين، وقد راودته المخاوف على هذه العصبة، التي تضيق حولها دائرة الشرّ، فوجد في اقتراح عربي منطقاً وجيهاً، لمواجهة القوة الضاربة للإنكليز بعصابات صغيرة، تكون أقدر على المناورة والحركة..

وأيد الاقتراح.. ففادرت المجموعة التي ستلتحق بالشيخ فرحان نحو الشمال، بينما بقي عربي البدوي مع مجموعة الشيخ القسام، التي توجهت نحو الغرب، وضمت أيضاً حسن الباير ونمر السعدي وعطيفة المصري وعبد الله الزيباوي وأسد مفلح ومحمد يوسف وأحمد جابر..

وتراكمت التقارير أمام الحاكم الإنكليزي، فاجتمع بأركانه لدراسة الموقف، وقد استقرت في ذهنه الخطوات، التي يجب أن تتخذ على الفور..

هذه الثورة لو نجحت، لكانت بداية بركان لا ينتهي من الغضب، يطيح بكل ما بناه الانتداب من تحضيرات لوطن قومي لليهود بات وشيكاً.. ووجه كلامه إلى كلايتمان:

- أريد حملة ضخمة للقضاء على هذا التمرد.. ارفعوا درجة الاستنفار لدى كامل قوات البوليس والخيالة في الشمال.. أبرقوا إلى القوات الحدودية التي ترابط في شرق الأردن، لتتحرك.. أبلغوا سلاح الطيران ليكون جاهزاً.. يجب أن نسحق هؤلاء المخربين، ليكونوا عبرة لكل من يفكر بحمل السلاح في وجه بريطانيا العظمى..

والتفت إلى حليم بسطة..

- كن حذراً في حيفا. فقد يتحركون هنا..

وأرسل أحمد نايف مع قوات الهجوم:

- هو أدرى بهؤلاء الأشقياء.

عند الشروق هاجمت قوة الخيالة جبل «كفر قود» فلم تجد أحداً، واستعانوا بكلاب الأثر لمعرفة وجهة القسام وجماعته، فتفرقت الكلاب بين الشمال والغرب.. فأعادوها:

- يبدو أنهم تحركوا في عدة اتجاهات ليشتتونا!.
- لنتنظر التعزيزات.. عندها نستطيع أن نطاردهم في كل الاتجاهات.
- ليترجل الفرسان، ويبحثوا في المكان عن أي أثر يدل على عددهم أو عتادهم أو جهتهم.
- أمرك سيدي.

ووصلت إلى دائرة بوليس نابلس إخبارية تشير إلى أن المجموعة وصلت إلى أحراش يعبد، فتوجهت الحملة البريطانية مع قوات البوليس إلى هناك..

- وانطلقت أصوات المكبرات في فضاء الغابة تنعق كالغريبان:
- سلم نفسك ياقسام.. أنت محاصر، ولا فرصة لك بالنجاة.. سلم نفسك قبل أن يبدأ الهجوم..

كان وقع الإنذار في نفس القسام مؤلماً.. كان يتمنى لو استطاع أن يمضي في خطته إلى آخرها.. ولكن قَدَّرَ اللهُ، والخيرة فيما اختار.. وتأمَّل في وجوه الرجال. قال، وهو يهيبُّ بندقيته للقتال:

- استعدوا يارجال.. هذا جهادكم قد بدأ، فاثبتوا، واعلموا أنّ الجنة تحت ظلال السيوف..

هتف عربي البدوي:

- يوجهون لنا الإنذار باللغة العربية.. ستلعن فلسطين هؤلاء الخونة،

الذين استأجر المحتل لسانهم العربي، وضميرهم الخرب، ليوجهوا لنا
أوامر الاستسلام!

وصاح عبد الله الزبياي:

- دعنا نبدأ بهم..

قال القسام بنيرة حازمة:

- بل سدّدوا باتجاه الأجنبي الذي استأجرهم، هذا عدوكم اليوم،

فاستعدوا، لتلقنوه درساً في البطولة والفاء.

وكرر النداء باللغة العربية..

- استسلم ياقسام.. النداء موجه للجميع.. من يستسلم يحقن دمه..

لا فرصة لكم بالنجاة، أنتم محاصرون من كل الجهات، فلا تنهروا أكثر.

ودار القسام دورة كاملة، يستطلع جبهة الحصار التي أحاطت بهم،

وهيأ بندقيته استعداداً للحرب، فتحرّكت الأصابع على نفس الإيقاع، وراحت

تلفّ أصابعها حول الزناد، بانتظار إشارة من القائد..

واستمرت نداءات القوة الإنكليزية، تدعوهم لإلقاء السلاح:

- نداء إلى جميع الأشقياء.. استسلموا قبل أن تحصدكم النيران..

وصاح نمر السعدي، وقد استفز الوصف روحه المتوثبة للاستشهاد..

- خستّم أيها الخونة.. قولوا لأسيادكم أنّا لن نستسلم.. نحن هنا

كهذه الأشجار.. نموت واقفين، ولا ننحني.. نحن أبناء هذه الأرض، وأنتم

الغزاة والسراق..

كانت كلمات نمر السعدي تنزل على روح القسام برداً وسلاماً، ولمعت

عيناه بدموع الفخر، ولاح له فجر عميق ينبثق من بين هذا الضباب، وصاح

برجاله في إباء:

- كلّ يأخذ المكان الذي يحميه، فقد يغدرون بكم في أي لحظة..

وتناول مكبر الصوت عربي آخر ممن يرافقون الحملة، وراح يردد بنبرة مترعة بالحقد:

- أنتم تجازفون برؤوسكم. نعرفكم واحداً واحداً. وسوف نقضي عليكم. ننصحكم بالاستسلام، فقد تكون لكم فرصة في العفو أو الحياة..
بصق نمر السعدي، وقال لأصحابه بنبرة احتقار:
- عرفته. هذا الخائن أحمد نايف، الذي كان يتجسس علينا في حيفا.. لييتي أتمكن من رأسه.

همس القسام، وقد تأكدت هواجسه القديمة:
- كنت أعلم أن الأعداء يحاولون أن يقتلونا بأنياب كلابهم من ضعاف النفوس.. ومن رحمة الله بنا أنا نقاتلهم اليوم في الميدان، بدلاً من أن يسترخصوا أرواحنا في سجونهم ومعتقلاتهم.
وشاهد القسام طائفة حربية إنكليزية، تحلق وتحوم فوق الأحراش، فابتسم.. قد تستطيع بريطانيا العظمى اليوم أن تهزمه، بما حشدت من العدد والعدّة.. لكنها لن تهزم فكره.. لقد زرع روح الجهاد في قلوب لن تركع.. وسوف تثمر ثورة بعد ثورة، حتى تغسل هذه الأرض من دنس الظلم والاحتلال..

ونعق غراب جديد، من غربان الانتداب..
- نداء إلى الشيخ عز الدين القسام.. استسلم قبل أن نطلق النار.
وهتف الشيخ بصوت هادر، يحاول أن ينال به من عجرفة هؤلاء الحمقى، الذين لم يدركوا بعد أن بذرة الجهاد قد أودعت في رحم هذه الأرض، وأن جنينها قد بدأ يتحرك، بعد أن دبت به الحياة..

- خستّم. لن نستسلم..

- الأحراش محاصرة من كل الجهات.

- قولوا لأسيادكم أيها الصغار.. لن نستسلم. لن نستسلم..
والتفت إلى رجاله بنبرة حاسمة:
- خذوا أماكنكم أيها الرجال.. هذا جهاد. نصر أو استشهاد.
قال له عبد الله الزيباوي، وهو يتخندق بين صخرتين:
- وما خرجنا إلا لهذا. يا مرحباً بالموت في سبيل الله..
وتابع القسام، وهو يلوح ببندقيته في إباء:
- أيها الرجال.. أبلوا البلاء الذي تنتظره منكم أمتكم، ولقنوا هؤلاء
الغزاة درساً، ليعلموا أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، ولن يرتاح فوق
هذه الأرض غاصب.
وكبروا بصوتٍ واحد..
وانهمر الرصاص، يكتب تاريخاً جديداً لشعب عرف طريقه، ولن يعود.

ساعدت كثافة أشجار يعبد على حركة الرجال، فناوروا في قتالهم، وأبدوا مهارة واستبسالاً أذهل أعداءهم، واستمر القتال ساعات طويلة، كان الشيخ عز الدين خلالها يتنقل بين الرجال، يشدّ من أزرهم، وهو يرمي تارة بالبندقية وتارة بالمسدس، وشفته لا تفتران عن التكبير والدعاء. وقفز عربي واقفاً، وراح يتحدّى رصاص الإنكليز المنهمر، وهو يصوب رمية باتجاه القائد الإنكليزي، فلما رآه القسام، هتف به بأعلى صوته:

- خذ الأرض يا عربي..

- أريد أن أموت شهيداً يا شيخنا.

- لن تموت شهيداً إذا متّ على هذه الحال، هذا انتحار يا بني..
ستموت منتحراً، إذا لم تأخذ الأرض حالاً.

واستجاب عربي لأوامر الشيخ، وهو لا يصدّق أنه ما زال حياً..

وأصدر الشيخ أوامره للرجال بالانسحاب إلى الخلف، والتوغّل داخل الغابة، وتمتروا خلف مجموعة من الصخور، فضيق الإنكليز عليهم الخناق، وأحكّموا الطوق إلّا من جهة الشمال المكشوفة، إغراء لهم بالانسحاب من هناك لاصطيادهم، ففطنوا لهذه الخدعة، ولم يستدرجوا لهذا الفخّ، واستمروا يقاومون حتى حلّ الظلام.

وحاولت قوة من الإنكليز الاقتراب لاخترق دفاعات المجاهدين، فثبتوا وصمدوا، وقتل شرطي إنكليزي وجرح آخر، وتقدمت مجموعة أخرى، ثمّ الثالثة، وفجأة.. تمكنت رصاصة آثمة من الشيخ عز الدين القسام، فأصابت الرأس الشامخ، واخترقت صلابة الروح، لترسم نموذجاً خالداً للمجاهد العنيد، الذي يأبى أن ينحني للظلم، أو يهادن العدوان.

وخضبت الدماء لحية الشيخ، وقبل أن يغلق جفنيه ليطوي كتاب عمره الحافل، كانت بقية من وعي تقاوم الموت الداهم، تريد قبل الرحيل، لو تقرأ بعض سطور المستقبل، الذي لم يكتب له أن يستكمل ملاحمه.

وتراءت له أطياف من نور، تتحرك نحوه في جلال!.

لعلها كانت ملائكة الرحمة، وهي تتسابق لاحتضان الروح النبيلة، التي صدقت ما عاهدت الله عليه، فتحملها إلى خالقها برفق، لتغتسل بالرحمات في ظلال العرش.

أو لعلها أطياف شباب تراءوا له من بعيد، وهم ينبثقون من وراء الغيب، ليلتقطوا الراية قبل أن تهوي، ويطمئنوا الشيخ الذي راهن على غرسه، بأن ثورته لن تذهب سدى، وسوف تظل خالدة في وجدانهم، تهيب بهم أن يتابعوا على الدرب الذي خطّه بدمه، وأن يحافظوا على الراية حتى يتحقق الحلم، وتعود فلسطين إلى مكانها الأثير، في حضن الشام الجريحة، التي فتكت مدى الغرباء بجسدها، وأدمت روحها، لتنهض من جديد، وتعود كما كانت دائماً، قلب الشرق الثائر ضد الطغيان، وموئل الأحرار الطامحين إلى الحرية في كل عصر وأوان.

وغادرت الروح عجلي إلى بارئها، مضمخّةً بعطر الثرى الحزين، وارتسمت على شفتي القسام ابتسامة رضّى، أذهلت كلّ من رآه!.. وهتف هاتف في السماء.. ثمة روح ترقى مسرعةً إلى خالقها، تستأذنه تعالى أن يقبلها في عليين، لتكون كما وعد سبحانه، مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

هزت ثورة القسام الإدارة البريطانية، وتوجس فيها اليهود مستقبلاً
عاصفاً، يزلزل تحت أقدامهم الوطن الموعد..

وتحرك زعيم الهستدروت «بن غوريون» مع عدد من أعضاء اللجنة
المركزية لحزب ماباي، لزيارة المندوب السامي الجنرال واكهوب، لتقصي
الوضع، وتقييم الموقف الذي أصاب اليهود بالذعر.
قال «بن غوريون» وهو يصافح الجنرال بحرارة:

- باسم الهستدروت وحزب ماباي، أهنيء حكومة جلالة الملك بالنجاح
الباهر، الذي حققه جنود بريطانيا العظمى.

رد الجنرال، وهو يدعوه للجلوس:

- كانت معركة قاسية على كل حال، لكننا قضينا على رأس التمرد.

قال بن غوريون، وهو يحك صدغه بسبابته، مدارياً قلقه:

- هذه أول مرة نرى فيها زعيماً في فلسطين، يموت من أجل قضية
تحرك الناس.

- ما يعزيني أنه ليس من فلسطين.

- تقصد..

- هو سوري كما تعلم.. غريب قادم من أقصى الشمال، وسرعان ما
سينساه الناس.

- لكنه مسلم سيدي الجنرال.. ينطلق من ثقافة المنطقة، التي

تتمسك بالدين، وترفض الخضوع.. لا تنس أن هذه البلاد كانت واحدة
لمئات السنين..

- رد الجنرال واكهبوب، وهو يقرأ القلق العميق في عيني بن غوريون:
- على كل حال هذا تطور خطير ندرسه الآن بعناية..
 - مقتل القسام يندرنا، بأن مستقبلنا هنا سيكون محفوظاً بالدماء.
 - القضاء على حركته بهذه السرعة يجب أن يطمئنكم.
 - أخشى أن الأمر ليس كذلك!.
 - عفواً؟.
 - العرب عاطفيون بطبيعتهم.. وسوف يلهم موته الكثيرين..
- وأردف بما يشبه الهمس:
- جنرال. عيوننا تفيد بأن لدى القسام جيش سري، لم يشترك في المعارك بعد.
 - لو كان ذلك صحيحاً، لتحرك جيشه أثناء المعركة، ليدافع عن قائده!.
 - الأمر أكثر تعقيداً جنرال. الشيخ القسام لم يكن يسعى للمعركة، ولو كان يقصد البدء بالمواجهة لحشد المئات.
 - على أية حال نحن بحاجة إلى إعادة تقدير للموقف، ولا بد من أخذ هذا التطور الخطير بالحسبان. أرجو أن ترسل رجالك، لينسقوا معلوماتهم وتقديراتهم مع السيد كلايمان، الذي يشرف على هذا الملف.
 - هزّ بن غوريون رأسه موافقاً. قال وهو يمسد شعر رأسه المتناثر كيفما اتفق..
 - أخشى أن الشيخ القسام قد فتح باباً، سيكون من العسير إقفاله.

جلست آمنة تتناول طعام الإفطار مع الأسرة، وهي في حالة من الفتور، ثم استأذنت فجأة، ودلفت إلى مخدعها قبل أن تنتهي من الإفطار، ولحق بها مصطفى، وقد شعر بانسحابها السريع، ليطمئن عليها:

- آمنة ما بك؟.

- أشعر بوهن وغثيان لا أدري مصدره!.

دار بخلد مصطفى أن هذا قد يكون عرضاً من أعراض الحمل، لكن تكرار أعراض الحمل الكاذب، التي كثيراً ما داهمت آمنة، جعلته يتراجع إلى وهدة اليأس، ويتجاوز هذا الاحتمال، فأمسك عن البوح بما خطر له، حتى لا ينكأ جروحاً لم تندمل، فقد أرقه تأخر حمل آمنة كل هذه السنين وأرقها، وأحدث بينهما أحياناً بعض النكد، بسبب وسوسة بعض الأقرباء له، بأن يتزوج عليها، أملاً بأن يأتي من غيرها بالولد.. ومع رفضه لهذا الأمر، إلا أن آمنة التي أحبته إلى درجة العشق، كانت توذّ لو فعل، ليحقق حلمه، ولطالما شجعتة على ذلك، لكنها كانت تتمنى أن يفعل ذلك فجأة، بدون علمها.. وعندما كان يظهر ليناً وميلاً لهذا الحل، كانت الغيرة الفطرية العارمة تستبد بها، فتلومه، وتشكك في حبه، وتذكره بدعوة الشيخ القسام لها، الذي كان يرضى حبهما، وكأنهما ولديه. وعرض مصطفى على آمنة أن تعود إلى النوم، حتى ترتاح، على أمل أن تستعيد نشاطها الداوي، وتستيقظ أكثر هدوءاً وإشراقاً، كما هي عاداتها عندما تستيقظ، وقد أخذت قسطها الوافي من النوم.. وقبل أن ينسحب، سمع طرقتاً شديداً على بوابة الدار، فأسرع يليي..

ووجد صديقه زاهد كنفاني، ومعه سيارة نقل امتلأت بالرجال..

- خير؟.

- اركب.

- إلى أين؟
- القسام استشهد.
- صدمه الخبر، وأصيب بالذهول..
- ماذا تقول؟
- كما أخبرتك. الشيخ استشهد.
- لا تقلها أرجوك..
- اركب حتى نلحق بصلاة الجنازة، ونودعه مع الشباب.
- تأمل مصطفى سيارة النقل، وقد اكتظت بالرجال والشباب، الذين امتزج الحزن في وجوههم بالغضب، ولاحت له الدموع في مآقيهم، وكان أحد الشباب يبكي بحرقة، فأجهش مصطفى، وركب على عجل..
- متى استشهد؟.. وكيف؟
- بالأمس. يقولون اشتبك في معركة طاحنة مع الإنكليز في أحراش يعبد.
- وحده..
- لا. كان مع مجموعة من الرجال، استشهد منهم اثنان.. عبد الله الزيباوي وسيد حنفي عطية.
- رحمهم الله..
- وأردف وهو يضرب جبهته في التياح..
- لقد خسرت فلسطين اليوم شيخها وقائدها..
- حيفا تغلي منذ الليل، والناس خرجوا بالآلاف.. وقد علمت أنا وصاحب السيارة بالخبر، عندما وصلنا بحمل البرتقال إلى سوق الحسبة، فأنزلنا حملنا بسرعة، ومضينا، ولم يلبث نصف السوق أن تعربش بالسيارة، وجاء معنا ليودع الشيخ القسام..
- يا لهذا اليوم الحزين..

حاولت أمانة أن تنام، لكن نوبة جديدة من الغثيان عاودتها هذه المرة بقوة، فنهضت وأسرعت إلى الخارج، وهي تخشى أن تغلبها نفسها، وتتقيأ، ولاحظت أم مصطفى حركتها، فلحقت بها..

- أمانة ما بك؟..

- أين مصطفى؟.

- خرج مع صاحبه.

اتكأت أمانة على الحائط، وهي ترتجف، وقد شحب لونها، فأوحى حالها لحماتها بخاطر لم تستبعده. بللت يدها، ومسحت وجه كنتها، ودعتها لأن ترتاح في مخدعها، ثم أسرعت إلى دار القابلة أم زهدي، التي تقع قريباً، ولم تلبث أن عادت مسرعة بصحبتها، ودهشت أمانة، وهي ترى أم زهدي تدخل عليها، وهي باشّة، ترقص الفرحة في عينيها..

- إذا صدقت حماتك فيما وصفت، فأنت حامل.

وقالت أم مصطفى، وهي تدخل خلفها:

- إن صدق كلامك هذه المرة، فلك جنيه من الذهب.

التفتت أم زهدي إلى أم مصطفى، وهي تجلس قرب أمانة..

- اذهبي وحضري الجنيه، فقلبي يحدثني أن الوصف يؤكد الحقيقة التي انتظرناها طويلاً.

- أحقاً؟..

همست بها أمانة، وقد أشرق وجهها بابتسامة تشعشع بالفرح، والتفتت

إلى خالتها..

- أريد مصطفى يا خالة. أين ذهب؟.

- سيأتي. ارتاحي الآن، ولا تتحركي..
- وعادت خالتها تستوثق من أم زهدي، وهي لا تكاد تصدق..
- أحقاً يا أم زهدي.. كنت أظن أن الأمر مجرد تعبٍ عارض.
- اتركيني معها لأتأكد.
- بشريني، ولك بدل الجنيه ثلاثة.
- الآن نعرف الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

بكت فلسطين كما لم تبك من قبل..

كلمات القسام الملتهبة التي غرسها في وجدان الناس، كتبت لها الحياة من جديد، وتحولت إلى عقيدة جديدة تحرك الأحرار، ليوажوها هذا الطفيان الذي يقترفه الإنجليز مع قادة الحلم الصهيوني وعراييه..

ولم يكن أهل حيفا يتوقعون ما حدث.. كان القسام في نظرهم خطيباً مفوهاً، وعالمماً يفتي في أمور الدين، ويبادر إلى حلّ مشكلات البسطاء وأهل الحاجات.. أما أن يتحول هذا الشيخ الأزهري القادم من شمال سوريا، إلى ثائر يحمل هموم فلسطين، ويقاقل حتى يقضي شهيداً على ثراها، فتلك كرامة لا تنبغي إلا لمجاهد كبير.

ولم تلبث الجموع، أن انهمرت من أعالي الكرمل، وتدفقت من المدن والقرى البعيدة.. وغصت شوارع حيفا بالناس، الذين هرعوا مفجوعين بالخبر الأليم، وأضربت المدينة إضراباً شاملاً، فأغلقت الحوانيت والمتاجر والمطاعم والمقاهي، وسدّ آلاف المشيعين الطرقات، وهم يهتفون ويكبرون، وراحت النساء يزغردن من السطوح والشرفات والنوافذ. والكشافة ينشدون أناشيد الجهاد..

وتابعت الجنازة سيرها، والتهافتات تدوي بقوة، وتنادي بالانتقام، وحدثت اشتباكات مع الإنجليز، فأصيب عدد منهم، وهاجم الجمهور الغاضب قطاراً يقل ركاباً يهوداً، متجهين من حيفا نحو مستعمرة «كريات حاييم»، فأرسلت تعزيزات جديدة من الشرطة تحسباً للمفاجآت.

ودمعت عينا الأستاذ أكرم زعيتر، الصحفي الذي طالما أعجب بالقسام، وهو يتأمل مريديه من الفلاحين والعمال والبسطاء والفقراء،

يتسابقون إلى حمل نعشه على أعناقهم، ليودعوه الوداع الأخير، فأيقن أن هذا الحب وهذا الحزن على القائد القسام، ما كان لولا أنه قد صدق فيما عاهد الله عليه، وعزز دعوته إلى الجهاد بالاستشهاد، فكان الرائد الذي لم يكذب أهله..

«رحمك الله يا شيخ عز الدين.. هذا أنت كما عهدتك دائماً، من خطيب مفوه تلهب المسجد، وأنت تعطي المنبر متكئاً على سيفك، إلى شهيد يتكئ على الأعناق، وقد روى دعوته بدمه، فإذا بك اليوم أخطب منك حياً»..

ووصلت صلاة الجنازة إلى بلدة الشيخ في طريقها إلى مقبرة الياجور، فاحتاط اليهود، وأقفلوا أبواب مستعمرة الياجور، وخلت الشوارع المؤدية لها من المارة خوفاً من غضبة العرب، ومرت سيارات محملة بالجنود البريطانيين، متجهة إلى المستعمرة اليهودية لتحميها، فعلا التكبير، وانهالت الحجارة على سيارات الإنجليز كالمطر، فأسرعت، تتفادى غضبة الألو، الذين كانوا يهدرون بهتاف لا يتوقف «ياقسام يا عز الدين.. يا شهيد فلسطين»..

وبكى أبو إبراهيم بصمت.. وقد أدرك حكمة القسام «رحمك الله أيها القائد.. دمك المسفوك في معركة العز والكرامة، أحيى الثورة في قلوب الألاف.. أعطى لكلماتك وخطبك في الاستقلال قيمتها ومعناها.. ورسم لهؤلاء الرجال الطريق إلى الحرية.. اجتهدت، فظننت اجتهادك اندفاعاً غير محسوب، فإذا بالإخلاص والتوفيق يحوله نصراً.. ويجعل من روحك وقوداً لثورة كبرى، أرجو أن تثمر بالنصر الذي حلمت به»..

ولقي أبو إبراهيم الحاج حسن حمادة، فهمس له على عجل.. «الاجتماع بعد العشاء في الكباير».. ثم مضى مسرعاً خلف الجنازة، مبتعداً عن الحاج، حتى لا يلفت إليه الأنظار..

ومرّ بالشاعر نوح إبراهيم، فألفاه يتوسط مجموعة من الرجال، وهو
يبكي ويردد..

عز الدين يا خسارتك
رحت فدا لأمتك
مين بينكر شهامتك
يا رئيس المجاهدين
عز الدين يا مرحوم
صوتك درس للعموم
آه.. لو كنت تدوم
يا رئيس المجاهدين

زغردت الداية أم زهدي، وقالت، وهي تخرج بصحبة أمنة..
 - مبروك يا أم مصطفى. يدك على الذهب.
 - هبت أم مصطفى، وهي تزغرد من شدة الفرح، واحتضنت أمنة،
 وراحت تمطرها بالقبلات..
 - مبروك يا حبيبتي.. صبرت، ونلت.. الله يكمل فرحتك، ونشوف ولد
 ولدك..

وتلفتت أمنة حولها..
 - ولكن، أين مصطفى؟
 وطرق الباب، فهرعت لتفتح..
 - هذا مصطفى. سيطير من الفرحة الآن..
 وهرعت أم مصطفى خلفها في توسل:
 - على مهلك يا أمنة. يجب أن تراعي الجنين الذي في بطنك.
 وألفت أمنة صديقتها القديمة لدى الباب..
 - خديجة؟!
 أجهشت، وارتمت على صدرها، تبكي بلوعة.
 - خديجة مالك؟.. ماذا حدث؟!
 - خبر لا يسرّ.
 - خبر؟.. تكلمي!
 - أتذكرين أستاذنا الشيخ عز الدين القسام؟
 - ماله؟!
 قالت بنبرة خنقتها العبرات..

- قتلوه يا أمانة. قتلوه.
- وقع الخبر على أمانة وقع الصاعقة. أحسّت بألم ممضّ يقرص أحشائها، فوضعت يدها على بطنها، فهرعت أم مصطفى وأم زهدي إليها، وقد أفزعتهما حركتها!.
- قتلوه؟. تقصدين أنه مات؟..
- هزّت خديجة رأسها، والدموع تنهمر من مقلتيها..
- استشهد بالأمس.. حاصره الإنجليز واليهود في جبال جنين، فقاومهم حتى استشهد.
- التفتت أمانة إلى خالتها أم مصطفى، وقد غارت فرحتها في أعماق الحزن، وأطلّ من بين الدموع ذهول كئيب.. همست في وهن، وهي تشير إلى خديجة.
- تقول لكِ الشيخ عز الدين مات؟
- الله يرحمه.
- مستحيل. القسام لا يمكن أن يموت.
- أمسكت أم مصطفى بيد كنتها جزعة، وراحت تمسّد كفها، تحاول أن تخفف عنها، بينما قالت أم زهدي، تحاول أن تصدمها بالحقيقة المرّة:
- كلنا سنموت يا ابنتي.
- صرخت أمانة، وهي تنفجر بالبكاء:
- إلا الشيخ القسام. يجب ألا يموت.
- فوجئت أم مصطفى بردة فعل أمانة، وتبادلت مع أم زهدي نظرة قلقة.
- وانفلتت أمانة من بينهما لترتدي ثيابها، وهي تبكي، وصوت نشيجها يشي باللوعة والأسى الذي يعتمل في داخلها، ولجّقت بها..
- إلى أين؟.
- إلى بيت القسام..

- لكنك متعبة وحامل، ويجب أن تراعي الذي في بطنك..
- نعلها إشاعة. أنا متأكدة من أنها إشاعة..
- مادام الأمر إشاعة، فلا داعي للعجلة. بعد قليل يأتي مصطفى،
ونتأكد من الأخبار.
- قالت بلهجة حاسمة:
- اسمحي لي يا خالتي. لا أستطيع أن أنتظر.
- وتوقفت آمنة للحظة، وهي تحكم الحجاب حول وجهها، وكأنها تذكرت شيئاً.. ارتجفت شفاتها، وهمست بنبرة واهنة، والدموع تغسل خديها:
- هذه دعوة القسام يا جماعة.. آخر مرة زرتهم فيها، سألته الدعاء..
دعا لي، وطلب منّي أن أكون مطمئنة، وقال: «أرجو أن تزفّي لنا قريباً
بشرى الحمل».. لكأنه كان واثقاً من دعوته!.
- وأجهشت بحرقّة، فضمتها خالتها، وهي تشفق عليها من الحزن،
ولم تلبث أن توقفت عن البكاء فجأة، وقالت:
- صدقوني هذه دعوة القسام.. هذه دعوة القسام، وقد استجيبت..
سأذهب لأبشره.. لأخبره بأنّي حامل.. حامل.. حامل..
- وارتمت على صدرها، وهي تبكي وتنتحب.



للتاريخ..

بعد مدة قصيرة على استشهاد هذا القائد
اندلعت الثورة الفلسطينية الكبرى..
وكان رجاله في مقدمة الصفوف
يقودون الجموع
ضد الانتداب الغاشم وعصابات المهاجرين
ويسطّرون أروع البطولات
ويكتبون على جبين الزمان
أنّ ما خطط له قائدهم قد أثمر، ولو لم يره
و ما زالت صرخته الصادقة في وجه الغاصبين
تتردد في تلك الرُّبى
لتوقظ النائمين
وتحشد الأحرار
ضد كل الغزاة

يرجو الكاتب من قرائه الأعزاء موافاته بملاحظاتهم
وأرائهم على الإميل التالي:

imadzaki@gmail.com

تمت في خريف ٢٠١٣